

القسم الأول

الجزائر

1  
2  
3  
4  
5  
6  
7  
8  
9  
10  
11  
12  
13  
14  
15  
16  
17  
18  
19  
20  
21  
22  
23  
24  
25  
26  
27  
28  
29  
30  
31  
32  
33  
34  
35  
36  
37  
38  
39  
40  
41  
42  
43  
44  
45  
46  
47  
48  
49  
50  
51  
52  
53  
54  
55  
56  
57  
58  
59  
60  
61  
62  
63  
64  
65  
66  
67  
68  
69  
70  
71  
72  
73  
74  
75  
76  
77  
78  
79  
80  
81  
82  
83  
84  
85  
86  
87  
88  
89  
90  
91  
92  
93  
94  
95  
96  
97  
98  
99  
100

# الفصل الأول

## الجغرافية والتاريخ

١

### الجغرافية<sup>(١)</sup>

تتوسط الجزائر في الشمال الإفريقي بين المغرب الأدنى : تونس شرقا والمغرب الأقصى : مراكش غربا ، ولذلك سماها جغرافيو العرب المغرب الأوسط . ويحدها شمالا البحر المتوسط ويمتد عليه ساحلها نحو ١٢٠٠ كيلومترا ، وهو ساحل صخري حجري ، ولذلك ثقل عليه - بل تنعدم - المخلجان العريضة ، وعلى منعطفات فيه أو خلجان صغيرة نشأت موانئ الجزائر ، وأهمها من الشرق إلى الغرب عنابة ( بونة قديما ) فإسكيكدة ، فجيبل ، فبجاية ، فدلس ، فالجزائر ( المدينة ) فشرشال ، فتنس ، فأزرو ، فوهران ، فالمرسى الكبير .

وتلى الساحل من الشرق إلى الغرب جبال أيدوغ المشرفة على عنابة ، ثم زكار والظهرة بين مدينة الجزائر وميناء أزرو ، ثم الطرارة إلى الغرب . وجنوب تلك الجبال تمتد من الشرق إلى الغرب سلسلة جبال الأطلس التلي بادئة بجبال مجردة ، فجبال الباور ، فجبال الجرجرة شمالا والبيان جنوبا ، فجبال تطرى وشمالها جبال مدينة البليدة ، ثم جبال الونشريس ، فجبال سعيدة ، فجبال الضاية ، فجبال تلمسان . وتكتظ مناطق تلك الجبال بسهول واسعة وعميون ونهيرات وبعض أنهار ، مما جعلها أوسع مناطق الجزائر عمراناً ، وإذا كان ساحل الجزائر يتميز بكثرة حدائقه وبساتينه فإن تلك المناطق التلية تتميز بغلاتها وزروعها وأشجارها المثمرة ومن أهم مدنها قالمة وقسنطينة في الشرق ، ومليانة جنوبي شرشال وتلمسان في الغرب .

وتمتد جنوب هذا الأطلس التلي هضبة كبيرة ، وهي قفار واسعة ينبت بها شجر الخلفا وعشب كثير في الربيع فتؤمها قطعان الأغنام والماشية من الجنوب للرعى حتى اقتراب زمن الشتاء ، فتنسحب إلى ديارها ومواطنها جنوبا . وتطوِّق الهضبة سلسلة جبال الأطلس الصحراوي ، ومن أهم أجزائها شرقا جبال أوراس ، وإلى الشمال من تلك الجبال جبال

لاين حوقل وكتاب الجزائر للأستاذ أحمد توفيق المدني ( طبع الجزائر ) وكتاب تاريخ الجزائر لمبارك الميلي ( طبع الجزائر ) ص ٢٧ وما بعدها ومادة الجزائر في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في جغرافية الجزائر كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبي عبيد البكري وصفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ( مقتبس من نزهة المشتاق لإلادريسي ) طبع ليدن ، وكتاب صورة الأرض

الحضنة ، وأنشأ في أحد سهود خليفة الفاطمي المهدي مدينة المسيلة ( المحمدية قديما )  
وشرقي سهلها خرائب مدينة طُنبَة عاصمة الزاب أيام الدولة الأغلبية التونسية ، وإلى الجنوب  
من المسيلة قلعة بنى حماد عاصمة دولتهم . وإذا مضينا بعد جبال الأوراس غربا في سلسلة  
جبال الأطلس الصحراوية لقيتنا جبال الجلفة ، فجبال عمور ، فجبال القصور . وجبال هذه  
السلسلة أعلى وأضخم من جبال الأطلس التلي وكثير منها جبال جرداء .

وإذا أخذنا من هذه الجبال نحو الجنوب لقيتنا الصحراء الكبرى ، ويسمى القسم الشرقي  
منها أرض تُقرت ، وبه واحات متناثرة تكتظ بالنخيل وبعض الأشجار المثمرة ، وإلى الغرب  
من هذه القسم الصحراوي الشرقي أرض مزاب وعاصمتها غرداية ، وهي أكثر جدبا من  
القسم الشرقي ، وإليها هاجر الإباضيون حين دالت دولتهم في تاهرت ، وقد حفروا بها آلاف  
الآبار ، وأحالوا بقاعا منها كثيرة إلى واحات غنية بالنخيل والحدائق والبساتين ، وبذلك بثوا  
فيها غير قليل من الحياة والحضارة والعمران .

والأمطار تبدأ في الجزائر منذ شهر أكتوبر وتزخر في شهر يناير بالمنطقة الساحلية ومنطقة  
الأطلس التلي ، وتأخذ في القلة بالهضبة الوسطى بين سلسلتى جبال الأطلس التلية والصحراوية ،  
وتكاد تنعدم في أكثر أجزاء الأطلس الصحراوي وجنوبيه في الصحراء الكبرى . ولقلة الأمطار  
داخل الجزائر لم تتكون بها أنهار كبيرة ، إنما تكونت غالبا نهيرات ومجار للمياه قصيرة ،  
وهي جميعا لا تجرى إلا في الشتاء فضل الأمطار، ومنها مايتجه إلى البحر المتوسط ، وقد تتجه  
إلى البحيرات المالحة في الهضبة أو إلى الصحراء حيث تغيب في طبقات الرمال . وأهم أنهارها  
مجردة في الشرق ، وينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب ، وهو كثير المنحرجات في مجراه  
الجبلي ، ويخترق شرقي الجزائر متجها إلى الديار التونسية حتى مصبه بالقرب من قرطاجنة في  
البحر المتوسط ، ويعد نهرا تونسيا أكثر منه جزائريا لمسيرته الطويلة في الديار التونسية . وأطول  
أنهار الجزائر الداخلية نهر شلف وينبع من جبال عمور في الأطلس الصحراوي ، ويتجه إلى  
الشمال ، وترفده نهيرات كثيرة ، ويخترق منطقة الأطلس التلي ، ويتجه شرقا ثم يغير اتجاهه  
إلى الشمال ، وعند مدينة مليانة جنوبي شرشال يتجه إلى الغرب حتى مدينة مستغانم ويصب  
في خليج أزرو . ووراء هذين النهرين الكبيرين نهيرات كثيرة أو أنهار ومجار صغيرة منها  
نهر سيوز التابع من الجبال المتاخمة لقسنطينة ويصب في البحر المتوسط بالقرب من عنابة ،  
ونهر العروش ومصبه بالقرب من إسكيدة ، ونهر الرمل أو الوادي الكبير ويرفده يومرزوق  
المخترق لقسنطينة ويصب شرقي جيجل ، ونهر الصمام ومصبه بالقرب من بجاية ، ونهر  
حميز ومصبه في خليج مدينة الجزائر ، ونهر الحراش ويخترق سهول المتيجة ومصبه قرب من  
مدينة الجزائر إلى غير ذلك من نهيرات ، كلها غير صالحة للملاحة . والنهيرات الداخلية ، منها

نهر جدى الذى يمر بمدينة الأغواط ويصب فى بحيرة ميخليج، ونهر ميا ومصبه سيخة ورقلة إلى غير ذلك من نهيرات داخلية ، وتجه إلى الصحراء الكبرى نهيرات كثيرة، تغيب فى الرمال ومنها تنبع فى الصحراء الآبار الفوارة الارتوازية.

ووراء الموانى على الساحل سهول تُعد لنمو أشجار النارج والليمون والفواكه ، وفى الأطلس التلى سهول واسعة متقطعة ، تزرع بها الحبوب والفروس ، وأكثر سكان الجزائر يعيشون من خيراتها . وتتسع السهول جنوبى عنابة ومدينة الجزائر وفى تلمسان ، وتزرع الحبوب فى وديان الأطلس التلى ، ومن أهم مناطق زراعتها شرقى الهضبة بين ذراعى الأطلس التلى والأطلس الصحراوى ، وبالمثل منطقة وهران والقسم الغربى من الجزائر . ولاختلاف الطقس فى الجزائر تلقاك على جبالها وسفوحها أشجار مختلفات ، ففى السفوح النخيل ، وفوقها أشجار الفواكه من مثل التين والخوخ ، وفى أعلاها أشجار الزيتون والنقل . وتشغل الغابات مساحات شتى فى الأطلس التلى وجبال أوراس الصحراوية ، وعليها جميعا فى أماكن مختلفة تترأى أشجار القرو والأرز والصنوبر وخاصة فى جبال الأوراس والونشريس . ويكثر النخيل فى الواحات ومعه بعض الفواكه وخاصة فى بسكرة . وفى الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والأطلسية الصحراوية بحيرات عدة ، من أهمها بحيرة الحضنة .

والطقس على الساحل الجزائرى معتدل مثل سواحل البحر المتوسط عامة ، والسهول الداخلية وراء وهران حارة جافة . وجبال الأطلس التلى معتدلة صيفا باردة شتاء ، والتلوج تتوج الجبال أحيانا فى الشتاء ، وتتجمد المياه فى قسنطينة نحو شهرين كل عام . ومناخ الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والصحراوية قارى ، شديد البرد شتاء شديد الحر صيفا . ومناخ جبال الأطلس الصحراوية والنواحي الجنوبية المنحدرة منها والمترامية فى الصحراء شديدة البرد شتاء ، وتشتد الحرارة فى الصحراء بالصيف شدة لا تطاق .

## ٢

### التاريخ<sup>(١)</sup> القديم

يتوغل تاريخ الجزائر فى العصور القديمة السحيقة إلى آماذ بعيدة ، ويأخذ هذا التاريخ فى الجلاء والوضوح مع ارتياد الفينيقيين الشاميين لسواحل إفريقيا فى القرن العاشر قبل الميلاد وقبله وبعده بحثا عن مواقع تصلح لرسو سفنهم التجارية ونزولهم بها لتبادل سلع التجارة مع

(١) وتاريخ الجزائر القديم والحديث لمبارك الملى : الكتاب الأول فيه وأبوابه الثمانية .

(١) انظر فى تاريخ الجزائر القديم والحديث تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دوز ( طبع القاهرة ) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى ( طبع دار المعارف بالقاهرة )

السكان . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا عريقا يحترف التجارة ، ومضوا طويلا يتعرفون على المواقع التي تلائمهم فى سواحل إفريقيا ، وبمرور الزمن ودوراته المتعاقبة أقاموا مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية ، ونزلت فيها منهم جالية فينيقية كبيرة ، وأدامم البحث عن أماكن صالحة مماثلة فى شمالي الجزائر لتبادل السلع مع السكان إلى موقعين مهمين هما بونة ( عنابة الحالية ) وجيجل ، وأضافوا إليهما - فيما بعد - مواقع أو مدنا جديدة هى إسكيددة وبجاية وشرشال ، واتخذوا من سكانها جميعا إدارات تدين لهم بالولاء ، واختلطوا بهم وبثوا فيهم حضارتهم الفينيقية ، ونقلوا إليهم - كما نقلوا إلى قرطاجة وإقليمها - من ديارهم الأصلية فى الشام أشجارا متنوعة من الفاكهة والنقل ، وعلموا كثيرين من أهل الجزائر لغتهم وما استحدثوه من حروف الكتابة الفينيقية التى نشرها فى العالم القديم .

ولما نشبت الحرب بين قرطاجة وروما وظلت طويلا من سنة ٢٦٤ حتى سنة ١٤٦ قبل الميلاد استطاعت روما أن تستميل سكان الجزائر وملكهم ماصينصا ، حتى إذا علت كفتهم فى الحرب وتغلبوا نهائيا على القرطاجيين فرضوا على الجزائر وماصينصا ملكها الولاء لهم ، ورضخ إلى أن قضى نجبه ، وخلفه ابن أخته يوغورطة وكان بطلا مغوارا ، فأنف من التبعية للرومان ونالهم مرارا ، غير أن صهره ملك موريتانيا خانة وسلمه إليهم سنة ١٠٦ قبل الميلاد . وحكم بعده ملوك أو أمراء جزائريون كانوا يعدون موظفين رومانيين أكثر منهم حكاما جزائريين ، ومن أهمهم يوبا الأول وابنه يوبا الثانى الذى نشأ فى روما حتى أصبح كأنه مواطن روماني ، وجعلوه ملكا على نوميديا أخذوا من اسم كان يطلقه الجزائريون على القسم الشرقى من ديارهم أو لعله اشتق من لفظة نوماد الإغريقية وتعنى الرعاة الرحل ، واتخذ شرشال عاصمة له ، وضموا إليه - فيما بعد - موريتانيا الشرقية والغربية من وهران فى غربى الجزائر إلى أقصى بلاد المغرب على المحيط الأطلسى ، ولم يلبث الرومان بعده أن ضمّوها إلى إمبراطوريتهم ، وأخذوا يولون عليها حكاما رومانيين تابعين لروما أو لحاكم قرطاجة الكبير . وتوغلوا فى ديارها جنوبا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ماأسسوه من مدن فى الداخل إلى مسافات بعيدة عن الساحل مثل تبسة الواقعة على بعد ١٥٠ ميلا جنوبى جيجل وبها أطلال لمبنى كان يقوم على أعمدة رخامية ، ويقول الحسن الوزان : على تلك الأعمدة كتابات لاتينية ، وكان اسمها الرومانى نيفسته ، وفى شماليها الشرقى واحة بسكرة ، واسمها الرومانى فيسكرا وهى قرية جزائرية عتيقة . وجنوبى بسكرة نفطة وبها آثار وأطلال رومانية ، وإلى الجنوب من جيجل فى الداخل قسنطينة وكان اسمها أيام الفينيقين سرتا ، وكانت بها أسرة سيفاكس التى أسست لها مملكة فى الجزائر ، ومنها انحدر ماصينصا الذى وضع يده فى يد الرومان - كما أسلفنا - للقضاء على القرطاجيين ، وخرّبت سرتا فى بعض ثورات الجزائريين على الرومان ، وأعاد الرومان بناءها فى عهد الإمبراطور قسطنطين ( ٣٠٦ - ٣٣٧ م ) . وسموها قسطنطينة وسمّاها العرب قسنطينة ،

والأطلال والآثار الرومانية كثيرة في مدن الجزائر الداخلية . وأرهب الرومان الجزائريين طوال حكمهم بـصـور شتى من العسف والظلم والضرائب الفادحة مع نهب طبيبات الأرض من الحبوب والزيتون . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمي أخذت في نشرها بإمبراطوريتها والجزائر ، وساعد على انتشارها فيها الجاليات والأسر الرومانية التي استوطنت المدن الجزائرية ، فبُنيت الكنائس والأستقبليات في غير مدينة لا في المدن الساحلية فحسب ، بل أيضا في المدن الداخلية مثل قلعة جنوبي عنابة ( بونة قديما ) وبها آثار رومانية ، ومثل بسكرة وكان بها أسقفية ، واشتهر في تلك المدن بعض القديسين مثل أوغسطين قديس بونة في القرن الرابع الميلادي ، ويُعدُّ بمواعظه ومؤلفاته من أكبر آباء الكنيسة ووعاظها البارعين .

ومع نهاية العقد الثالث للقرن الخامس الميلادي تكتسح البلاد موجات الوندال التي قضت على الدولة الرومانية الغربية ، وتظل نحو مائة عام تخرب في الجزائر وتدمر كل ما أسسه بها الفينيقيون والرومان من منشآت العمران والحضارة إلى أن خلصتها منهم الدولة البيزنطية سنة ٥٣٤ للميلاد على يد القائد البيزنطي المشهور بليزير ، وأصبحت الجزائر - من حينئذ - تابعة لتلك الدولة ، ولم تحاول أن تنتشر بها لغتها اليونانية على نحو ما نشر بها الرومان لغتهم اللاتينية وظلت هي المسيطرة في البلاد طوال العهد البيزنطي . وكان عهدهم لا يقل عسفا وظلما عن عهد الوندال ومن قبلهم الرومان ، وكانوا يحكمون الجزائر بولاية تابعين لحاكم قرطاجة الكبير الملقب بالبطريق ، وكان اسمه بأخرة من عهدهم جريجوريوس ، وسماه العرب جرجير ، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب منها على أكبر دُرَّتَيْن في تاجها : الشام ومصر صمَّم على الاستقلال عنها بما تحت يده من إفريقية التونسية والجزائر وقامت خصومة عنيفة بينه وبين الدولة البيزنطية وخلع طاعتها وضرب الدنانير باسمه .

### ٣

#### الفتح والولاية - الأغالبة - الإباضية - تلمسان ( أ ) الفتح<sup>(١)</sup> والولاية

بينما جريجوريوس غارق في حلمه بتكوين دولة له مستقلة في البلاد المغربية إذا عمرو بن العاص والي مصر لعمر بن الخطاب يقدم على رأس جيش عربي مجاهد في سبيل الله لتعقب الروم في برقة وديار المغرب تأميناً لحدود مصر في أواخر سنة ٢١ للهجرة ، وسرعان ما يستولى على برقة وزويلة حاضرة فزان سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢م وبعد أن رتب شئون الحكم فيهما تقدم غرباً

(١) للبلادري ومقدمات كتاب رياض النفوس للمالكي، والجزء الثاني من تاريخ المغرب الكبير لمحمد علي دبور وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الملي.

(١) انظر في الفتح والولاية: فتوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم والكامل في التاريخ لابن الأثير، والبيان المغرب لابن عذاري، وتاريخ ابن خلدون، وفتوح البلدان

فتتح طرابلس سنة ٢٣ هـ/٦٤٣ م . ويعود عمرو إلى مصر ويتوفى الخليفة عمر ويخلفه عثمان فيولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح ويستأذن عثمان فى غزو إفريقية التونسية ، وأذن له ، وانضم إلى جيشه بعض أبناء كبار الصحابة ، ودق الجيش أبواب إفريقية التونسية سنة ٢٧ هـ/ ٦٤٧ م واستولى على مدينة قابس . وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لا بد أن يغزوا دياره وكان قد ترك عاصمته قرطاجة واحتفى بمحصن أنشأه الروم فى الداخل جنوبى القيروان يسمى سبيلة خوفاً من أن يهاجمه بقرطاجة أسطول الروم ، وجمع إليه جيشاً ضخماً من الروم وغيرهم استعداداً للمنازلة العرب وسرعان ما أداروا معه معركة حامية ، ودارت عليه وعلى جيشه الدوائر وقتل فى المعركة ، قتله عبد الله بن الزبير ، وكانت معركة حاسمة ، قضت على الروم فى إفريقية التونسية وفتحت بلدانها أبوابها للجيش العربى إلا ما كان من قرطاجة فقد ظلت بها حامية رومية ، ورجع ابن أبى سرح إلى مصر وترك عليها نافع بن عبد القيس الفهمرى ، ويولى عليها عثمان سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حُديج ، ويبدو أنه عاد منها أيام فتنة عثمان ، وأعادها إليها معاوية بن أبى سفيان ، فنزل الروم فى بنزرت وركبوا البحر فأرّين ، وولاها بعده معاوية عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ/ ٦٧١ م وكان قد شهد فتح برقة وطرابلس وقابس والديار التونسية ، وكان قائداً حربياً ممتازاً بعيد النظر ، فرأى أن يتخذ لجيشه العربى مدينة تكون مستقراً له وداراً لا يرحها ، وأخذ توافى فى بناء مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥ هـ/ ٦٧٦ م وبنى بها المسجد الجامع ودار الإمارة ودوراً لقواده وجنوده ، وبنى حولها سوراً منيعاً ، وأصبحت عاصمة للمغرب . غير أنه لم يلبث أن عُزل وولى المغرب بعده أبو بعبارة أدق إفريقية التونسية أبو المهاجر ، وصمم على فتح نوميديا أو القسم الشرقى من الجزائر ، وتقدم فيه بجيشه حتى بجاية ، وواصل سيره إلى مورتانيا الشرقية حتى تلمسان ، وهو ينشر الإسلام ، وسكان الجزائر يقبلون عليه .

ومضى يتغلغل فيها وكانت الزعامة بها حينئذ لقبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، وكان قد جمع الجموع من البربر والروم ، والتقى به أبو المهاجر فى تلمسان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انهزم فيها جيش كسيلة ، ووقع فى الأسر ، فعامله أبو المهاجر معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام ، وأخذت أفواج من قبيلته الكبيرة تدخل فيه . وعُزل أبو المهاجر سنة ٦٢ هـ/ ٦٨٣ م وتولّى مكانه عقبة بن نافع ، وكان قائداً حربياً باسلاً ، غير أنه لم يكن سيوساً ، فأساء إلى كسيلة مما جعله يصّر على الانتقام منه ، واستخلف عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوى وخرج إلى الجهاد فى سبيل الله ، فاتحهم بلاد الزاب فى وسط الجزائر بحالفه النصر ، ومضى يفتح بقية الجزائر والمغرب الأقصى حتى طنجة قاعدته ، وفتح السوس الأدنى والأقصى واتجه إلى المحيط فلبّ قوائم فرسه منه ، ونادى ربه قائلاً : « اللهم إني أشهدك أنى وصلت برابة الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعبد أحد سواك » وفى عودته رصده كسيلة وقومه ، حتى

إذا تقدم جيشه وبقي في جمع قليل حاصره واستشهد البطل المغوار هو ومن معه سنة ٦٢٣ هـ . ومضى كسيلة بجموعه حتى استولى على القيروان ونصب نفسه ملكاً على البلاد ، وتراجع زهير بن قيس إلى برقة منتظراً لمدد ضخم ، وكان قد توفي يزيد بن معاوية واضطربت الأمور حتى إذا أصبح زمام الخلافة بيد عبد الملك بن مروان أرسل إليه جيشاً وولاه على المغرب سنة ٦٩ هـ / ٦٩٠ م وواقع كسيلة ، وأنزل الله نصره عليه وعلى المسلمين وقُتل في الواقعة كسيلة المرتد الباغي الأثيم . ورأى زهير بعد هذا النصر العظيم أن يعود إلى المشرق ، وبينما هو في نفر قليل من أصحابه عند برقة - وقيل عند طرابلس - إذ هو يرى بعض سفن الروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين فلزلهم وكتب له عند ربه الشهادة .

وفي سنة ٧١ يرسل عبد الملك بن مروان إلى المغرب حسان بن النعمان أحد ولاة القيروان العظام في القرن الأول الهجري ورأى في بدء حكمه بثاقب بصيرته أن البلاد لن تهدأ مادامت قرطاجة لم تستسلم ومادامت بها الجالية الرومية الكبيرة التي تنزلها ، والتي تتجسس منها لحساب بيزنطة والتي تعيث وتفسد في البلاد موجرة صدور البربر على العرب بكل وسيلة ، فحاصرها وافتتحها وفرت كثرة الروم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وهدم أسوارها حتى لا يجمعوا فيها محتجين مرة ثانية ، وطهر ميناء بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم ، وفرض الجزية على من بقي على دينه المسيحي منهم ومن البربر . ومنذ أوائل عهده اشتعلت فتنة كبرى بقبيلة جراوة من قبائل زنانة بجبال أوراس في الجزائر بزعامة كاهنة هناك ، ونازلها بجيش جرار قرب باغاية شمالي جبال الأوراس وانهزم المسلمون وطاردتهم حتى قابس ، ومكث بمدينة سرت في ليبيا خمس سنوات ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك ، وجاءه مدد ضخم سنة ٨٠ واشتبك مع الكاهنة في حرب ضروس بجبال الأوراس ، حتى كانت الموقعة الفاصلة فانهمزت الكاهنة مع جيشها ، وولت وجهها نحو تبسة هاربة ولحقتها كتيبة فتكت بها ، واستأنس إليه من بقي من جيشها على الإسلام فأمنهم وأمن سكان أوراس الجزائريين جميعاً على أن يكون منهم اثنا عشر ألفاً مجاهدين معه ، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم وولّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس ، وأكرمهم وأكرم أبناء الكاهنة ، فملك قلوب الجزائريين وساد الأمن والهدوء . وكان حسان سيوسا ، فنظم البلاد تنظيمًا إداريًا وماليًا محكمًا إذ دوّن الدواوين : ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل . وأصلح القنوات للري ، وأقام لإفريقية التونسية ميناءً جديدًا ليكون قاعدة لأسطول لها يحمي السواحل من غزوات الروم ، مما جعله ينشئ مدينة تونس ، ويلحق بها دار صناعة كبرى ، وسرعان ما أنشأ أسطولاً ضخماً وضرب للبلاد سكة جديدة .

وخلفه موسى بن نصير سنة ٨٦ فعمل على استكمال نشر الإسلام في ربوع المغرب ، وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ثم قام بحملته الكبرى فاكسح بلاد المغرب حتى طنجة وإقليم

السوس ، وولى على طنجة طارق بن زياد مولاه البربري . وكان يترك في النواحي التي لم يتم إسلامها من يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم كثير من البربر في أيامه . وأتم التنظيم الإداري لبلدان المغرب ، فقسمه إلى ولايات ولكل ولاية قاعدتها وحاكمها ، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة ، وغربي المغرب الأوسط ( الجزائر ) عاصمته تلمسان ، وشرقي المغرب الأوسط ( إفريقية التونسية ونوميديا الجزائرية وطرابلس ) عاصمته القيروان ، وجعل لبلاد السوس جنوبي المغرب الأقصى ولاية مستقلة عاصمتها سجلماسة ، وجعل إقليم برقة ولاية مستقلة عاصمته برقة . وقام بعمل عظيم مع مولاه طارق والى طنجة إذ فتحا إسبانيا ونشرا الإسلام بها في إقليمها الجنوبي والأوسط المسمى - فيما بعد - باسم الأندلس ، وهو شرف للبطلين لا يماثله شرف .

وعزل الخليفة سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير . ويعد عهد موسى بن نصير نهاية الفتح العربي للربوع الغربية ونشر الإسلام في جميع أرجائها . وقد خلفه محمد بن يزيد مولى قريش سنة ٩٧ للهجرة وكان حسن السيرة - كما يقول الرقيق القيرواني - عادلا رفيقا كل الرفق بالرعية . ويصبح عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين سنة ٩٩ فيصلح أداة الحكم في الدولة ، ويرسل إلى إفريقية والقيروان بعثة من عشرة فقهاء ليعملوا على نشر الدين الخفيف في الديار المغربية واختار أحدهم وهو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبي المهاجر والى القيروان بين فترتي عقبة بن نافع الذي فتح المغرب الأقصى ونشر به الدين الخفيف ، وكان الخفيد مثل جده تقوى وسياسة حكيمة ، فأصلح الجباية بالمغرب وسوى فيها - كما أمر عمر بن عبد العزيز - بين البربر والعرب ، وعمل بقوة - مع زملائه الفقهاء التسعة الذين أرسلهم معه عمر - على نشر الدين الخفيف في المغرب ، ودخله منهم أفواج لا تكاد تحصى . وتوفى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ للهجرة ، وخلفه يزيد بن عبد الملك ، فعاد ولاته إلى الخسف والظلم في جمع الضرائب والأموال من الولايات المغربية ، وقد اختار للمغرب يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ فساس المغرب بسياسة الحجاج العاشمة التي قامت على التفرقة بين العرب والموالي المسلمين في العراق ، غير ملاحظ أن أهل المغرب من البربر انتظموا في سلك الجيوش التي أتمت فتح المغرب الأوسط والأقصى وأنهم كانوا الأكثرية في الجيش الذي فتح إيبريا وأدخل الشطر الأعظم منها في الدين الخفيف ، وبذلك أصبحوا - بالقياس إلى العرب - رفقاء سلاح وجهاد ، ولم يلبث البربر أن أجمعوا على قتله ، فقتلوه سنة ١٠٣ للهجرة ، وكان ذلك درسا ليزيد بن عبد الملك ، فولّى على المغرب في نفس السنة بشرّ ابن صفوان الكلبي ، وكان رعوفا بالرعية ، وأرسل حملة من العرب وإخوانهم البربر لغزو صقلية سنة ١٠٧ وعادت الحملة بغنائم وفيرة ، وتوفى سنة ١٠٩ للهجرة ، فولّى هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمى سنة ١١٠ وأخذ البربر بالرفق والمعاملة الحسنة ، وأرسلت

حملة إلى صقلية وعادت في ربيع عاصفة فغرقت كثرة منها . وتولى بعده عبيد الله بن الحبحاب سنة ١١٤ للهجرة ، فأعاد بناء جامع الزيتونة بتونس الذي بناه حسان ، ولم يلبث أن أساء السيرة هو وعماله في جميع أنحاء المغرب ، إذ تشددوا في جمع الخراج وجباية الأموال من البربر ، ورفضوا - في إصرار غريب - التسوية بين العرب والبربر في الشئون المالية كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، وبلغ من تهور عامل طنجة عمر بن عبيد الله المرادى وسفهه أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضي البربر زاعماً زعماً أنها فيءٌ للعرب وغنائم حرب لهم .

وكان طبيعياً أن يثور البربر على هذه السياسة الغاشمة الظالمة ، وكان دعاة الخوارج صُفْرِيَّةً وإباضيةً قد أخذوا ينشرون في المغرب مبادئهم التي تحتم التسوية بين العرب والموالي المسلمين في جميع الشئون المالية وفي الخلافة فهي حق لجميع المسلمين بحيث يتولاها أكفأهم جميعاً عرباً وموالى . واعتنق البربر في جبل نفوسة بليبيا العقيدة الإباضية المعتدلة التي لا يكفر أصحابها إخوانهم المسلمين ولا يقاتلونهم إلا إذا بادروهم بالقتال ، بينما اعتنق المغرب الأقصى عقيدة الصُفْرِيَّة الذين يكفرون غيرهم من المسلمين ويوجيئون على أنفسهم حربهم ، وتزعم الدعوة لتلك العقيدة بالقرب من طنجة على المحيط بربرى من قبيلة مضغرة البُتْرِيَّة يدعى ميسرة ، وبايعه البربر واتخذوه إماماً لهم ، وكوّن منهم جيشاً ضخماً احتلّ به طنجة سنة ١٢٢هـ/٧٣٦م وقتل عاملها الغشوم عمر بن عبيد الله المرادى . ولم يلبث أن هُزم في بعض معاركه مع جيوش ابن الحبحاب فظن به بعض أنصاره الخيانة فقتلوه ، وولت الصُفْرِيَّة في المغرب الأقصى عليها خالد بن حميد الزناتى سنة ١٢٣ إماماً لها وقائداً ، وأخذ يعدّ العدة للقاء جيش ابن الحبحاب ، والتقى به في الجزائر على نهر شلف شمالى تيهرت ، ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة كان النصر فيها حليف الصُفْرِيَّة وقتل فيها كثيرون من أشرف العرب ، ولذلك سُميت معركة الأشراف .

ويعزل هشام بن عبد الملك ابن الحبحاب ، ويولى المغرب كلثوم بن عياض القشيري وشدّ أزره بإبن أخيه بلج بن بشر ، ويقدمان إلى المغرب الأقصى في جيشٍ ضخّم ، ويديران مع خالد بن حميد إمام الصُفْرِيَّة جنوبي طنجة معركة ضارية ، ويهزمان ويتوفى كلثوم ، فينسحب بلج ببقية جيشه إلى مدينة سبتة ، وتحاصره الصُفْرِيَّة فيها وتشدد الحصار ويضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس ، ويثور البربر في المغرب بجميع دياره . ويولى هشام عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وأمدّه بجيش جرّار . وعرف أن قائدين صُفْرِيَّين هما عكاشة بن محصن الفزاري وعبد الواحد بن يزيد الهوارى حشداً جموع الصُفْرِيَّة في الزاب بالجزائر لحره ، واتفقا أن يسيرا في طريقين لمهاجمة القيروان : عبد الواحد من الشمال وعكاشة من الجنوب ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع بقاء عكاشة ومزق جيشه ، وأخذ يستعد في القيروان لمنازلة عبد الواحد ، واستثار الفقهاء لحره ، فانضموا إلى جيشه ووزع عليهم السلاح ، وبرزت النساء مع الجيش حاملات السلاح وامتلاً الجيش حمية ، ودارت المعركة فسُحق جيش عبد الواحد

وحملت رأسه إلى حظلة فخرًا لله ساجدًا . وقُتل الوليد بن يزيد الخليفة الأموي سنة ١٢٦م فأحسنَّ عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بدنوَّ أجل الدولة الأموية فأعلن الثورة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م وكان حظلة تقيا فكره أن يتقاتل المسلمون وعاد إلى المشرق . ولما أصبح صولجان الخلافة بيد مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م أقر ولاية عبد الرحمن بن حبيب على المغرب ذرِّعًا للفتن هناك ، ولأنه أعلم من غيره بشؤونها إذ هي داره ودار جده عقبة بن نافع ، وثارت الإباضية بطرابلس سنة ١٣٠ بقيادة عبد الله بن مسعود التجيبي وأحمد الثورة ، وبايع الإباضية هناك الحارث بن تليد بالإمامة واتخذ عبد الجبار بن قيس المرادي وزيرًا له ومستشارا ، وأدارا الحرب مع جيوش عبد الرحمن واغتيلا سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م . وفي نفس السنة تحولت الخلافة إلى العباسيين فأقروا عبد الرحمن بن حبيب في ولايته ، وسمع بتجمع للصفرية بتلمسان في الجزائر سنة ١٣٥ فاجأهم وكُتب له النصر عليهم . وأرسل حملة إلى صفلية رجعت بكثير من الغنائم ، واستولى على جزيرة قوصرة التي تبعد عن الشاطيء التونسي نحو ثلاثين ميلا ، وتنازل عنها - فيما بعد - أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية بتونس لفردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة « ملك صفلية » سنة ١٢٢٨هـ/١٢٣٠م . وتآمر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث فقتلاه سنة ١٣٧ وتولى بعده إلياس ، وقتله ابن أخيه : حبيب بن عبد الرحمن وتولى مكانه ، ولم تلبث قبيلة ورفجومة النزفوية الصفرية الغالية أن هاجمته واستولت على القيروان واستباحتها سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م وحاول حبيب أن يستردها سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م ففتكت به ورفجومة . وكانت قد استحلح المحارم في القيروان فغضب لأهلها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية بطرابلس وجبل نفوسة ، فهاجم ورفجومة وخلص منها القيروان سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولى عليها عبد الرحمن بن رستم أحد قواده ، ولم يلبث محمد بن الأشعث والى مصر أن قدم على رأس جيش ضخم ، فاشتبك مع أبي الخطاب في معركة ضارية قتل فيها أبو الخطاب ، وفرَّ واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب في الجزائر وأسس في شماليه دولة للإباضية بمدينة تاهرت ظلت بعده حتى سنة ٢٩٦ . وولى ابن الأشعث على الزاب الأغلب بن سالم التميمي ولم يلبث أن تولى على المغرب الأدنى سنة ١٤٨هـ/٧٦٢م ويقتل في بعض حروبه سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م ويتولى على المغرب عمرو بن حفص الملهبي ( هزارمرد ) باني طينة بالزاب ، ونازل في الجزائر الصفرية والإباضية بتاهرت ، وثارت عليه إباضية طرابلس وحاصرت القيروان وخرج إليها واستشهد في المعركة سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م . وخلفه ابن عمه يزيد بن حاتم الملهبي سنة ١٥٤ ويقول عنه الرقيق القيرواني : « كان كثير الشَّبه بجده المهلب في حروبه ودهائه وكرمه وسخائه وكان خبيرًا بشؤون الإدارة فرتب القيروان وسوقها ، كما كان خبيرًا بشؤون السياسة والحرب ، فقلَّم أظفار الصفرية في الجزائر ولم يعد لهم نشاط إلا في ديار زنانة بالصحراء ، وقلَّم بالمثل أظفار الإباضية ، فلم يعد لهم نشاط إلا في تاهرت وجبل نفوسة ،

وهدأت الأمور بإفريقية واستقرت طوال عهده ، وكان أديبا ، وأسبغ عطاياه على الشعراء ووفدوا عليه من المشرق ، وأحدث في القيروان حركة أدبية واسعة ، وجدّد جامع عقبة الأعظم بها ، وازدهر في عهده العمران . وظل واليا على إفريقية التونسية ونوميديا أو شرقي الجزائر حتى قسنطينة والزاب ستة عشر عامًا كانت أعوام رخاء وهدوء بالمغرب إلى أن توفى سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وتولى بعده أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عن أخيه شجاعة وبطولة وحنكة سياسية ، ونعمت إفريقية التونسية والزاب في أيامه باطراد الهدوء والرخاء وفي عهده تأسست الدولة الإدريسية الحسنية في ولبلي جنوبي طنجة بالمغرب الأقصى ، وتوفى سنة ١٧٤هـ/٧٩١م وخلفه ابنه الفضل حتى سنة ١٧٩ وخلفه هرثمة بن أعين أحد قواد الدولة العباسية العظام ، ونشر في الاقليم التونسي والطرابلسي الأمن والنظام ، وبنى مدينة المنستير وقصرها الكبير سنة ١٨٠ واختار للزاب واليا إبراهيم بن الأغلب التميمي ، وأعجب بشجاعته وحسن سياسته ودهائه ، وعاد إلى بغداد سنة ١٨١هـ/٧٩٧م وخلفه محمد بن مقاتل العكبي إلى سنة ١٨٤ وكان ضعيفا سيء السياسة . واستشار هرون الرشيد هرثمة فيمن يوليه المغرب ويحسن القيام عليه وقمع ثوراته ، فأشار عليه بإبراهيم بن الأغلب وامتدحه له طويلا ، فارتضى ولايته عليه منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعله له ولأبنائه من بعده آملا أن يكون به أسرة حاكمة له حكما سديدا كحكم المهالبة المذكورين آنفا .

### ( ب ) الأغالبة<sup>(١)</sup>

كانت الجزائر تحظى حينئذ في شقيها ( نوميديا القديمة ) بدولة الأغالبة المستقلة ، وكان منذ الفتح تابعا للقيروان ، وكان يمتد غربي الإقليم التونسي إلى بجاية على البحر المتوسط ومنها إلى الصحراء جنوبا شاملا قسنطينة وإقليم الزاب وعاصمته طنبنة . ونعم هذا القسم من الجزائر في عصر الدولة الأغلبية بنهضة عمرانية وحضارية وعلمية شأنه في ذلك شأن عاصمته الكبرى القيروان وما تحقّق لحكامها الأغالبة من مجد حربي عظيم باستيلاء الأمير زيادة الله الأغلبى على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونقله هو وخلفائه من أسرته إليها الدين الحنيف العظيم والحضارة العربية المزدهرة وكل ما ارتبط بها من العلوم والصناعات . وكان ذلك فتحا عظيما للدولة الأغلبية ورعاياها في الإقليمين التونسي والجزائري ، فرحل منهم كثيرون إليها ينعمون بما فيها من طيبات الأرض ، مما عاد على التونسيين والجزائريين بخير وفير ، مع شعورهم بغير قليل من العزة . وظل هذا الشعور يزداد قوة طوال أيام الأغالبة بفضل أسطولهم العظيم وغزواته

لمبارك بن محمد الملبى والجزء الأول من كتاب ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وما كتبه فيه عن أمرائه .

(١) انظر في الأغالبة المصادر السابقة والجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب والحلة السراء لابن الأبار ، وتاريخ الجزائر في القديم والحديث

لبارى فى شرقى إيطاليا ولروما نفسها ، ولحصون وبقاع إيطاليا كثيرة جنوبها ، واستولى على مالطة سنة ٨٢٥٥هـ/١٤٦٨م ونشر بها الإسلام وحضارته الباهرة . وتبلغ هذه الدولة التونسية الجزائرية أعظم قسط من الحضارة والمدنية فى عهد إبراهيم بن أحمد الأغلبى ( ٨٢٦١هـ/١٤٧٤م - ٨٢٨٩هـ/١٠٠١م ) إذ يؤسس فى مدينته رقادة التى بناها بجوار القيروان بيت حكمة على غرار بيت الحكمة للرشيد والمأمون ببغداد ، وهو أول جامعة للعلوم نشأت فى البلاد المغربية ، وكان يدرس بها الطب والفلك وتقويم البلدان والفلسفة ، وقاد إبراهيم الأسطول بنفسه إلى جنوبى إيطاليا ، واستولى فيه على طائفة كبيرة من الحصون . وكل ذلك كان يملاً الرعية فى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر بالبهجة . وكان الأغالبه على وعى كبير بالسياسة وتدير شؤون الحكم ، فكانوا يولون على شرقى الجزائر فى طَبنة ولاية يحسنون إدارة الحكم ، وكانوا يمنحونهم سلطة إدارية واسعة ، وكان قاضى القيروان يولى على البلاد قضاء نزهون تقاة يحكمون بين الناس بالعدل والإنصاف لافرق بين عربى وبربرى ، بل مساواة تامة فى الحقوق والواجبات ، فازدهرت الحياة فى شرقى الجزائر - لعهد الأغالبه - وازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهارا رائعا .

### ( ج ) الإباضيون<sup>(١)</sup>

تأسست الدولة الإباضية فى القسم الغربى من الجزائر الداخل قديما فى موريتانيا الشرقية ، أسسها عبد الرحمن بن رستم فى منطقة جبلية وعرة متخذاً مدينة تاهرت عاصمة لها ، ولما أن كثر أتباعه من الإباضية أعلنها سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م وقد أقامها على أسس مبادئ الإباضية المثالية إذ جعلها ديمقراطية يولّى الإمام فيها بمشورة ستة من وجوه القوم ورؤساء القبائل على نحو ما صنع عمر بن الخطاب واشترط فى الإمام أن يكون عادلا منتهى العدل عالما بالإسلام وتعاليمه حق العلم عالما بمبادئه التى تكفل بدقة مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة ، ويأتى الإمام بيعة عامة بعد انتخاب الشورى له ، ويستشير فى الأمور المهمة « الشراة » وهم عظماء المذهب الإباضى وعلمائهم ، كما يستشير فى الأمور العامة سادة القوم والقبائل ، ويعين القضاة بعد استشارة الشراة ، ويضبط الحكم عن طريق نوعين من الشرطة : شرطة تقوم بالحراسة والحفاظة على الأمن ، وشرطة تسمى شرطة الحسبة تشرف على الأسواق وتحكم فى خصوماتها وتطوف فى المدينة أو القبيلة ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر . وتداول الإمامة فى تاهرت ستة أئمة ، أولهم عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة حتى سنة ١٧١ وكان يتميز

الثالث من تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبور والأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية لسليمان البارونى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث للميل ص٤٣٦ وما بعدها .

(١) انظر فى الدولة الإباضية بتاهرت كتاب أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير بتحقيق الدكتور ناصر والأستاذ النجار والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب السير للشماخى وتاريخ الجزائر لأحمد توفيق المننى والجزء

بالعدالة والتقوى وسعة العلم ، واختارت شورى الإباضية بعده ابنه عبد الوهاب وظل إماما للإباضية حتى سنة ٨٢١١هـ/٨٢٧م غير ملاحظين أن ذلك يفضى بالإمامة إلى أن تكون وراثية ، مما يناقض إنكارهم لنظام الخلافة الوراثي ، وأدى ذلك إلى انشقاق في صفوف الإباضية هناك إذ نشأت بينهم طائفة تسمى النكارية أنكرت إمامة عبد الوهاب الوراثية . وتمردت عليه في شمالي الدولة فرقة الواصلية المعتزلة نسبة إلى زعيم المعتزلة في البصرة واصل بن عطاء وحوارها وقضى على فتنها ، وانضم إلى مذهبه الإباضي جبل أوراس أو بعضا منه ، وخلفه ابنه أفلح حتى سنة ٨٢٤٠هـ/٨٥٤م وكانت النكارية لا تزال تشاق جماعة الإباضية شاهرة السلاح فأدار معها حربا انتهت بمقتل قائدها وتشنت أنصاره في البلاد والقبائل ، وخلفه ابنه أبو اليقظان حتى سنة ٨٢٨١هـ/٨٩٤م وأخذت الدولة في الضعف وتفاقم في عهد ابنه أبي حاتم وأبى اليقظان . وكان أبو عبد الله الشيعي داعية المهدي الفاطمي قد نشر الدعوة الفاطمية في قبيلة كنامة وأيدته في القضاء على الدولة الرستمية نهائيا سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م . وما يذكر لهذه الدولة تنشيطها التجارة إلى الصحراء الإفريقية المدارية في بلاد تشاد والنيجر ومالي وفولتا وإلى السودان النيل في مناطق كردفان وواداي . وقد عنيت الدولة عناية واسعة بحراسة السبل وإقامة الفنادق والمحطات وحفر الآبار للقوافل وحراستها ، وأهم من ذلك أنها أقامت في الواحات وفي كثير من الجهات زوايا بها مساجد لنشر الإسلام في كل البقاع التي كانت تنزلها القوافل ، وهي خدمة دينية وحضارية كبرى . ولما قضى على الدولة الإباضية في تاهرت انحاز الإباضيون في الجزائر إلى الجنوب - حتى اليوم - في أرض ميزاب والواحات مثل بسكرة والأغواط وغرداية وورجلان . وتبع سقوط الدولة الرستمية سيطرة المذهب السني - وخاصة مذهب مالك - على البلاد وعلى مراكز التجارة والزوايا في الصحراء الإفريقية المدارية والسودان النيل .

#### ( د ) تلمسان

في أقصى الغرب من الجزائر تقع تلمسان وإقليمها ، وكان بها من قديم بنو يفرن الزناتيون مؤسسوها وكانوا يعتقدون مذهب الصفيرية الخوارج ، وشدوا أزر ميسرة في حربه ضد جيش ابن الحبحاب كما شدوا أزر الإمام الصفري بعده خالد بن حميد . ونراهم في سنة ١٤٨ يبايعون بالإمامة الصفيرية رجلا منهم هو أبو قرعة اليفرنى الزناتي ، ويُعدّ في سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م جيشا كبيرا لمنازلة الأغلب بن سالم التميمي في ولايته على المغرب الأدنى ( الإقليم التونسي وشرقي الجزائر ) ويبلغ النبا الأغلب فيقدم إليه بجيش جرار ، حتى إذا اقترب منه هرب وتفرقت عنه جموعه . ويتولى المغرب الأدنى سنة ١٥١هـ/٨٦٨م عمر بن حفص المهلبى ويأخذ في إعداد جيش لمنازلة أبي قرعة ويحصن طينة عاصمة الزاب ، وكان أبو قرعة أعد جيشا كثيفا للملاقاة ، وتقدم إلى طينة ، غير أن خلافا دبّ في جيشه ، وتفرقت عنه جنوده . واضطر عمر بن حفص

إلى العودة إلى القيروان لبلوغه نبأ ثورة قبيلة هوارة بطرابلس عليه ، وانتهاز أبقرة غيباه عن طنة فهاجمها ، وكان عمرين حفص ترك بها المهناً مع قطعة من جيشه ، فاشتبك مع أبقرة فهزمه وولى الأديار وأخذ المهنا عسكره بكل ما فيه . ولا نعود نسمع بثورة لأبقرة ، وتظل تلمسان خاضعة لقبيلة بنى يفرن الزناتية حتى تأخذها منهم قبيلة مغراوة سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م . ولما أسس إدريس الأول الحسنى دولة الأدارسة فى ولىلى بإقليم فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ودار العام واشتدت شوكته رأى الزحف على تلمسان وماجاورها من قبيلة مغراوة ، وعلم بزحفه محمد بن خزر المغراوى فخرج إليه حين اقترب من البلدة ، وباعه هو وجميع وجوه تلمسان ، وعينه إدريس واليا عليها وأمره ببناء مسجدها وعاد إلى ولىلى وتوفى سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وخلفه ابنه إدريس الثانى حتى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م وكان فقيها وراويا للحديث وشجاعا مقداما فى مهام الأمور ، وهو الذى بنى مدينة فاس واتخذها عاصمة للدولة ، ونزل تلمسان وأقام بها ثلاث سنوات نظّم فيها شؤونها الإدارية والمالية ومحا منها دعوة الصفرية . ونزها - كما يقول ابن خلدون وبعض المؤرخين - عمه سليمان بن عبد الله ، ويبدو إن إدريس الثانى أو ابنه محمد تركها له فتملكها وباعه أهلها ، وتوارثها هى وإقليمها فى الجزائر عنه أبنائه وأحفاده إلى أن أخذها منهم موسى بن أبى العافية فى القرن الرابع ثم تصير للدولة العبيدية .

#### ٤

الدولة العبيدية - الدولة الصنهاجية - بنو حماد

( أ ) الدولة العبيدية<sup>(١)</sup>

لم يلبث أبو عبد الله الشيعى أن دخل القيروان وقضى على الدولة الأغلبية ، وبذلك يكون قد قضى فى عام واحد على الدول الثلاث التى كانت تتفاسم الجزائر : دولة الأغلبية فى شرقها ودولة الإباضيين بتاهرت فى وسطها ودولة الأدارسة من أبناء سليمان بن عبد الله فى غربها ، وبذلك دانت الجزائر للدولة العبيدية منذ أواخر القرن الثالث للهجرة فكان يديرها المهدي الفاطمى من القيروان ثم من مدينة المهديّة التى بناها بجوارها عاصمة له ولمن بعده ، ونالت الجزائر فى أيامه رخاء وأسنا وانتعشت التجارة بينها وبين الصحراء المدارية والسودان ، وأيضاً بينها وبين أوربا ، وبنى عامله على الزاب على بن حمدون الزناتى بسهل الحصنة مدينة المسيلة ( المحمدية ) سنة ٣١٥ ، ويتوفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م . ويخلفه ابنه القائم وفى أيامه أخذ تائر بربرى من الخوارج يُعدّ العدة فى الجزائر للانتفاض عليه والثورة يُدعى أبابيزيد مخلد بن كيداد ،

لابن حماد وافتتاح الدعوة للقاضى النعمان وكتابه المجالس والمسائر وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الملى ص ٥٠٢ وما بعدها .

(١) انظر فى الدولة العبيدية اتعاظ الحنفا بأخبار الحلفاء للمقرئى وكتابه الخطط والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب وأخبار بنى عبيد وسيرتهم

أصله من مدينة توزر التونسية فى بلاد الجريد ، وكان فى أوائل حياته يحفظ الصبية والغلمان القرآن الكريم فى مدن مختلفة بتونس والجزائر ، ونزل تاهرت فى أواخر أيام الرستميين ، ويقول المؤرخون إنه اعتنق عقيدة الإباضية النكارية ، وأخذ يجتمع إليه كثيرون من قبيلته زناتة ومن البربر الخوارج إباضيين وصفرين ، وكوّن منهم جيشا لقي به قبيلة كتامة فى الأرس وغير الأرس وهزمها مرارا . وكان يبيع لجيشه نهب البلاد وحرقتها وسبى النساء وقتل الأطفال مما يؤكد أنه لم يكن إباضى العقيدة كما يذكر المؤرخون ، إذ الإباضية لا يستحلون شيئا من ذلك كله ، ومن أجل ذلك نرى أنه كان على مذهب الصفرية من الخوارج لا الإباضية ، ويدو أنه قرأ عن الخوارج الأزارقة المتطرفين الذين كانوا يستحلون سبى النساء وقتل الأطفال ، فاعتدى بهم ، وبس القدوة . وماتوا فى سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م حتى يحشد جيشا ضخما يستولى به على كثير من البلدان فى الجزائر والإقليم التونسى ، ويتقدم بجيشه حتى مدينة رقادة بالقرب من القيروان وينهبها ، ويقتل واليها العبيدى خليل بن إسحق . ويقصد القيروان ويستولى عليها وينضم إلى جيشه أهل السنة من سكانها يريدون الانتقام من العبيدين لمحاولتهم فرض عقيدتهم الإسماعيلية عليهم ومحو مذاهب السنة من مثل مذهب مالك ، وزحفوا معه إلى أسوار مدينة المهديّة عاصمة العبيديين وحاصرها . وتوفى الخليفة العبيدى القائم فى أثناء حصاره لها سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م وخلفه ابنه الخليفة المنصور، وظلت الحرب بينه وبين ابن كيداد سجلا ، واستصرخ زيرى زعيم صنهاجة فى الجزائر، فلبى صراخه ، وانهمز ابن كيداد هزيمة ساحقة ، وولى الأديبار إلى الجزائر، والخليفة المنصور من ورائه يتعقبه فى باغاية بجبال الأوراس وغير باغاية إلى أن جاءوه به مكبلا بالأغلال ، فقتك به سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م وبالقضاء على ثورته انتهت ثورات الخوارج فى الجزائر .

### ( ب ) الدولة<sup>(١)</sup> الصنهاجية

إذا كانت قبيلة كتامة الجزائرية هى التى لعبت الدور الأول فى نصرة أبى عبد الله الشيعى على دول الجزائر الثلاث : الأدارسة فى تلمسان والإباضيين فى تاهرت والأغالبية فى القسم الشرقى من الجزائر فإن قبيلة صنهاجة هى التى كان لها الدور الأول فى القضاء على ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الصفرى ، والقبيلتان جميعا كانتا تحتلان شمالى الجزائر : كتامة إلى الشرق وصنهاجة إلى الغرب ، وكانتا تأخذان بحظ من الحضارة ، وهما من قبائل البرانس المتحضرة . وكانت قبيلة زناتة تحتل الجنوب الجزائرى ، وهى من قبائل البئر المتبديّة ، وكانت شعبها

تراجم ياديس والمز وتميم وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث المبارك بن محمد المبل ص ٥٢٩ وما بعدها .

(١) انظر فى الدولة الصنهاجية الكامل لابن الأثير والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وابن خلكان فى

وفروعها تمتد إلى تلمسان والمغرب الأقصى غربا وإلى جنوبي الإقليم التونسي وطرابلس شرقا .  
 وولّى الخليفة الفاطمي المنصور زيرى الصنهاجي على المنطقة الغربية في الجزائر وحين تولى  
 المعز الخلافة العبيدية سنة ٣٤١ هـ/٩٥٢ م أبقاه عليها ، وكان مثل قبيلته على حظ من الحضارة  
 ويتضح ذلك في بنائه مدينة أشير إلى الشمال الشرقي من تاهرت سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م واتخاذها  
 عاصمة له ولقبيلته ، ودفع ابنه بلكين - فيما بعد - لتأسيس مدينة الجزائر على البحر المتوسط  
 ومدينة مليانة جنوبي شرشال على الضفة الشرقية لنهر شلف ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقي  
 من مليانة . وساعد زيرى جوهر الصقلي في سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨ م في حملته التي استولى بها  
 على جميع بلدان المغرب الأقصى ما عدا سبتة وطنجة اللتين كانتا تدينان بالولاء لعبد الرحمن  
 الناصر الخليفة الأموي في قرطبة . وكان جوهر الصقلي قد استولى على مصر للمعز سنة  
 ٣٥٩ هـ/٩٦٨ م وشاع عقب ذلك أن الخليفة العبيدي المعز سيترك عاصمته المهديّة في إفريقية  
 التونسية إلى مصر ، وسيولّي زيرى على المغرب جميعه نائباً عنه ، فامتعض لذلك جعفر بن  
 علي بن حمدون الزناتي وإلى الزاب للمعز سنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠ م وكانت بينه وبين زيرى ضغائن  
 وأحقاد وعداوة ، ولم يلبث أن جمع عسكره وسلاحه وأمواله وخرج من مدينة المسيلة عاصمة  
 ولايته التي بناها أبوه في ولايته عليها كما مرّ بنا ، واتجه إلى قبيلته : زناتة خالعا طاعة المعز ،  
 واحتفت به قبيلته وملّكته عليها ، واستطاع في سنة ٣٦١ أن يجمع منها جيشا ضخما وزحف  
 به على أراضي صنهاجة ، وعلم زيرى فجمع رجاله بسرعة ، والتقى به ، واشتبك الخصمان  
 ورجحت كفة جعفر بن علي وزناتة وقتل زيرى في المعركة . وكان ابنه بلكين في أشير وجاءه  
 نبأ مصرع أبيه ، فأعدّ العدة سريعا للأخذ بثأر أبيه ، والتقى بزنانة ومزق جموعها ونكّل بها  
 تنكيلا شديدا ، وبلغ انتصاره عليها المعز ، فأقره على ولاية أبيه وأضاف إليه الزاب وتاهرت  
 وسائر أعمال المغرب . وقبل مبارحة المعز المهديّة إلى مصر ولاه على إفريقية التونسية والمغرب  
 جميعه في ذى الحجة لسنة ٣٦١ هـ/٩٧٢ م مع استثناء طرابلس وصقلية ، وكان ينبغي أن  
 يترك له صقلية لأنها بعيدة عن مصر ، ولن تستطيع حمايتها عند الضرورة .

وأخذ بلكين ينهض بمسئوليات الحكم في المغرب ويرتب شئونه ، وهو بربري مغربي من  
 صنهاجة ، وقد مضى يعمل على تأسيس دولة صنهاجية مغربية يتوارثها أبناؤه ، وهي أول مرة  
 في التاريخ الإسلامي نشأ دولة مغربية إسلامية فيه ، وتتوالى بعدها دول مغربية كبيرة ، مما يجعل  
 حكم بلكين للمغرب فاتحة انتقال الملك والسلطان فيه من العرب إلى البربر وبعبارة أدق إلى  
 زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، وهو تطور طبيعي إذ ظل البربر ، وبعبارة أخرى أبناء المغرب ،  
 يتدربون قرونا - طوال الحكم العربي - على النظم الإسلامية في إدارة الدولة وأخذوا يحكمون  
 أقاليمها المختلفة . وآن أن تنشأ لهم دولة مغربية أو دول من ذات أنفسهم ، أما ما يقوله مارسيه  
 في كتابه : « البربر المسلمون في العصور الوسطى » وكتابه : « بلاد المغرب الشرقية » من أن

هذا التحول في المغرب من حكم العرب إلى البربر كان نفورا من العرب وكرها لهم وتحقفا لآمال البربر في الاستقلال عن العرب ودولهم فإن ذلك كله ليس بصحيح ، إنما الصحيح أنه تطور طبيعي لتمرّن البربر على أساليب الحكم وبناء الدول ، وأيضا بناء المدن ، ومرّبنا آتفا بناء على بن حمدون لمدينة المسيلة وبناء زيروى لمدينة أشير وبناء بلكين لمدينتى الجزائر ومليانة .

واتخذ بلكين القيروان عاصمة له ، وتوفى الخليفة العبيدى المعز سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م وتولّى ابنه العزيز وثبته في ولايته وأضاف إليه طرابلس وإقليمها . وثارت في أوائل عهده بالجزائر تاهرت وباغاية وتلمسان واستسلمت له سريعا ، وكانت الخلافة الأموية بقرطبة لا تزال توعز لزنانة وتلمسان وسجلماسة وفاس بالثورة على الخلافة العبيدية وبلكين ، وقاد في سنة ٣٦٨ هـ/٩٧٩ م جيشا كثيفا إلى تلك الأنحاء ، واستسلمت له جميعا . وتوفى في أثناء عودته من المغرب الأقصى سنة ٣٧٣ للهجرة ، وخلفه ابنه المنصور في أوائل سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م فعقد لأخيه يطوفت على أشير عاصمة صنهاجة . وكان المنصور بن أبى عامر المستبد بحكم الأندلس باسم خليفته الشرعى المؤيد قد أعان زيروى ابن عطية زعيم زناتة على بسط سلطانه على سجلماسة ، وبالمثل على فاس واتخذها عاصمة له ، فأمر المنصور أخاه يطوفت أن يقود جيشا إلى المغرب الأقصى ليسترجعه من زيروى ، وصدع بأمره ، غير أن زيروى هزمه وعاد إلى أشير يجر أذيال الهزيمة . وكان المنصور رجل سلم فصمم أن تضع الحرب أوزارها بين قبيلته صنهاجة وقبيلة زيروى زناتة فلا يعودوا إلى القتال ، وأعلن أن تلك آخر حرب بين القبيلتين حتى ينهى الحروب العقيمة التى أنهكت قواهما طويلا . وعرف العزيز الفاطمى فى القاهرة هذا النبأ فغضب لما يؤدى إليه من ضياع المغرب الأقصى نهائيا ، فأرسل إلى كتامة فى الجزائر داعية يسمى أبا الفهم الخراسانى سنة ٣٧٦ لتأليبها على المنصور ، وظل سنة يشير الكتامين ويجمعهم حوله ، ولقيه المنصور هو وجموعه فى سطيف شرقى تاهرت وقضى عليه . وأدت سياسته الحكيمة مع زناتة إلى أن تنضم إليه جماعة منها سنة ٣٧٩ بزعامة سعيد بن خزرون فولاه على طنية ، وتوفى سنة ٣٨٢ فوئى ابنه فلنلا مكانه . وعم الجزائر الأمن والهدوء فى بقية أيامه وتوفى سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م وخلفه ابنه باديس فى الثالثة عشرة من عمره فدير له أمور الدولة فى إفريقيا التونسية والجزائر أعمامه ، وخاصة يطوفت فى تاهرت وحمادا وقد ولاه على أشير سنة ٣٨٧ . وماتوا فى سنة ٣٨٩ حتى يُعيد زيروى بن عطية صاحب فاس جيشا ضخما ويحاصر يطوفت فى تاهرت ، وينجده سريعا حماد كما ينجده باديس بجيش يقوده محمد بن أبى العرب ، ويضع القادة الثلاثة الخطط ويشنون هجوما على زناتة ، وتدور عليهم الدوائر ، ويولى جيشهم الأدبار تاركين وراءهم مضاربهم وما فيها من الأموال والسلاح غنيمة لزنانة وزيروى . وبلغ باديس الخير فخرج على رأس جيش للقاء زيروى ، وعلم به فعاد إلى فاس ، وخرج عليه فلغل بن سعيد فظلت فرق من الجيش تطارده ، وفرّ إلى طرابلس سنة ٣٩١ واستوطنها . وجاءه خير

فى نفس السنة من عمه حماد أنه قضى على الثائرين من أعمامه عليه بقتله ما كسن وأولاده ورحيل زاوى بن زيرى وإخوته إلى الأندلس ، وكان لهم فى الفتنة التى نشبت بقرطبة وقضت على الخلافة الأموية دور فى غاية السوء . وفى نفس السنة توفى زيرى بن عطية صاحب فاس والمغرب الأقصى وتنفست صنهاجة وحماد الصعداء ، وعادت زناتة فى سنة ٣٩٢ إلى مهاجمة صنهاجة فى أشير ولكن بطلها زيرى كان قد توفى فهزمها حماد هزيمة ساحقة .

( ج ) بنو حماد<sup>(١)</sup>

كان حماد - كما يقول لسان الدين بن الخطيب - نسيج وحده وفريد دهره شجاعا حصيفا ، قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب « الجدل » وفكر جادا فى الاستقلال عن ابن أخيه : باديس وتكون دولة له ولأبنائه فى الجزائر ، وكان أول ما فكر فيه بناء قلعة تكون عاصمة للدولة ، ولم يلبث أن بنى فى سنة ٣٩٨ قلعة بنى حماد على منحدر وعرف فوق سفوح جبال كيانة على الحدود الشمالية لسهول الحضنة على بعد ٢٦ كيلومترا من المسيلة ( المحمدية ) وأحاطها سريعا إلى مدينة تكتظ بالأحياء والفنادق والمساجد تتوسطها قسبة أو بعبارة أخرى حصن منبع ، ولا تزال خرائطها وأطلالها قائمة إلى اليوم . وصمم حماد على إعلان استقلاله . وماتوا فى سنة ٤٠٥ هـ/ ١٠١٤ م حتى يعلن استقلاله عن باديس فى القيروان وعن الدولة العبيدية وعقيدتها الشيعية المتطرفة ويدعو للعباسيين على المنابر معتنقا لمذهب أهل السنة . وصمم باديس على حربه ، وأعد جيشا ضخما لمنازلته سنة ٤٠٦ واتجه به إلى القلعة وهزمه بجوارها ، وفر حماد إلى القلعة تاركا خيامه ومضاربه . وتوفى باديس فى نفس السنة وخلفه ابنه المعز فى الثامنة من عمره ، ودبر له شئون الحكم أعمامه ورجال دولته ، وانتهم حماد الفرصة واستولى على مدينتى المسيلة وأشير عاصمة صنهاجة وحاصر باغاية ، فزحف إليه جيش للمعز سنة ٤٠٨ للهجرة وهزمه فى معركة عنيفة ، وفر على وجهه إلى القلعة محتما بها ، ولم يجد بدا من طلب الصلح ، وتم ، وبمقتضاه يستقل حماد وأبناؤه بأشير والمسيلة وطبنة والقلعة وتاهرت وبلاد الزاب وكل ما يفتحونه فى المغرب الأقصى . وانقسمت دولة الصنهاجين بذلك إلى دولتين : دولة آل المنصورين بلكين فى القيروان بإفريقية التونسية ، ودولة آل حماد بن بلكين بالقلعة فى الجزائر .

وتعدّ دولة حماد وأبنائه فى القلعة أول دولة جزائرية فى العصور الإسلامية بأدق معنى لهذه الكلمة ، وحقا سبقها الدولة الرسمية فى تاهرت ، كما مر بنا ، ولكن مؤسسها كان فارسى الأصل ، وحكمها هو وأبناؤه من بعده . وكانت اللغة البربرية تشارك اللغة العربية فى أيامهم

القلعة وبجاية لإسماعيل العربي وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك المجلد ص ٦٠٢ وما بعدها وراجع مادة : « بنوحماد » فى دائرة المعارف الإسلامية.

(١) انظر فى بنى حماد الكامل لابن الأثير والجزء الثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب والبيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وكتاب دولة بنى حماد ملوك

وألّف بها كثير من الكتب وخاصة فى الدعوة الإباضية ، أما الدولة الحمادية فكانت لأسرة من صميم البربر ويوتهم العريقة فى صنهاجة ، وبذلك كانت دولة بربرية بحثة ، وأيضا فإنها اتخذت العربية لسانها ولغة رسمية لها ، وعملت - بكل وسيلة - على نشرها لافى العاصمة فحسب ، بل أيضا بين القبائل ، وعملت أيضا - بكل ما استطاعت - على ازدهار نهضة فى بلادها أدبية وعلمية وحضارية .

وعاش حماد هائنا بقلعته ودولته حتى سنة ٤١٩ م وخلفه ابنه المسمى بالقائد ، ووسّع حدوده فى المناطق الشرقية للمغرب الأقصى ، ونشب نزاع وبينه وبين ابن عمه المعز سنة ٤٣٢ م وزحف إليه بجيش ، ولم تقع بينهما حرب ، وعادت العلاقات بينهما طيبة كما يقول ابن خلدون ، وتوفى القائد سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م وخلفه ابنه محسن وخرج عليه بعض أعمامه وتغلب عليهم ، وكانت مدة ولايته قصيرة : تسعة أشهر ، وتولى بعده بُلُكَيْن بن محمد بن حماد سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م . وكان المعز بن باديس فى القيروان قد خلع سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م طاعة الفاطميين العبيدين وقطع اسمهم من خطبة الجمعة وجعل مكانهم فيها اسم الخليفة العباسى وحمل الناس على الرجوع إلى مذهب مالك الذى يرتضيه فقهاؤهم ، وبذلك تظهر المغرب من عقيدة الإسماعيلية الفاطمية ، وجنّ جنون المستنصر الخليفة الفاطمى العبيدى بمصر فأشار عليه أحد وزرائه المسمى اليازورى أن يتخلص من جموع كبيرة من بنى هلال وسليم كانت نزلت بشرقى النيل فى الصعيد بدفعها إلى إفريقية التونسية وبلاد المغرب ، وكانوا يعدون بمئات الألوف ، فاكسحوا برقة وطرابلس وإفريقية التونسية ، ولم يستطع المعز بن باديس دفع هذه السيول الجارفة فانحاز إلى المهديّة سنة ٤٤٩ م وبقي بها إلى نهاية حكمه ووفاته سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م . وكانوا بدوا غير متحضرين ينهبون ويخربون المدن ويفسدون الزروع ، وانصبّ منهم إلى الجزائر لعهد بلكين سيل هلالى جارف على رأسه قبائل أثيج وعدى وعامر ، وحاولت زناتة فى تلمسان بزعامة أبى سعيد الخزرى أو الخزرونى أن تكبح جماح هذا السيل فقتل زعيمها وتشتت جيشه ، أما بلكين فى القلعة فرأى من الخير أن يترك للأثيج وعدى الأرياف ينهبون فيها ، وتحالف معهم لحرب المغرب الأقصى وزحف عليه بجيش ضخم ودخل مدينة فاس . وفى عودته فاجأه ابن عمه الناصر بن علناس جنوبى وهران وقتله ثارا لأخت له كان بلكين ظن أنها هى القاتلة لزوجها ، وكان شقيقا له ، وأعلن نفسه حاكما للقلعة وصنهاجة مكانه سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م .

والناصر بن علناس أعظم ملوك هذه الدولة وأكثرها دهاء وحنكة سياسية ، وقد دام حكمه سبعا وعشرين سنة ، ولم يشمل الجزائر جميعها فحسب ، فإن انحياز المعز بن باديس وابنه تميم إلى المهديّة وأحوازها جعل حكمه يمتد من حدود المغرب الأقصى إلى القيروان

وصفاقس ، ولعل ذلك ما أوغر عليه صدر تميم ، فأوعز إلى أمراء بنى رياح أن يهاجموا الناصر قبل أن يفتك بهم ، ونازلهم في سببية شرقي الجزائر ودارت عليه الدوائر ، غير أن الناصر استطاع أن يسترد ما كان معه من البلدان في الاقليم التونسي حتى القيروان . وكان يحدث شغب في كثير من البلدان ويستطيع الناصر القضاء عليه ، وصافته زنادة ، وعادت العلاقات حسنة بينه وبين تميم بن المعز . وكان بعيد النظر فعمل على التسامح مع المسيحيين ببلاده حتى يشعروا بالأمان ، ويعظم إنتاجهم وعملهم فيها ، وأرسل إلى البابا جريجورى السابع بتكريس قسيس يسمى سرفاند أسقفا لأبرشية بونة وافندى جميع الأسرى المسيحيين في بلاده أو مملكته . وكان لذلك أثر طيب في نفس البابا فأجابه إلى تكريس سرفاند ورد عليه سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م برسالة لطيفة قال فيها إن المسلمين والمسيحيين جميعا يؤمنون بإله واحد خالد . وخوفا على القلعة عاصمة الدولة من أن يصيبها من التخريب على أيدي العريان من بنى هلال ما أصاب القيروان وغيرها من مدن إفريقية التونسية بنى بجاية على البحر المتوسط في الشمال سنة ٤٦١ هـ لتكون عاصمة جديدة للدولة ، وعنى بتخطيطها وتشييد قصور شامخة فيها وظلت بعده تشتهر بما فيها من مساجد ومدارس وفنادق وحمامات ومستشفيات .

وخلفه ابنه المنصور سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م وفي أول حكمه ازداد ضغط القبائل الحلالية عليه واضطرتته إلى أن تتقاسم معه نصف غلة الأرض ، مما جعله يصمم على هجران القلعة إلى مدينة بجاية سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م . وخلال الستين اللتين قضاهما في القلعة شيد عددا من القصور ، حتى إذا اتخذ بجاية عاصمة له شاد بها طائفة من القصور أهمها قصر اللؤلؤ ، وخرج عليه بعض الثوار في بونة وقسنطينة ، وعادتا إليه ، واشتبك مع زنادة في الجنوب الغربي ورد المرابطين إلى المغرب الأقصى بعد أن استولوا على تلمسان وتقدموا إلى مدينة الجزائر . وظل سيد الجزائر دون منازع إلى وفاته سنة ٤٩٨ هـ/١١٠٤ م . وتولى الدولة بعده ابنه باديس ، وكان فظا سريع الغضب ، وتوفى بعد ستة أشهر من حكمه ، وولى بعده أخوه العزيز ، وعمل على عودة السلام بين قبيلته صنهاجة وقبيلة وامانو الزناتية وتزوج بنت زعيمها ماخوخ ، وكانت أيامه هادئة وآمنة . وعنى بتشجيع الحركة العلمية والأدبية وإعداد بجاية لإيواء اللاجئين من الأدياء والعلماء الذين غادروا القلعة إلى عاصمته حين تدهورت وأصبحت نهبا للأعراب ، وكانوا قد أخذوا يتوغلون من جبال البابور إلى بونة . وتوفى العزيز سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م وخلفه ابنه يحيى ولم يستطع إعادة الدولة إلى ما كانت عليه إذ اتسعت زغبة وغيرها من القبائل الحلالية في التخريب والقضاء على العمران في الجزائر وخوفا على ما في القلعة من ذخائر وطرف ومن أدوات ترف وبذخ نقلها يحيى إلى بجاية سنة ٥٤٣ للهجرة .

## دولة الموحدين - الدولة الحفصية - بنو عبد الواد ( أ ) دولة<sup>(١)</sup> الموحدين

لم يلبث عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين بالمغرب الأقصى أن دخل بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م واصطحب يحيى معه إلى عاصمته مراکش ، واتسع في إكرامه . وبذلك انتهت دولة بنى حماد في الجزائر ، وكان حكامها يأخذون بأسباب من الحضارة ، وكانوا بصيرين بشئون الحكم ، وعاملوا رعاياهم معاملة حسنة ، وأحدثوا في القلعة وبجاية عاصمتيهما نهضة في الآداب والعلوم والتحضر بلغت شأواً عظيماً ، وعنوا بالصناعة والزراعة والتجارة مع إفريقيا والسودان في الجنوب ومع أوروبا في الشمال ، وكان أسطولهم التجارى يمحّر عباب البحر المتوسط إلى مدن إيطاليا والأندلس ، وأقاموا له ببجاية دار صناعة بحرية كبرى تمده بالسفن ، وقد عقدوا مع الدول البحرية الأوربية معاهدات تجارية . وبدون ريب كان لهجرة الأعراب البدو من بنى هلال واكتساحهم للزاب بإبلهم وخيلهم ورجلهم في القرن الخامس الهجرى أثر غير قليل في إفساد الزاب ، وحدثت الطامة في القرن السادس الهجرى إذ أخذوا يتقدمون إلى الأطلس التلى وجبال الباور وامتدوا شرقاً حتى سهول بونة ( عنابة ) وأصبح بنو حماد وبجاية في حاجة إلى من ينقذهم ، وأنقذهم عبد المؤمن خليفة الموحدين في مراکش . وكان يعرف خطورة الهلاليين على البلاد ، فأدار معهم معركة حاسمة بالقرب من سطيف جنوبى بجاية ومزقهم تمزيقاً وطارد فلولهم حتى تبسة جنوبى باغاية . وتعد هذه المعركة نهاية المعارك الكبرى للهلاليين في الجزائر ، وأخذوا بعدها يتأقلمون ويتغربون أو يصبحون جزءاً من الشعب المغربى ، وانتفع بهم عبد المؤمن في حروبه بالأندلس وكذلك ابنه يوسف وحفيده يعقوب وخاصة في معركة الأرك المشهورة . وكان نورمان صقلية قد استولوا على المهديّة سنة ٥٤٣ وبالمثل على طرابلس وطلب أهلها من عبد المؤمن النجدة ، فسار سنة ٥٥٣ بجيش ضخم وأسطول كبير إليهم ، وقلم في الجزائر وإفريقية التونسية أطفال الأمراء المستبدين بالبلاد ، وحاصر المهديّة ثم طرابلس براً وبحراً سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م وفر النورمان خاسئين مدحورين ، ويطبق في الأقليمين التونسي والجزائرى ما اتخذته في المغرب من التراتيب المخزنية في إدارة الحكم ، وظلت قائمة إلى نهاية الدولة الحفصية . وتظل الجزائر هادئة في عهده وعهد ابنه يوسف الذى خلفه سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م وتوفى يوسف ويخلفه ابنه يعقوب

الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان .

(١) انظر فى دولة الموحدين البيان المغرب لابن عذارى وكتاب المعجب للمراكشى والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون وكتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة وتاريخ

سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م. وفي عهده ثار عليه بنو غانية ولاة المرابطين فى جزيرة ميورقة، ونزل منهم على وأخوه فى الجزائر والإقليم التونسى محاولان أن يقيما فيها دولة لمقاومة دولة الموحدىن بالمغرب الأقصى ويعدا جيشا حربهم . وأحدث على قلاقل كثيرة فى الساحل الجزائرى بين بجاية ومليانة وكذلك فى الساحل التونسى، فخرج إليه يعقوب بجيش جرار سنة ٥٨٣ وظل طوال مسيرته إليه فى بلدان الجزائر وتونس يبنى المساجد كالمبىنى المستشفيات، وعلى بن غانية يفر أمامه إلى أن لقي مصرعه، وعاد يعقوب إلى عاصمته. وخلف على فى شغبه على الموحدىن أخوه يحيى وظل يستعين بالعصابات الهلالية، ومرة ينتصر ومرة ينهزم حتى توفى فى برية تلمسان سنة ٦٣١.

### ( ب ) الدولة<sup>(١)</sup> الحفصية بتونس

فى هذه الأثناء قامت الدولة الحفصية ، وكان مؤسسها أبو زكريا بن عبد الواحد بن يحيى بن أبى حفص واليا للموحدىن على إفريقية التونسية ، واستطاع أن يخضع الجزائر ، أو بعبارة أدق أن يضمها إلى ولايته ، إذ كانت دولة الموحدىن قد ضعفت ضعفاً شديداً ، فاستقام له حكم البلدىن حكماً رشيداً يقوم على نشر العدل والأمن فى البلاد ، وحين نشأت الدولة المرينية ظلت تعلن البيعة والولاء له حتى وفاته سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٨ م وكذلك لابنه محمد ، وكان التتار قد قضوا على الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وأصبح المسلمون بدون خلافة ، فانتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعمل بعض أتباعه على أن تبايعه مكة بالخلافة وبايعته ، وتسمى باسم أمير المؤمنين وتلقب بلقب المستنصر بالله ، وكان عهده فى الجزائر شرقاً وغرباً - كعهده أبيه - عهد رخاء واستقرار إلى وفاته سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٥٨ م . وقامت منافسات على الحكم بين أبنائه واقتتلوا وأخذ حكم الدولة ينحسر عن غربى الجزائر كما أخذ المرينيون يتخلصون من الولاء لهم ، واقتحم الجزائر أبو يحيى أخو السلطان يوسف بن يعقوب المرينى سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م ودخل بجاية وحرب بستانها المسمى بالبديع وعاد أدراجه . وانتهى من حينئذ حكم الدولة الحفصية بالجزائر ، فلم تعد تمد سلطانها على تاهرت وشرشال ومدينة الجزائر ، إذ تراجع حكمها - حتى نهاية أيامها فى القرن العاشر الهجرى - إلى بجاية وسطيف وبسكرة وقسنطينة والزاب . وفى الأكثر كانت تفرض تلمسان فى عهد بنى زيان سلطانها على الجزائر الغربية وأحياناً كان يفرضه عليها بنو مرين وقلما كانت تفرضه الدولة الحفصية . وحاول الخليفة الحفصى أبو عصيدة تلافى هذه الخصومة سريعاً ، فأرسل فى سنة ٧٠٣ وفداً

(١) الحفصية لابن الشماخ والفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية لابن خلدون والاستقصا لأخبار دول المغرب المبارك بن محمد الليل .

(١) انظر فى الدولة الحفصية البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ الدولىن الموحديّة والحفصية للزركشى والأدلة البينة التوراتية فى مفاخر الدولة

إلى السلطان المريني لتحسين العلاقات بينهما ، وتحسنت وتعددت بينهما السفارات . وأخذت الدولة الحفصية تزداد ضعفا في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، مما جعل السلطان المريني أبا الحسن يجتاح تلمسان والجزائر ويدخل تونس سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ويظل بها سنتين ، ويعلم بثورة أبي عنان ابنه عليه في المغرب الأقصى فيعود إلى بلاده . وتعود للحفصيين دولتهم في طرابلس وتونس والجزائر الشرقية حتى بجاية ، ويحاول أبو عنان - بعد توليه الحكم - الاستيلاء من جديد على تونس ويكسح الجزائر سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م ويوجه إلى تونس حملة بحرية لمعاونة القوات البرية . ويستولى عليها لمدة شهرين ، إذ يضطر إلى مبارحتها لثورة قبيلة رياح عليه ويهدم حصونها في الزاب ، ويعود إلى فاس عاصمته . وتستعيد الدولة الحفصية مدنها في الجزائر الشرقية وتحسن العلاقات بينها وبين الدولة المرينية . وتعود إليها قواتها في عهد السلطان الحفصى أبي فارس عبد العزيز فيعد سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م جيشا جرارا يفتح به غربي الجزائر وتلمسان حتى إذا اقترب من فاس يريد غزوها أرسل إليه صاحبها أبو سعيد عثمان المريني رسالة يقول فيها : « إن البلاد بلادكم والسلطنة سلطنتكم وجميع ما تأمرونا به نمتله » وكانت الرعية شكت من ظلمه فأمره أبو فارس بالعدل الذي لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وعاد إلى عاصمته تونس . ويتولى الحكم بعده حفيده أبو عمرو عثمان سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م وامتد حكمه إلى خمسة وخمسين عاما نعمت فيها تونس والجزائر الشرقية بالأمن والعدل والرخاء ، واثرت عليه تلمسان فاستردت ولأها لدولته وهو خاتمة الخلفاء الحفصيين المهمين ، وتوفي سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م وأخذت الدولة بعده في التدهور وأخذت تستقل عنها بعض البلاد في إقليم الجزائر الشرقية .

( ج ) بنو عبد<sup>(١)</sup> الواد بتلمسان

لم تفصل القول حتى الآن عن تلمسان ، وكان بنو زناتة يسيطرون عليها ، ومر بنا أن الأدارسة استولوا عليها ، وأن الفاطميين أخضعوها لهم بعدهم ، وانحسرت عنهم دولتهم ، أو ثاروا عليها ، مما جعل صنهاجة بزعامه بلكين تغزوهم سنة ٣٦٨ للهجرة ويثأرون لأنفسهم بزعامه زيري بن عطية سنة ٣٨٩ وتهمهم صنهاجة سنة ٣٩٥ وتظل زناتة مسيطرة على تلمسان إلى أن يستولى عليها يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين بمراكش سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م وتظل تابعة للمرابطين إلى انتهاء دولتهم ، وتتبع بعدهم دولة الموحيدين . وقرّبوا منهم بنو عبد الواد الزناتيين . وفي سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م ولوا منهم جابر بن يوسف

حاجيات وكتاب الاستقفا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي وتاريخ ابن خلدون وكتاب أبو حو موسى الزباني للدكتور عبد الحميد حاجيات وتاريخ الجزائر في القديم والحديث لمبارك بن محمد الميل

(١) انظر في بنو عبد الواد أرنبي زيان كتاب تاريخ بنو زيان ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله النسي تحقيق د. محمود بو عياد وكتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بنو عبد الواد ليحيى بن خلدون تحقيق د. عبد الحميد

على تلمسان فأخذ يعمل على الاستقلال ببلده عن الموحدين ، غير أنه توفي سريعا ، وخلفه بعض أفراد من أسرته ، وصارت سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م إلى يَغْمَراسن فأعلن استقلاله عن الموحدين ، ونصّب نفسه أميراً للمسلمين ، وسير إليه أبو زكريا الحفصى أمير إفريقية التونسية والجزائر الشرقية جنده فأعلن له الولاء ، وعاد بجنده . وزحف إليه السعيد الموحدى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وانتصر عليه يغمراسن . ونشبت بينه وبين قبيلة المعقل وغيرها من القبائل الصحراوية حروب كثيرة ، وجعل بينه وبينها قبيلة بنى عامر لتدراً خطرهما ، وواقع مرارا بعض أعمال تلمسان فى غربى الجزائر ، وتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بعد أن نُبِت فى تلمسان دعائم الملك لأبنائه . وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان ، وقد وسّع أطراف مملكته فى غربى الجزائر حتى جبال ونشريس ومدينة المدية فى الأطلس التلى جنوبى مدينة الجزائر ومدينة تنس على الساحل غربى شرشال . وغزا تلمسان لعهدده سلطان الدولة المرينية يوسف خمس مرات هزم فى أربع منها وفى الخامسة حاصر تلمسان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م وظل محاصرا لها ثمانى سنوات وثلاثة أشهر ، ومات أبو سعيد فى الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وأعقبه ابنه أبو زيان وتوفى كمدا مثله سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وفى نفس السنة توفى السلطان المرينى يوسف وفك المرينيون الحصار عن تلمسان ، وكان وليها أبو حمو موسى الأول فاشتغل بتثبيت ملكه وغزا غربى الجزائر واستولى على مليانة ومدينة الجزائر وسهل متيجة جنوبيها وكاد يستولى على بجاية وقسنطينة واغتيال سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وخلفه ابنه أبو تاشفين ، وكان مولعا بتشييد القصور ونزل قسنطينة وأفسد الزرع ، واستولى على بجاية من الدولة الحفصية مما جعل سلطانها يطلب العون من بنى مرين أصهاره فنتشع له سلطانهم أبو الحسن ، فرد أبو تاشفين رسله إليه أسوأ رد . فحاصر تلمسان ، وبنى أمامها مدينة غربيتها لسكانها المنصورة وضيّق عليها الحصار وشدّ الخناق ستين حتى دخلها عنوة سنة ٧٣٧هـ وقاتل أبو تاشفين وأبناؤه دونها وقتلوا جميعا ، وبذلك انتهت دولة بنى عبد الواد الأولى بتلمسان بعد أن حكمتها مائة عام ونيفا .

وأخذ أبو الحسن المرينى يستولى على بعض البلدان فى غربى الجزائر . وفى سنة ٧٤٨ عين ابنه أبا عنان على تلمسان وما صار إليه من بلدان الجزائر ، وزحف شرقا إلى تونس واستولى عليها من السلطان الحفصى وظل بها ما يقرب من ستين ، وعصته القبائل العربية فى تونس ونازله وهزمته ، وجاءته أخبار بأن أبا عنان ابنه غادر تلمسان إلى فاس العاصمة ودعا لنفسه فيها فبارح تونس سريعا إلى فاس ، وفى هذه الأثناء انتهر أميران من الأسرة الزيانية الفرصة هما : أبو سعيد وأبو ثابت واستوليا على تلمسان سنة ٧٤٩ واشتركا فى حكمها ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ نازلها السلطان المرينى أبو عنان واستولى منهما على تلمسان ، ونرى الشاب الزياني أبو حمو موسى الثانى يفر إلى تونس ويكرمه سلطانها ووزيره ابن تافراكين . وفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م جهّز أبو حمو موسى الثانى جيشا من تونس والجزائر وفتح تلمسان وأخرج

منها المرينيين وأعادها إلى أسرته . ولم تتسم الدولة حينئذ دولة بني عبد الواد ، بل تسمت باسم دولة بني زيان نسبة إلى أحد الجدود الأولين ، وهو أبو يغمراسن مؤسس الدولة الأولى ودبر أبو حمو أمور الدولة تدييرا سديدا ونهض بتلمسان نهضة علمية وأدبية ، وكان شاعرا ، واتخذ هو وخلفاؤه لقب أمير المؤمنين واصطنعوا بها لها نظاما شبيها بنظم الخلافة في الشرق فصل القول فيه الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا قائلا إنهم اتخذوا مراسم دقيقة إذ قسموا الإدارة قسمين إدارة عسكرية وإدارة مدنية ، وعلى رأس الأولى القائد ، وعلى رأس الثانية الكاتب الأول ، ومن ورائهما خازن المال أو الصراف الذي يأمر بصرفه إلى مناصب ووظائف عديدة . وتوفي أبو حمو موسى الثاني سنة ٧٩١ وتنازع أبنائه وتقاتلوا في سبيل الاستيلاء على الحكم ، ومن أهمهم أبو زيان استولى على مقاليد الحكم سنة ٧٩٦ وكان عالما شاعرا وتهادى مع السلطان المملوكي برقوق وقتل سنة ١٣٩٨/٨٠١م بيد أخيه أبي محمد عبد الله وحكم تلمسان حتى سنة ٨٠٤ وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد المعروف بابن خولة إلى سنة ٨١٣/١٤١٠م وأخذ يكثر في الأسرة القتل والخلع ، وتدخل الدولة الحفصية لنصرة الأخ على أخيه أو القريب عما أو غير عم على القريب . وفي سنة ٨٢٧ استولى السلطان أبو فارس الحفصي على تلمسان ، واتسع من حينئذ تدخل الدولة الحفصية في تولية حكام الدولة الزيانية ، وقد ولّى عليها أبو فارس الحفصي أبا مالك عبد الواحد وقتل سنة ٨٣٣ وتولاها أحمد العاقل ابن أبي حمو ويتولاها المتوكل بعده سنة ٨٦٦/١٤٦١م وثار عليه محمد بن غالية وقضى على ثورته وتاريخ وفاته شديد الغموض .

وأخذت دولة بني زيان بتلمسان وغربي الجزائر تتدهور سريعا منذ نهاية القرن التاسع الهجري ، وبالمثل تدهورت الدولة الحفصية في شرقي الجزائر وتونس وطرابلس ، وكان فرديناند ملك إسبانيا قد أخرج العرب من غرناطة آخر قلعة بالأندلس ، فنزلوا سواحل الجزائر وتونس وطرابلس ، فرأى أن يستأنف الحروب الصليبية بتعقبهم في تلك السواحل ، وأطمعه أنه لم يجد للدولة الزيانية ولا للدولة الحفصية أسطولا يحمي ثغورها على البحر المتوسط ، واستولى في الساحل الغربي للجزائر على المرسى الكبير إلى الشمال الغربي من وهران سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٩م وأيضا على مستغانم ومدينة الجزائر إلى الشرق من وهران ، واستولى في الساحل الشرقي للجزائر التابع للدولة الحفصية على بجاية سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م وأيضا على ثغرى جيجل وغنابة ، وكأنما أصبح الساحل الجزائري جميعه غربا وشرقا في قبضته ، إذ أهمل التلمسانيون والحفصيون الرابطات والمخارس الساحلية التي أكثر الأسلاف من إقامتها على البحر المتوسط حماية للبلاد من قراصنة الغرب .

العهد<sup>(١)</sup> العثماني

وفي هذه الأثناء كان يجوب البحر المتوسط بطلان تركيان من رجال البحر هما عرّوج وخير الدين ( بربروس ) وكانا قد تطوعا بنقل الأندلسيين المطرودين من غرناطة وإقليمها إلى سواحل البلاد المغربية ، وغضبا غضبا شديدا لاستيلاء النصارى الإسبان على سواحل الجزائر الإسلامية والبلدان المغربية وصمما على إنقاذها منهم ، واتفقا مع الخليفة أبي عبد الله الحفصي أن يتخذوا جزيرة جربة في تونس قاعدة لضرب الأسطول الإسباني وتحرير الساحل الجزائري . ولم يلبثا أن استوليا من الإسبان على مدينة الجزائر سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وأخذوا يديران منها معارك حامية مع الإسبان ، اشترك معهم فيها الجزائريون والأندلسيون المهاجرون الموتورون من فرديناند والإسبان ، وحمت المعارك وأخذت بعض الموانئ الساحلية تسقط في حجر البطلين ، وتوفى عروج قبل الأوان ، ومضى خير الدين في حملاته ، ورأى - بناقب نظره - أنه لا يستطيع إقامة ملك تركي مستقل بالجزائر ، فأرسل إلى السلطان العثماني بولائه له هو وفتوحاته في الساحل الجزائري ، وقبل منه ذلك ، وسماه : « بايلاريك » أى أمير الأمراء ، وأمدّه بجند وأسطول ، وبذلك دخل الأتراك الحرب ضد الإسبان المعتدين ، واستطاع خير الدين ( بربروس ) حتى سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٦م أن يحمر الساحل الشرقى والغربى من الجزائر ما عدا المرسى الكبير وهران ، ودمّر الأسطول الإسباني في مواقع عديدة . وبذلك وقف هذه الحرب الإسبانية الصليبية ، وأنقذ الإسلام فى إفريقيا ، وأسس بقوة السلاح - فى الجزائر - دولة إسلامية عثمانية . وظلت الملمحة الحربية دائرة فى الجزائر بين النصرانية تمثلها إسبانيا والإسلام يمثلها الترك . ويخلف خير الدين ( بربروس ) ابنه حسن ، وتمنحه الدولة العثمانية لقب بايلاريك مثل أبيه ، وكان على شاكلته بطلا مقداما . وسنّ شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م حملة بحرية على مدينة الجزائر ظل يستعد لها طويلا ، وما إن ألم أسطوله بها حتى سحّق سحقا أمام المدينة ، وغنم الباياريك حسن والجزائريون والأندلسيون المهاجرون كل ما كان بالأسطول من سلاح وآلات وعُدّد . واستولى الباياريك حسن على المرسى الكبير وهدمه ، كما استولى عنوة على كل المواضع التى كان يحتلّها الإسبان هناك ما عدا وهران ، فقد بقيت فى يد الإسبان حتى سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م إذ استطاع القائد أوزن حسن فى عهد الباشا محمد بكداش فتحها وطرد الإسبان منها ، وعادت إليهم سنة ١١٤٤هـ/١٧٣٢م إلى أن طردوا

القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجرى للدكتور  
أبى القاسم سعد الله ومادة الجزائر فى دائرة المعارف  
الإسلامية .

(١) انظر فى العهد العثماني بالجزائر كتاب الجزائر  
لأحمد توفيق المدنى وكتاب تاريخ الجزائر  
لعبد الرحمن الجليلي وكتاب تاريخ الجزائر الثقافى من

منها نهائيا فى عهد الباي محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١م . وفى عهد البايلاريك حسن عاد الإسبان بعد هزيمة شارل الخامس بقيادة الكونت دالكادوت سنة ٩٦٥هـ/١٥٥٧م وأداروا معركة عند مدينة مستغانم شرقى المرسى الكبير وسرعان ما اندحروا وقُتل قائدهم وفروا إلى البحر وما وراءه ، وهو ما حدث للأسطول الدانماركى سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م ولحملة أدريل الإسبانية آخر القرن الثانى عشر الهجرى .

ويذكر للبايلاريك حسن بن خير الدين أنه بسط الحكم التركى أو العثمانى على الجزائر جميعها على الساحل والجيل التلى والداخل ، وكان ملوك تلمسان الزناتيون يناورونه - كما ناوروا أباه خير الدين - فتارة معه وتارة مع الإسبان ، وسُم أهلها من هذا الصنيع ، وأفتى مجلس علماء تلمسان بخلع الحسن آخر ملوكهم سنة ٩٦٢هـ فالتجأ إلى إسبانيا وبها قضى نحبه ، وأظلّ الحكم العثمانى تلمسان منذ هذا التاريخ مثل أخواتها من المدن الجزائرية . وكانت تحدث أحيانا مناقشات حربية بين الجزائر والدولة العلوية فى المغرب الأقصى ، ولعل أهمها ما حدث زمن إسماعيل العلوى فى سنتى ١١٠٢هـ/١٦٩١م و ١١١٤هـ/١٧٠٣م إذ باءت بالإخفاق الذريع محاولاته فى نزع إقليم تلمسان من الجزائر العثمانية .

وقد وضع البايلاريك خير الدين للجزائر العثمانية ناموس الحكم وقواتينه ورتب الدواوين وقدر الرواتب ، وخلف حامية عسكرية عثمانية من الإنكشارية ، وهم جند الدولة العثمانية الذين كانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وكانوا من الأناضول أو من رعاياها . وفى الأكثرية كانوا من سباياها فى أوربا ، وكان على كل مائة منهم رئيسا يسمى الداى . وخطب الخطباء فى بلدان الجزائر باسم السلطان العثمانى وضربت السكة باسمه ، وتولى أربعة بلقب البايلاريك ( أمير الأمراء ) حتى سنة ١٥٨٧هـ/١٥٩٥م ، وكانوا أشبه بحكام مستقلين يديرون شؤون البلاد مع الاعتراف بسيادة السلطان العثمانى الأعظم ، وحاولوا الحد من سلطان الإنكشارية بتكوين فرق مجندة من العرب ، وخاصة من قبائل التل وزواوة .. وأقلق استقلالهم الدولة العثمانية فى الآستانة ، فرأت أن يتحول الحكم فى الجزائر من البايلاريك إلى الباشا وظل عهد الباشوات حتى سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م وكان الباشا يولى لمدة ثلاث سنوات ، وقد تجبره الإنكشارية ورؤساؤها إلى العودة قبل ذلك ، مما جعل مددهم قصيرة وحاولوا لذلك جمع ثروات طائلة ، وثار عليهم الأغوات من قادة الإنكشارية فاستولوا على أزمة الحكم ولم يعد للباشوات إلا بعض المهام التشريعية حتى سنة ١٠٨١هـ/١٦٧١م واحتل الأمن فى هذا العهد ، واغتيل الأغوات جميعا ، واغتصب السلطة رؤساء الإنكشارية المعروفين باسم الدايات حتى الاحتلال الفرنسى سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م واختفت الباشوات فلم يعد الباب العالى العثمانى يولى منهم أحدا ، إذ أصبح الداى الذى ينتخبه رؤساء الإنكشارية الحاكم المطلق فى الجزائر ،

وكانوا يولونه ويخلعونه وفقا لأهوائهم ، ويستجيب لهم الباب العالي ، ويلغوا حتى الاحتلال الفرنسي ثمانية وعشرين دايا ، اغتيل نصفهم . وأخذ الحكم يفسد ، وزاد في فساده أن القرصنة التي كانت مصدر دخل كبير للدولة في القرنين السادس عشر الميلادي والسابع عشر ضعفت وتضاءلت لسيطرة الدول الأوروبية العظمى على البحر المتوسط ، وِعوض ذلك الدايات بكثرة السلب والنهب من الجزائريين مما أدى إلى فساد الحكم العثماني في هذا العهد - وخاصة في أواخره - فسادا شديدا . وكانت سلطة الداى - كما قلنا - مطلقة ، وكان يعاونه في الحكم مجلس يعرف بالديوان لا يقطع أمرا دون مشورته ، وهو أشبه بمجلس وزراء ، وكان يتألف من ستة : الأغا وهو القائد الأعلى للقوات البرية ، ووكيل الخرج وهو وزير البحرية ويشرف على القرصنة ، والقبودان وهو القائد للأسطول وجند البحر ، والخرنجى وهو وزير المالية ، وخوجة الخول وهو جاني الضرائب وشيخ المدينة المشرف على القضاء والشرطة ، والباش كاتب وهو رئيس الديوان ومعهم بعض كبار رجال الدين ونقيب الأشراف . ويجانب هذا الديوان أو المجلس مجلس الديوان العسكري ويتألف من رؤساء الجنود ، ومجلس الرياس البحرى ويتألف من قواد البحر ، وكان لهذين المجلسين نفوذ كبير . وكان هناك مجلس أعلى للقضاء يرأسه القاضى الحنفى ، وكان فى أول الأمر يأتي من الآستانة مع الوالى ، ويعاونه فى المجلس قضاة مذهبي الحنفية والمالكية . وكانت تعرض على المجلس بعض أحكام القضاة مما يستوجب إعادة النظر ، وهو أشبه بمجلس استئناف شرعى . وكانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث ولايات كبرى : ولاية قسنطينة فى الشرق ، وولاية تيطرى فى الوسط وعاصمتها مدينة المدية ، وولاية غربية وكانت عاصمتها مدينة مزونة ثم معسكر منذ سنة ١١٢٢هـ/١٧١٠م ثم وهران منذ سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م وقسمت هذه الولايات - أو كما كانت تسمى البكويات نسبة إلى البك حاكمها من قبل البايلاريك أو الباشا أو الأغا أو الداى ، وكان لكل بك سلطة واسعة فى ولايته . وكانت صلته بالحاكم العثماني فى مدينة الجزائر تنحصر فى شيئين أساسيين هما : جباية الأموال فى ولايته وأداؤها للخزينة العامة ، وجمع الجند الذين- ينبغى أن يرسل بهم للخدمة فى الجيش ، وكانوا جندا معاونا يعاونون فى الأزمت تحت قيادة الضباط العثمانيين . وكانت بالجزائر قبائل كثيرة فى الأطلس التلى ووراءه وبالمثل فى الأطلس الصحراوى ووراءه فى الصحراء الجنوبية ، وكانت هذه القبائل قسمين : قسما تتفارت تبعيته للداى أو للعثمانيين قوة وضعفا ويدفع العشور وضرريته تسمى لازمة ، وقسما مواليا للدولة معفى من الضرائب ما عدا الرسوم القانونية ، وتسمى قبائله باسم قبائل المخزن ، وكانت تمد الدولة العثمانية فى الجزائر بالمحاربن وجباة الضرائب وموظفى الشرطة المحافظين على الأرض فى البلاد . ودعموا دائما شيوخ القبائل ، فكانوا يقطعونهم الأراضي ويمدونهم ، - إذا شاءوا - بالحاميات العسكرية ،

وفرضوا على أنفسهم تجلّة علماء الدين ، وأشركوا بعض كبارهم فى ديوان الحكم ، كما مرّ بنا ، وبالمثل كانوا يجلبون المتصوفة ويحمون طرقهم ويطلبون منهم البركات والعون على الرعية . وكان العثمانيون طوال حكمهم للجزائر يستأثرون بكل مناصب الدولة ، مع أنهم دخلوها بطلب من أهلها لعونهم ضد الغزو الإسباني ، وهم إخوانهم فى الدين ، والعدو عدو لدينهم معا ، فكان ينبغى أن يطبقوا تعاليم الإسلام وأن يوثقوا الأخوة بينهم وبين الجزائريين وأن يشاوروهم فى الحكم وأن يفسحوا لهم فى تولى مناصب الدولة الرفيعة . ونعجب إذ نراهم يعاملون الجزائريين معاملة المنتصر للمهزوم . وكثيرون من القوة الإنكشارية ورؤسائها تزوجوا من جزائريات ، ومع الزمن نشأت طبقة من الأبناء آباؤهم عثمانيون وأمهاتهم جزائريات ، وكان العثمانيون يسمونهم كراغلة جمعا لكرغلى ، وجعلوهم أدنى منهم مرتبة فلا يولون مناصبا رفيعا من مناصب الدولة ، فضلا عن منصب الداي الحاكم للبلاد باستثناء البايلاريك حسن بن خير الدين ، فقد كانت أمه جزائرية . وفى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى ( السابع عشر الميلادى ) تمرد الكراغلة فقبضوا على رؤسائهم ونكّلوا بهم ، وبذلك أوصدوا الأبواب فى وجوههم ، فلم يتولوا المناصب العليا فى الدولة مثلهم فى ذلك مثل الجزائريين . وكان الجزائريون يثورون أحيانا على العثمانيين ، غير أن لبث الثورة كان ينطفئ سريعا ، ومن أهم ثوراتهم ثورة زواوة سنة ١١٥٨هـ / ١٧٤٥م بسبب ضرائب جديدة فرضت عليها وظلت الثورة نحو عام وقضى عليها حين جندت لها الدولة جيشا جرارا .

وكانت الجزائر قد مُتيت - منذ أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ( السابع عشر الميلادى ) بعهد الدايات وفى عهدهم أخذت تشيع الرشوة ويشيع الظلم واغتصاب الجنود الإنكشاريين من المواطنين الأموال عسفا دون أى مراعاة لدين أو خلق . وظل الدايات بعيدين عن الشعب الجزائرى لا يعرفون لغته ولا عاداته وتقاليده وطرق معيشته ، ولم يحاول أحد منهم أن يجعل حكم الجزائر وراثيا فى أبنائه كما فعل بايات تونس وباشوات طرابلس ، ولو حدث ذلك لأصبح الحكم العثمانى فى الجزائر شيئا فشيئا وطنيا على نحو ما حدث فى تونس وطرابلس . وما نصل إلى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ( الثامن عشر الميلادى ) حتى يهبط الدخّل العام للدولة بسبب ضعف القرصنة كما أسلفنا وما تجسّى الدولة منها من أموال . ولم تكن القرصنة فى نظر الجزائريين والترك لصوصية بحرية كما قد يظن ، بل كانت فريضة جهاد إزاء دار الحرب الأوربية النصرانية ، وظلت موردا مهما للجزائر منذ القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر . وكان القرصنة الجزائريون والترك والمهاجرون من الأندلس يغيرون على سواحل إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا ويمودون بغنائم وأموال وافرة . ومنذ أواسط القرن الثانى عشر الهجرى ( السابع عشر الميلادى ) كانت تقاومهم أساطيل إنجلترا وفرنسا ، غير أن الدول والإمارات الأوربية الصغيرة مثل السويد والدانمارك وهولندا ونابولى ظلت طويلا تدفع لدولة الجزائر العثمانية إتاوة سنوية نظير ضمان

قراصنتها لسلامة رعاياها ، وكان القراصنة يجلبون إلى الجزائر مئات بل آلاف من الأسرى الأوربيين المسيحيين ، وكثيرا ما كانت تكتظ موانئ الساحل الجزائرى بأفواج منهم ، وكانوا يعاملون - حسب تعاليم الإسلام - معاملة كريمة ويؤدون شعائرهم الدينية فى حرية تامة ، فى الوقت الذى كانت فيه إسبانيا تخير الأندلسيين فيها بين التنصر أو الموت ، راكلة بأقدامها حقوقهم الإنسانية المشروعة . واعتنق كثيرون من هؤلاء الأسرى الدين الحنيف ، وآثروا البقاء فى الجزائر ولم يقبلوا الرجوع إلى أوطانهم وبلدانهم الأوربية .

وبينما كانت الجزائر العثمانية تعاني من أزمة اقتصادية خانقة فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل الثالث عشر ( أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ) بسبب تضاؤل موارد القرصنة إذا شركتان يهوديتان ليهودى يسمى نفتالى تسيطران على اقتصاد البلاد وتمتصان خيراتها منذ سنة ١١٩٥هـ/١٧٨٠م وما يزال سخط الجماهير والإنكشارية العسكرية يزداد على هذا الرجل حتى إذا كانت سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ثاروا عليه وعلى اليهود ثورة عنيفة قتلوه مع كثيرين من إخوانه فى الدين . وفى سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م حطم الداى على خوجه النفوذ التركى باعتماده على الجند الزواوى الجزائرى الوطنى ، وبذلك أخذت الحكومة العثمانية فى الجزائر شكلا وطنيا كان له فرحة عميقة فى نفوس الجماهير ، ولم تبق للعثمانيين فى الجزائر إلا سلطة اسمية ، وتوفى على خوجة سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٨م . وولى الجزائر بعده وزيره حسين دأيا ، وفى هذه السنة اتخذ مؤتمر لاشايل قرارا بإلغاء القرصنة ، وذهب إلى الجزائر وفد إنجليزى فرنسى لإقناع الداى بإلغائها نهائيا ، غير أنه أصرَّ على إبقائها مع كل دولة لا تؤدَّى للجزائر إتاوة لسلامة سفنها ورعاياها . وكانت الشركتان اليهوديتان المذكورتان اثنا مدينتين للداى والجزائر بنحو مليونين ونصف من الفرنكات ، وكانتا تدينان فرنسا بنحو سبعة ملايين لصفقات من القمح اشترتها ، وقررت فى سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩م أن تدفع للشركتين مبلغ أربعة ملايين ونصف ، وكان الداى أبلغها ماله على الشركتين من دين حتى تحتفظ عندها يدينه عليهما ، ولم تعره التفاتا مما أثار غضبه ، وفى استقبال الداى لرجال السلك السياسى بأبريل سنة ١٢٤٣هـ/١٩٢٧م تحاور مع القنصل الفرنسى ويقال إنه أثار حفيظته فصاح به مشيرا بعروحة فى يده مسَّها طرفه وطرده . وعُدت فرنسا تلك إهانة وطلبت من الداى اعتذارا علنيا ، فلم يعتذر . وفى يونية من هذه السنة أعلنت الحرب على الجزائر وحاصرتها لمدة ثلاث سنوات وأخذت فى الإعداد لحملة عسكرية ، وفى مارس سنة ١٨٣٠هـ/١٢٤٥م قال شارل العاشر ملك فرنسا فى خطاب العرش : إنه سيقوم بعمل لترضية الشرف الفرنسى فيه فائدة للمسيحية ، وكأنه عدَّ حربه للجزائر حربا دينية بين المسيحية والإسلام . وفى آخر مايو سنة ١٨٣٠م ألق وزير الحرب الفرنسى دى بورمون بأسطول حربى ضخم أرسى بسيدى فرج بالقرب من مدينة الجزائر ، ودارت معارك ضارية لمدة شهر اضطر الداى بعدها إلى الاستسلام فى الخامس من

شهر يولييه وأجبر هو والإنكشارية على الرحيل عن البلاد . وبذلك انتهت مدة العثمانيين في الجزائر بعد أن استمرت أكثر من ثلاثمائة عام وبدأ الاحتلال الفرنسي الآثم وظل الجزائريون يجاهدون الفرنسيين جهادا عنيفا أبلوا فيه بلاء عظيمًا تحت راية البطل المغوار الأمير عبد القادر حتى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م ولم تسقط الراية من أيدي المجاهدين فقد تسلمتها لالا فاطمة في شرقي الجزائر سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م وحملها سي سليمان وبيته من عشيرة سيدي شيخ لمدة عشرين عاما منذ سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م كما حملها مُقراني وأخوه في منطقة قسنطينة لمدة عامين . وهذه الحركات التحررية جميعها مكانها في صحف تاريخ الأدب الجزائري في العصر الحديث .

## افضل الثاني

### المجتمع الجزائري

١

عناصر<sup>(١)</sup> السكان

البربر هم العنصر الأول الذى ملأ بقبائله وشعوبه وبطونه السواحل والسهول والتلال والجبال والمضاب من إقليم الجزائر، مثله فى ذلك مثل بقية أقاليم المغرب، واختلف المؤرخون طويلا فى نسب البربر من الأمم القديمة، فقول إنهم أحلاط من اليمن فى آسيا، وقيل إنهم من لحم وجذام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس، فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوكها من المقام بها، فعبروا النيل إلى ديار المغرب وانتشروا فى أرجائها، وقيل إنهم من ولد القبط المصريين، وقيل هم من ولد جالوت ولما قتل رحل بهم إفريقيش من ساحل الشام إلى ديار المغرب وأسكنهم إفريقيا، وقيل هم قبائل شتى من حمير اليمنية ومضر العدنانية والقبط والعمالقة والكنعانيين، وقيل إنهم أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح، وكان مازيغ أخوا لفلسطين، وبارح أبناؤه الشام إلى ديار المغرب فهم حاميون. ويعلق ابن خلدون على هذه الأقوال فى أنساب البربر وما يماثلها بقوله: إنها «أحاديث خرافة»، إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور، والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام، فما الذى يجوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم، ولا يحتاج إلى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب». ويذكر ابن خلدون أن من النسولين البربر من يزعم فى بعض قبائلهم وشعوبهم أنهم من حمير اليمنية مثل لواته وهوارة وزناته، ثم يقول: الحق الذى شهدت به الرطانة والعجمة (فى السنة البربر) أنهم بمعزل عن العرب». وابن خلدون محق فى قوله إن ذلك كله خرافة وترهات ومزاعم باطلة، ولا حاجة - أى حاجة - للبربر به، إذ هم شعب عريق لا يقل عراقة عن العرب والمصريين والفرس والروم، عاشت

تاريخ المغرب لرشيد الناظورى وتاريخ المغرب فى القديم والحديث المبارك الملبى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وكلمة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية.

(١) انظر فى تلك العناصر الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان والبيان المغرب لابن عذارى والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ المغرب الكبير لبوز والجزء الأول من

قبائله فى ديار المغرب : جزائر وغير جزائر من عصور سحيقة ، وهم لا يمتون إلى الساميين عربا وغير عرب بأى عرق ، وأولى أن يُعدّوا حاميين إفريقيين ، ولعل ذلك ما جعل ابن خلدون يقول عن اقتناع : « والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » ويؤيد رأى ابن خلدون ما ترجمه الدراسات اللغوية المقارنة بين اللغتين البربرية والمصرية القديمة الحامية من أن بينهما تشابها فى النظام الفعلى وفى بعض الصيغ مما يؤكد أن البربر من الحاميين .

وكما أن فى نسب البربر اختلافا فى الآراء كذلك كلمة البربر نفسها ، فمن قائل إن البربر هم الذين سماوا أنفسهم بهذا الاسم من قديم ، ومن قائل إن العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان البلاد المغربية لعدم فهمهم للغتهم ، ومنه قالوا « بربر » الشخص إذا تمتم بالكلام ولم يعرف السامع المراد ، ومن قائل إن الكلمة من أصل لاتينى هو بربروس Barbarus وهو من لا يفهم كلامه ، وأطلق الرومان الكلمة على شعوب البربر ، لأنهم يتكلمون بلغة لا يفهمونها ، ولعل هذا القول أكثر الأقوال سدا ، لنزول الرومان فى المغرب من قديم ، وعنهم أخذها العرب وأطلقوها على سكان المغرب جميعا .

وما زال البربر بعيدين عن الشعوب القديمة لا يتصلون بها حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد - وربما قبله أو بعده بقليل - أخذ الشعب الفينيقي اللبناى - وكان شعبا يحترف الملاحة - تجوب أسراب منه سواحل البلدان المغربية بحثا عن أماكن صالحة لرسو سفنهم وتبادل السلع مع السكان من البربر ، واختاروا قرطاجة فى الإقليم التونسى فنزلوا بها أو قل اختاروا موقعها فأسسوا به أول موطن إفريقى لهم ، وأخذوا يبحثون سريعا عن مواطن لهم فى ساحل الجزائر ، فاختاروا بونة ( عنابة ) وجيجل وبجاية وشرشال وإسكيدكة غريبها وأخذوا يختلطون بسكان تلك المدن وينشرون بينهم حضارتهم الفينيقية ، ويعلمونهم الزراعة وغراسة الأشجار . ويُظنّ أنهم نقلوا إلى الجزائر أشجار الزيتون والنقل والفاكهة ، وعلموا الجزائريين أيضا الملاحة والتجارة وكانت قوافلهم تجوب الجنوب وتحمل منه بعض الزنوج ، وسمحوا لليهود منذ القرن الثالث قبل الميلاد بالنزول فى مدنهم . وبذلك كانت تعيش فى الجزائر لعهد الفينيقيين عناصر من اليهود والزنوج بالإضافة إليهم وإلى البربر .

وينشب صراع هائل بين قرطاجة وروما وينتهى سنة ١٤٦ قبل الميلاد باستيلاء روما على المدن الفينيقية فى الإقليمين الجزائري والتونسى ، ويستوطن هذه المدن كثير من الأسر الرومانية ، وتكثر روما من قوافلها إلى الجنوب ، وتعود محملة بكثير من الزنوج الذين يستخدمون فى الزراعة والرعى . ومنذ سنة ٧٠ للميلاد يفد على المدن الفينيقية بعض الأسر اليهودية بعد تدمير الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس . وتستولى جموع الوندال الألمان من روما على الإقليمين

الجزائري والتونسي في سنة ٣٩: نوميلاذ ، وتظل بها نحو مائة عام إلى أن يخرجهم منها قائد بيزنطي سنة ٥٣٤ للميلاد ، ويخلفهم البيزنطيون وجنودهم وموظفهم الإغريقيون . ومعنى ذلك أنه كان يعيش في الجزائر بالقرن السادس الميلادي سبع سلالات : سلالة أساسية من البربر أصحاب البلاد ثم سلالات من الفينيقيين والزنوج واليهود والرومان والوندال الألمان واليونان .

ويقتحم العرب أسوار الجزائر حاملين مشاعل الدين الخفيف ، وتظل تقتحمها جيوش عربية لإكمال الفتح وللقضاء على ما ينشب بها من ثورات طوال القرن الأول الهجري ، وتستجيب الجزائر لدعاة الدين الخفيف ولولاتها العظام في هذا القرن الذين سؤوا فيه بمتهى العدل بين الجنود المسلمين الفاتحين وبين من يسلم من البربر في جميع الحقوق والواجبات : في الضرائب وفي دخول الجيش والجهاد . ويتولى المغرب مع فواتح القرن الثاني الهجري ولاية طغاة بغاة أخذوا يجرمون البربر من حقوقهم التي شرعها الإسلام ، مما جعل بعض البربر يعتقدون مذهبي الإباضية والصفيرية اللذين يريان التسوية المطلقة بين البربر والعرب في الخراج وغير الخراج وحتى في الخلافة فلا يصح أن تقصر على قريش وحدها ، وهبت ثورات متعاقبة منذ سنة ١٢٢ هـ/ ٧٣٩ م يقوم بها أتباع الصفيرية أو أتباع الإباضية حتى عهد يزيد بن حاتم المهلبى ( ١٥٤ - ١٧٠ هـ ) . وإنما نذكر ذلك لندل على أن الجيوش العربية ظلت تقدم إلى الجزائر منذ الفتح ، وكان كثير من جنودها جميعا يقيمون في الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية ، ولم يكونوا جميعا عربا بل كان بينهم كثير من أهل الرافدين والشام ومصر وإيران ، ومن كل هذه العناصر استقرت سلالات في الجزائر وعاشت مع أهلها وامتزجت بهم امتزاجا سريعا يحكم ما يجمع بين الجانبين من الدين واللغة . وأخذ ينزل في المدن الساحلية بعض المسيحيين واليهود لما رأوا في الإسلام وأصحابه من المعاملة السمحة .

وحول منتصف القرن الخامس الهجري تحدث هجرة قبيلتي بنى هلال وسليم إلى الإقليمين التونسي والجزائري انتقاما من المعز بن باديس حين وقف الدعوة العبيدية الفاطمية وخلع طاعة الخليفة وانضوى تحت لواء الخليفة العباسي ، وكان آباء هاتين القبيلتين قد وضعوا أيديهم في أيدي القرامطة ضد الدولة الفاطمية ، فلما استسلموا لها أنزلتهم في الفغار بين النيل والبحر الأحمر ، ورأى وزير خبيث للمستنصر أن يستخدمهم ضد المعز بن باديس ووعدهم بامتلاك دياره ، فانقضوا عليها واكسحتها سيولهم اكتساحا حول منتصف القرن الخامس ، مما اضطره إلى الانسحاب من القيروان إلى المهديية ، وتدافعت سيول من هلال ويطونها : أتيج ورياح وعامر ومقل وعدى ، وكذلك من سليم وعشائرها : دياب وزغبة وعوف ومرداس والطرود ، وكانوا بدوا رعاة غير متحضرين فمضوا ينهبون ويتلفون الزروع ، ورأى صاحب قلعة بنى

حماد أن يترك لهم الريف . وبدون ريب أحدثت هذه الهجرة الأعرابية كثيرا من الاضطراب في الجزائر ، غير أنها أفادتها فائدة كبرى إذ أكملت تعريبها وكانت قد أخذت في التعرب منذ القرن الأول الهجرى واستيطان كثير من الجنود المسلمين لها ، وقد تحولوا ينشرون الإسلام ومبادئ العربية وأخذ ذلك يتسع مع الزمن . غير أن تعرب الجزائريين كان لا يزال محدودا ، حتى إذا حدثت هذه الهجرة الأعرابية الكبيرة لمئات الألوف من العرب ، إذ لم يلق بذلك بضعة آلاف من الأعراب بالشعب الجزائري ، بل التقت به مئات الألوف ، بل التقى شعبان : الشعب البربرى صاحب الديار والشعب العربى المهاجر ، ولم يلبث الشعبان أن اندمجا وأصبحا شعبا واحدا دينه واحد ولغته فى الغالب واحدة ، إذ ظل هناك من يحافظون على لغتهم البربرية وخاصة فى أوعار الجبال ، ومع ذلك كانوا يستخدمون مع قومهم اللغة التى تكونت فيما بعد ، ونقصد العامية المشتقة من العربية . وقد أصبحت الكثرة الكاثرة من الجزائريين عربيا فى اللغة والزىّ وعادات المآتم والأفراح ، بل لقد أصبحت الجزائر جميعها شعبا عربيا ضخما بفضل هذه الهجرة الأعرابية .

وما نصل إلى سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩٢ م حتى يستولى النورمان نهائيا على جزيرة صقلية وفى العام التالى يستولون على جزيرة مالطة ، وينزح إلى الجزائر وتونس كثير من المسلمين فى الجزيرتين فرارا بدينهم من اضطهاد النورمان ، وكانت كثرتهم - إن لم يكن جمهورهم - من أبناء إفريقية التونسية من سلالات الفاتحين للجزيرتين وكان بينهم بعض أبناء الجزيرتين ممن اعتنق آباؤهم الدين الحنيف . ونمضى إلى القرن السابع الهجرى وتسقط بلدان أندلسية كثيرة فى حجر نصارى الإسيبان الشماليين ، وينزح كثيرون من مسلمى الأندلس إلى الجزائر وبلدانها. وإذا كانت الهجرة الأعرابية أفادت الجزائر اكتمالا فى التعرب فإن الوفود المسلمة التى نزحت إليها من الأندلس أفادتها فى الزراعة والصناعات المختلفة : صناعة النسيج وغيره ، وأفادتها فوائد كثيرة فى حياتها العلمية والأدبية ، إذ نزح إليها كثير من العلماء وشاركوها فى حياتها العلمية كما شاركها فى حياتها الأدبية كثير من أدباء الأندلس الذين هاجروا إليها واتخذوها دارا ومقاما . واتسع نزوح من بقى بالأندلس من المسلمين منذ سنة ١٠١٦ هـ/١٦٠٩ م حين نفى الإسيبان من كان لا يزال بالأندلس من المسلمين إلا من أعلن تصره أو تظاهر بأنه نصرانى وتضاعفت إفادة الجزائر من هؤلاء النازحين - كماخوانهم السالفين - فى العلوم والآداب والزراعة والصناعات وما حلوا من الأندلس إلى الجزائر من مدينتهم الأندلسية العظيمة . وقد نزح معهم كثيرون من اليهود فرارا من عسف الإسيبان وبطشهم .

وكان الولاة فى العهد العثمانى يحيطون أنفسهم بحمايات عسكرية من الإنكشارية ، ومعروف أنها كانت تتكون من الترك فى الأناضول ومن أجناس شتى من أنحاء الدولة العثمانية ومن

أسرى جيوشها الغازية فى البلاد الأوربية ، وكانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وترسل إلى الجزائر - كما ترسل إلى ولاياتها الأخرى - بضعة آلاف منهم ، وكانوا يتزوجون من جزائريات أحيانا مما جعلهم يرتبطون بأسرهن وبالجزائر ارتباطا وثيقا . والمجتمع الجزائرى لا تتداخل فيه سلالات هذه العناصر الكثيرة فحسب ، فإن القرصنة جلبت إليه كثيرا من العناصر الأوربية ، ومرّ بنا أنها أخذت تتسع اتساعا شديدا منذ استطاع خير الدين وعروج أن يجعلوا من البحر المتوسط فى القرن العاشر الهجرى بحرا عثمانيا ، وكان النازحون المسلمون من إسبانيا يملكون قلوب البحارة الترك حماسة ليتسعوا ما استطاعوا بالقرصنة انتقاما من الإسبان والأوربيين ، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر المتوسط بالآلاف إسبانياً وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتين ، وكان كثير من منهم يعتقدون الإسلام وتردّ إليهم حرياتهم ويصبحون جزائريين دينا ولغة ، ويندمجون فى أهل البلاد اندماجا تاما .

رواضح أن الجزائر دخلتها من قديم عناصر كثيرة إفريقية وآسيوية وأوربية بجانب سكانها الأصليين من البربر ، وقد فتحها وعاشت فيها أمم كثيرة : فينيقيون ورومان ووندال وبيزنطيون وعرب وترك ، وقد أفادت منها جميعا فى نظمها وطرق معيشتها وزراعتها وصناعتها . وكان كل من ينزل من هذه الأمم ويستوطنها لا يلبث أن يتفصل عن موطنه ويأبى صبغته الأولى ويذوب فى الجزائر لما تتميز به من قوة الشخصية والهوية الراسخة .

## ٢

### المعيشة<sup>(١)</sup>

كان أساس المعيشة فى الجزائر الزراعة ورعى الأنعام ، وتأتى بعد ذلك الصناعات اليدوية والملاحة وما ارتبط دائما بها من الصيد فى البحر ومما تحولت إليه فى أواسط العصر من القرصنة . والإقليم يموج بطيبات الرزق ، ونستطيع أن نتمثل ذلك بوقوفنا أولا عند النواحي الزراعية فى مدن الساحل الشمالى ثم فى المدن الداخلية وما وراءها من المدن الصحراوية . وإذا سرنا فى الساحل من الشرق إلى الغرب لقيتنا مدينة القالة ، وكانت تسمى قديما مرسى الخزر ، وتليها مدينة بونة ومرّ بنا أن القديس أوغسطين كان أسقفا لها فى عهد الرومان ، وهى تقع وسط سهل زبرجدى بالقرب من مصب نهر سيبوز وبها صهاريج رومانية قديمة . وكان الرومان

تحقيق الأستاذ محمود بو عياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ترجمة د . عبد الرحمن حميدة ( نشر جامعة الإمام محمد بن سعود ) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني .

(١) راجع فى المعيشة كتاب أبى عبيد البكرى : المسالك والممالك وابن حوقل بنفس العنوان ( وصفة المغرب وأرض السودان ومصر - مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ) وكتاب الجغرافيا لابن سعيد بتحقيق إسماعيل العربى ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ بنى زيان للنسبى

يسمونها هيون ثم أصبحت بونة العربية . وسميت فيما بعد عنابة لكثرة ثمر العناب بها ويجفف ويصدر ، ويقول ابن حوقل : إنها ذات أسواق حسنة ، والأرض المحيطة بها ذات تربة خصبة ، وتنتج القمح والشعير والكتان والفواكه والعسل بكثرة ، ويقول الحسن الوزان : « الأرض المزروعة خارجها تبلغ أربعين ميلا طولا وخمسة وعشرين ميلا عرضا ، وكل الأراضي ممتازة لزراعة القمح ، ويملك أهلها من قبيلة مرداس العربية أعداد كبيرة من الأبقار والثيران والأغنام » . وإلى الغرب منها ميناء جيجل وأرضها وعرة ، كما يقول الحسن الوزان غير صالحة إلا لزراعة الشعير والكتان والقنب ، وبها كثير من شجر الجوز والتين . وغربها بجاية وكانت أكبر ميناء فى الساحل الجزائرى ، ويقول الإدريسى : الحنطة والشعير موجودان فيها بكثرة والتين وسائر الفواكه . وإلى الغرب منها مدينة الجزائر ، وهى ثغر روماني جددُ بناءه بنو مزغنة ، ثم زيرى بن مناد سنة ٣٥٦ للهجرة ويقول الحسن الوزان : « حولها الكثير من البساتين والأراضي المزروعة بأشجار مثمرة ويمر بجوارها من الجانب الشرقى نهر نُصبت عليه طواحين ، وسهول منطقتها جميلة جدا ولاسيما سهل المتيجة ويبلغ طوله حوالى خمسة وأربعين ميلا بعرض مقداره ستة وثلاثون ميلا حيث ينمو قمح وفير للغاية من أجود الأنواع » . وغربها مدينة شرشال وهى ميناء فينيقى روماني ويقول الإدريسى : بها مياه جارية وآبار عذبة وفواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار وبها كروم وبعض أشجار التين . ويقول الحسن الوزان إنها كانت قد هُجرت فى أعقاب الحروب بين ملوك تلمسان وفاس وظلت خاوية خلال مدة تقارب ثلاثمائة عام حتى سقوط غرناطة بأيدي النصارى فى عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م فقصدها كثير من الغرناطين ( الأندلسيين المسلمين ) فأعادوا بناء قلعتها وقسم كبير من منازلها وزرعوا أراضيها . وإلى غربها مدينة تينس ، وهى ميناء فينيقى قديم ، ويقول الإدريسى : بها من الفواكه كل طوبينة ومن السفرجل الطيب المعنى مايفوق الوصف فى صفته وكبره وحسنه ، ويقول الحسن الوزان تنتج أرضها الكثير من القمح والكثير من العسل . وكانت قد خُرِّت فأعاد إليها مهاجرو الأندلس الغرناطيون العمران والزراعة مثل أختها شرشال . وغربها مدينة وهران ويقول الإدريسى : « على مقربة منها نهر عليه بساتين وجنات ، وبها فواكه كثيرة وأهلها فى خصب ، والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبدة والبقر والغنم فيها رخيصة وبالثمن اليسير » . وكانت وهران قرية صغيرة حتى إذا كانت الهجرة الأندلسية نزطاً كثيرون من الغرناطين وأسما وهران الحديثة .

وإذا تركنا مدن الساحل الشمالى إلى ما وراءه وسرنا فيه من الشرق إلى الغرب لقيتنا قائمة جنوبى بونة أو عنابة وهى مدينة فينيقية قديمة ، ويقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى إنها اشتهرت بتربية نوع من البقر يعد من أجمل أنواع البقر الموجود فى الجزائر ، وبه صفات لا توجد فى غيره ، ويذكر أنه يوجد بقربها حمام بديع يدعى حمام المسخوطين وبه مياه معدنية تفور من

عشرة عيون شديدة الحرارة وهي تتراوح بين ٩٤ و ٩٨ درجة ، ولها قيمة طبية عالية » .  
ونلتقى بعدها بمدينة نقاوس ويقول الحسن الوزان إنه يمر بجوارها نهر تقع مزارع التين والجوز  
على ضفافه ، ويشتهر تين المنطقة بأنه أفضل أنواع التين وينقل منها إلى قسنطينة ، وحول نقاوس  
سهول جيدة صالحة لزراعة القمح . وتلقانا مدينة قسنطينة وهي مدينة فينيقية رومية ، جدد  
بناءها الإمبراطور قسطنطين فنسبت إليه ، وهي - كما يقول الأستاذ المدنى - أم المدن بالناحية  
الشرقية الجزائرية ، وكانت تتبع صاحب القيروان وتونس ، وكان ينزل بها نائبه ، وكانت  
لذلك مركزا كبيرا للإدارة ، ويقول الحسن الوزان : جميع الأراضي الزراعية الواقعة حول  
المدينة طيبة وخصبة ويبلغ محصولها ثلاثين ضعفا لما بذر فيها ، وتوجد بساتين جميلة جدا فى  
السهل على طول النهر الذى يمر بأسفلها وبجوارها نبعان : نبع ساخن ونبع بارد بجانبه بناء  
من الرخام . وعلى بعد ٥٠ كيلومترا منها مدينة ميله وهي مدينة رومانية ، ويقول الحسن الوزان  
إن منطقتها ذات إنتاج غزير من التفاح والكمثرى والثمار الأخرى . وغربها جنوبا مدينة  
المسيلة ( المحمدية ) وهي مدينة رومانية وسهولها مشهورة بإنتاج القمح والشعير والفواكه ،  
كما تشتهر بتربية الحيوانات : البقر والغنم والخيول ، وبنهرها سمك صغير مزدان بخطوط حمراء ،  
ويقول الإدريسي إنه لم يرفى المعمورة سمكا على صفته . وإلى الشرق منها طبنة عاصمة الزاب  
الأعلى شرقى شط الحضنة المالح وتقع على نهر يسمى بساتينها وزروعها وحقول الخنطة والكتان  
ومختلف أنواع الفواكه . وشمالى طبنة والمسيلة مدينة سطيف وهي مدينة رومانية وتتوسط  
منطقة من أغنى مناطق الجزائر الزراعية . وإلى الجنوب من قسنطينة باغاية وبجوارها نهر يسمى  
بساتينها وحقولها الواسعة المنتجة للحبوب من القمح والشعير ، وسكانها إياضيون انحازوا إليها  
بعد سقوط تاهرت فى آخر القرن الثالث للميلادى . وإلى الجنوب شرقا من باغاية تبسة ،  
وتشتهر بكثرة الفواكه وبالجوز ، وبنوّه أبو عبيد البكرى بكبر حجمه وطيبه . وإلى الجنوب  
الغربى منها مدينة بسكرة وتقع فى أشهر الواحات الجزائرية ، وكان الرومان يسمونها فيسيكرا  
وكان بها قديما أسقفية ، وعلى مقربة منها استشهد عقبة بن نافع وأصحابه كما مر بنا فى الفصل  
الماضى ويكثر بها النخل والزيتون ومختلف الثمار ويشيد البكرى بآبارها الكثيرة . وإذا اتجهنا  
إلى الشمال الغربى التقينا بتاهرت عاصمة الدولة الرستمية الإياضية ، وهي على سفح جبل  
يسمى جزول وكان يجرى بجوارها نهر يروى زروعها وساتينها التى وصفها البكرى بقوله :  
« فيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشما » وبنوّه الإدريسي  
بمزارعها وحقولها وما اشتهرت به من تربية الأنعام والخيول ، ويقول إنها وافة العسل والسمن .  
وإلى الشمال منها مدينة مليانة وهي مدينة رومانية قديمة تشرف على نهر شلف وحولها بساتين  
زاخرة بالفواكه وقرى عامرة ومزارع واسعة ، ويقول الإدريسي عنها : حسنة البقعة كريمة  
المزارع وتقع على نهر يسمى مزارعها وحدائقها وجناتها ولها أرحاء على نهرها » . وعلى بعد

مائة وأربعة وسبعين كيلومترا من وهران تقع مدينة تلمسان الكبيرة بين جبال تودان بالخضرة والخمائل النضرة وسهول مكظة بالزرور والبساتين الخلاية ، يقول ابن حوقل فيها : مدينة لطيفة قديمة ولها أنهار جارية وعليها أرحية وفيها فواكه كثيرة وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة ، ويقول الحسن الوزان : « توجد فى خارج تلمسان عدة كور بديعة بها منازل غاية فى الأناقة ، ومن عادة سكان المدينة قضاء الصيف فيها حيث ينعمون بأكبر متعة ، فلهم فيها بساتين فاخرة تنتج أعنابا من كل الألوان وذات نكهة رائعة ، وكرزا من كل نوع تبلغ وفرته حدا لم أر له مثيلا فى أى مكان آخر ، وتينا شديد الحلاوة أسود اللون كبير الحجم يجف ليؤكل فى الشتاء ، ودرآقا ، وجوزا ولوزا وبطيخا وخيارا وثمارا أخرى مختلفة » وعلى نهرها العديد من طواحين القمح . وإذا توغلنا جنوبى تاهرت لقيتنا واحة الأغواط بنخيلها الكثير ، وإلى الجنوب منها منطقة ميزاب ومدنها وأهمها غرداية ويكثر بها النخيل والحدائق والبساتين ، ومن ورائها ست قرى وافرة النخيل والفواكه ، وأهلها جميعا إباحيون وكان آباؤهم حين قضى على الدولة الرستمية فى تاهرت انسحبت كثرة منهم إلى ورقلة ( ورجلان ) فى الجنوب الشرقى من الجزائر ، ولما غادروها إلى بلاد ميزاب بقيت منهم بقية قليلة وحل محلهم فى تلك الواحة كثير من الزنوج . وشرقى بلاد ميزاب وادى سوف وهو بلاد واحات شاسعة تمتد من أراضي ميزاب إلى أراضي الجريد فى تونس ، وتنتج واحاته تمرا بديعا . وطبيعى أن تغطى الهضاب الصحراوية الكثيرة فى جنوبى الجزائر أثناء الربيع أعشاب ونباتات ، ويتنقل البدو فيها لرعى أغنامهم وإبلهم ، وينقسمون إلى بدو أو رعاة شبه مقيمين إذ يقل ظعنهم وهم المجاورون لنخوم جبال أطلس والجبل التلى ، وبدو أو رعاة رحل وهم المتنقلون فى الهضاب والصحارى ، وهم جميعا يمدون مدن الجزائر بكثير من قطعان مواشيهم .

ومن قديم تعنى مدن الجزائر بالصناعات اليدوية كالحداة والنجارة والحياكة واستخراج المعادن وتصنيعها وخاصة الحديد ، وكانت بونة ( عنابة ) تشتهر بمصانعه ، ومنها الرصاص والزنك فى جبال الونشريس ونواحي سطيف ، وكان بيجاية دار صناعة كبرى لإنشاء الأساطيل والسفن وكانت تلك الدار تستمد الخشب من أوديتها وجبالها ، كما كان بها معدن الحديد اللازم لتلك الصناعة وكان الزفت والقطران البالغا الجودة يجلبان إليها من أقاليمها كما يقول الإدريسي ، وكان بها من الصناعات طرائف كثيرة ، واشتهر ميناء دليس غربى بيجاية بأن أكثر سكانه - كما يقول الحسن الوزان - من الصباغين لكثرة ما فيها من الينابيع والجداول ومثلها فى ذلك ضاحية تلمسان المسماة مدينة عباد . ويتوقف الحسن الوزان مرارا عند بعض المدن ليقول إن كثيرين - أو الكثرة - من سكانها صناع ، ويذكر عن صناع تلمسان أنهم يحون حياة هادئة ممتعة وينعمون بأوقات لراحتهم ويلبسون ثيابا لائقة وقليل منهم الذين يضعون عمامة على الرأس ، فيستخدمون قلنسوة دون ثياب ويلبسون أحذية تصعد حتى أواسط سيقانهم ، وكانت

تلمسان تشتهر بصناعة الجلد ، ويقول ابن سعيد الأندلسي : « منها تُحْمَلُ أَلْجَمُ الْخَيْلِ والسروج وما يتبع ذلك » مما يدل على ما كان بها من مصنع للحديد .

وكانت تنتشر في أنحاء الجزائر المنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية والحريرية ، واشتهرت بونة ( عنابة ) بمنسوجاتها الكتانية ، ويقول الحسن الوزان إن أكثر سكان وهران من الصنّاع والحّاكة . ولما سكن الأندلسيون الغرناطيون في هجرتهم الكبرى إلى الجزائر مدينة شرشال نهضوا فيها بصناعة الحرير إذ وجدوا بجوارها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود فربوا فيها دود القز ، واتسع إنتاجهم من المنسوجات الحريرية . ويذكر الحسن الوزان كثرة ما بمدينة قسنطينة من الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا وكذلك الكتانية ، ويقول الحسن الوزان : في مدينة ميلّة عدد كبير من الصنّاع ولاسيما الذين يعملون في نسج الأقمشة من الصوف التي تصنع منها أغطية الأسيرة . ويطلب الحسن الوزان في تلمسان من وصف أكسية الصوف والجلد والقطن ووصف المعاطف . وقد اشتهرت نساء المدن الجزائرية بصناعة التطريز على الأقمشة الحريرية والجلدية ، وتحتفظ المتاحف الجزائرية بمجموعات منها لا تزال أسلاكها الذهبية والحريرية والقطنية تومض كأنما وضعت عليها بالأمس .

ويكثر الحسن الوزان وغيره من المتحدثين عن المدن الجزائرية عن كثرة من بها من الصنّاع والحّاكة ، وقلما يذكرون ما يقومون به من الصناعات والحياكات ، ويذكر الوزان عن أهل مليانة أنهم جميعا من الصنّاع ومن الحّاكة ومن الخراطين الذين يصنعون أواني جميلة من الخشب . وكان أهل الجزائر يصنعون بجانبها أواني جميلة من الخزف الملون والجص المجزّع ، ولا بد أن تفننوا طويلا في صناعة الحلّي إرضاء للمرأة ، وبالمثل في صناعة أحذيتها وأحذية الرجال . وكانت معاصر الزيتون منتشرة في بلدان كثيرة ، وكان الزيت لذلك يصدر بكثرة من الجزائر . ولا بد أن صناعة الورق من الكتان كانت منتشرة وخاصة في المدن الكبرى وفاء بحاجة العلماء والطلاب وبما اثبت في الجزائر من نهضة علمية وأدبية واسعة .

ومنذ القرون الإسلامية الأولى تشاد في الجزائر المنشآت العمرانية ، ولا يشاد بناء مفرد أو أبنية مفردة فحسب بل تشاد مدن بمساجدها وقصورها وفنادقها وحماماتها ومارستاناتها فقد بنى فيها الخليفة العبيدي المهدي سنة ٣١٣ مدينة المحمدية أو المسيلة . وبنى زيري الصنهاجي والى الجزائر من قبل الخليفة العبيدي المنصور « أشير » إلى الشمال الشرقي من تاهرت ، وبنى ابنه بلكين مدينة الجزائر ومدينة مليانة جنوبي شرشال ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقي منها ، وبنى حماد بن زيري قلعة ضخمة شمال المسيلة عاصمة لدولته وجدّد الناصر الحمادي مدينة بجاية وأحضر لها العمال والمهندسين ومواد البناء واتخذها عاصمة للدولة . وكل حاكم منهم كان يعنى بإنشاء قصور كثيرة في عاصمته على نحو ما نقرأ في دولة بني زيان ملوك تلمسان ،

وبخاصة فى تاريخ عبد الرحمن أبى تاشفين ( ٧١٨-٧٣٧هـ ) فقد كان مولعا بتشييد القصور - كما يقول يحيى بن خلدون - مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة الأسارى الأجانب وغيرهم من نجارين وبنائين ومبطنين للخزف وزواقين ، وشاد قصورا عدة : دار الملك ودار السرور وأبا فهر وغيرها والصهرج الأعظم الذى لا يزال موجودا - كما يقول الأستاذ محمود أبو عياد - غربى المدينة . وإذا كان بناء ثلاث قصور استلزم آفا من العمال فما بالكنا بمن بنوا مدنا بقصورها ومساجدها وكل منشآتها العمرانية . وكل هذه القصور والمدن استلزمت صناعات كثيرة من نجارة وحدادة ونفاشة وقدرة على استخدام الفسيفساء ( الموزايكو ) فى الحيطان والسقوف والأروقة مع رسوم مختلفة من الرياحين والأزهار ، ونضرب مثلا لروعة العمارة فى مدن الجزائر بقول الحسن الوزان عن مدينة بجاية المبنية فوق سفح جبل شديد الارتفاع على ساحل البحر المتوسط إنها تمتد من حيث العرض على خاصرة الجبل امتدادا كبيرا خارقا للعادة ، وسائر بيوتها جميلة ، وهى مجهزة بالجوامع بشكل طيب والمدارس التى يكثُر فيها الطلاب وكذلك أساتذة الشريعة والعلوم ، كما تحوى أيضا زوايا للمتعبدين المسلمين ، وحمامات وفنادق ومارستات وكلها عمارات حسنة البنيان وأسواقها جميلة حسنة التنسيق ، وتقوم المدينة كلها على تلال صغيرة حتى إنه ليتعذر السير بضع خطوات بدون صعود أو نزول . وإلى جانب الجبل - أو جانبها - توجد قلعة كبيرة ذات جدران متينة ، وتزدان بالكثير من الفسيفساء وبالجنس المجزَع وبالأخشاب المحفورة بالنقوش التى تعلوها رسومات عجيبة بلون أزرق سماوى ، حتى لتساوى هذه الأشغال الفنية من حيث القيمة أكثر من البنيان ذاته . وإنما نقلنا هذا النص الطويل لندل بوضوح على ارتفاع صناعة المدن والقصور فى الجزائر وكيف أنه رافقها ارتفاع فى الحفر والنقش والزينة بالفسيفساء والرسومات العجيبة باللون الأزرق البهيج ، وقد خلبت بروعتها وحسنها لبَّ الحسن الوزان كما خلبه جمال البيوت وعمارتها وعمارة جميع المؤسسات وحتى الأسواق . وكل ذلك إنما نهض به فى بجاية وغيرها من مدن الجزائر أيد بالغة المهارة فى العمارة وكل ما يتصل بها من زخرف وزينة .

وهيّا هذا الإنتاج الصناعى الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعى القطر الجزائرى لأن تصحح موانيه أسواقا عالمية ، فكانت تصدر منتجاتها شمالا إلى الغرب وشرقا إلى تركيا والشام ومصر ، ومنذ عصر الفينيقيين كانت قوافلها تعبر فلووات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربى محملة بالسلع الجزائرية من المنسوجات على اختلاف أنواعها صوفية وكتانية وقطنية ومن النقل جوزا وغير جوز ومن الزيتون والزيت ومن السروج واللبود والمفاتيح وأقفال الحديد ، وتعود محملة بالعاج وريش النعام والتبر والجلود والرقيق السودانى . ونستطيع تصور الحركة التجارية ومدى نشاطها إذا رجعنا إلى ما كتبه الحسن الوزان وغيره عنها فى الموانى والمدن الكبرى ، فمن ذلك ما يقوله عن ميناء القالة ، وكانت تعرف باسم مرسى الخزر : « إن أهلها يقومون

بتجارة طيبة لأنهم يستمدون من جبلهم الكثير من الشمع ولديهم كمية كبيرة من الجلود ويقايضون هذه المنتجات بالسلع التي يجلبها الجنويون ( تجار جنوة ) الذين يترددون على مينائهم . ويقول الوزان عن أهل بونة إنهم يبعون كمية كبيرة من أقمشتهم الكتانية ، ويقول عن أهل سكيكدة إن سكانها يزاولون التجارة بكثرة مع الجنوين فيقدمون لهم القمح ويأخذون منهم بالمقابل أقمشة ومنتجات أوربية أخرى . ويذكر عن ميناء جيجل غربيها أنه يوجد به الكثير من شجر الجوز والئين وتنقل ثمار هذا الشجر إلى تونس . وكانت بجاية سوقا تجاريا كبرى ، وفيها يقول الإدريسي : « السفن إليها مقلعة ، ولها القوافل متجهة ، والأمتعة إليها بحرا وجوا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء ، وبها تباع البضائع بالأموال المقنطرة » . ومن أجل هذه الحركة التجارية الواسعة فيها عقدت الدول البحرية الأوربية مع بجاية في عصر الدولة الحمادية قديما معاهدات تجارية . ويقول الإدريسي عن ميناء تينس : « به فواكه وخصب وإقلاع وحط ، وبه الخنطة وسائر الحبوب تخرج منه إلى كل الآفاق في المراكب » . وكان ميناء وهران سوقا كبيرة . ويقول الوزان : كانت وهران مقصد التجار القطلونيين ( الإسبان ) والجنوين ( الطليان ) ولا زال فيها - لعصره في القرن العاشر الهجري - بيت يُدعى بيت الجنوين لأنهم كانوا يسكنون فيه . وكانت قسنطينة في الداخل مركزا تجاريا كبيرا ، ويقول الوزان : « فيها عدد كبير من الباعة الذين يزاولون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا ، ويصدر بعض التجار الزيت والحزير وكذلك الأقمشة الكتانية ، ويبيع كل ذلك بالمقايضة مقابل التمور والعييد . ويجتمع أهل قسنطينة مرتين في العام في قافلة تجارية ، ونظراً لكثرة تعرضهم لهجمات الأعراب يصطحبون معهم بعض رماة البنادق من الأتراك الذين ينالون أجرا طيبا على ذلك . ولا يدفع تجار قسنطينة رسم دخول إلى تونس ( إذ كانت جزءا من مملكها ) ولكنهم يدفعون عند خروجهم من قسنطينة مقدار اثنين ونصف بالمئة من قيمة بضائعهم » . ويقول الحسن الوزان عن تجار تلمسان إن متجرهم إنما هو الرحلة إلى السودان وجلب منتجاته ، وبها كما يقول بضعة فنادق من بينها اثنان لسكن التجار البنادقة والجنوين .

ولإتمام بيان وجوه المعيشة والكسب في الجزائر كان كثير من سكان المدن الشمالية الساحلية يشغلون أنفسهم بصيد السمك والحيتان من البحر المتوسط ويقول الحسن الوزان عن أهل دليس إنهم يصيدون بالشباك الكثير منه وينطبق ذلك على أهل الموانئ الشمالية جميعا . واشتهرت مدينة القالة المسماة قديما بمرسى الخزر بكثرة ما بساحلها من المرجان ، وهو شجر في البحر لين أبيض اللون ، وإذا ضربه الهواء احمرّ وصلب ، ويقول الحسن الوزان : ليس لأحد من أهل القالة الحق في صيده أو التقاطه من الساحل حين تقذف به الأمواج إلى البر لأن سلطان تونس أعطى هذا الساحل بالتأجير إلى أهل جنوة الإيطاليين . وهو تصرف مخطيء لأن ذلك

من شأنه أن يطمع الجنوين أو غيرهم في احتلال ذلك الجزء من البلاد ثم في احتلال البلاد جميعها حين تحين الفرصة ، على نحو ماسوُل الشيطان ذلك لفرنسا بالأمس .

### ٣

الثراء<sup>(١)</sup> - الرفه - الموسيقى

( أ ) الثراء

طبيعي أن أهلت التجارة الواسعة في موانئ الجزائر الساحلية أهلها ليكونوا أثرياء ، وكل ثراؤه حسب قدرته في التجارة وحسب نشاطه ، ونضرب مثلا لذلك مدينة القالة التي كان يتجر أهلها مع الجنوين في الشمع والجلود كما مر بنا ، ويقايضونهم عليهما بما يحملون من السلع ويقول الحسن الوزان : « لا يوجد هلى الساحل مدينة أكثر غنى من هذه المدينة ، فهي ترحج من تجارتها مع الجنوين ( تجارجنوة ) ضعف قيمة ما تعطيه لهم ، ثم تباع بالقطاعى فى الجبال المجاورة لها البضائع التي جلبها الجنوين وتجنى من ذلك كسبا ضخما . ومثلها فى هذا الاتجار والغنى بقية الموانئ الشمالية ، ويعبر المؤرخون عن ذلك بعبارات كثيرة كأن يقول البكرى عن بونة ( عنابة ) إنها كثيرة اللحم واللبن والعسل ويقول الوزان إن أهلها يبيعون كمية كبيرة من الأقمشة الكتانية وكل أراضيها ممتازة لزراعة القمح ويمتلك أهلها عدداً كبيراً من الأبقار والثيران والأغنام ، وتنتج المواشى كمية ضخمة من السمن . وكل تلك مؤهلات كبيرة للثراء . ويقول الوزان عن أهل بجاية إنهم مياسير وعلى قدر كبير من الغنى ومرّبنا أنها كانت مركزا تجاريا ضخماً وأن السلع كانت تباع فيها بالأموال المقنطرة . ولم يكن أهل مدينة الجزائر يقلون ثراء عن أهل بجاية ، واتسع ثراؤهم فى العهد العثمانى اتساعاً كبيراً ، وبالمثل أهل وهران . وينوه الوزان بثناء قسنطينة وكثير من المدن الداخلية ويقول عن تجار تلمسان إنهم أغنياء جداً بما يملكون من عقار ومتاع ونقود وهم ذرو هندام جيد ، وينوه - كما مر بنا - بالصناع وثياهم اللائقة ، ويقول أفضل الناس كساء فى تلمسان الأساتذة والقضاة والأئمة والموظفون لما كانوا يتقاضون من رواتب عالية ، ويذكر أن العساكر يتقاضون أجورا مرتفعة . ويذكر عن أهل ميزاب أنهم أغنياء لأنها كانت مركز التلاقى التجارى بين تجار مدينتى بجاية والجزائر وتجار بلاد السودان ، ويقول عن مدينة ورقلة ( ورجلان ) الداخلة فى الصحراء

الساعة ٤٠/٢ ونقلها عنه التنسى فى تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ونقلها عن التنسى المقرئ فى نفع الطيب وأزهار الرياض . وراجع فى الموسيقى وصف إفريقيا للحسن الوزان وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى .

(١) انظر فى الثراء المصادر السالفة فى المعيشة وخاصة كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ، ونفس المصادر تراجع فى الرفه ويراجع معها كتاب بنية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد فى وصف المنكارة أو

الكبرى إن أهلها من كبار الأغنياء لأنها مركز تجارى يتبادل فيه تجار البربر من قسنطينة وتونس منتجات بلادهم بالسلع التى جلبها تجار بلاد السودان .

وزاد فى ثراء سكان المدن الشمالية الساحلية - على مر العصور - تحول بعضها إلى ما يشبه قاعدة للقرصنة فى البحر المتوسط ، ونقرأ أخبار هذه القرصنة منذ أيام الدولة الحمادية ، فقد كان من قراصنة الجزائر من يتخذ بونة ( عنابة ) فى عهدهم مركزاً ينطلق منه للقرصنة ، ومثلها بجاية عاصمة الحماديين وظل ذلك دأب أهلها طويلا ، ويقول الحسن الوزان : « كان أهل بجاية على قدر كبير من الغنى ، فكثرت يدهم فصاروا يسلحون مراكب وسفنا حربية ويرسلونها لغزو إسبانيا ولجلب غنائم البحر من السلع والرقيق رجالا ونساء » وكثير منهم كانوا يسلمون ويصبح لهم ما للمسلمين من الحقوق ، واتسعت هذه القرصنة فى الموانئ الشمالية حين استقر بها الغرناطيون والأندلسيون فى هجرتهم الكبرى أواخر القرن التاسع الهجرى وكان يحفزهم عليها محاولتهم الانتقام من نصارى إسبانيا الذين أخرجوهم من ديارهم ومواطنهم فى الأندلس ، ولم يلبث أن ظهر خير الدين ( بربروس ) وعروج القائدان التركيان البحريان العظيمان واستوليا على الجزائر ، وأخذ خير الدين يطرد الإسبان من الموانئ التى كانوا قد استولوا عليها واستطاع خلال عشرين عاما أن يطهر الساحل الجزائرى منهم واستدار بالبحارة الترك ومن انضم إليهم من المهاجرين الأندلسيين يتوغل فى البحر المتوسط ، وظل ذلك طوال هذا العصر حتى العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، وظلت بجاية والجزائر ووهران تستقبل جميعا غنائم البحر من السلع والرقيق وبالمثل غنائم ميورقة ومنورقة والساحل الإسبانى . ولكى يتضح لنا مدى هذه الغنائم ينبغى أن نعرف أنه كان يُجلبُ أحيانا فى الغزوة البحرية الواحدة مئات من رقيق النصارى رجالا ونساء سوى ما كان يجلب من الغنائم ، وكان ذلك مصدر ثروة واسعة لقرصنة الساحل الجزائرى من جهة وللدولة نفسها من جهة ثانية ، مع ما كانت تموج به الجزائر من طيبات الرزق فى الزراعة والصناعات اليدوية والتجارة الواسعة .

### ( ب ) الرِّفْه

معروف أن الغنى الواسع يجر إلى الرِّفْه ورغد العيش ، ولم يكن هذا الغنى أو الثراء خاصا بفرد أو أفراد قليلين فى المدن الجزائرية ، بل كثيرا ما كان يشمل كل أفراد المدينة فالجميع فى يسار ويلهنية وسعة من العيش تتيح لسكان المدينة رفاهية واسعة ، ومن خير المدن التى تصور ذلك مدينة نقاوس ، وفيها يقول الحسن الوزان : « مدينة رومانية على مسافة نحو ثلاثين ميلا من مدينة المسيلة ، وسكانها أغنياء شرفاء كرماء ويلبسون ثيابا لائقة مثل سكان بجاية ، وبالبلدة بيت معد لسكنى الغرباء وفيها مدرسة للطلاب الذين جرت العادة أن يعفوا من نفقات الكساء والغذاء ، كما أن فيها جامعا جميلا فسيحا جدا ومجهزا بكل ما تمس الحاجة إليه ،

والنساء هنا جميلات ، لون بشرتهن أبيض ، وشعورهن فاحمة ولامعة ، لأنهن يكثرن من التردد على الحمامات ويعتنين بأنفسهن كثيرا ، ويوتها جميعا من طابق أرضى واحد ، ومع ذلك أنيقة جدا وبهيجة المنظر ، لأن لكل بيت منها حديقة مليئة بالزهور المتنوعة لاسيما من الورود والرمان والبنفسج والقرنفل وأزهار أخرى لا تقل عنها بهاء ، ولجميع البيوت عيون ماء تُسقى منها . وعلى الجانب الآخر من الحديقة تكعيبية بديعة تعطى فى الصيف ظلًا ظليلا ومنعشا . ولذلك فإن من ينزل فى نقاوس يود لو يبقى فيا حينا طويلا من الدهر ويأسف لأضطراره إلى مغادرتها لما لقيه من أهلها المضيفين من حفاوة وترحاب . « ونقاوس لم تكن ميناء تتوسط حقول عناب مثل بونة مثلا ولا كانت تتلقى غنائم البحر مثل بونة وموانئ الساحل الشمالى ، إنما هى مدينة عادية فى البقاع الداخلية تعيش على ماتنتجه سهولها من قمح ومزارعها من تين وجوز ، مثلها فى ذلك مثل بلدان عادية كثيرة فى الجزائر ، ومع ذلك فيها دار ضيافة لإكرام الغرباء ومدرسة مجانية تكفل لطلابها الكساء والغذاء وجامع فسيح جميل مجهز بكل متطلباته ونساء جميلات ، والبيوت جميعا من طابق أرضى واحد ، فليس بينها قصر أو قصور ، بل الجميع سواء فى المسكن والمعيشة ، ولكل بيت حديقته المكتظة بالأزهار العطرة وتكعيبته التى تتيح لساكنيه فى الصيف ظلًا ظليلا منعشا . ولكأن الحسن الوزان يصف فردوسًا من فراديس الجنان امتلاً برفاهية لاحدًا لها ولا نهاية ، وإنه لآسف أشد الأسف لمبارحته لها . وتلك كانت مدن الجزائر وقراها قبل أن يحتلها الفرنسيون ، ويون بعيد بين نقاوس أمس ونقاوس أيام الفرنسيين وما نزل عليها من بلاء حين وطنتها هى وأمثالها أقدام المحتلين الباغين . وبدون ريب كانت مدن - أو على الأقل بعض المدن وخاصة الساحلية بل أيضًا الداخلية يغمرها مثل هذا الرفه الرائع . ويتوقف الحسن الوزان مرارا أمام بعض المدن التى بهرته مبانها ليقول إنها بديعة ، ومن قوله عن بجاية : « سائر بيوتها جميلة » ويذكر جوامعها ومدارسها وحماماتها وفنادقها ومارستاناتها ويقول : « كلها عمارات حسنة البنيان » ويقول عن وهران : إنها مجهزة بكل العمارات والمؤسسات التى تميز مدينة حضرية كالجوامع والمدارس والمارستانات والحمامات والفنادق . ويفيض فى الحديث عن رفه أهل تلمسان ، ومما يذكره بها خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية . « ومررنا ما ذكره من أن سكانها يقضون الصيف فى كور بديعة لهم فيها منازل غاية فى الأناقة ومن حولها بساتين فاخرة تنتج كرزا وأعنابا من كل الألوان ودراقا وجوزا ولوزا وثمارا مختلفة ، وينوه بملابس أهلها من صناعات وغير صناعات ومن أساتفة مدرسين وقضاة ، ويتسع فى الحديث عن البلاط الملكى بها وموظفى الدولة ورئيس التشريعات ، وكأنا بإزاء عاصمة دولة حديثة متحضرة غاية التحضر ناعمة بغير قليل من الرفاهية .

ويدل أبلغ الدلالة على ما نعمت به تلمسان من رفه أيام دولة بنى زيان ما نفذ إليه عالم

رياضي عظيم بها يسمى أبا الحسن على بن أحمد الملقب بابن الفحام من صنع منكانة أو ساعة كانت دقاقة ، وقد وضعها في خزانة كبرى ذات تماثيل فضية محكمة الصنع ، وبأعلاها أيككة - أوز شجرة ملتفة - تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما ثعبان نافذ من كوة بجذر الأيككة يحاول الصعود ينتظر غفلته ، وبصدر الخزانة أبواب موصدة بعدد ساعات الليل الزماتية - إذ كانت توضع في الاحتفال الكبير بليلة المولد النبوي زمن أبي حمو موسى الثاني ( ٥٧٦٠/ ١٣٥٩ م - ١٣٨٩م ) - ويصاقب ( يجاور ) طرفي هذه الأبواب بابان مغلقان أطول من الأبواب الأولى وأعرض ، وفوقها جميعا دون رأس الخزانة قمر مكتمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك ويسامت ( يوازي ) أول كل ساعة بابها المُرْتَج ( المغلق ) فينفضُ من البابين الكبيرين عُقابان بظفري كل واحد منهما صنجة من الصُفْر يلقبها إلى طست مجوف من النحاس بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخزانة فيرنّ وينفضُ الثعبان على أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، وهنالك يفتح باب الساعة الراهنة ( الحالية ) وتبرز منه دمية على هيئة جارية بخصرها حزام كأظرف مانت راء ، يمينها صحيفة فيها رقم ساعتها ( العاشرة مثلا ) منظوما ، ويسراها موضوعة على فمها ، وكأنها تعلن عن الساعة على استحياء . ومن يزور مدينة يرن عاصمة سويسرا سيأخذه مرافقه السويسري قبيل الساعة الثانية عشرة إلى مشهد ساعة كبيرة مثبتة على برج شاهق وفي الجزء العلوي منها مهرج يدق جرسين قبيل دق الساعة لجرسها معلنة الثانية عشرة ، وفي الحال يضح ديك على اليسار ويمرّك أحد جناحيه ، ويواجهه تمثال أسد مايزال يحرك رأسه وتمثال عمدة يحرك عصاه وتدور مجموعة من اللبية ، وفي الساعة الثانية عشرة تماما تدق الساعة ويضح الديك ويمرّك أحد جناحيه كأنه يهيم بالطيران . وهذه الساعة السويسرية التي يفخر السويسريون باختراع أحد مواطنيهم لها سنة ١٥٣٠ للميلاد ليست أروع ولا أبدع من ساعة ابن الفحام التي اخترعها قبلها بقرن ونصف مما يدل على ذكائه الوفاد من جهة وعلى ما أصابه الجزائريون في تلمسان من رفه من جهة ثانية .

( ج ) الموسيقى

ليس بين أيدينا أخبار عن تعلق أهل الجزائر بالموسيقى والغناء في الحقب الأولى من هذا العصر ، وإذا رجعنا إلى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وجدناه يصف أهل بجاية بأنهم « ميالون إلى المرح وإلى الموسيقى والرقص ولاسيما الأمراء » . ويقول عن مكان ميناء دلس الواقعة غربي مدينة بجاية إنهم « لطفاء ويحيون حياة مرحة ويجيدون كلهم تقريبا الضرب على العود وعلى القانون » . ولم يصور لنا الوزان حياة المرح ومختلف وسائله عند أهل بجاية كما لم يصور رقصهم وأوقاته ، ومع أنه ذكر آتى العود والقانون الموسيقيتين اللتين كان يضرب عليهما جميع أهل دلس لم يذكر هل كانوا يصحون هذا الضرب بتلاحين لأشعار ينشدونها أو يغنونها دائما أو في بعض الأحوال .

وأكبر الظن أن الجزائر ظلت طويلا تعتمد على موسيقاها والضرب على العود والقانون على الحان بسيطة ، حتى إذا كانت هجرة الغرناطين الكبرى إليها بعد سقوط عاصمتهم غرناطة فى أيدى فردناند وإيزابيلا نقلوا معهم إلى مدنهم التى استوطنوها وخاصة على الساحل الشمالى موسيقاهم الأندلسية ، ولا نعرف إلى أى حد امتزجت هذه الموسيقى بموسيقى الجزائر المحلية ، وكانت الموسيقى الأندلسية موسيقى راقية ذات قواعد وقوانين فى تلاحينها وذات رُقْمٍ مضبوطة ( أى نُوتٌ جمع نوتة ) وكانت تصحبها أغان أندلسية بهيجة أو شجية من الغزل وغير الغزل . ولم تلبث الموسيقى التركية أن انتقلت بدورها إلى الجزائر فى العهد العثمانى عن طريق الطاقم الموسيقى العسكرى الذى كان يلزم الوالى وما يحمل من آلات النفخ والدق . وأخذت تتسع معرفة الجزائريين بالموسيقى التركية وآلاتها وقواعدها فى التنغيم والتلحين . وهذه الموسيقى التركية وأختها الأندلسية التحمتا بما كان فى الجزائر من موسيقى أولية ، وتألفت من ذلك كله منذ القرن الحادى عشر المجرى الموسيقى الجزائرية بطوابعها وخصائصها الموسيقية ، وقد أدخل الجزائريون فى ديوان موسيقاهم مصطلح البشرف وهى كلمة تركية معناها الافتتاحية ولا ينشد معها أو يغنى كلام ثم تتوالى الأدوار فى الموسيقى ، وكل دور يسمى نوتة ، ولكل نوتة اسمها الخاص وتلاحينها . وتعتمد الموسيقى الجزائرية على الآلات الموسيقية التالية : الناي والعود والرباب والقانون والكمنجة والطبل والدريكة والطار والمزمار .

وبجانب هذه الموسيقى الجزائرية التى كانت تشيع بين الحضرة فى المدن الجزائرية كان للبدو من الأعراب أغانيهم البدوية التى توارثوا طرائق التغنى بها وإنشاءها من آباؤهم فى الجزيرة العربية، وقد أخذوا يستعيدون تلك الطرائق فى هضاب الجزائر ومراعيها الواسعة التى كانوا ينتقلون فيها، وأخذها عنهم جيرانهم من البربر المتبدين مثلهم، وكانوا يشدونها مع طبل وزمر أحيانا فى أسماهم وحفلات اعراسهم وأفراحهم واستقبالاتهم للحجاج بلهجاتهم البدوية الدارجة.

#### ٤

الدين - المالكية والحنفية - الإباضية - المعتزلة  
( أ ) الدين<sup>(١)</sup>

كان البربر فى القطر الجزائرى - مثل إخوانهم من البربر فى الأقطار المغربية - وثنيين

كتاب دولة بنى حماد لإسماعيل العربى وفى نشاط القرصنة  
وصف إفريقيا لدapper وكلمة الجزائر فى دائرة  
المعارف الإسلامية وفى اعتناق البربر للإسلام وتحولهم  
إلى شعب عربى مسلم مواضع مختلفة فى كتاب البيان  
المغرب لابن عنارى وغيره من كتب التاريخ السابقة .

(١) راجع فى الدين قديما الجزء السادس من تاريخ  
ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان وفى اليهود  
والنصارى تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك  
الميل وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وفى علاقة  
الناصرين عنلى الحمادى بالبابا جريجوار السابع

يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقومون لها المعابد ويقدمون إليها القرابين ويوقدون لها النار لحراستها ويقدمون كثيرا من الأحجار . ونزل بديارهم الفينيقيون وكانوا مثلهم وثنين وكذلك القرطاجيون . وأخذ اليهود يهاجرون إلى بلدان الجزائر بعد استيلاء الملك الكلداني بختنصر على بيت المقدس ، ولهم هجرة إليها ثانية حين هدم الإمبراطور تيتوس هيكلهم ببيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد . وحاول يهود الهجرة الأولى والثانية أن ينشروا دينهم اليهودي بين البربر ، واستجاب لهم بربر مختلفون في جبال الأوراس ، وما زالت توجد آثار للقبائل البربرية التي اعتنقت اليهودية وتمسكت بها إلى اليوم . وفي ذلك ما يفسر وجود بعض اليهود البدو الذين يلبسون ملابس البربر المسلمين ويعيشون معيشتهم . ولهم هجرة ثالثة إلى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية ، حين أنزل الإسبان بهم بعد سقوط غرناطة أهوالا من العذاب وأوصدت أوربا أبوابها دونهم فلم يجدوا لهم ملاذا سوى الجزائر وشقيقاتها العريبات المسلمات وعاملوهم معاملة الإسلام السمحة ولم يشعروهم أنهم عنصر غير مرغوب فيه ، بل فسحوا لهم في المعيشة وكانوا يعدون بالآلاف في قسنطينة والجزائر وغيرها من المدن الكبرى مثل تلمسان ، ويقول الحسن الوزان : كان بها خمسمائة بيت من اليهود ، ومازالت المدن الجزائرية تقسح لهم في المعيشة بها ، حتى إذا كانوا في أواخر هذا العصر احتكروا التجارة والأعمال المالية وثار الشعب الجزائري فحففوا قليلا من وطأة احتكارهم وسرعان ما استعادوا احتكارهم ونفوذهم المالى على نحو ما عرضنا ذلك في الفصل الماضى .

وأخذت المسيحية تنتشر في الجزائر منذ القرن الثانى للميلاد ، وأخذ انتشارها يتسع منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه فى روما على صولجان الحكم سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأخذ يعمل على نشرها فى إفريقيا والبلاد التابعة لروما ، وتكاثرت الأسقفيات والكنائس فى المدن الساحلية وفى الداخل فقد كان لهم أسقفية فى بونة ( عنابة ) وكان القديس أوغسطين أسقفها وكانت فى قسنطينة أسقفية ثانية وكذلك فى باغاية ، وكانت هى وأمثالها تتبع كنيسة روما . ويظن أن المسيحية سقط منها بعض التأثير إلى القبائل الرحل فى الجنوب إذ توجد بعض كلمات فى لغة الطوارق ترجع إلى أصل مسيحي مثل اسم ميسى ومعناه عندهم إله وأنجلوس ومعناه عندهم ملاك . ولكن من المؤكد أن البربر ظلوا - قبل الإسلام - لا يقبلون على المسيحية لصعوبة تصورهم لعقيدة التثليث المسيحية المعقدة ولأن حملتها من الرومان كانوا يذيقونهم قهرا وبطشا شديدا ، فظلوا منصرفين عنها ، ومن اعتنقها منهم ظل يعتنقها اعتناقا ظاهريا دون أن تحتل قلبه وفؤاده ، وظل يشعر أنها ديانة رومانية أوربية غريبة عليه . ومع ذلك فإن الجاليات والأسر والحاميات الرومانية ومن تنصّر من القرطاجيين كانوا كثيرين مما أتاح لتأسيس بعض الأسقفيات والكنائس وبدون ريب حاول بعض القساوسة الدعوة للمسيحية .جاهدين فى أرجاء البلاد حتى صحاريها . وبعد الفتح العربى أخذ كثيرون ممن

اعتنقوها يعتقدون الدين الخفيف ، وأقبلت عليه جموع البربر وجماهيرها ، لبساطته ولتحريره الشعوب من كل عبودية واسترقاق وظلم مع محوه لجميع الفوارق الطبقية والاجتماعية بين رعيته فهم جميعا سواء في الحقوق والواجبات ، وهذا هو التفسير الصحيح لقضاء الإسلام على المسيحية في القطر الجزائري وغيره من الأقطار المغربية ، مع ملاحظة أن العرب عاملوا من ظلوا على مسيحياتهم من الروم وغيرهم معاملة سمحة كما يقضى بذلك دينهم وجعلوا لهم حقا مفروضا إقامتهم لشعائر دينهم المسيحي وتجديد كنائسهم ولم يمسا أى مس حرمتهم الدينية . وظل ذلك لا فى القرون الأولى بعد الفتح فحسب ، بل أيضا فى جميع القرون ، حتى لنجد الناصر بن علناس أمير دولة بنى حماد فى بجاية والقلعة يرسل - كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الماضى - خطابا رقيقا إلى البابا جريجوار السابع الذى تولى البابوية بين سنتى ١٠٧٣ و ١٠٨٥ خطابا رقيقا يطلب إليه فيه تكريس القديس سرفاند أسقفا على أبرشية بونة ( عنابة ) وأرسل إليه معه بهدايا نفيسة ، وأهم من ذلك أنه افتدى جميع الأسرى المسيحيين الذين جلبهم القراصنة إلى مملكته وأرسل بهم إليه . وكان لذلك أجمل وقع فى نفس البابا وكبار رجال الكنيسة فى روما ، وأرسل إليه مع الأسقف الجديد لبونة برسالة تفيض بشكره وشكر القسيسين وأشرف روما لهذا العمل النبيل محيا عقيدة المسلمين التى تشترك مع عقيدة المسيحيين - كما يقول - فى الاعتقاد بآله واحد خالد . وإنما سقت ذلك لأدل على مدى المعاملة الطيبة للمسيحيين فى الجزائر ، وكانت لهم فى مدينتها الكبيرة بعض الأحياء ، كما كان لهم - مثل اليهود - مقابر خاصة . ومررنا أن القرصنة اتسعت منذ القرن العاشر إلى نهاية هذا العصر ، مما أدى إلى وفود آلاف من الأسرى المسيحيين على الجزائر من مختلف مناطق البحر المتوسط ( إسبان وفرنسيين وإيطاليين وكريتيين وصقليين ويونان ) وكانوا يعدون رقيقا فى خدمة الدولة أو فى خدمة بعض الأعيان ، وكانوا يزاولون الزراعة وحرف الصناعة والبناء ويرعم دابر Dapper فى وصف إفريقية أنه كان بمدينة الجزائر ستة آلاف أسرة من هؤلاء المسيحيين الأسرى ممن جلبهم القراصنة ، وكان كثيرون من هذا الرقيق المسيحي الأسير يسلمون وتُرَدُّ إليهم حرياتهم ويكونون أسرا ما زال بعضها يحمل اسم بلدهم الأصلى ، وعمل بعضهم فى الدولة وارتقى إلى المناصب الرفيعة .

ومنذ فتح المسلمون المغرب الأوسط أو إقليم الجزائر ، والبربر يسارعون إلى الدين الخفيف واعتناقه ، ويبدو ذلك واضحا فى عهد أبى المهاجر دينار ( ٥٥ هـ / ٦٧٤ م - ٦٢ هـ / ٦٨١ م ) إذ يرجع إليه الفضل فى فتح جميع الجزائر ونشر الدين الخفيف فيها وكانت قد فتحت بعض أرجائها وأخذ أهلها يتعرفون على الإسلام ويدخلون فيه ، فأتم ذلك كله ، متخذًا له جيشًا جرارًا من العرب والبربر المسلمين . وسمع أن الروم وبعض البربر يتجمعون لحربه فى مدينة ميلة إلى الجنوب الشرقى من بجاية ، فنازلهم واحتل البلدة واتخذها مركزًا لأعماله الحربية وظل

فيها عامين ، تخرج فيهما سراياه للفتح بعد الفتح . وكانت الزعامة في الجزائر حينئذ لقبيلة أوربة البرنسية ورئيسها أو زعيمها كسيلة وكان نصرانيا وأخذ يستعد استعدادًا واسعًا للقاء أي المهاجر ، ولقيه بجيش كثيف من الروم والبربر بالقرب من تلمسان ودارت عليه وعلى جيشه - كما مرَّ بنا في الفصل الماضي - الدوائر ، ووقع أسيرًا فعامله أبوالمهاجر معاملة سمحة ، جعلته يدخل - وتدخل معه قبيلته أوربة - في الدين الحنيف . وخلف أباالمهاجر في ولاية القيروان والبلاد المغربية عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ/٦٨٣ م فرأى أن يقتحم الجزائر والمغرب الأقصى جميعا ، وأعدَّ جيشًا ضخماً أخذ يهزم به البربر ومن اجتمع إليه من الروم حتى أوطأ حافر حصانه مياه الأطلسي . ومنذ هذا التاريخ أصبحت البلاد المغربية جميعها من أدناها إلى أقصاها بلادا إسلامية . غير أن عقبة كان قد عامل كسيلة الأوربي معاملة أغضبته وصمم على الانتقام ، حتى إذا كان عائدا بالجيش في المغرب الأوسط وتخلف عنه مع فرقة صغيرة بالقرب من طنة هجم عليه كسيلة مع جنود من الروم والبربر كان قد أعدهم لمثل هذه الفرصة ، واستشهد البطل العظيم عقبة . وانتقم له خليفته زهير بن قيس فنازل كسيلة في موقعة ضارية خَرَّ صريعا فيها وتفرَّق من معه في البلاد والجبال . وعاد زهير فتولَّى البلاد المغربية بعده حسان بن النعمان فرأى أن يفتح قرطاجة التي كان ينزل فيها الروم ويحاولون الاتصال بالبربر للحرب والإفساد ، وفر كثير من الروم إلى البحر ومن بقي منهم فُرِضت عليه الجزية . وكانت كاهنة بربرية تزعم البربر في جبال أوراس بالجزائر قد أعلنت الحرب على حسان والعرب ، ولقيها حسان ولم يكتب له النصر فانسحب انتظارا لمدد يأتيه من الخليفة عبد الملك بن مروان وأناه المدد سنة ٨١ هـ/٧٠٠ م فنازلها وسحق جيشها سحقاً ذريعاً وأمن من بقي منه وأمن سكان أوراس في الجزائر جميعا وولَّى أكبر أبناء الكاهنة على قبيلته جراوة وجبل أوراس ، واتخذ من قومه كتيبة في جيشه عددها اثنا عشر ألفا . ومن حينئذ أصبحت الجزائر عربية إسلامية تعتنق الدين الحنيف وتجاهد في سبيله عن إيمان وإخلاص . ويخلف حسانا على القيروان والبلاد المغربية موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م فيمكن لهذا الامتزاج التام بين العرب والبربر في الجيش وحكم المدن وفي جميع الحقوق والواجبات ، ويعمل بكل ما استطاع على نشر الدين الحنيف بين البربر ، ويتوجَّ ذلك بالبعثة التي أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لنشر الدين الحنيف وتعاليمه في البلاد المغربية .

وبذلك أصبحت الجزائر - مثل بقية البلاد المغربية - عربية إسلامية ، وحفا ولى على البلاد المغربية منذ أوائل القرن الثاني الهجري ولاة أمويون باغون أساءوا حكم البربر سوءا شديداً فلم يسوُّوا بينهم وبين العرب في الحقوق وظلموهم في الخراج والضرائب ظلماً شديداً ، وعرفوا دعوة الخوارج وما يدعون إليه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عربا وغير عرب في كل الحقوق حتى في ولاية الأمة وخلافتها أو إمامتها ، فليس من الحتم أن يكون الخليفة قرشيا بل

يتولى الخلافة أكفأ المسلمين ولو كان عبداً جشياً ، وسارع إليهم دعاة مذهبي الإباضية والصفيرية ، وكان المذهب الأول معتدلاً وقرئياً من مذاهب أهل السنة ، وتبع دعواته جبل نفوسة في طرابلس واستطاعوا أن يكونوا لهم دولة في تاهرت ، وبذلك كثر أتباع هذه الفرقة الخارجية وسنسخها فيما يلي بمحدث مستقل ، أما فرقة الصفيرية فكانت فرقة متشددة غاية التشدد وكانت تستبيح دماء المسلمين ، وتأسست في سجلماسة والمغرب الأقصى ، فلم يتبعها جزائريون إلا ما كان يحدث أحيانا من مرور جيوشها بأراضي الجزائر في ذهابها لحرب ولاة المغرب أو لحرب الدولة العبيدية ، فكان ينضم إليها بعض الجزائريين . وبناف محدودة في الجزائر هي التي شاعت فيها الدعوة الإباضية ، ومعنى ذلك أن الجمهور في الجزائر ظل سنيا وظلت الجزائر دارا كبيرة للمذاهب السنية .

### ( ب ) المالكية<sup>(١)</sup> والحنفية

ظل شرقي الجزائر طويلا جزءا لا يتجزأ من ولاية القيروان ، وكانت قد سبقت - كما مر في القسم الخاص بالإقليم التونسي - إلى الاعتماد في الفقه على مذهب مالك ، وفتحت أبوابها للمذهب الحنفي وخاصة في عهد الأغالبة الذين تابعوا بغداد في اتخاذ القضاة غالبا من بين فقهاء الأحناف حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، إذ خيمت - حيثئذ - العقيدة الشيعية على الإقليمين الجزائري والتونسي ، وكادت تتوقف فيهما دراسة الفقه السنن المالكي والحنفي حتى إذا فارقوا المهديّة إلى القاهرة في أواخر العقد السادس من القرن الرابع عادت إلى الفقهاء السنين حريتهم ، وأخذوا يعنون بدراسة الفقه المالكي ، وتولى المعز بن باديس شؤون القيروان وشرقي الجزائر سنة ٤٠٦ واشتد في عهده تدمير أهل القيروان من ذكر الخطباء على المنابر أسماء الخلفاء العبيديين والدعاء لهم في خطب الجمعة ، وبلغ بهم الأمر أن قطعوا صلاة الجمعة احتجاجا على الدعوة والدعاء لهم فيها ، ويقول ابن عذاري إن بعضهم كان إذا بلغ إلى المسجد قال سرا : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، وانصرف ، فصلّى الظهر . وانتهى الحال إلى تعطيل الجمعة في القيروان زمتا ، وأخذت تقوم مشادات عنيفة بين أنصار السنة وأنصار الدعوة العبيدية الشيعية منذ سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م وفي نفس هذه السنة قتلت العامة من أنصار العبيديين خلقا كثيرا رجالا ونساء ونهوا دور قوم منهم وأموالهم . ومن حين إلى حين كانت تثور بهم العامة في القيروان وأيضا في المهديّة عاصمة العبيديين ومدنيتهم المنصورية حتى إذا كانت

المغرب لابن عذاري والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وانظر في تعليقه لاتباع أهل المغرب مذهب مالك مقدمته في الحديث عن علم الفقه وراجع المذهب الحنفي في العهد العثماني بالجزء الأول من كتاب تاريخ الجزائر الثقافي في العهد العثماني لأبي القاسم سعد الله .

(١) انظر في المالكية الجزائريين كتاب رياض النفوس للمالكي والديباج المذهب لابن فرحون وفي المالكية المصريين الكبار المذكورين كتاب حسن المحاضرة للسيوطي وراجع في قرار المعز بن باديس بقطع الدعوة العبيدية وحمل أهل المغرب على مذهب مالك البيان

سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م تارت بهم العامة ثورة دامية سفك فيها كثير من الدماء في الحواضر والبادى ، ولم يتمكن المعز من إيقافها ، فرأى نزولا على إرادة شعبه نذ الدعوة العبيدية أو الفاطمية علانيةً وخلع طاعة خلفائها فى القاهرة ، وأمر بأن يحمل جميع أهل المغرب على اتباع مذهب الإمام مالك سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م وقيل بل فى السنة التالية ، وأمر أن يخطب على المنابر باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله وجاءه منه تقليد يعترف له فيه باستقلاله . ومن حينئذ أصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهي السنى الذى تتبعه البلدان المغربية وجماهيرها خلافاً للإقليم التونسى وشرقى الجزائر فحسب ، بل فى جميع بلدان الجزائر والمغرب الأقصى وأيضاً فى طرابلس وبرقة وأخذ يدرس فى كل بلد مغربى وكثر فقهاؤه كثرة مفرطة .

ويقول ابن خلدون - فى المقدمة - إن أهل المغرب اختاروا مذهب مالك دون غيره من المذاهب السنية كالذهب الحنفى والمذهب الشافعى لأنه مذهب أهل الحجاز الذين تجمعهم بهم البداوة ، وفى رأينا أن هذا التعليل غير دقيق ، لما سئرى عما قليل من شيوع مذهب الاعتزال فى الجزائر - ومثلها المغرب الأقصى - ومعروف أن البصرة هى التى وضعت دون الكوفة لأن عقلها - كما قلت فى كتاب المدارس النحوية - كان أدق وأعمق من عقل الكوفة لاتصالها بالثقافات الأجنبية وبالفكر اليونانى ، ولذلك وضعت أصول الاعتزال . فالتعليل لاختيار أهل المغرب مذهب مالك بالبداوة تعليل لا يستقيم ، وأولى من ذلك أن يعلّل إيتارهم لمذهب مالك من قديم ، لأنهم كانوا يقصدون إلى المسجد الحرام للحج ويزورون المدينة دار الهجرة وكان مالك إمام المدينتين غير مدافع وإمام أهل الحجاز ، فجلسوا إلى محاضراته فى المدينة دار الرسول ﷺ منذ أواسط القرن الثانى للهجرة وحملوا عنه موطأه إلى القيروان وتدارسوه فيها كما تدارسوه على تلاميذه المصرين النابيين يتقدمهم عبد الرحمن بن القاسم ، وكان قد فرّع على المذهب فروعا فى مدونة له حملها عنه أحد تلاميذه القيروانيين : سحنون ، وأذاعها فى طلابه ، وأصبحت فى البلاد المغربية : الجزائر وغير الجزائر أمّا للمذهب المالكي مثل كتاب إمامه الموطأ ، وظل المغاربة بعد سحنون يلتمسون المذهب المالكي عند أئمتهم المصرين الذين خلفوا عليه ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ هـ/٨٠٦ م وخلفه على إمامة المذهب المالكي بالفسطاط أشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ هـ/٨١٩ م وتولاها بعده عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م وإمام المالكية بعده فى الفسطاط أصبغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥ هـ/٨٣٩ م فكل هؤلاء الأئمة كان يرحل إليهم شباب المالكية المغاربة للتزود فى المذهب من حلقاتهم العلمية ، كما كانوا يتزودون من تلامذة سحنون فى ديارهم المغربية ، وتوات طبقات فقهاء المالكية فى الجزائر إلى اليوم .

وقد أخذ المذهب الحنفى وفقهاؤه ينشطون فى العهد العثماني إذ كانت الدولة العثمانية

تقصر الفتوى والقضاء على فقهاء المذهب الحنفي ، وكان كبير المفتين أو أصحاب الفتوى عندهم يلقب بلقب شيخ الإسلام وما إن استقر الحكم العثماني حتى أشرك الولاة العثمانيون مع القاضي المالكي قاضيا حنفيا ، وكان يأتي في أول العهد من إستانبول . وكان حكم القاضي المالكي لا يصبح نافذا إلا إذا وقع عليه القاضي الحنفي ، وتبع هذا القضاء الحنفي مدارس تعني بالفقه الحنفي ، وأخذت تنشأ فئة كبيرة من فقهاءه ومدرسيه ، وبعد أن كان القاضي الحنفي يأتي في صدر العهد العثماني من إستانبول أخذ أولو الأمر يعينون القضاة من أسر حنفية توارثت المذهب في الجزائر .

### ( ج ) الإباضية<sup>(١)</sup> والصفوية

الإباضية - قديما - من فرق الخوارج الذين أنكروا التحكيم الذي ارتضاه علي بن أبي طالب في الحرب الدائرة بينه وبين معاوية في صفين ، وقالوا إن الخلافة - أو إمامة المسلمين - لا يصح أن تقصر على قريش ، إذ ليست حقا لها ، بل هي حق لله ، وينبغي أن يتولاها خير المسلمين تقوى وإقامة للعدل ولو لم يكن قرشيا بل لو كان عبداً حبشيا ، وحرارهم علي بن أبي طالب وهزمهم ، وظلوا بعده يقاومون الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية ، وانقسموا فرقا كان من أكثرهم غلوا فرقتا الصفوية والأزارقة الذين عدوا دار المسلمين دار حرب ينبغي حربهم وجهادهم ماداموا يستسلمون لحكام الأمويين والعباسيين القرشيين الجائرين ، وتبع فرقة الصفوية كثيرون في سجنلماسة والمغرب الأقصى وحملوا السلاح ضد حكاهم من العرب وخاضوا معهم حرباطاحنة ، وكانت جيوشهم تمر أحيانا بالجزائر قاصدة القيروان مقر الحاكم الأموي والعباسي ومن بعدهما الحاكم العبيدي لحربه ، وكان يتبعهم بعض العامة من الجزائر ، ولكن جماهير الجزائر ظلت بعيدة عن اعتناق هذه العقيدة الخارجية العالية .

وإذا كانت الجزائر لم تعتنق العقيدة الصفوية فإن جماعات فيها اعتنقت الإباضية ، وتأسست لها دولة في مدينة تاهرت ، حتى إذا قضى عليها أبو عبيدالله الشيعي داعية المهدي العبيدي انسحب منها الإباضيون إلى باغاية وورقلة ، ثم تجمعوا في غرداية وقرى ميزاب ، ولايزالون إلى اليوم في كل هذه الأنحاء . وفرقة الإباضية لم تكن تغلو - من قديم - غلو فرقة الصفوية ، فهي لا تعدّ دار المسلمين دار حرب ولا تحمل السلاح لقتالهم وسفك دمائهم مثل الصفوية ، إلا أن يضطروها إلى ذلك ، وهي لا تعد - مثل الصفوية والأزارقة - مرتكب الكبيرة كافر ملة يجب قتله ، إنما هو كافر نعمة فلا ينبغي قتله ، وهم يتوارثون مع إخوانهم السنيين

(١) لأحمد توفيق المدني والجزء الثاني من تاريخ المغرب الكبير لديوز .

(١) انظر في الإباضية والصفوية كتاب الملل والنحل للشهرستاني وراجع في الإباضية السير للشماخي والأزهار الرياضية لسليمان الباروني وكتاب الجزائر

ويصهرون إليهم ، ولذلك يرى بعض الباحثين المعاصرين منهم أنهم ليسوا خوارج إذ لا يخرجون على الدين الخفيف وتعاليمه إنصافهم فرقة إسلامية كانت - ولا تزال - ترى أن تكون الخلافة - أو إمامة المسلمين - جمهورية ، فالمسلمون يختارون لها أكفأهم وأولاهم بحكمهم وتحقيق العدل بينهم ، وهم - إلى ذلك يختلفون مع أهل السنة مالكية وغير مالكية وجوها من الاختلاف ، من ذلك أنهم - مثل المعتزلة - ينفون تشبيه الله بالمخلوقين نفيًا مطلقًا ، والآيات القرآنية التي قد يفيد ظاهرها ذلك تؤوّل كما أوّلها المعتزلة ، وهم مثلهم يرون أن صفات الله عين ذاته الكاملة كإلا مطلقًا ويرون أن مرتكب الكبيرة إن مات على غير توبة خلد في النار ، بينما يذهب أهل السنة إلى أن أمره مفوض إلى مشيئة ربه إن شاء عذبه وإن شاء غفر له لقوله تعالى: ﴿إِن اللّهُ لَا يَغْفِرَ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ . ويذهبون إلى أن الإيمان لا يكفى فيه القول وحده ، بل لا بد من العمل معه بحيث لا يعد المسلم مؤمنًا إلا إذا أدى جميع الفروض الدينية . وكان أهل السنة يرون أن تظل الخلافة في قريش ، بينما يرى الإباضية - كما أسلفنا- أنها حق للمسلمين جميعًا يتولاها أصلحهم لها . وكلها خلافات يمكن عدها خلافات فرعية لفرقة إسلامية .

#### ( ٥ ) المعتزلة<sup>(١)</sup>

أخذ وأصل بن عطاء إمام المعتزلة بل مؤسس مذهب الاعتزال يتألق - في أواخر العصر الأموي - في عملين كبيرين : وعظه المؤثر في الناس ودعوته لهم أن يعتنقوا مذهبه في الاعتزال ومبادئه التي كان يدعوها ، وفي مقدمتها مسألة مرتكب الكبيرة وهل يعد مؤمنًا أو كافرًا ، وكانت المرجحة تعده مؤمنًا وكان الخوارج من الصفرية والأزارقة يعدونه كافرًا وكان أهل السنة يعدونه مؤمنًا فاسقًا ، وعده الإباضية كافر نعمة لا كافر ملة ، ونفذ وأصل إلى القول بأنه في منزلة وسطى بين منزلي الإيمان والكفر ، وأضاف إلى هذا المبدأ في الاعتزال أربعة مبادئ أخرى هي وحدانية الله وتزييه عن الشبه بالمخلوقات ، ومرّبنا أن الإباضية يأخذون بهذا المبدأ الاعتزالي ، ومبدأ ثان هو العدل على الله وتترتب عليه حرية الإرادة عند الإنسان بحيث يحاسب على عمله فلا جبر ولا قدر مقدور كما يرى ذلك أهل السنة والإباضية ، ومبدأ ثالث انفاذ الوعد بثواب المتقين المؤمنين والوعيد بعذاب العصاة الكافرين ، ومبدأ رابع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان وأصل ينفذ إلى القلوب بوعظه المؤثر وإلى العقول ببراهينه الساطعة لمبادئه الاعتزالية ، وأعجب به في المجالين شباب موطنه البصرة إعجابًا شديدًا ، واتخذهم دعاة يدعون إلى نخلته الاعتزالية ، في أطراف الأرض ويصور ذلك صفوان الأنصاري في مدحته له التي أنشدها الجاحظ في أوائل الجزء الأول من بيانه قائلا :

مجادلاتهم لإمام الإباضى عبد الوهاب وعلماء الإباضية  
وثورة جموعهم عليه الجزء الثالث من تاريخ المغرب  
الكبير لدبوز .

(١) انظر في مبادئ المعتزلة الملل والنحل للشهرستاني  
وكتابتها عن العصر العباسي الأول ، وراجع في قصيدة  
صفوان الجزء الأول من البيان والتبيين ، وانظر في

له خلفَ شَعْبَ الصِّينِ في كُلِّ ثَغْرَةٍ      إلى سوسها الأقصى وخلفَ البرابرِ  
رجالَ دعاةٍ لا يفلُ عَزيمَهم      تهكُّمُ جَبَّارٍ ولا كيدُ ماكرِ  
وأوتادُ أرضِ الله في كُلِّ بلدَةٍ      ومو ضعُ قُتباها وعلمُ التشاجرِ

ويصنفهم صفوان بالقدرة على التشاجر والجدال وقرع الحجّة بالحجّة البيّنة ، ويصنفهم في آيات تالية بروعة البيان والخطابة ويقول إنهم رسله ودعائه وحاملو مبادئ الاعتزالية إلى أطراف الأرض في أقصى الشرق حتى الصين وفي أقصى الغرب حتى بلاد السوس وقد استطاع هؤلاء الدعاة لواصل أن يجذبوا إلى نحلته الاعتزالية جماعات في الجزائر شمالا بين ميناءى مستغانم وهران وجنوبا في وادي ميزاب بمدينة العطنا ، ولاتزال لهم مقبرة بها ، ونجد المناظرات محذمة في تاهرت بين الإباضية والمعتزلة المقيمين شماليها وكانوا يبلغون ثلاثين ألفاً ، وهو عدد ضخم ، واشتعلت هذه المناظرات في عهد إمام الإباضية عبد الوهاب ( ١٧١ - ٢١١هـ ) ونازله هو وعلماء دعوته أحد علماء هؤلاء المعتزلة وهزمهم جميعا ، واستنجد عبد الوهاب بعلماء نفوسة في طرابلس وأرسلوا إليه شيخا منهم يسمى مهدي ، وتناظر مع عالم المعتزلة مناظرات حادة ، ولم تلبث المعتزلة أن حملت السيوف لقتال الإباضية ، ولم يكتب لهم النصر كما يقول مؤرخو الإباضية ، ولو كُتب لهم لتكونت في الجزائر دولة اعتزالية لأول مرة في التاريخ العربي . ويبدو أن الدعوة الشيعية التي قضت على الدولة الإباضية في تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجري قضت أيضا هناك على الدعوة الاعتزالية لافي الجزائر وحدها بل أيضا في المغرب الأقصى .



### الزهد<sup>(١)</sup> والتصوف

أخذت تشيع في الجزائر نزعة مبكرة للزهد في متاع الحياة العاجل والإقبال على العبادة والنسك طلبا للثواب عند الله في الآجل . وكان مما عمل على إشاعة الزهد والتقوى في نفوس الجزائريين الوعّاظ في أيام الجمع بالمساجد وفي غير أيام الجمع إذ كانوا مايزالون ينفرون الناس من ملذات الدنيا مذكّرين لهم بيوم القيامة وما ينتظر العصاة فيه من العذاب الأليم والثقة من النعيم المقيم ، مستشهدين لهم بآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية التي تصور عذاب الجحيم ونعيم الفردوس ، حاثين لهم على القناعة بالكفاف من العيش وطيباته فتلك هي الوجهة المفلحة

في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم تراجم عن أعلام الصوفية ، وانظر في صوفية الأندلس المذكورين كتابنا عن الأندلس وما فيه لهم من مراجع .

(١) تفيض تراجم الفقهاء والمحدثين الجزائريين في كتاب عنوان الدرابة للغيربي والدياح المذهب لابن فرحون بأخبار زهد الزهاد . وفي كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات التادلي وكتاب البستان

والصفقة الراجعة . لذلك لا نعجب أن يتكاثر الزهاد فى البلاد المغربية بالجزائر وغير الجزائر وأن ينعت العديد من الفقهاء والمحدثين بالزهد فى خيرات الحياة وإيثار التقشف والرضا بالقليل . وتظل موجة الزهد حادة فى الجزائر ، وتندافع معها موجة تصوف منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبى ( ١٥٤ - ١٧٠هـ ) ويناقه على الساحل التونسى لرباط المستير الذى آوى إليه كثرة من العباد لحراسة الساحل التونسى ، وأخذت تبني رباطات أخرى على سواحل البلاد لحمايتها من قرصنة أم البحر المتوسط الأوربية . وكان ينزلها كثير من النسك والفقهاء للإسهام فى هذه الحماية قياماً بحقوق الدين والوطن ، واستحالت هذه الرباطات قروناً إلى دور عبادة ونسك كبرى . ومنذ القرن السادس الهجرى يتخذ بعض النسك لهم فى المدن مراكز يتابعون فيها نسكهم وما قد يلقون من دروس إن كانوا فقهاء أو محدثين ، وسميت هذه المراكز رباطات وزوايا ، ويتبرع كثيرون لبعض هذه المراكز ، فيتضاعف حجمها ويتضاعف مريدو الشيخ الناسك وقصّاده . وأخذت هذه الزوايا والرباطات تتكاثر مع الزمن لا فى المدن فحسب ، بل أيضا فى سفوح الجبال وفى الهضاب والصحارى البعيدة القاحلة .

وكانت الطرق الصوفية قد شاعت فى المشرق على نحو ما هو معروف عن الطريقة القادرية المنسوبة إلى عبد القادر الجيلانى المتوفى ببغداد سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥م والطريقة الرفاعية المنسوبة إلى أحمد بن على الرفاعى العراقى المتوفى سنة ٥٨٧هـ / ١١٨٢م . وأخذت هاتان الطريقتان تشيعان فى جميع البلاد الإسلامية ، وكان أتباع الطريقة القادرية فى الجزائر أكثر عدداً . وتصوف الطريقتين جميعا تصوف سنى . وكان يجرى بجانبهما فى المشرق تيار من التصوف الفلسفى الذى يفسح لفكرة الحلول الإلهى فى الكائنات كما يفسح لفكرة الاتحاد الصوفى مع الذات العلية ، وهو تيار قديم فى التصوف منذ الحلاج مؤسسه المتوفى سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م وأخذ أتباع هذا التصوف الفلسفى يتكاثرون فى الأندلس منذ القرن السادس الهجرى على نحو ما بسطنا ذلك فى كتابنا عن الأندلس ، وقد تحدثنا هناك عن أبى عبد الله الشوذى الإشبلى وتلميذه إبراهيم بن دهاق المتوفى سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م كما تحدثنا عن ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤١م بدمشق وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م بمكة . وهم جميعا من أصحاب التصوف الفلسفى ونزلوا جميعا فى تلمسان ، وبها تلمذ ابن دهاق على أبى عبد الله الشوذى ونزل بها فترة ابن عربى وابن سبعين وتجولا فى بعض مدن الجزائر ، ونزلها قبلهم جميعا الصوفى المشهور وبخاصة فى الجزائر أبو مدين شعيب وستترجم له بين شعراء التصوف وتصوفه فلسفى ، وقد استوطن بجاية وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م .

وهذا التصوف الفلسفى لم تتكون حول أئمة طرق صوفية ، فقد ظلت تلك الطرق تخص التصوف السنى وتكونت معها فى القرن السابع الهجرى طريقة صوفية سنية مغربية هى طريقة

أبى الحسن على بن عبدالله الحسنى الشاذل المتوفى سنة ١٢٥٩/٥٦٥ م ولم يكذب يدعو إليها في شاذلة بالقرب من تونس وفي تونس نفسها حتى تكاثر أتباعه في البلاد المغربية ونزل القاهرة مع تلميذه أبى العباس المرسى ، وكُتب لطريقته أن تصحح أهم الطرق الصوفية السنية لافى مصر وحدها ، بل أيضا في الجزائر وجميع البلاد المغربية . ويتكاثر شيوخ الصوفية وزواياهم في الجزائر منذ القرن الثامن الهجرى ويعنى بعض المؤرخين بالترجمة لهم وفي مقدمتهم يحيى بن خلدون إذنراه في كتابه « بغية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد » يسوق ترجمات لمائة وتسعة من العلماء وأهل التقوى والصلاح ، ويتكاثر رجال التصوف في القرن التاسع الهجرى ويزدادون زيادة مفرطة في العهد العثماني ، لعنايته بالتصوف وتقريبه لهم وإغداقه الأموال على زواياهم وكان الولاة العثمانيون يزورونهم ويتبركون بهم ويزورون أضرحة المتوفين منهم ، ودخلت معهم إلى الجزائر الطرق الصوفية التي اشتهرت ببلادهم مثل البكداشية والنقشبندية والمولوية أتباع جلال الدين الرومى ، ولكن الطريقتين الشاذلية والقادرية ظلتا تجذبان إليهما كثرة من الأتباع . وأخذ بعض أتباع الشاذلية يؤسس لنفسه فيها طريقة فرعية جديدة ، بحيث أصبحت هى والطرق التي اشتقت منها مثل المليانية والزيبانية والرحمانية والدرقاوية أهم الطرق التي استوعبت جماهير الجزائر في المدن والقرى والهضاب والصحارى . ولا بد أن نشير إلى أن هذه الفئة من المتصوفة اندس بينها كثيرون في الحقب الأخيرة من هذا العصر يدعون لأنفسهم التقوى وهى منهم براء ، بل لقد كانوا يدعون أنهم أولياء يكشفون الغيب وينسبون لأنفسهم الكرامات ، واندس معهم كثيرون من الدراويش الجوالين والمشعوذين الدجالين ، مما جعل عبد الكريم الفكون يولف كتابه : « منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية » وهو فى ثلاثة فصول أولها فيمن لقيه من العلماء والصلحاء المقنتدى بهم ومن كانوا قبل زمنهم ممن نقلت إليه أحوالهم وصفاتهم . والفصل الثانى فى المتشبهين بالعلماء والصلحاء ، والفصل الثالث فى المبتدعة « الدجاجلة » الكذابين على طريقة الصوفية . والفصلان الثانى والثالث مليان بنقد متصوفة عصره من أدعياء العلم ودجاجلة الشعوذة الصوفية الذين يتخذون الرقص الصوفى أو مايسمى بالذكر والتغنى عليه بضاعة لهم يستغلون بها العامة مع تحالفهم عليها مع أصحاب الحكم والسلطان ، ويصيح ضد البدع والخرافات ، ويدعو إلى الاجتهاد واستخدام العقل والعمل بالكتاب والسنة .

## الفصل الثالث

### الثقافة

١

#### الحركة العلمية

( أ ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

عجب كثير من المستشرقين في السرعة التي انتشر بها الإسلام في الجزائر وغيرها من أقطار المغرب ، إذ لم يمض نحو قرن أو بعبارة أدق لم يمض القرن الأول الهجري ، حتى أصبحت الأقطار المغربية أقطاراً إسلامية ، ومبعت العجب عندهم أن الفينيقيين ظلوا - وحدهم - في البلاد أكثر من ستة قرون ولم يستطيعوا أن ينقلوهم إلى لغتهم وحضارتهم وديانتهم وعاداتهم ، وخلفهم الرومان نحو ستة قرون أخرى وظل تأثيرهم لا يكاد يعدو مدن الساحل الشمالي ، وحاولوا نشر المسيحية في تلك المدن ، ولم يعتنقها فيها من البربر إلا قليلون . ونزلتها بيزنطة وشعبها الإغريقي ، وكان تأثيرهم في المدن الشمالية محدودا . وظل البربر بعامة محافظين على دينهم الوثني ولغتهم وعاداتهم ، حتى إذا فتح العرب الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أخذت جماهير البربر تعتنق الإسلام وتحاول النطق بلغته ، وكان لذلك عاملان : عامل الإسلام نفسه وتعاليمه الدينية البسيطة وما فرضه على الفاتحين من العرب والمسلمين أن يعاملوا الأمم المفتوحة معاملة سميحة وأن يصبح للمسلمين منها أو بعبارة أدق من يسلمون منها كل ما للفاتحين من حقوق ، فلا عبودية ولا استعمار ولا استنزاف لخيرات البلاد ولا استعباد لفرد فضلا عن شعب ، فالجميع متساوون ، وقد محيت بين المسلمين الجدد من البربر والفاتحين كل الفوارق الجنسية والاجتماعية . والعامل الثاني هو الفاتحون أنفسهم ، إذ لم يكونوا يفتحون للغنائم والسلب والنهب ، ولم تكن تلك أمنيتهم حينما خرجوا من ديارهم للفتوح في الأقطار المغربية وغيرها ، إنما كانت أمنيتهم أن ينتظموا في جيوش المجاهدين في سبيل الله ابتغاء نشر دينه الخفيف في أرجاء الأرض .

كان الجندى في الجيش العربي الفاتح بمجرد أن يضع قدمه في بلدة جزائرية أو مغربية أو في أى قبيلة جبلية أو صحراوية يحاول أن يُدخل في الدين الخفيف من يأمنون إليه من البربر ، فيحفظهم فاتحة الكتاب وبعض كلم العربية في التخاطب . وأخذت الكتابات تنشأ

سريعا فى كل مكان لتعليم البربر فروض الإسلام وتحفيظهم بعض سور القرآن . وأخذ الولاة يسندون نشر الدين الحنيف بوسائل كثيرة ، ومن أهمهم فى هذا الجانب حسان بن النعمان ( ٧١-٨٦هـ ) وكان قد ثار عليه شطر كبير من الجزائر فى جبل أوراس قاداته قبيلة جراويّة وزعيمتها الكاهنة : « داهية » وأشعلت جميع الجزائر نارا ، وامتدت نار ثورتها حتى طنجة فى أقصى المغرب ، وساعدها الروم ، وواقعت حسان بن النعمان سنة ٧٧ للهجرة وهزيمته ، وظل ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك بن مروان سنوات ، وبمجرد أن جاءه نازل الكاهنة وجموعها ودارت عليها الدوائر . وبالهام من الإسلام وتعاليمه فى معاملة البلاد المفتوحة جنّد حسان من هذا الجيش الجزائرى المنهزم اثنى عشر ألفا أدخلهم فى الجيش العربى للمشاركة معه فى الجهاد بنفس الأعطيات والرواتب والحقوق للجند العربى وليس ذلك فحسب ، فقد عدّ أرض الجزائر - والمغرب عامة - فتحت صلحا لا عنوة ، وهى بذلك تظل لأهلها مع ما يؤدون عنها من خراج أو زكاة ، وأيضا ليس ذلك فحسب ، فإنه ولّى على قبيلة جراويّة وجبل أوراس واليا بربريا هو أكبر أبناء الكاهنة « داهية » . وكل تلك كانت بواعث فعالة لدخول الجزائريين والمغاربة فى دين الله أفواجا ، فلم يعودوا مستعبدين لفاتحين فينيقيين أو رومان أو بيزنطيين يظلمونهم ويردقونهم بالضرائب المتنوعة ، بل أصبحوا أحرارا فى ديارهم ولحم ما للفاتحين من الحقوق ، فهم إخوة دين حنيف وهم زملاء سلاح وهم حكام أنفسهم . وبهذه السياسة الحصيفة الرشيدة انفتحت قلوب البربر فى الجزائر وغير الجزائر لدين الله القويم . وخلف حسانا موسى بن نصير ( ٨٦-٩٦هـ ) فوثق هذه السياسة وزادها ضبطا وإحكاما ، إذ جاس خلال الديار المغربية حتى أقصاها فى الغرب ، وفى كل بلد وفى كل قبيلة خلف معلمين يحفظون الناس القرآن ويعلمونهم فروض دينهم وتعاليمه ، واتخذ للبربر ولادة من ذات أنفسهم ، ومن أهمهم طارق بن زياد والى طنجة الذى عهد إليه بفتح الأندلس وعبر إليها بجيش من العرب والبربر ، وتبعه موسى بن نصير بجيش مماثل ، مما يدل بوضوح على اندماج البربر فى العرب دينا وجهادا فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف .

ولانبلغ سنة مائة للهجرة فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، حتى نجده يكلف عشرة من الصفوة فى فقهاء التابعين بالذهاب إلى إفريقيا لاستكمال نشر الإسلام فيها وتعليم البربر شريعة الإسلام وما تقوم عليه من الإيمان بوحداية الله وغير ذلك من أصول العقيدة الإسلامية وأيضا ما تقوم عليه من العبادات والفرائض ، واختار أحدهم ، وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ليكون الوالى على جميع البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ويقول عنه ابن عذارى : « ما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلمت بقتيتهم على يديه » وعلى أيدى معاونه من الفقهاء التسعة الذين اصطفاهم عمر بن عبد العزيز لهذه المهمة ، وهم عبد الرحمن بن رافع التبوخى وعبد الله بن يزيد المعافرى الحلبى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وحبان بن أبى جبلة وبكر بن سودة

الجدامى وجعثل بن عمير وموهدي بن حى المعافى وطلق بن حابان وسعيد بن مسعود التجيبى وكل منهم كان فقيها يتقن معرفة الشريعة ويروى الحديث النبوى عن الصحابة من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبى أيوب الأنصارى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكانوا يحسنون تفسير القرآن الكريم ، وقد تحولوا جميعا مع إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر فى إفريقية إلى معلمين يفقهون البربر أمور شريعتهم ، وأتاهم البربر من كل فج من الجزائر وغير الجزائر يدرسون عليهم الشريعة الإسلامية ، وعنوا بتحفيظهم القرآن الكريم . واتخذ كل منهم بجانب المسجد الذى بناه ككتابا لتحفيظ الناشئة القرآن . فأسلمت وتفقهت على أيديهم جموع كبيرة من البربر ، وهم يُعدّون - بحق - المعلمين الأولين للبربر تعاليم الشريعة الإسلامية ، وبهم تمّ العمل الكبير من نشر الجيوش العربية وولاية المغرب من أمثال حسان بن النعمان وموسى بن نصير الدين الحنيف فى ربوع المغرب جزائر وغير جزائر ، وانضمت الأمة البربرية إلى الأمة العربية فى دين واحد وعقيدة واحدة .

( ب ) دور العلم : الكتاتيب - المساجد - المدارس - الزوايا - المكتبات

### الكتاتيب

أخذت تتأسس عقب الفتح الإسلامية فى بلدان الجزائر كتاتيب لتعليم الناشئة والناس القراءة والكتابة العربيتين وتحفيظهم القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية وتعريفهم بما ينبغى أن يعلموه من فروض الإسلام وتعاليمه . وكانت هذه الكتاتيب تُبنى مستقلة أو ملحقة ببعض المساجد ، وأخذت المعارف فى هذه الكتاتيب تتسع بمر الزمن ، فشملت مبادئ الحساب وسيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ولكن العناية الكبرى إنما كانت تنصب على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث حتى يرسخ الإيمان فى نفوس الناشئة ، وتأتى بعد ذلك مدارس الحساب وغيره من مبادئ العلوم ، وكانت الكتاتيب منتشرة فى المدن والقرى وفى كل تجمع للقبائل الجزائرية الجبلية والصحراوية وتكاثرت فى المدن كثرة مفرطة ، حتى كانت تعد بالعشرات فى طبة وقسنطينة وبونة وبيجاية وتاهرت والجزائر وتلمسان والميزاب فى بسكرة وغير بسكرة .

### المساجد

كانت الناشئة حين تنهى حفظها للقرآن الكريم وبعض متون الحديث وتتعرف على مبادئ العربية والعلوم فى الكتاتيب تنجّه إلى حلقات المساجد وما يلقى فيها الشيوخ من الدروس فى موضوعات كثيرة ، فى مقدمتها تفسير الذكر الحكيم ، ورواية الحديث النبوى ، والفقّه

وما يصور من تعاليم الشريعة ، وتاريخ الرسول والخلفاء الراشدين والفتوح الإسلامية والأمة العربية ، وكان من هؤلاء الشيوخ من يقدم في دروسه أوليات المواد والعلوم في الدراسات الدينية والدراسات النحوية واللغوية وكأنه هو ومن يماثلونه يشبهون معلمى التعليم الثانوى فى عصرنا ، حتى إذا أتقنها الناشئ و فقهها حق الفقه انتقل إلى حلقات شيوخ أعلى فى المستوى العلمى ، يلقون محاضرات متعمقة فى تفسير الذكر الحكيم ، ويقراءون - ويشرحون - بعض كتب الحديث النبوى المهمة ، ويلقون على الطلاب كتاب الموطأ لمالك أو ما يماثله حتى يتسع فهمهم وفقههم لتعاليم الإسلام فى فروض الدين ووجوه المعاملات ، ويحاضرونهم فى قواعد العربية ، ويقراءون لهم بعض كتبها المهمة مع الشرح والتفسير ، كما يقرأون لهم بعض كتب الشعر والنثر محاولين أن يغرسوا فى نفوسهم السليقة العربية وأن يصبحوا قادرين على نظم الشعر والكتابة الأدبية . ومع مر الزمن أخذت تلك الحلقات الكبرى وخاصة فى الجامع الأعظم أو الكبير بالمدينة تدرس علوم أصول الفقه والكلام والمنطق والطب والفلسفة ، وبذلك كان الجامع الأعظم فى كل مدينة جزائرية يعد جامعة كبرى لدراسة العلوم الثقيلة والعقلية . وكانت تلحق به وبعض المساجد أبنية أو زاوية بها غرف معدة بالأثاث والفرش اللازمة لسكنى الطلاب من خارج المدينة وبعض الشيوخ ، ويقوم عليها من يعد لهم الطعام ومن يخدمهم . وكان يُنفق على الجوامع والمساجد من أوقاف محبوسة وكان أهل الثراء والسعة فى الرزق يتنافسون فيما يجسرون عليها من عقارات . ومن التوابع الضرورية للجوامع والمساجد الثريات والمصايح المضيفة والميضات للوضوء والطهارة .

### المدارس

بجانب الجوامع والمساجد أخذت تنشأ منذ عصر الحفصيين فى القرن السابع الهجرى المدارس فى القسم الشرقى من الجزائر الذى كان تابعاً لهم ، أسوة بما أسسوا من مدارس فى عاصمتهم تونس ، حتى إذا استولت دولة بنى زيان على مقاليد الحكم عُنى بعض حكامها بتشيد المدارس فى عاصمتهم تلمسان ، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة . وأول مدرسة أسسوها مدرسة أولاد الإمام أسسها أبوحمو موسى الأول ( ٧٠١-٧١٨هـ ) للفقهاء أبي زيد وأبى موسى ابنى الإمام الخطيب أبى عبد الله ، وأسس بعده ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن الأول ( ٧١٨-٧٣١هـ ) المدرسة التاشفينية ، وأسس أبوحمو موسى الثانى ( ٧٦٠-٧٩١هـ ) المدرسة اليعقوبية ، وأسس أحمد العاقل مدرسته الجديدة ووقف عليها أوقافاً جليلية ، وأسس أبو الحسن مدرسة خامسة بالعباد ضاحية تلمسان . ويذكر الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا أنه شاهد بتلمسان حين زيارته لها حوالى سنة ٩٢٠ للهجرة خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا ( لعلها المدارس السابقة ) ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية . وأخذت

المدارس تتكاثر في العهد العثماني بالجزائر لا في العاصمة : مدينة الجزائر وحدها بل أيضا في المدن المختلفة مثل قسنطينة ، وكان بها وحدها سبع مدارس . وكان يقوم على التدريس في مدارس الجزائر جميعا علماء مهرة في العلوم الدينية واللغوية والأدب والفلسفة والطب والمنطق ، وكانت تنفق عليها الدولة أحيانا . وفي أكثر الأحيان كانت تعتمد على أوقاف حبسها ذوو اليسار عليها ، وكانت تلحق بها مبان لسكنى الطلبة الغريباء وكانت تزود بكل ما يلزمهم من مطعم وملبس وأثاث ويمن يخدمهم ويوفر لهم النظافة والراحة .

## الزوايا

أخذت تتكاثر منذ القرن الثامن الهجري الزوايا في أنحاء البلاد المغربية جميعها جزائر وغير جزائر ، وكانت الزاوية تشتمل على مسجد تؤدى فيه فروض الصلاة ، وأبنية لسكنى الطلبة الغريباء والفقراء ( الزهاد ) ، وكانت تحبس عليها أوقاف كثيرة ينفق منها على شيوخها الذين ينهضون فيها بדרوس العلوم الدينية واللغوية وعلى طلابها الغريباء والتازلين بها من الفقراء ، وكانت بذلك دار تعليم ودار عبادة ، وكثيرا ما كان يدفن فيها الشيخ الصالح الذى أقامها ، فينصب له ضريح فيها وتقام عليه قبة ، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به ، ويعد مؤسس الزاوية المسئول الأول عنها ، وترث ذريته القيام عليها ، ويتبعها موظفون للقيام بالخدمات المختلفة . وكانت الزوايا بجانب أنها دور عبادة تعنى بإلقاء المحاضرات فى الموضوعات والعلوم الدينية المختلفة ، فهى دور عبادة وتعليم ، وتحول كثير منها - وخاصة فى المدن الجزائرية - إلى ما يشبه مدارس عالية . وكان كثير من التلامذة يقصدها من الأماكن القريبة والبعيدة ، وكما كانت تعنى بتعليم الناشئة كانت تعنى بتنوير العامة ، وكثرت كثرة مفرطة منذ القرن العاشر فى منطقة زواوة وبجاية وعنابة أو بونة ، ويقال إنها بلغت فى مدينة الجزائر نحو ١٥ زاوية ، وبلغت فى قسنطينة نحو ١٦ زاوية ، أما فى تلمسان فبلغت نحو عشرين زاوية .

## المكتبات

فى كل مسجد - من قديم - كانت الزوايا تتخذ المكتبات ، وكانت تجمع إليها بجانب المصاحف وكتب الحديث النبوى أمهات الكتب فى الفقه وغير الفقه ، وكانت الدولة تساعد فى شرائها ويساعد ذوو اليسار ، وكثيرا ما كانت توقف أو تحبس لطلاب العلم وشيوخه ، واشتهر إبراهيم الثانى الأعلى باتخاذها فى عاصمة رقادة بقرب الثيرون بيتا أو مؤسسة سماها بيت الحكمة جلب إليها أصحاب علوم الأوائل وغيرهم من العلماء وأقام بها مكتبة ضخمة تتبعها قاعات للجلوس والمطالعة . وكأنا أراد بها أن ينافس الدولة الرسمية فى تاهرت التى عنيت منذ إمامها عبد الرحمن بن رستم ( ١٦٠-١٧١هـ ) بإنشاء مكتبة كبيرة فى عاصمتها وتبعه خلفاؤه يعنون بها ، ويذكر عن ابنه عبد الوهاب ( ١٧١-٢١١هـ ) أنه أرسل إلى بعض

الإباضيين فى البصرة بألف دينار ليشترؤا له كتباً بها ، فاشترؤا له كثيراً من الكتب وأرسلوها إليه على أربعين بعيراً كما يقول البارونى فى الأزهار الرياضية . وما زال خلفاؤه يجمعون لتلك المكتبة الكتب مسمين لها باسم المعصومة حتى بلغت ثلاثمائة ألف كتاب فى الدراسات الدينية واللغوية والرياضية وغير الرياضية من علوم الأوائل ، وهالت أبا عبيد الله داعية العبيدين حين استولى على تاهرت سنة ٢٩٦ للهجرة ، فأمر بإحراقها ما عدا الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من طب وغير طب .

وظل الاهتمام بجمع الكتب لمكتبات المساجد مطردا فى عهد الدولة الحمادية ، ولها وللمدارس والزوايا فى عهد الدولة الزيانية . وينوه المؤرخون بما كان فى زاوية إبراهيم التازى بالقرن التاسع الهجرى من خزائن متعددة مكنته بالكتب العلمية . وظلت - طوال القرون المختلفة فى العصر - الكتب تهاجر مع طلبة العلم الوافدين على المشرق إلى الجزائر ، وظلت تودع فى المكتبات المختلفة للزوايا والمدارس والمساجد . ومن يقرأ تراجم العلماء فى كتاب مثل عنوان الدراية يشعر أنه لم يؤلف فى المشرق ولا فى تونس والأندلس كتاب مهم إلا نقل إلى الجزائر : فى القراءات والتفسير أو الحديث النبوى أو الفقه المالكي أو النحو أو الأصول أو المنطق أو علوم الأوائل وخاصة كتب الشفاء والنجاة والإشارات والتهيهات لابن سينا ، وبالتل كتاب ابن رشد الأندلسى . فالتيار العلمى فى الأقطار العربية كان جارفاً ، وكانت كتبه شرقاً وغرباً تصبُّ فى مكتبات كل بلد عربى جزائر وغير جزائر ، فيما بها من مساجد وزوايا ومدارس . وكثير من الأسر التى كانت تتوارث العلم اشتهرت باقتنائها مكتبات كبيرة مثل أسرة الفكور فى قسنطينة ، وكان بالجزائر هواة للكتب يتفقون فى جمعها أموالاً طائلة ، وكانوا منبئين لا فى المدن فحسب بل أيضاً فى الواحات والصحارى ، ويذكر العياشى فى القرن الحادى عشر الهجرى برحلته أن مكتبة شيخ يسمى محمد بن إسماعيل تيكوران كانت تضم نحو ألف وخمسمائة كتاب ، فما بالناس بما ضمته مكتبات المساجد والمدارس والزوايا .

### ( ج ) نمو الحركة العلمية

أخذت الحركة العلمية تنمو فى الجزائر منذ القرن الثانى الهجرى ، وخاصة منذ عهد الدولة الأغلبية إذ كانت ترعاها فى شرقى الجزائر فى بونة ( عنابة ) وقسنطينة وطبنة وغيرها من البلدان . وتأسست منذ سنة ١٦٠ للهجرة فى غربى الجزائر بمدينة تاهرت الدولة الرستمىة الإباضية ، وظلت طوال قيامها حتى سنة ٢٩٦ للهجرة ترعى العلم والعلماء ، ويعدُّ الأستاذ محمد على ديبوز فى الجزء الثالث من كتابه : تاريخ المغرب الكبير عشرات منهم قائلاً إن الدولة الرستمىة كانت دولة العلم والمعرفة وإن العلماء كثروا فيها ، وزخرت بهم مدنهم وقراها ، حتى

ليعدون بالثقات . وخلفت الدولة الرستمية دولة بنى حماد واتسع سلطنتها ، فشمل انجزائر أو أكثرها ، وقد بنى حماد مؤسسها قلعة سنة ٣٩٨ على منحدر جبلي بالقرب من المسينة ( المحمدية ) وسرعان ما أصبحت مدينة عربية ضخمة ، يقول ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه إن « حمادا استكثر في القلعة من المساجد والقنادق فاستبحرت في العمارة واتسعت في التمدن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلدان البعيدة طلاب العلوم وأرباب الصنائع لرواج أسواق المعارف والحرف والصنائع بها » وظلت - من حيثذ - مركزا كبيرا للدراسات الدينية واللغوية ، حتى بعد انتقال الناصر الحمادى منها سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م إلى عاصمته الجديدة : بجاية وكان كثير من أبنائه وأحفاده يكرمون العلماء ويعقدون لهم مناظرات في مجالسهم وبعثوا في القلعة ثم في بجاية نهضة علمية وأدبية ، وأم حاضرتيهما بعض العلماء والشعراء المرموقين من أمثال ابن حمديس مادمح المنصور بن الناصر بن علناس ( ٤٨١ - ٤٩٨ ) بالقصائد الطنانة في مدحه ووصف قصوره ، واشتهر ابنه العزيز ( ٤٩٨ - ٥١٨هـ ) بأن بلاده كانت سلاما وأمنا وأن العلماء - كما يقول ابن خلدون - كانوا يتناظرون في مجالسه وقد بذل جهودا خصبة في إنماء الحركة العلمية ببجاية ، حتى أصبحت مركزا علميا ضخما لا بعلمائها المحليين فحسب ، بل أيضا بوفود العلماء المنتقلين إليها من القلعة ووفودهم اللاجئة إليها من الأندلس والبلاد المغربية ، واطردت هذه المكاتبة العلمية لبجاية بعد سقوط دولة بنى حماد سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م إذ اشتهرت بها طائفة أو طوائف من العلماء والأدباء وظل يفد عليها غير عالم وأديب وخاصة من الأندلس ، ويوضح ذلك كتاب عنوان الدراية في علماء بجاية للغبريني إذ ترجم فيه لأكثر من مائة عالم من علماء بجاية في القرنين السادس والسابع للهجرة ، وهؤلاء هم المشهورون ووراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة . ويدل على كثرة غير المشهورين ما رواه الغبريني عن أبي على المسيلي المتوفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م من أنه قال : « أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا » ويعلق الغبريني على كلمته بقوله : وإذا كان من المفتين ببجاية تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركهم . وظلت النهضة العلمية بها مزدهرة في القرون التالية وزارها الحسن الوزان حوالى سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م وقال إنها « مجهزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدارس التي يكثر فيها الطلاب وأساتذة الشريعة والعلوم سوى الزوايا للنسك المتعبدين » .

ومنذ سنة ٦٣٣هـ/١٢٤٠م تنشأ في تلمسان دولة بنى زيان ، وقد بثت فيها نهضة علمية وأدبية رائعة ، ويقول التنسي في كتابه تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان عن مؤسس الدولة : يُعْمَرُ اسن ( ٦٣٣ - ٦٨١هـ ) إنه كان له في أهل العلم رغبة عالية يبحث عنهم أينما كانوا ويستقدمهم إلى بلده ويقابلهم بما هم أهله ، ومن استقدمهم إبراهيم بن يخلف

التنسي وأقطعه إقطاعات واسعة ، ولما اشتهرت عنايته بأهل العلم والأدب وفد عليه من الأندلس أبو بكر بن خطاب الكاتب، فأكرمه، وجعله رئيس ديوانه . ويقول التنسي عن حفيده أبي حمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) إنه كان محبا للعلم وأهله معتنيا به قائما بحقه، ولما وفد عليه الفقيهان أبو زيد وأبو عيسى ابنا الإمام محمد بن عبدالله من أهل برشك بالقرب من تنس على الساحل الشمالى للجزائر احتفل بهما، وبنى لهما المدرسة التى سميت مدرسة أولاد الإمام فنشرا بتلمسان كثيرا من العلوم، وكان ابنه أبو تاشفين حفيبا مثله بالعلم وأهله ولما وفد عليه الفقيه أبو موسى عمران المشدالى الزواوى احتفى به وولاه التدريس بمدرسته التاشفينية الجديدة. وكان على شاكلته أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) فى رعاية العلم والعلماء، وكان أدبيا وشاعرا بارعا وله كتاب نظم السلوك فى سياسة الملوك ضمنه بعض أشعاره، وهو أول من احتفل من ملوك الدولة بلبلة المولد النبوى، وبلغ من احتفائه بالفقيه أبى عبدالله محمد بن أحمد الإدريسي أن بنى له مدرسة ليلقى فيها دروسه. ويشيد التنسي بأبى زيان محمد بن أبى حمو (٧٩٦-٨٠١هـ) قائلا إنه « كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه وروضة أجنانه، فلم تخلُ حضرته من مناظرة ولا عمرة إلا بمذاكرة ومحاضرة، وكتب يده نسخا من القرآن الكريم ونسخة من صحيح البخارى ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ، ووقفها جميعا بخزانه فى مقدم الجامع الأعظم أو الكبير بتلمسان ، وألف كتابا نحا فيه نحو التصوف ، سماه « كتاب الإشارة فى حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة » ووجه هدية إلى برقوق سلطان مصر ومعها قصيدة بديعة .

وينوه التنسي بأبى مالك عبد الواحد (٨١٤-٨٣٣هـ) قائلا: « فى أيامه نفق (راج) سوق الأدب ، وجاء بنوه إلى بابه ينسلون (يسرعون) من كل حدب (موضع) فينقلبون بجر (مملوئى) الحقايب ظافرين بجزيل الرغائب (بوافر العطايا). ونرى يحيى بن خلدون فى كتابه «بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبدالوادمعدد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء الصالحين ويبلغ بهم مائة وتسعة وجمهورهم من العلماء الذين دوى صيتهم، وإذا كان عددهم قد بلغ ذلك فى عهد يحيى بن خلدون المتوفى فى أواسط عصر الدولة الزيانية حول سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م فإن عددهم - لاشك - تضاعف بعده ، وبلغ بعددهم بعده ابن مريم فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى فى كتابه : « البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » مائة واثنين وخمسين عالما . وأخذت تلمسان - كما أخذت بجاية - تتراجع علميا وثقافيا فى العهد العثمانى ، إذ أصبحت مدينة الجزائر العاصمة ، وأخذت تجذب إليها العلماء والأدباء وإن ظلوا مبعوثين فى عاصمتى بنى حماد وبنى زيان وبونة وبسكرة وغيرها ، وخاصة قسنطينية إذ ظل بها فى العهد العثمانى نشاط علمى غزير .

ولم أتحدث - حتى الآن - عن هجرات الأندلسيين إلى الجزائر منذ هزيمة دولة الموحديين في واقعة العقاب بالأندلس سنة ١٢١٢/٥٦٠٩م فقد بدا لكثيرين منهم أن المستقبل ينذر برجحان كفة الإسبان وقرب استيلائهم على البلدان الأندلسية ، وأخذ نفر منهم غير قليل يهاجر إلى البلاد المغربية باحثا له عن وطن جديد يلتجئ إليه ، وأخذت مدنهم تتساقط في حجر الإسبان منذ العقد الرابع من القرن السابع الهجرى ، وسقطت جوهرتهم الكبرى قرطبة ، وتبعها في السقوط دانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس وبلنسية ثم مرسية . وكانت كل مدينة أندلسية تسقط ينزح منها إلى مدن الجزائر وغيرها من المدن المغربية أندلسيون كثيرون ، وكان الأثرياء منهم والعلماء ينزلون مدن الساحل الشمالى فى الجزائر وينزل معهم بعض أصحاب الحرف والصناعات . أما أهل القرى الأندلسية فكاتبوا ينزلون فى السهول والوديان - وربما نزلوا فى سفوح الجبال كما كانوا ينزلون فى الأندلس - وكانوا يعنون بالزراعة وغرس الأشجار وإنشاء الحدائق والبساتين . وأخذت تكتظ بهم المدن الشمالية مثل وهران ومستغانم وبونة ( عنابة ) وبجاية ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية بالقرن السابع الهجرى سيجد من بينهم أكثر من عشرين عالما وأديبا نزحوا من الأندلس إلى بجاية حينذاك وملئوها علما وأدبا ، وكانوا من العوامل الفعالة فى نهضتها العلمية والأدبية . وتهبط إلى الجزائر من الأندلس موجة ثانية كبيرة بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢/٥٨٩٧م ويستوطنون المدن الساحلية المذكورة آنفا وأخواتها على الساحل الشمالى مثل شرشال ويقول الحسن الوزان « إن كثيرا من الغرناطين قصدوها وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها وكذلك قلعتها وزرعوا أراضيها ، وزاولوا فيها أعمال صناعة الحرير لأنهم وجدوا بها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود وتحسنت أحوالهم يوما بعد يوم حتى أصبحوا يسكنون ألفا ومائتين من البيوت وتوطنوها مثل إخوانهم فى المدن الجزائرية الأخرى ، وبنوا كثيرا من سفن الملاحة لمطاردة السفن الإسبانية فى البحر المتوسط والاستيلاء على ما فيها من غنائم انتقاما من فرديناند واستيلائه على غرناطة . ويدور الزمن دورة حتى سنى ١٠١٦ - ١٠١٧/٥١٠٨ - ١٦٠٩م فينفي ملك إسبانيا كل من بقى فى إسبانيا من المسلمين ، وتوجه أفواج كبيرة منهم إلى المدن الجزائرية ، ويتخذوها وطنا ثانيا لهم ، وقد نقلوا معهم كل حضارتهم ومدنيتهم مما كان له تأثير واسع فى الجزائر أثناء العهد العثمانى . وقد بعثوا فيها حركة تعليمية واسعة منذ جاءت أعدادهم الكبيرة بعد سقوط غرناطة ، وكانوا يؤسسون جمعيات خيرية للإلتفاق على فقراهم ولإنشاء المدارس كمدرسة مازونة ومدرسة الأندلسيين فى مدينة الجزائر ، ولابد أن كانت لهم مدارس فى المدن الأخرى ، وكانوا يحبسون عليها أموالا أو عقارات للإلتفاق منها على الأساتذة والطلاب . وتبته العثمانيون لقدرة الأندلسيين التعليمية ، فكانوا يعينون منهم كبار المعلمين فى المدارس ويفرضون لهم رواتب مجزية .

علوم<sup>(١)</sup> الأوائل

اهتمت الجزائر - كما اهتمت البلدان العربية المختلفة - بمدرسة علوم الأوائل من فلسفة وطب وغير طب، وانضمت عناية علمائها خاصة على ماسموه علوم التعاليم ، يقصدون بها علوم الرياضيات وما يتصل بها من حساب وجبر وهندسة وفلك . ولم يحدث بين الفقهاء وهذه العلوم وما يتصل بها من الفلسفة والطب أى تخاصم أو تقاطع طوال هذا العصر ، بل إن من يرجع إلى تراجمهم سيجد كثيرين من كبارهم يعنون بأنهم سادوا أهل عصرهم فى العلوم العقلية أو يقال إن فلانا بدأ فقهاء عصره فى علوم التعاليم أو كان مستبحرا فى فنونها إلى غير ذلك من نعت تدل على أخذهم منها بحظ وافر، وكثيرا ما يجمع الفقيه المشهور بين الفقه والطب.

وأول رياضى فلكى نلتقى به فى الجزائر على بن أبى الرجال التاهرتى الذى هاجر من بلده تاهرت إلى القيروان وأصبح معلما ومربيا لحاكمها الصنهاجى المعز بن باديس ثم وزيرا له ورئيسا لديوان الإنشاء حتى وفاته سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م وباسمه ألف ابن رشيق بعض مؤلفاته الأدبية مثل كتاب « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » . وهو أول مغربى تعمق علم الفلك والتنجيم وألف فيه كتابه : البارح فى علم الفلك الذى ترجمه قسطنطين الإفريقى إلى اللاتينية فى القرن الحادى عشر الميلادى وتناقلته اللغات الأوربية المختلفة وانتفع به العلماء الغربيون الفلكيون أيضا نفع . وظل الجزائريون يعنون بعلم الفلك وغيره من العلوم الرياضية مثل محمد بن يحيى النجار التلمسانى المتوفى سنة ٥٤٩هـ/١٣٤٨م وكان إماما فى النجوم وأحكامها ، وكان يعاصره محمد بن إبراهيم الألبى المتوفى سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م الذى فاق أهل زمانه فى جميع العلوم العقلية ، وهو شيخ ابن خلدون وأحد معلميه . وكتب عالم قسنطينة المشهور ابن فنقد المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٨م شرحا على أرجوزة فلكية لابن أبى الرجال ضمنه جداول فلكية . ومن أهم الفلكيين فى القرن التاسع بعده الحباك محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٣م وله منظومة فى الإسطرلاب الفلكى عُدَّت - منذ زمنه - أقيّة لعلم الإسطرلاب كألفية ابن مالك فى النحو . وقد شرحت مرارا ومن شرحها الفقيه الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وظلت تدارس حتى نهاية هذا العصر . ومن الأعمال الفلكية بعده

والبستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لأبى القاسم سعد الله ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل نويهنس .

(١) انظر فى ابن أبى الرجال دائرة المعارف الإسلامية وراجع فى غيره عنوان الدراية للغبرينى وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ومقدمة عبد الرحمن بن خلدون فى علمى الهيئة والعدد وبقية الرواد لأخيه يحيى وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ووفيات ابن فنقد

منظومة السراج لعبد الرحمن الأخرى التى ألفها سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م وقد شرحت مراراً وطبعت فى مصر مع شرح لها من تأليف سحنون الراشدى . وفى العهد العثمانى ألف محمد الصخرى الجزائرى سنة ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م كتاباً فى علم الإسطرلاب سماه : « القلادة الجوهريّة فى العمل بالصفحة العجمية » جعله فى مقدمة وخمسة عشر باباً وخاتمة ، ولعبدالرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م مؤلف فى علم الفلك وآخر فى علم الإسطرلاب .

ومنذ نظم عبد الله بن الحجاج بن الياسمين المغربى المتوفى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م منظومة الياسمينية فى الجبر والمقابلة وكذلك منذ ألف أبو العباس بن البناء المراكشى المتوفى سنة ٧٢١هـ/١٣٢٦م كتابه : « تلخيص أعمال الحساب » وعلماء الجزائر يتدارسون العملين للطلاب ويشرحونهما ، وللفقيه سعيد العقبانى التلمسانى المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م شرح على كل منهما ، ولعاصره ابن قنفذ القسنطينى شرحان على تلخيص ابن البناء سمي أحدهما شرح التلخيص ويقال « التمحيص فى شرح التلخيص » وسمى الثانى : « حطّ النقاب عن وجوه أعمال الحساب » . ومن شرح التلخيص معاصرها على بن موسى البجائى المتوفى سنة ٨١٦هـ/١٤١٤م ونظم ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م كتاب التلخيص شعراً . ونزل البلاد المغربية القلصادى على بن محمد القرشى الغرناطى المتوفى ببجاية سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م وكان رياضياً كبيراً وظل المغاربة يتداولون كبه وخاصة كتابه : « كشف الجلباب عن علم الحساب » . وفى أواخر النصف الأول من القرن العاشر الهجرى عنى عبدالرحمن الأخرى القسنطينى بعلمى الحساب والفرائض وألف فيهما منظومة سماها « الدرّة البيضاء » طبعت مع شرحها بمصر .

ويبدو أنه كان للهندسة حظ غير قليل من الجزائريين . وقد مر بنا فى الفصل الماضى كيف أن علماً تلمسانياً رياضياً ومهندساً كبيراً فى زمن أبى حمو موسى الثانى ( ٧٦٠ - ٧٩١هـ ) هو أبو الحسن على المعروف بابن الفحام اخترع ساعة دقاقة عجيبة فى أعلاها أيكة تحمل طائراً معه فرخاه احتضنهما تحت جناحية وتعبان خارج من كوة يخاتله فيهما ، وقمر تكتمل دورته كل تمام ساعة أمام باب مغلق فيفتح وينقض منه عقابان وينهش الثعبان أحد الفرخين فيصفر الطائر أبوه . ويفتح باب الساعة الذهبية ، وتترأى جارية جميلة بيدها صحيفة تعلن رقم الساعة ، والساعة تدق . ومن المهندسين المهمين فى القرن التاسع الهجرى الفلكى الماز ذكره الحياك ، وله كتاب فى شكل من الأشكال الهندسية هو الربع المجيب يقول فى مقدمته : « لما كان الربع المجيب أحسن الآلات شكلاً وأحقها عملاً وأخفها حملاً ، مع استخراج الأعمال منه لجميع العروض للوقت المفروض هجس فى خاطرى أن أقيد عليه رسالة تذكرة لنفسى ولئن شاء الله من جنسى » وقد جعله - كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله - فى مقدمة وعشرة أبواب تناول فيها الجيب وجيب التمام والسهم والقوس والقطر والدائرة والارتفاع

الذى لاسمت له إلى غير ذلك من مباحث هندسية مع بيان حركات الشمس والقمر ومعرفة مواقيت الصلاة .

ورأينا فى القسم الخاص بتونس أنه كان بها نهضة كبيرة فى دراسة الطب منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وامتدت إلى القرن العاشر ، وكان القسم الشرقى من الجزائر حتى قسنطينة وبجاية مندمجا فى الإقليم التونسى إلى نهاية القرن الرابع ، وقامت فيه دولة بنى حماد ، وتكاد تستولى على أكثر الجزائر ، وعينت بتشجيع العلوم والآداب ، فكان طبيعيا أن تعنى بالطب ، ويلقانا من أطبائها فى القرن الخامس الهجرى ابن النباش محمد بن عبدالله البجائى ، وكان يعنى بعلم الطب وعلاج مرضاه عناية شديدة ، ومن أطباء هذه الدولة فى القرن السادس ابن أبى المليح ويقول العماد الأصبهائى فى الخريدة إنه كان طبيبا ماهرا وشاعرا مجيدا ، غير أن اشتهاره إنما هو فى الطب. وملتقى فى قلعة بنى حماد بصيدلى هو أبو جعفر القلعى عمر بن اليدوخ وكان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، ومن مؤلفاته حواش على كتاب القانون فى الطب لابن سينا. ومن أطباء بجاية فى القرن السابع ابن أندراس محمد بن أحمد الأموى أندلسى من مدينة مرسية هاجر منها إلى بجاية فى عشر الستين وستمائة مستوطنا وكان يدرس للطلاب الطب ويقرئهم كتبه ويقول الغيرينى إنه قرأ عليه أرجوزة ابن سينا فى الطب وجملة من كليات القانون، وكان يحضر دروسه نبهاء الطلبة ويثير فيها من الأبحاث الطيبة ماتعجز الكعب عن بيانه، وكان متوليا لطب الولاية ببجاية مع بعض خواص الأطباء بها ، وله رجز نظم فيه بعض الأدوية، واستدعاه المستنصر الحفصى إلى تونس ولم يلبث أن توفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م . وكان يعاصره محمد بن يحيى بن عبد السلام وكان له حظ من الطب علمى وعملى ، وكان مزاولا له يعالج المرضى . ومنتقل إلى تلمسان فى عهد الدولة الزيانية ، ومن أطبائها المهمين محمد بن أبى جمعة التاللسى أحد أطباء أبى حموموسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) وكان شاعرا مجيدا. ويذكر عبدالباسط بن خليل المصرى الذى زار تلمسان فى أواخر القرن الثامن الهجرى وسجل زيارته لها فى رحلته أنه رأى فيها طبيين : طبيبا مسلما هو محمد بن على بن فشوش وهو أحد أطبائها فى تدريس الطب ومزاولة المهنة، وطبيباً يهودياً وفد على تلمسان من الأندلس يسمى موسى بن صمويل ويعرف بابن الأشقر اليهودى ويقول إنه كان ملازماً لسلطان تلمسان محمد بن أبى ثابت (٧٩٦-٨٠١هـ) . ومن تلاميذ ابن فشوش فى القرن التاسع الهجرى أبو الفضل محمد المشدالى، وكان يعاصره إبراهيم بن أحمد الثغرى وله معجم صغير فى الطب. وملتقى فى المعهد العثمانى بعد الرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٦٥م وله كتاب الجواهر المكنون من بحر القانون فى الطب وفروعه ، وقد طبع منه قسم خاص بالصيدلة يسمى كشف الرموز.

وإذا تركنا العلوم الطيبة والرياضية إلى الفلسفة وبدأنا ببجاية التى كانت عاصمة للدولة الحمادية التقينا فيها بنزيلها الأندلسى الحرالى على بن أحمد من قرية من قرى مدينة مرسية المتوفى

سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م ويقول الغيريني إنه كان أعلم الناس بالطبيعات والإلهيات ، وإنه كان يقرأ عليه مع بعض الطلاب كتاب النجاة لابن سينا فيوضح منه ما يلقى ويقرره بأحسن طريق ثم ينقضه ويوهنه . ونزل بجاية بعده من مالقة أحمد بن خالد المتوفى حوالى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وكانت له مشاركة فى الفلسفة فى الطبيعات والإلهيات ، وكان طلاب بجاية يقرءون عليه كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا من فاتحته إلى خاتمته . وكان يعاصره ابن أساطير على بن عمران الملياني المتوفى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م وهو من تلامذة الحرالي ومن خواصهم ، وكان الطلاب يقرءون عليه أيضاً كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا . ونمضى إلى تلمسان فنلتقى بالشريف الحسنى التلمساني المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م والذي انتهت إليه إمامة المالكية بالمغرب ، ويقول يحيى بن خلدون إنه لم يكن يعزب عن علمه فن عقلى ولا نقل ، وكانت تقرأ عليه كتب ابن سينا من مثل الإشارات والتنبيهات وكتاب الشفاء كما كانت تُقرأ عليه تلاخيص ابن رشد لفلسفة أرسطو وبعض كتب التعاليم الرياضية فضلا عما كان يُقرأ عليه من كتب الدراسات الدينية وما كان يلقى من محاضرات فى تفسير الذكر الحكيم .

ومنذ القرن التاسع الهجرى يقل القول بأن هذا الفقيه أوداك درس الحكمة أو درس معقولات الحكماء أو له مشاركة فى الحكمة أو كان حاذقا فى الطبيعات والإلهيات أو كان يقرأ عليه كتاب النجاة أو كتاب الشفاء لابن سينا فقد أخذ محل محل ذلك أنه من أهل الورع والنسك أو من أهل التصوف أو أنه من المتصوفة أو الأولياء الكبار مكاشف يتبرك به أو أنه متصوف من أهل العرفان أو أنه من العلماء الصالحين الأولياء أو زاهد ورع ذو كرامات أو من أهل الخلوة ترك الدنيا وما فيها أو سالك طرق المتصوفة أو سنن الفضلاء الصلحاء الأمجاد إلى غير ذلك من نعوت تدل على انغماس الفقهاء مع الشعب فى التصوف وطرقه الكثيرة التى عمت الجزائر وخاصة الطريقة الشاذلية وفروعها المتعدده ، وكلما قطعنا شوطاً أو شطراً من الزمن فى العهد العثماني ازدادت موجة التصوف - كما مر بنا فى الفصل الماضى - حدة ، وازدادت المؤلفات فيه وفى شيوخه وأقطابه وفرة .

على أن فرعاً من فروع الفلسفة ظل مزدهراً فى حلقات الشيوخ بالجزائر حتى نهاية هذا العصر ونقصد علم المنطق ، وقد ألف فيه الحرالي المار ذكره كتاباً سماه « المعقولات الأول » . وألف الخونجى المتوفى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كتاباً فى المنطق سماه : « الجمل فى المنطق » تداوله علماء الجزائر سريعاً يدرسونه للطلاب ويشرحونه . ويقال إنه لم يكن يوجد ببجاية فى القرن السابع الهجرى أعلم بكتاب الجمل للخونجى من عبد الوهاب بن يوسف المتوفى سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م . وللشريف الحسنى التلمساني المار آنفاً شرح للجمل ، يقول ابن مريم فى كتابه البستان إن العلماء انتفعوا به وأكبوا عليه قراءة ونسخاً . ولابن قنفذ القسنطينى شرح

له ، ولسميد العقباتى معاصره شرح له كان يتداوله العلماء والطلاب ، وشرحه محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره وسمى شرحه : « نهاية الأمل فى شرح الجمل للخونجى . ولمحمد بن يوسف السنوسى المحدث المتوفى سنة ١٤٨٩هـ/١٤٨٩م ثلاثة أعمال فى المنطق : مختصر له فيه شرح مرارا ، وشرح على الجمل للخونجى ، وحاشية على شرح إيساغوجى فى المنطق للبقاعى . ولفقيه محمد بن عبد الكريم المغيل التلمسانى المتوفى سنة ١٥٠٣هـ/١٥٠٣م ثلاثة أعمال أيضا فى المنطق : مختصر فيه وشرح الجمل للخونجى ومنظومة فيه سماها فتح « الوهاب » وكتب لها ثلاثة شروح . وكان عبد الرحمن السيوطى المصرى المشهور معاصره كتب كتابا نهى فيه عن الاشتغال بعلم المنطق وذكر فيه بعض ما قاله العلماء فى ذمه ، فكتب إليه قصيدة بديعة يدافع فيها عن علم المنطق وأنه الحق أو يهدى إلى الحق بدلالاته وأشكاله المنطقية السديدة . وقد ظل علم المنطق يدرس فى الأزهر كما يدرس فى الجزائر وشُغف الأزهريون والجزائريون بمنظومة فيه لعبد الرحمن الأخضرى القسنطينى الجزائرى المتوفى سنة ١٥٤٦هـ/١٥٤٦م وسماها السلم وشرحها وهى فى مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقال إنه نظمها فى الحادية والعشرين من عمره ، ووضعت عليها شروح كثيرة لجزائريين ومصريين كما وضعت حواش كثيرة من أهمها حاشية الفقيه الكبير سعيد قدورة المتوفى سنة ١٦٦٦هـ/١٦٥٥م ويقول فى مقدمته لها إنها « إضافة لشرح الأخضرى على منظومته كالتذييل لما أعفله فى شرحه ، مظهرًا لمقاصده ومستخرجًا بعض فوائده » . وظلّ يدرس مع السلم فى الجزائر مختصر السنوسى فى المنطق وتوضع له بعض الشروح مثل شرح عبد الرزاق بن حمادوش ، المار ذكره سماه « الدرر على المختصر » . وظلت لسلم الأخضرى وشروحه وحواشيه الشهرة المدوية .

### ٣

علوم<sup>(١)</sup> اللغة والنحو والعروض والبلاغة والنقد أخذت الجزائر تعنى بعلم اللغة منذ ألم بها أبو على القالى فى طريقه إلى الأندلس زمن عبد الرحمن الناصر ، ونرى بين تلاميذه تلميذا جزائريا هو إبراهيم بن عبد الرحمن التنسى وقد حمل عنه كتابه الأمالى ومحاضراته فى اللغة ، ونجد مدينة طينة عاصمة الزاب تعنى بمادة اللغة ومدارسها ، وينبغ فيها زيادة الله بن على الطينى نزىل قرطبة فى عهد المنصور بن أبى عامر وزير

الخلف برجال السلف للحفناوى . وكتاب الجزائر لأحمد تويق المدنى وراجع فى النهشلى الأنموذج لابن رشيق ص ١٧٠ وكتابه العمدة فى مواضع متعددة . ونشر الدكتور المنجى الكمى كتابه المنع .

(١) انظر فى علماء اللغة والنحو والعروض والبلاغة إنشاء الرواة للنفطى وبنية الوعاة للسيوطى وعنوان الدراية للبرينى وبنية الرواد ليحيى بن خلدون والبستان لابن مريم ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل توبهض ، وتاريخ الجزائر الثقافى لأبى القاسم سعد الله ، وتعريف

الخليفة المؤيد منذ سنة ٣٦٦ إلى ٣٩٢ فاحتفى به . يقول ابن بسام فى الذخيرة إنه اتخذهُ نديمه إذ كان من أمتع الناس حديثاً وأنصعهم ظرفاً ، وأحذقهم بالملاطفة وآخذهم بالقلوب ، وكان عالماً لغويًا يقول القفطى : « كان من أهل العلم بالآداب واللغات والأشعار ، روى الناس عنه علماً كثيراً ، وكان كثير الإغراب » توفى سنة ١٠٢٤هـ/١٠٢٤م ونشأ ابنه عبد الملك - وكان محدثاً - تنشئة لغوية جيدة حتى ليقول السيوطى فى البغية إنه كان إماماً فى اللغة له رواية وسماع . وتنهض الدولة الحمادية بالقلعة عاصمتها الأولى وبجاية عاصمتها الثانية نهضة علمية خصبة حتى نهاية مدتها سنة ٥٤٧ وتظل النهضة مطردة فى العاصمتين وتجذبان كثيراً من علماء الأندلس ، كما مر بنا ، فضلاً عن علماء المدن والأصقاع الجزائرية . وينزل بجاية المحدث الأندلسى الكبير عبد الحق الإشبلى المتوفى سنة ١١٨٥هـ/١١٨٥م ويتولى بجامعها الأعظم الخطبة وصلاة الجمعة كما يتولى بها القضاء ، ويؤلف فى غريب القرآن الكريم والحديث النبوى كتاباً ضخماً فى ثمانية عشر مجلداً سماه الحاوى ضاهى به كتاب الغريبين فى القرآن والحديث للمهروى . وللفقيه التلمسانى محمد بن عبد الحق المتوفى سنة ١٢٢٥هـ/١٢٢٧م كتاب فى غريب الموطأ للإمام مالك . وكان يعاصره يحيى بن عبد المعطى الزواوى المتوفى سنة ١٢٢٨هـ/١٢٣٠م من كبار علماء العربية ، وكان قد أخذ يكثر فى الجزائر نظم العلوم والمعارف ، وقد نظم معجم الجمهرة فى اللغة لابن دريد ، وحاول نظم معجم الصحاح للجوهرى ولم يكتب له أن يتمه .

وكان محمد بن الحسن بن ميمون القلى المتوفى سنة ١٢٧٣هـ/١٢٧٤م يقرأ للطلاب ببجاية كتاب الأمالى للقالى وكتاب زهر الآداب للحصرى ومقامات الحريرى ومنتخبات من شعر أبى تمام والمنتبى ، وكان شاعراً ونحوياً كبيراً مثل ابن عبد المعطى . وكان يعاصره أحمد بن يوسف اللبلى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ١٢٩١هـ/١٢٩٢م وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب وكتاب فى التصريف ضاهى به كتاب الممتع لابن عصفور . ومن لغوى القرن السابع الهجرى ونحاته الكبار يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يدرس لطلابه فى بجاية شعر أبى تمام والمنتبى والأشعار الستة برواية الشتمرى المسندة إلى الأصمعى ، وهى دواوين امرئ القيس وزهير والنابعة وطرفة وعترة وعلقمة ودواوين أبى العلاء : سقط الزند واللزوميات والحامسة للتبريزى والمرزوقى وإصلاح المنطق لابن السكيت والأمالى لأبى على القالى والمقامات وغير ذلك من الكتب الأدبية . ولعل فى عمل ابن يخلف اللغوى ببجاية ما يدل بوضوح على مدى العناية الواسعة فيها بمدارسة كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر الجاهلية وغير الجاهلية . ولابن مالك كتاب لامية الأفعال عُنِي به غير جزائرى ، ولابن العباس محمد التلمسانى المتوفى سنة ١٢٦٧هـ/١٢٦٧م شرح عليها نوهً به معاصروه . وتكثر الشروح للأشعار وخاصة قصيدة البردة النبوية للبوصيرى ، ومن أهم شروحها شرح سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ وشرح ابن مرزوق الحفيد

المتوفى سنة ٨٤٢ وشرح القلصاى المتوفى سنة ٨٩١ . وتتكاثر الشروح اللغوية فى العهد العثمانى ومن أهمها شرح عبد الكرىم الفكون على أرجوزة المكودى الفاسى فى التصريف ألفه سنة ١٠٤٨ للهجرة ، وكتب محمد بن بدوى الجزائرى سنة ١١٢٧ رسالة الارتضاء فى الفرق بين الضاد والطاء . وبأخرة من العصر كتب محمد بن أحمد الجلبلى الملقب بأبى راس المتوفى سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م كتابا لغويا فى نقد القاموس المحيط سماه : إضاءة القابوس على كتاب القاموس .

وعلى شاكلة ازدهار الدراسات اللغوية فى الجزائر منذ القرن السابع الهجرى تزدهر الدراسات النحوية وحامل لوائها فى هذا القرن يحىى بن عبد المعطى الزواوى المار ذكره بين اللغويين والمتوفى بالقاهرة بعد أن تصدّر لتدريس النحو واللغة بها فى الجامع العتيق : جامع عمرو ، وله فى النحو ألفية على غرارها نظم ابن مالك ألفيته ، ومن مؤلفاته النحوية شرح لكتاب الجمل للزجاجى وحواشٍ على كتاب أصول النحو لابن السراج ، وكتاب فى النحو سماه العقود والقوانين ، وله كتاب فى شرح أبيات سيبويه . ولعبد الله النفزى الشاطبى نزىل بجاية المتوفى بها سنة ١٢٤٢هـ / ١٢٤٤م شرح على كتاب المفصل للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ للهجرة وكان يتقن شرحه ودرسه للطلاب .

ومن كبار نخاة بجاية فى القرن السابع لغويها المار ذكره يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يشرح لطلابه الكتب التالية : كتاب الجمل للزجاجى وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب المفصل للزمخشرى ومقدمة ابن بابشاذ النحوى المصرى وقانون أبى موسى الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧هـ / ١٢١١م أو متنه النحوى المقتضب الذى أخذه عن ابن برى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م . وكان يعاصره محمد بن الحسن بن ميمون القلعى المار ذكره أنفا بين اللغويين وهو من قلعة بنى حماد ، وكان لغويا ونحويا كبيرا مثل ابن يخلف ، استوطن بجاية ، وعاش يدرس لطلابها ويقول تلميذه الغبرينى فى ترجمته : « كان له درس يحضره من الطلبة فضلاؤهم ونهاؤهم ، وتجرى فيه المذاكرات المختلفة فى التفسير والحديث وأيات الغريب من الأشعار ، ويعرض من المعانى والأفكار ما لا يكاد يوجد مثله فى نواذر الكتب ، وكان قويا فى علم التصريف ومجا لتعليل ، جاريا فى ذلك على سنن أبى الفتح بن جنى ، وكان كثير التلامذة والأصحاب ، وتقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، ويقوم على جميعها أحسن قيام ، وهو أفضل من لقيت فى علم العربية » . ويذكر الغبرينى من كتب النحو التى كان يدرسها ابن ميمون القلعى للطلاب كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب سيبويه والمفصل للزمخشرى وقانون أبى موسى الجزولى المسمى بالجزولية . ومن نخاة بجاية فى القرن السابع عبد الله بن محمد الأعماتى نزىل بجاية ، وكان فى علم العربية بارعا ، وكان يفقه كتاب سيبويه فقها حسنا ، إذ كان من أعلم الناس به ، وكان يقرن مسائله بعضها إلى بعض ويدرك مقاصده

إدراكا دقيقا ، ويقول عنه الغبريني ناقلا عن بعض تلاميذه : « أما كتاب مفصل الزمخشري وقانون أبي موسى الجزولي فكانا عنده من المبادئ دالا بذلك على تعمقه لكتب النحو ومسائله وقواعده » . ولمحمد بن عبد الرحمن الخزرجي قاضى بجاية المتوفى سنة ١٢٩٢/٥٦٩١م شرح محكم على الجزولية ، وكان يدرسها للطلاب دراسة جيدة . وللفقيه الكبير ابن قنفذ أحمد بن حسن القسنطيني المتوفى سنة ١٤٠٩/٥٨١١م الإبراهيمية فى مبادئ علم العربية ، وله على ألفيه ابن مالك شرح سماه « آية السالك إلى ألفية ابن مالك » . وكان ابن مرزوق الحفيد يقرأ لطلابه - أو يُقرأ عليه - كتاب سيويه وكتاب الإيضاح لأبي على الفارسي والألفية وكتاب التسهيل لابن مالك والكافية لابن الحاجب وكتاب المعنى وأوضح المسالك لابن هشام . والمعاصره إبراھيم بن فائد القسنطيني المتوفى سنة ١٤٥٣/٥٨٥٧م شرح على ألفية ابن مالك ، ومنذ ألف ابن آجرؤم الصنهاجى الفاسى المتوفى سنة ١٣٢٣/٥٧٢٣م متنه البديع فى النحو المسمى الآجرؤمية . والعلماء فى الجزائر وغير الجزائر يتناولونه بالدرس والشرح ، ومن شروحه فى الجزائر شرح المحدث الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ١٤٩٠/٥٨٩٥م وشرح معاصره القلصادى الأندلسى نزيل تلمسان وبجاية المتوفى سنة ١٤٨٦/٥٨٩١م .

ويظل علماء النحو فى العهد العثمانى يعنون بشرح متن الأجرؤمية وألفية ابن مالك ، ومن شروح الأجرؤمية حينئذ شرح محمد بن محمد الصباغ القلعي من نحاة القرن العاشر الهجرى ، ونظمتها فى القرن الثانى عشر خليفة بن حسن القمارى فى أرجوزة قيل إنه « يرقص لها المبتدى لسلاسة نظمتها وعذوبة موسيقاها » . ومن نحاة الجزائر المهمين فى القرن الحادى عشر يحيى الشاوى المتوفى سنة ١٦٨٥/٥١٠٩٦م ومن مصنفاته حاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر فى أصول النحو استضاء فيه بكتاب الاقتراح للسيوطى . ويكثر الشارحون لشواهد كتب النحو ، ولأبى القاسم بن محمد البجائى من نحاة القرن الحادى عشر الهجرى شروح لشواهد ثلاثة من كتب ابن هشام ، هى القطر وشذور الذهب والقواعد الصغرى .

وبعض النحاة كان يدرس العروض لطلابه ، ولذلك يُنعتُ بالعروضى مثل عبد الله بن محمد القسنطيني المتوفى بأخرة من القرن السادس الهجرى ، وليحيى بن عبد المعطى المذكور بين النحاة واللغويين منظومة فى العروض بجانب ألفيته فى النحو ونظمه اللغوى لمعجم الجمهرة . وينظم ضياء الدين الخزرجى السبتي فى عصر الموحدين قصيدة فى العروض فى نحو مائة بيت ضمَّنْها قواعد علم العروض والقوافى ، وطارت شهرتها وسميت الخزرجية نسبة إليه ، وينسبها بعض الباحثين المعاصرين خطأ لابن أبى الجيش وليس هو صاحب الخزرجية . وشغف بها الجزائريون وتناولها كثير من أعلامهم بالشرح مثل ابن قنفذ المذكور بين النحاة وسمى شرحه :

« بسط الرموز الخفية فى شرح عروض الخزرجية » وشرحها ابن مرزوق الحفيد وسمى شرحه : « المفاتيح المرزوقية فى استخراج رموز الخزرجية » وشرحها القلصادى ، وله بجانب شرحها مختصر فى العروض . ومن شروح العهد العثمانى على الخزرجية شرح لسعيد قدورة الحفيد المتوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م وشرح ثان لبركات بن باديس المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى .

وكانت الجزائر - فيما يبدو - تعتمد فى دراسة البلاغة على ما كتبه ابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م فى كتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » وكان قد طار صيته لافى القيروان وحدها بل فى جميع البلدان المغربية والمشرقية . وأخذت تشيع شرقا وغربا دراسة المتون البلاغية وشرحها فى القرن السابع وما بعده منذ وضع السكاكى مصنفه أو كتابه المفتاح وعرض فيه علمى المعانى والبيان ، وألحق بهما دراسة للمحسنات اللفظية والمعنوية ، وخلفه الخطيب القزوينى وصنع لمرص السكاكى هذه العلوم فى القسم الثالث من كتابه المفتاح تلخيصا ، ولم يلبث أن بسط قضاياها فى كتاب ثان سماه الإيضاح ، منذ ذلك ودارسو البلاغة العربية فى الجزائر وغير الجزائر يُعَنَوْنَ عناية واسعة بكتابه المذكورين ، وخاصة بالتلخيص إذ أخذ يتجرد غير عالم فى كثير من البلدان العربية لشرحه . وكان الفقيهان الكبيران التلمسانيان ابنا الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الشريف التلمسانى وأخوه أبو موسى عيسى رحلا إلى المشرق فى شبابهما لأوائل القرن الثامن الهجرى للتزود من حلقات علمائه ولقيا فى رحلتها بدمشق أو فى القاهرة الخطيب القزوينى قاضى القضاة بهما فى عهد الناصر بن قلاوون ، فحضرا دروسه وحملا عنه مصنفيه البلاغين : متن التلخيص وكتاب الإيضاح ، وأذاعهما فى موطنهما ، وكان الجزائر اشتغلت بهما عقب تأليفهما سريعا مثل مصر والبلدان المشرقية ، ونرى الشريف الحسنى التلمسانى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٧١هـ مر بنا يعنى بالتلخيص والإيضاح جميعا ويأخذهما عنه الطلاب ، وبالمثل كان يدرسهما للطلاب بتلمسان الحافظ الكبير ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢هـ وضم إليهما كتاب المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع لبدر الدين ابن النحوى الكبير ابن مالك المتوفى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م . ولمعاصره إبراهيم بن قائد شرح وضعه على متن التلخيص ، وشرحه أيضا محمد بن عبد الكريم المغبلى . ويضع عبد الرحمن الأخضرى فى أوائل العهد العثمانى صاحب متن السلم فى المنطق كتابا مختصرا فى علوم البلاغة سماه : « الجواهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعانى والبيان والبديع » وشرح مرارا ، ومن شروحه شرح محمد بن يوسف الثغرى المتوفى سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م سماه : « موضح السر المدفون فى الجواهر المكنون » ويضع على بن عبد القادر المشهور باسم ابن الأمين حاشية على شرح السعد التفتازانى لمتن التلخيص .

وتُهدى مدينة المسيلة ( المحمدية ) فى الجزائر إلى القيروان ناقدًا مبكرًا فى أواخر عهد المنصور بن بلكين ( ٣٦٨ - ٣٨٦ هـ ) هو عبد الكريم النهشلى ، وكان شاعرا يحسن الكتابة كما كان شاعرًا مجيدًا فألحقته الدولة بدواوينها وظل بها إلى أن توفي سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م . وله فى النقد كتاب يعد باكورة الكتابات النقدية فى البلاد المغربية هو كتاب المتع فى علم الشعر وعمله . ونشر الدكتور منجى الكعبى اختيارًا منه لأحد الأدباء السابقين يقع فى خمسمائة صفحة حققها تحقيقًا علميًا جيدًا . ويدل هذا الاختيار على أن النهشلى بنى الكتاب على منتخبات شعرية ونثرية تتخللها نظرات نقدية ، ووزع المنتخبات على أبواب متعاقبة انتفع بها ابن رشيق فى تأليفه لكتابه : « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » كما أوضح ذلك الدكتور منجى فى هوامش التحقيق ببيان ما يلتقى فيه الكتابان من أبواب ونصوص مختلفة منذ الصفحة الثالثة من المتع إذ نقل ابن رشيق عن عبد الكريم ما قاله من أن « أصل الكلام منثور ثم تعقبت العرب ذلك واحتاجت إلى الغناء بأفعالها وذكر سابقتها ووقائعها وتضمن مآثرها ، إذ كان المنطق هو المؤدى عن عقولهم ، وألستهم خدم أفئدتهم » وتبعه ابن رشيق فقال : « وكان الكلام كله منثورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة » . ويعقد عبد الكريم ص ٢٤ فصلا فى فضل الشعر ، ويتابعه ابن رشيق بفصل مماثل يردد فيه ما يقوله ( انظر صفحتى ٢٤ و ٢٥ ) . ومن الحق أنه قد يصرح به ولكن فى مواطن معدودة من العمدة ، وقد يأخذ عنه أبوابا مثل باب ألقاب الشعراء ص ١٩٢ وهو فى العمدة ( تحقيق محبى الدين عبد الحميد ) ٣٣/١ وباب احتماء العرب بالشعر وذبيهم به عن الأعراض ص ٢٢٠ وهو عند ابن رشيق فى ٤٩/١ وباب الأنفة من السؤال ص ٢٤٩ وهو عند ابن رشيق باب التكسب بالشعر والأنفة منه ص ٦٣ ويقول الدكتور منجى فى الهامش : « وتجد عند ابن رشيق فصولا كثيرة من هذا الباب ضمن أبواب أخرى لما علاقة به مثل باب الاقتضاء والاستنجاز فى الجزء الثانى من العمدة . ومن ذلك باب فيمن نوه به المدح وحطه المهجاء ص ٢٤٣ وهو عند ابن رشيق ٢٩/١ . ومن ذلك باب فيه النهى عن تعرض الشعراء ص ٢٧٩ وهو عند ابن رشيق ٥٩/١ . والكتاب يحمل فى كل باب وفى كل موضوع نصوصا أدبية : شعرية ونثرية بدیعة تدل - دلالة واضحة - على ما كان يمتلكه عبد الكريم النهشلى من ذوق أدبى مرهف مع حسن العرض . ويبدو أن أصل الكتاب كان يحمل بعض نظرات نقدية بارعة لم يعن صانع المختار من الكتاب بإثباتها ، بدليل ما سجل ابن رشيق منها ، إذ عقد فى الجزء الأول من العمدة فصلا للقدمات والمحدثين ذهب فيه مذهب ابن قتيبة فى أنه ينبغى أن لا يقدم فى الشعر القديم لقدمه ولا الحديث لحداثته ، إذ المعول فى ذلك على جودة الشعر لا على قدمه أو حداثته ، ولا يلبث أن يقول : « ولم أر فى هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبد الكريم ( النهشلى ) فإنه قال :

« قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر ، ويُستحسنُ عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الخذاق تقابل كل زمان بما استجد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحدُّ الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا في غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادير حكاياتهم . قال : والذي أختاره أنا التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى غايره على الدهر ، ويبعد عن الوحشي المستكره ، ويرتفع عن المولد المنتحل ، ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة » .

ففيد الكريم يرى أن الجودة في الشعر تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وأن المدار فيها ليس على القدم والحدثة ولا على بلد شرقا دون بلد غربا إنما المدار فيها على حسن النسق وجمال الصياغة بحيث لا يكون الكلام حوشيا جافيا ولا مولداً سفسافا غثا بل يكون رصينا جزلا أو رقيقا سلسا مع ما يحمل من تلاوين التشبيهات والاستعارات البارة . ونمضى مع ابن رشيق في الجزء الأول من كتابه العمدة فنجده يعقد بابا في الشعراء والشعر يذكر فيه عن عبد الكريم قوله : « الشعر أصناف ، فشر هو خير كله ، وذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثل به بالخير وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول في الأوصاف والتعوت والتشبيه وما يفتن به من المعاني والآداب ، وشعر هو شر كله ، وذلك الهجاء وما تسرع به الشاعر إلى أعراض الناس ، وشعر يتكسب به ، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتي إليه من جهة فهمه » .

وهي أنواع تستقصى أعراض الشعر ، فمنه الخير الذي يهدى إلى السنن القويم من الزهد والسلوك المستقيم إثارا لما عند الله من الثواب على متاع الحياة الفاني ، ومنه ما تستريح إليه النفس من وصف الطبيعة ومن الحكم والمعاني الطريفة ، ومنه ما هو شر خالص وهو الهجاء المقذع الذي ينتهك الأعراض ، ومنه ما يتكسب به ، وهو شعر المديح الذي يعود على صاحبه بالنفع في كل سوق . ويعقد ابن رشيق عقب هذا الباب بابا لحد الشعر وبنيته ، ويذكر فيه لعبدالكريم قوله : « يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللهم ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون فيكون من المديح المراثي والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهم الغزل والطرود والخمر والمخمور » . وفنون الشعر الأربعة التي ذكرها عبدالكريم نقلها عن ابن وهب في كتابه نقد النثر ، وقد عرف كيف يرد إليها كل أعراض الشعر ، فالمدح منه الرثاء إذ هو مديح لميت ، ومنه الفخر إذ هو مديح للشاعر الذي نظمه ، مديح لنفسه ، وكذلك الشكر مديح لمن يقدم إليه وعرفان بفضلته ، ومن السهل إدخال الذم في الهجاء أما العقاب والاستبطاء فيدخلان فيه بشيء من التوسع إذ قد يتقلبان هجاء . وبحق تدخل الأمثال في الحكمة كما يدخل فيها

التزهد والوعظ لأنهما يقومان على ضرب الأمثال والتأمل في مصير الإنسان وما ينتظر من السعادة أو الشقاء في الآخرة ، ويدخل في اللهو الانشغال عن الحياة الجادة بالفرل أو بالصيد أو بالخمر أسوأ صور اللهو الماجن .

وواضح أننا عرفنا عن طريق النِقَر الثلاث السالفة التي نقلها ابن رشيق عن كتاب الممتع في علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلي جانباً من نظراته النقدية التي ضمنها كتابه ، ونظن ظناً أنه كان في الكتاب نظرات نقدية أخرى مماثلة أهمها - كما ذكرنا - صانع هذا الاختيار الذي حققه ونشره الذكور منجى الكعبي . ولم يظهر بعد عبد الكريم في الجزائر ناقد على شاكلته إلا ما كان من ظهور ابن رشيق الناقد الفذ مواطنه الذي ولد مثله بالمسيلة الجزائرية ونشأ بها وعلمه أبوه صنعه وهي الصياغة وهاجر في سن السادسة عشرة إلى القيروان فتأدب بها ونضجت فيها موهبته الأدبية والنقدية وظل مستوطننا لها بقية حياته بحيث عدّ من أهلها وأدبائها ، ولذلك تحدثنا في القسم الخاص بالإقليم التونسي عنه وعن كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده الذي يعد بحق أروع عمل نقدي أنتجته البلدان المغربية طوال هذا العصر .

#### ٤

### علوم<sup>(١)</sup> القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يمكف المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، وحين نشأت فيه القراءات أخذ يحملها عن أئمتها في المشرق مقرنون كثيرون في المغرب ولا بد أن

والخشني والرباض للملكي وما ذكر من مصادر الإباضية والدياج المذهب لابن فرحون وعنوان الدراية وما ذكر معه من المصادر في المحدثين ، وعلم الفقه في مقدمة ابن خلدون . وراجع في المذاهب الكلامية وخاصة الاعتزال والأشعري ما كتبناه عنهما في العصرين العباسيين الأول والثاني وكذلك ما كتبناه في تونس وانظر في مبادئ الإباضية ديبوز في تاريخ المغرب الكبير ، وراجع في الاعتزال ونشره في المغرب والجزائر لعهد واصل مؤسسه كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة بتحقيق فؤاد سيد . وانظر في المناظرة بين إباضية تاهرت والمعتزلة ونشوب الحرب بينهما أخبار الأئمة الرسميين لابن الصغير ، وانظر في تأليف علم الكلام وكثرتها البستان وتعريف الخلف ، وتاريخ الجزائر الثقافي ، وراجع في كتابات الإباضيين في علم الكلام كتاب الجزائر لأحمد توفيق المنفي .

(١) راجع في القراء غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري وعنوان الدراية في علماء بجاية للبريني وبيغية الرواد ليحيى بن خلدون والبستان في ذكر الأولياء والعلماء بنلمسان لابن مريم وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوي وتاريخ الجزائر الثقافي للدكتور سعد الله . وانظر في المفسرين عنوان الدراية وبيغية الرواد والبستان وتعريف الخلف برجال السلف وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المنفي في الحالة العلمية في الجزائر وتاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لسعد الله . وراجع في المحدثين طبقات أبي العرب والدياج المنهجب لابن فرحون والجزء الأول من الذخيرة لابن بسام في أسرة بني الطيبي وعنوان الدراية وبيغية الرواد والوفيات لابن قنفذ والبستان وتعريف الخلف وكتاب الجزائر للمدني وتاريخ الجزائر الثقافي لسعد الله . وانظر في الفقهاء طبقات أبي العرب

كان للجزائر حظ كبير من هؤلاء المقرئين مثل يقية البلاد الإسلامية ، ويذكر ابن الجزرى من كبار قرائها فى القرن الرابع الهجرى عبد الحكيم بن إبراهيم نزيل بجاية تلميذ ابن خيرىون كبير القراء فى القيروان وقد حمل عنه قراءة ورش المصرى عن نافع وهى القراءة التى لا تزال فى البلاد المغربية إلى اليوم . ومن كبار القراء فى القرن الخامس الهجرى يوسف بن على بن جبارة من بسكرة عاصمة الزاب ، وله كتاب الكامل فى القراءات العشر ، ويقول ابن الجزرى إنه طاف البلاد فى طلب القراءات ، ويذكر فى كتابه الكامل إنه لقي ثلاثمائة وخمسة وستين مقرئاً من شيوخ القراء وذكر منهم فى كتابه مائة واثنين وعشرين شيخاً . ومن قراء القرن السادس ابن عفراء محمد بن عبد العزيز وعنه حمل القراءات محمد بن عبد الله القلمى المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م ويقول الغبريني إنه جلس للأستاذية بجاية وأقرأ الناس وانتفعوا به . وكان يعاصره ببجاية المقرئ أحمد بن محمد المعافى قرأ عليه عالمً واستفاد منه خلق كثير ، وله مختصر كتاب التيسير للدانى فى القراءات السبع ، وبالمثل أحمد بن محمد الصدفى المتوفى سنة ٦٧٤ وله كتابان فى قراءة ورش . ومن قراء القرن السابع الذين ذكرهم ابن الجزرى فى غاية النهاية سعيد بن على بن زاهر المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م استوطن بجاية وأقرأ بها الطلاب ، ومثله محمد بن صالح الكنانى المتوفى سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٧م ولى إقامة الفريضة والخطبة بجامع بجاية الأعظم ماينيف على ثلاثين عاما ، وكان مع إملائه القراءات يقرأ للطلاب مفصل الزمخشري ودواوين الأشعار الستة وأبى تمام والمنبى . ومن مقرئى القرن الثامن الهجرى محمد بن محمد بن غريون البجائى تلميذ محمد بن صالح الكنانى وأستاذ محمد بن محمد البلفيقي بجاية ، وكان يقرئ القراءات الثمان . ومن المقرئين فى منتصف القرن الثامن أحمد بن محمد الزواوى مقرئ قسنطينة ، ومن مقرئى النصف الثانى من هذا القرن يحيى بن موسى الغمارى مقرئ بجاية . وكان يعاصره يعقوب بن على الصنهاجى شيخ أهل تلمسان فى القراءات .

ومن كبار القراء فى القرن التاسع ابن مرزوق الحفيد ، وله فى القراءات أرجوزة فى محاذاة الشاطبية المشهورة ، وتلاه فى العناية بالقراءات بأخرة من القرن محمد بن يوسف السنوسى وله شرح كبير على الشاطبية ومختصر فى القراءات السبع ، وكان يعاصره محمد بن أحمد المصمودى وله فى القراءات رجز باسم : « المنحة المحكية لمبتدئ القراءة المكية » عرض فيها الخلاف بين قراءة ابن كثير المكى ونافع المدنى ، ومن معاصريه محمد بن شقرون الوهرانى وله كتاب تقريب النافع فى الطرق العشر ( طرق الروايات ) لنافع ، وهى أكثر من ذلك فى حديث ابن مجاهد عن أساتيد قراءة نافع فى مقدمته لكتابه : « السبعة » . واشتهرت زواوة فى العهد العثمانى بكثرة المقرئين فيها ، ومن أشهرهم فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر محمد بن صولة وكان الطلاب يأخذون عنه القراءات السبع . ولاهد أن كان بالجزائر مقرئون آخرون فى

زواوة وغيرها يتجاوزون القراءات السبع إلى ما بعدها من القراءات العشر ، وربما إلى ما وراءها من القراءات .

وللجزائر نشاط في التفسير مماثل لنشاطها في القراءات ، وخاصة منذ القرن السادس الهجري ، وفيه نلتقى بيوسف بن إبراهيم الوردجاني الإباضي المتوفى ببلدته : ورجلان سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ويذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر أنه كان له في التفسير كتاب كبير في ٧٠ جزءاً . ويتكاثر المفسرون بالجزائر منذ القرن السابع ، ومنهم علي بن أحمد الحرالي نزيل بجاية المار ذكره ، ويقول الغبريني : « له تفسير على كتاب الله تعالى سلك فيه سبيل التحرير فتكلم عليه لفظة لفظة وحرفاً حرفاً » ومن مفسري القرن السابع بتلمسان ابن أبي العيش الخزرجي محمد بن عبد الرحيم وفيه يقول يحيى بن خلدون في كتابه بغية الرواد : له مشاركات في فنون العلم وكان مؤلفاً متقناً فسّر الكتاب العزيز . ومن مفسري القرن الثامن الهجري الشريف الحسيني التلمساني محمد بن أحمد إمام المغرب قاطية ، وفيه يقول ابن مريم : « فسّر القرآن في خمس وعشرين سنة أتى فيه بالعجب العجاب ، وكان عالماً بحروفه ونحوه وقراءاته وبيانه وبلاغته وأحكامه ومعانيه » . ومن مفسري القرن التاسع سعيد العقباتي المتوفى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م وله تفسير لسورة الأنعام والفتح والفاحة أتى فيه بفوائد جليلة ، ولإبراهيم بن فائد المتوفى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م تفسير للقرآن الكريم . وملتقى بالمفسر الكبير عبد الرحمن الثعالبي التلمساني المتوفى سنة ٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م وله تفسير دوّت شهرته في عصره والعصور التالية اختصر فيه تفسير عبد الحق بن عطية الأندلسي ورجع فيه إلى عشرات من كتب التفسير ، يقول في مقدمته : « ضمته - بحمد الله - المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية ، وزدته فوائده جملة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة حسبما رأيته ورويته عن الأئمة ، وذلك قريب من مائة تأليف ، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين ومعدود في المحققين ، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئاً فمن تأليفه نقلت وعلى لفظ صاحبه عوّلت ، ولم أنقل شيئاً من ذلك بالمعنى خوف الوقوع في الزلل » وقد سمي تفسيره : « الجواهر الحسان في تفسير القرآن » . وقوله إنه رجع في التأليف إلى مائة تفسير يدل - بوضوح - على أن المشرق لم يؤلف تفسيراً مهما إلا نقله الشيوخ إلى الجزائر . ولا يختص هذا العمل من نقل التراث العلمي المشرقي إلى الجزائر بالتفسير وحده ، فقد عم هذا التراث في القراءات والحديث النبوي والفقه وعلم الكلام والتاريخ وكتب النحو ومعاجم اللغة ، بفضل طلاب العلم الجزائريين وشيوخه البررة الذين ظلوا يحملونه طوال القرون الماضية إلى بلدان الجزائر وغير الجزائر من الأقاليم المغربية . ولمحمد السنوسي مختصر حاشية التفتازاتي على تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف . ومن تلاميذ الثعالبي محمد بن عبد الكريم المغيلي المار ذكره ، ومن مصنفاته : « البدر النير في علوم التفسير » . وملتقى في العهد العثماني بيحيى الشاوي المار ذكره المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ / ١٦٨٥ م وله في

التفسير كتاب فى أجوبته على اعتراضات أبى حيان الأندلسى فى تفسيره المحيط على عبد الحق بن عطية والزمخشرى . وبأخرة من هذا العصر تلتقى بمحمد بن أحمد بن عبد القادر الملقب بأبى راس ، وله تفسير فى ثلاثة مجلدات .

وزخرت الجزائر بالنشاط فى دراسات الحديث النبوى مثلها فى ذلك مثل بقية البلاد الإسلامية فكثرت بها المحدثون من أبنائها والنازحين إليها من الأندلس والبلدان المغربية والمشرقية ، ومن أوائل الوافدين عليها من المحدثين أبو معمر عباد بن عبد الصمد التميمى من أهل البصرة كان قد لقى الصحابى أنس بن مالك وعليه معتمده وكذلك لقى الحسن البصرى وعطاء بن أبى رباح التابعين وروى عنهم جميعا الحديث وقدم البلاد المغربية فأخذ الحديث عنه أناس كثيرون فى طرابلس والقيروان وقسنطينة وبها توفى ، ويقول أبو العرب فى طبقاته إنه روى مناكير فى الحديث عن أنس لم يروها غيره ولكنه مشهور بكثرة من أخذ الحديث عنه . ومن بكروا فى تزوج إليها من الأندلس سعيد بن فحلون نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٣٤٦هـ/٩٥٨م عن ثلاث وتسعين سنة ، وكان قد رحل إلى المشرق وحمل عن النسائى كتابه السنن أحد كتب الصحاح الستة المشهورة ، وكانت إليه الرحلة للسمع من البلدان الأندلسية . وفى نفس هذا القرن الرابع استوطن أحمد بن نصر الداودى تلمسان حتى وفاته سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م ، وكان فقيها كبيرا وله شرح على صحيح البخارى سماه النصيحة . واشتهرت فى طينة عاصمة الزاب فى القرون الأولى أسرة بنى الطنبى برواية الحديث النبوى ، ومنها عبد الملك بن زيادة الله الطنبى نزيل قرطبة المتوفى سنة ٤٥٧ . ومن محدثى القرن السادس بتلمسان يعقوب بن أحمد ، لقى بمرسية فى الأندلس أبا على الصدفى سنة ٥١١ وعاد إلى تلمسان فحدث الطلاب بها إلى وفاته . ومن كبار المحدثين فى نفس القرن عبد الحق الإشبلى نزيل بجاية المتوفى بها المار ذكره ، وله الأحكام الكبرى فى الحديث ست مجلدات والأحكام الصغرى والأحكام الوسطى والجمع بين الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم . وكان يعاصره مواطنه أبو بكر بن سعادة الإشبلى نزيل تلمسان المتوفى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ويقول ابن مريم : « كان ضابطا نقادا محدثا على الرواية » ومن تلاميذه ابن أبى العيش الخزرجى . ومن محدثى الإباضيين يوسف بن إبراهيم الوردجلى المار ذكره بين المفسرين وله ترتيب مسند الربيع بن حبيب الإباضى البصرى المتوفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٧م . ومن محدثى القرن السابع أبو زكريا الزواوى استوطن بجاية وتوفى بها سنة ٦١١هـ/١٢١٤م وكان يُقرأ عليه صحيح البخارى إلى وفاته عن سن عالية . ومن محدثى هذا القرن فى مدينة الجزائر محمد بن قاسم بن منداس المتوفى بها سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م وكان يعكف على تدريس علوم الحديث . وكان يعاصره فى بجاية على بن فتح بن عبد الله المتوفى بها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٥م واشتهر بسنده العالى لصحيح البخارى الذى أخذه فى رحلته إلى المشرق ، إذ أخذه عن أبى محمد بن يونس عن أبى الوقت وروايته إحدى الروايات الأساسية

التي اعتمد عليها البيهقي في إخراج صحيح البخاري وتحقيق نصوصه ، وسمع أبو الوقت روايته عن أبي الحسن الداودي عن ابن حموية عن محمد بن يوسف الفريزي عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري . وهو سند عال لصحيح البخاري ، تسمع به الأندلسيون فرحلوا إلى بجاية لأخذ رواية صحيح البخاري عنه لقصور سندهم له عن هذا السند . وكان يعاصره أحمد بن محمد بن السراج الإشبيلي نزول بجاية المتوفى سنة ١٢٥٨هـ/١٢٥٨م وكانت له في الحديث رواية عالية . وكان يعاصرها حسن بن علي بن قنفذ محدث بلده : قسنطينة المتوفى بها سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م . وتوفى بمطلع القرن الثامن المحدث الفقيه قاضي الجماعة ببجاية أحمد بن محمد الغبريني صاحب كتاب عنوان الدراية في علماء بجاية .

ومن محدثي القرن الثامن الهجري محمد بن يحيى الباهلي البجائي المتوفى سنة ٧٤٤ ومحمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب التلمساني المتوفى سنة ١٣٧٨هـ/١٣٧٨م ويقول ابن قنفذ في كتابه الوفيات : كان له طريق واضح في الحديث وأسمعا حديث البخاري وغيره ، وله شرح جليل على كتاب عمدة الأحكام في الحديث ، وأيضا شرح على كتاب الشفاء للقاضي عياض . وفي سنة ٧٨٤هـ توفى محدث قسنطينة وقاضيها حسن بن ميمون بن باديس . ومن كبار المحدثين في القرن التاسع الهجري محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الملقب بالحفيد إشارة إلى أنه حفيد ابن مرزوق الخطيب ، الحافظ المحدث الثقة جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية ، وكان لا يترك علما عقليا ولا تقليا إلا ألف فيه ، فهو يؤلف في المنطق كما مر بنا وفي النحو وفي الفقه وينظم في علوم الحديث أرجوزتين كبيرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ويدرس للطلاب الصحيحين : صحيح البخاري وصحيح مسلم وجامع الترمذي وسنن أبي داود وعمدة الأحكام في الحديث سوى الأمهات في الفقه المالكي والنحو والعربية والبلاغة . وكان يعاصره أحمد بن زاغو المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م وله شرح على صحيح البخاري وشرح على صحيح مسلم . وولتقى بأخرة من هذا القرن بالإمام محمد السنوسي ، وله مختصر لشرح الأبي على مسلم ، وشرح خصه بمشكلات البخاري ومختصر لشرح الزركشي عليه . وولتقى في العهد العثماني بأسماء علماء كثيرين يدرسون للطلاب بعض أمهات كتب الحديث وخاصة صحيح البخاري ، وكانت تقام المهرجانات لختمه في رمضان . وكان ابن أبي جمرة قد عني بوضع مختصر لصحيح البخاري فشرحه عبد القادر المجاجي . ويضع بأخرة من العصر عبد العزيز الثميني الإباضي مختصرا لحاشية مسند الربيع بن حبيب في ثلاثة أجزاء ، ويضع معاصره أحمد بن عمار حاشية على صحيح البخاري .

ومنذ الفتح الإسلامي يتجرد كثيرون من الجيوش الفاتحة لنشر الإسلام في الجزائر وغيرها من البلاد المغربية وتعليم أهلها الشريعة الإسلامية وتحفيظهم القرآن الكريم . ومررنا في هذا

الفصل كيف أن موسى بن نصير ( ٨٦-٩٦هـ ) ظل خلال مسيرة جيشه حتى المحيط يترك في كل بلد مغربي في الجزائر وغير الجزائر معلمين يحفظون أهله القرآن ويقفونهم على تعاليم الإسلام وعلى قواعد العربية . ويظل معلمون قائمين بذلك طوال القرن الأول الهجري ، وكان عمر بن عبد العزيز في آخر هذا القرن قد أرسل إلى القيروان عشرة من الفقهاء ليعلموا الناس فروض الشريعة ، ومنذ هذا الحين أخذت تزدهر في القيروان - عاصمة المغرب جميعه حينذاك - الدرايات الفقهية ، وأخذ كثيرون من أهل الجزائر يؤمنونها ليحسنوا معرفة الفقه ويشوها في بلدانهم ، وكان منهم - من يقتدى بشباب القيروان فيرحل إلى المشرق للنهل من حلقات فقهاء الكبار في الحجاز والعراق وخاصة حلقة الإمام مالك بن أنس ( ٩٣-١٧٩هـ ) . ومن أوائل الجزائريين الراحلين إلى المدينة للاستماع إليه والتلمذة عليه أبو القاسم عبد الله الزواوي . وولتقى مع أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث للهجرة بفضيه جزائري هو إبراهيم الطنبلي الذي كان يشارك أسد بن الفرات في القضاء .

وكانت الدولة الرسومية الإباضية قد نشأت منذ أواسط القرن الثاني وتولى أمرها الإمام عبد الوهاب ، وهو من أوائل الفقهاء الإباضيين إذ ينسب إليه الأستاذ دبور في تاريخ المغرب الكبير كتابا يجمع فتاويه الشرعية لأتباعه يسمى نوازل نفوسة . واشتهر قضاة مالكية في أواسط القرن الثالث ولأهم سحنون في بعض مدن الجزائر حين أصبح قاضي القيروان : عاصمة الإقليم التونسي وشرقي الجزائر حينذاك منهم حمدون قاضي طينة وعلي بن منصور قاضي ميلة ويحيى بن خالد السهمي قاضي الزاب ، وكانوا جميعا يعنون بنشر الفقه المالكي الذي درسوه على أستاذهم سحنون . ومن الفقهاء الجزائريين في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري عبد الملك بن سايح أستاذ فضل بن سلمة البجائي المتوفى سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م وكان من أعرف الفقهاء باختلاف أصحاب مالك ، وكان يُرْحَلُ إليه للسمع منه ، أقرأ - ودرّس - بالمسجد الجامع في بجاية ، وله مختصر لمُدَوِّنة سحنون فقيه القيروان ومختصر ثان لكتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب فقيه قرطبة المعاصر لسحنون والمتوفى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وقد زاد فيه من فقهه كثيرا ، وله مختصر ثالث لكتاب الفقيه المالكي المصري ابن المواز . وولتقى في القرن الخامس بمرwan بن علي نزيل بونة ( عنابة ) المتوفى قبل سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله شرح على الموطأ لمالك نوّه به ابن فرحون .

وفي نفس القرن الخامس يلمع بين الإباضيين فقيه يسمى أحمد بن محمد بن بكر ولد لأبيه القادم إلى وادي ميزاب من جبل نفوسة بليبيا . ويقال إن أباه هو الذي أسس هيئة العزابة في بلدان قرى ومدن ميزاب ، ويقال بل مؤسسها هناك ابنه أحمد المذكور المتوفى سنة ٥٠٤هـ/١١١١م كما يذكر معمر في كتابه الإباضية في موكب التاريخ ، وهي هيئة دينية عليا تشرف على جميع شؤون المجتمع الإباضي في كل مدينة وقرية ومنها يختار شيخ البلد والمفتي

و ناظر الأوقاف ومؤدب الناشئة والمؤذن والإمام . وكان أحمد فقيها وله من المصنفات كتاب أحكام الحرب وكتاب القسمة وكتاب أصول الأرضين فى كل ما يتصل بها من شئون الملكية والاستثمار والضرائب وهو فى ستة أجزاء ، وله أيضا كتاب الألواح وكتاب تبين أفعال العباد . ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السادس أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى قنون المتوفى سنة ٥٥٧/١١٦٢م وله المنتضب الأشفى فى اختصار المستصفى للغزالي . ومن فقهاء الظاهرية عبد الله بن جبل الودهراني الظاهري المذهب قاضى عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين . ومنهم ميمون بن جبارة المتوفى سنة ٥٨٤/١١٨٩م قاضى بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه معيار المعالم والمقاصد للغزالي ، ومنهم محمد بن على بن مروان بن جبل قاضى الناصر الموحدى المتوفى سنة ٦٠١/١٢٠٤م .

ومن فقهاء الإباضية فى هذا القرن يوسف بن إبراهيم الوردجاني المتوفى سنة ٥٧٠/١١٧٤م ، وهو تلميذ أحمد بن محمد بن بكر السابق ذكره بين المفسرين - المحدثين ، وله كتاب العدل فى أصول الفقه فى ثلاثة أجزاء وكتاب مرج البحرين . ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السابع الهجرى أبو زكريا الزواوى البجائى المتوفى سنة ٦١١/١٢١٥م ومنهم محمد بن عبد الحق التلمساني المتوفى سنة ٦٢٥/١٢٢٨م وله فى الفقه : المختار فى الجمع بين المنتقى للبايجى والاستذكار ، وكتاب غريب الموطأ ، ومنهم أبو الحسن على المشهور بلبن الزيات مستوطن بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه تهذيب مدونة سحنون وكتاب التلقين لعبد الوهاب إمام المالكية وكتاب التفريع لابن الجلاب وكتاب الرسالة لابن أبى زيد . ومنهم إبراهيم بن أبى بكر التلمساني المتوفى بأخرة من سنة ٦٩٧/١٢٩٧م وكان فقيها نابها ، وله فى الفرائض أرجوزة لُقبت بلقب « التلمسانية » وهى ضابطة للفرائض محكمة عجيبة الوضع كما يقول ابن فرحون ، وشرحها غير فقيه جزائرى مثل ابن زاغو والحباك .

ومن فقهاء بجاية المهمين أبو على ناصر الدين الزواوى وهو الذى جلب إلى بجاية والمغرب مختصر ابن الحاجب فى الفقه المالكي آخر المائة السابعة ومن هذا التاريخ عكف عليه أهل بجاية والمغرب يدرسونه ويشرحونه . ومن كبار الفقهاء فى القرن الثامن الهجرى أبو زيد بن الإمام المتوفى سنة ٧٤٣/١٣٤٣م وأبو موسى بن الإمام المتوفى سنة ٧٤٩/١٣٤٩م نزلا تلمسان أيام أبى حمو موسى الأول ( ٧٠١-٧١٨هـ ) فبنى لهما المدرسة المعروفة باسم مدرسة أبناء الإمام كما مر ، وكان يعاصرهما عمران المشدالى المتوفى سنة ٧٤٥/١٣٤٥م ويقول يحيى بن خلدون : « لم يكن فى معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك وحفظا لأقوال الصحابة وعرفانا بنوازل الأحكام وصوابا فى الفتيا » وفى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مناظرة بينه وبين أبى زيد الإمام موضوعها الفقيه المصرى عبد الرحمن بن القاسم الذى حمل عنه سحنون المدونة المنسوبة إليه خطأ وهى من إماء أستاذه عبد الرحمن .

وقد تناظر الفقيهان في عبد الرحمن بن القاسم هل هو مقلد أو هو مجتهد . وقال عمران إنه مجتهد اجتهادا مطلقا بدليل مخالفته لمالك في كثير من المسائل . وتلتقى في القرن الثامن بالإمام العالم النذ فارس المعقول والمنقول محمد بن أحمد الشريف الحسني التلمساني المتوفى سنة ١٣٧٠/٥٧٧١م ومر ذكره في علوم الأوائل وبين المفسرين وإليه انتهت إمامة المذهب الفقهي المالكي في عصره ، وكان مع علمه الواسع بالفقه عالما بأصوله ، ومن مصنفاته مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول طُبِّقَ فيه الأصول على مسائل الفقه ، ويقول ابن خلدون إنه ملأ المغرب معارف وتلاميذ . ومن فقهاء هذا القرن عبد الرحمن الوغليسي المتوفى سنة ١٣٨٥/٥٧٨٦م شيخ العلماء في بجاية وعالمها ومفتيها ، وله « الجامعة في الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك ، وتسمى : « الوغليسية » نسبة إليه .

ومن كبار فقهاء القرن التاسع الهجري أحمد بن حسن المشهور باسم ابن قنفذ قاضي قسنطينة المتوفى سنة ١٤٠٩/٥٨٠٦م ، وله شرح على رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي وشرح ثانٍ على كتاب التفرغ لابن الجلاب المالكي وشرح ثالث على الأرجوزة التلمسانية باسم معونة الرائض في مبادئ الفرائض . ومن فقهاء القرن الكبار محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره في علوم الأوائل وبين العرويين والبلاغيين والمحدثين ، وله : شرح على باب الطهارة بمختصر خليل بن إسحق الفقيه المصري المتوفى سنة ١٣٤٨/٥٧٤٩ . ومنذ ألف خليل هذا الكتاب الموجز وشروحه تتكاثر في الجزائر كما تتكاثر شروح مختصر ابن الحاجب الفقيه المصري المالكي المتوفى قبله بنحو قرن . ومن الفقهاء أحمد بن زاغو التلمساني المتوفى سنة ١٤٤١/٥٨٤٥م ، ومن تأليفه شرح التلمسانية في الفرائض .

وتلتقى بعبد الرحمن التعاليبي كبير المفسرين في العصر ، ومن مصنفاته الفقهية شرح ابن الحاجب الفرعي في سفرين ، وجواهر المدونة وعيون مسائلها في سفرين ، وجامع الأمهات في أحكام العبادات . ويلقانا بعده تلميذه وتلميذ ابن زاغو الفقيه يحيى المازوني المتوفى سنة ١٤٧٩/٥٨٨٣م وله الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، جمع فيه فتاوى الفقهاء المتأخرين من أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم في سفرين . وتلتقى في أواخر القرن التاسع الهجري وأوائل العاشر بالفقيه أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى سنة ١٥٠٨/٥٩١٤م حامل لواء المذهب المالكي في أيامه ، وكان يدرس لطلابه مدونة ابن سحنون وابن الحاجب الفرعي ومن مؤلفاته : تعليق على ابن الحاجب الفرعي والقواعد في الفقه والفروق ، وأهم مؤلفاته المعيار المغرب عن فتاوى علماء إفريقية وأندلس والمغرب في ستة أسفار ، وهو موزع على أبواب الفقه في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية .

ونمضى إلى العهد العثماني في الجزائر وكان سلاطين آل عثمان يرسلون مع ولايتهم قضاة

أحنافاً ، وعادة كانوا يعودون مع الولاية بعد حكمهم نحو ستين ، ويأتى الوالى الذى خلفه معه قاض جديد ، وبعد عدة أجيال كان يدرس لهم الفقه الحنفى فى بعض المدارس والجموع أخذ ينشأ فى الجزائر علماء أحناف من أبناء العثمانيين المولودين فيها . وأخذ الولاية يولون منهم القضاة دون حاجة إلى جلب قضاة من العاصمة : إستانبول ، وأول قاض حنفى جزائرى هو الحسين بن رجب الذى تولى القضاء سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م وكان القاضى الحنفى يسمى المفتى وشيخ الإسلام ودائماً كان بجواره فى المدن قاض مالكى ، إذ كانت جماهير الشعب مالكية ، وله بدوره حق الفتوى ، وإذا اختلف مع القاضى الحنفى عُقد لهما مجلس من العلماء للمناظرة ومن انتصر منهما أُخذَ بفتواه وقد يعزلان معا ويؤلى غيرهما .

وعلى الرغم من كثرة الدروس فى المذهب الحنفى لم ينشط أصحابه فى التأليف إذ ظلوا طويلاً يمشون ستين فى الجزائر ويعودون إلى استانبول فلم تهباً لهم الفرصة حينئذ للتأليف طوال القرن الحادى عشر الهجرى إنما تهيأ ذلك حين أصبح القضاء يختارون من أبناء العثمانيين الجزائريين ، ويوضح ثبت فى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مدد توليهم فى القرن الثانى عشر الهجرى وكيف كانت تتوارث وظيفة القضاء الحنفى بعضُ الأسر مثل أسرة العنايى ولها نشاط محمود فى التأليف ، وعلى شاكلتهم عبد القادر الراشدى القاضى الحنفى فى أوائل القرن الثانى عشر ولكنه عنى بمباحث علم الكلام . أما الفقه المالكى فظل التأليف بالعهد العثماني متصلاً فيه وخاصة فى وضع الشروح والحواشى ونظم المتن ، ومصطفى الرماضى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر حاشية على شرح لمختصر خليل بن إسحق ، ونظمه أحمد البونى المتوفى سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م تيسيراً لحفظه على الناشئة ، ولعبد الرحمن الأخصرى صاحب متن السلم فى المنطق مختصر فى العبادات شرحه عبد الكريم الفكون ( الحفيد ) المتوفى سنة ١١٧٣هـ/١٧٦٠م ولعبد الرحمن البيدرى التلمسانى ياقوتة الحواشى على شرح الإمام الخراسانى لمختصر خليل فى أربعة أسفار فرغ منه سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٦م ونظم المختصر خليفة بن حسن القمارى فقيه بسكرة وفرغ من نظمه سنة ١١٩٢هـ/١٧٧٩م .

ومن كبار فقهاء الإباضية فى العهد العثماني عبد العزيز الثمينى المتوفى سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وله كتاب النيل فى ثلاثة أجزاء وهو مرجع أساسى فى الفقه الإباضى وفروعه فى العبادات والمعاملات ، وهو يقوم عند الإباضيين مقام مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى وشروحه وحواشيه . وأكمله بكتابه : الورد البسام فى رياض الأحكام ، وله مختصر المنهاج فى علوم الشريعة فى أربعة أجزاء وكتاب الألواح فى الفقه وكتاب التاج فى حقوق الأزواج وفيه يعرض الحقوق الزوجية وقضايا الأسرة إلى غير ذلك من كتب فى المنطق وعلم الكلام وأصول الدين .

مرُّ بنا فى القسم الخاص بالإقليم التونسى وما كان يتبعه من شرقى الجزائر أن كل ما كان يتحاور فيه علماء الكلام من مرجئة وجبرية ومعتزلة انتقل هناك مبكرا ، وكان المعتزلة قد انضموا قديماً فى البصرة إلى جيش إبراهيم بن عبد الله الحسنى فى حربه لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى سنة ١٤٥ ولم يكتب له الظفر بل دارت عليه وعلى أخيه محمد النفس الزكية فى المدينة الدوائر ، وأخذ المنصور يتعقب أبناء الأسرة هو وخلفاؤه ، فهرب إدريس أخوهما إلى المغرب ، وغلب على مدينة فاس وأبحاثها وأسس هناك دولة الأدارسة . وكان دعاة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وصلوا إلى هذه الأنحاء وأصبح لهم فى كورتنى طنجة والبيضاء أتباع كثيرون ، فوضعوا أيديهم فى أيدى إدريس ، وأعاتوه فى تأسيس دولته كما أعان - من قبل - معتزلة البصرة أخاه إبراهيم فى ثورته على المنصور ، ونراهم يتكاثرون فى شمال الجزائر الغربى لعهد عبد الوهاب أمير الدولة الرستمية ( ١٧١ - ٢١١هـ ) ، وعقدت مناظرات طويلة بينهم وبين علماء دولته الإباضية ، وأعلن الحرب عليه منهم نحو ثلاثين ألفاً ولم يقدر لهم النصر فهزموا ولم تقم لهم بعد ذلك فى الجزائر قائمة . وطبيعى أنهم كانوا يعتقدون مبادئ المعتزلة الخمسة المشهورة ، وهى التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقين فهو ليس جسماً ولا ما يشبه الجسم ، والعدل مما يترتب عليه نفى سيطرة القدر على إرادة الإنسان حتى يكون مسئولاً عن أعماله مما يستوجب له الثواب والعقاب ، وحمية وعد الله - جلَّ شأنه - بالثواب ووعيده بالعقاب فلا تبدل لهما ، مما يترتب عليه عقاب مرتكب الكبيرة إلا إذا تاب وأناب ، ونفذوا فى مناقشة الحكم عليه إلى مبدئهم الرابع وهو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الكفر والإيمان بينما قال أهل السنة إنه مؤمن فاسق ، وقالت الإباضية إنه كافر لكن لا كفر ملَّة بل كفر نعمة ، والمبدأ الخامس الذى اعتنقته المعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويبدو أن أبا عبيد الله الصنعمانى الداعية الإسماعيلية العبيدى كما قضى على الدولة الرستمية فى تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجرى قضى أيضاً على الدعوة الاعتزالية ، فلم نعد نسمع عن جماهير تعتنقها فى الجزائر والمغرب ، إنما يلقانا من حين لآخر بعض أفراد من العلماء يعتقدونها .

وكان أبو الحسن القاسمى المتوفى بالقيروان سنة ١٠١٢/٤٠٣ قد حمل مذهب أبى الحسن الأشعرى الكلامى إلى القيروان وأشاعه فيها وشاع فى الجزائر بعده إلى نهاية هذا العصر ، ومذهبه يقوم على التوفيق بين آراء المعتزلة وأهل السنة ، فإذا قال أهل السنة بالقضاء والقدر فى أفعال الإنسان وقال المعتزلة بل الإنسان هو الذى يخلق أفعاله قال إنها لله خلقاً وتقديراً وللإنسان كسباً وإرادة ، وإذا قال أهل السنة القرآن أزلى غير مخلوق وقال المعتزلة إنه محدث مخلوق قال إنه قديم وحادث فألفاظه دلالات على كلام الله الأزلى والدلالات مخلوقة محدثة والمدلولات قديمة أزلية ، إلى غير ذلك من آراء مثل تفضيل الأنبياء على الملائكة .

وكان يعاصر الأشعري الماتريدي السمرقندي المتكلم ، ومذهبه مثل مذهب الأشعري في التوفيق بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، ولم يشع مذهبه في العالم العربي إنما الذي شاع مذهب الأشعري حتى في يفة الماتريدي في خراسان ، ومن أكبر مؤيديه هناك إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م الذي رأس المدرسة النظامية في نيسابور ، ويتردد اسم كتابيه البرهان والإرشاد في أصول الدين في تراجم عنوان الدراية للغبريني في القرنين السادس والسابع وتراجم الكتب التالية . وحاول جزائريون كثيرون أن يكتبوا في علم الكلام - أو كما يسمى أحياناً علم التوحيد - وخاصة منذ القرن التاسع الهجري ، وكانت تكتب فيه قصائد وتشرح ، ولعل أحداً لم تثل أعماله من الشهرة فيه ما ناله الحافظ محمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠م كما مر بنا في علوم الأوائل وهو من كبار المفسرين والمحدثين ، ويعد كبير علماء الجزائر في زمنه ، وقدم له أحمد بن عبد الله الجزائري قصيدته في علم التوحيد المسماة باسم « القصيد في علم التوحيد » فشرحها وشاعت باسم الجزائرية وأيضاً شرح لتلميذه أحمد بن عبد الرحمن الحوضي في نفس الموضوع أرجوزته : « واسطة السلوك » ، ثم رأى أن يؤلف في نفس الموضوع فألف فيه ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها ، والعقيدة الوسطى وشرحها ، ثم العقيدة الصغرى وشرحها .

وهذه الأعمال سيطرت في مباحث علم الكلام على الدارسين منذ وُضِعَها وطوال العهد العثماني لافي الجزائر وحدها بل في بلدان المغرب والعالم الإسلامي ، وقد وضعت على العقيدة الصغرى شروح لا تكاد تحصى ، يتقدمها شرح تلميذه محمد بن عمر الماللي وشرح عمر الوزان في قسنطينة وتلميذه عبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم في المنطق وشرح ابن مريم صاحب كتاب البستان المتوفى سنة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م وشرح سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م وشرح مصطفى الرماصي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري وشرح خليفة القمارى بأخرة من هذا القرن إلى غير ذلك من شروح للعقيدة الصغرى ، سوى ما وراءها من شروح للعقيدتين الأخريين ومن كتب أخرى في علم الكلام أو علم التوحيد .

وللاباضيين نشاط واضح في هذا العلم من قديم ، على نحو ما نجد عند عبد الكافي الورجلاني في القرن الخامس الهجري ، إذ له « الموجز في علم الكلام » كتاب في جزئين ، وتلميذه يوسف بن إبراهيم الورجلاني « الدليل والبرهان » في علم الكلام ، ولعمرو بن جميع فيه مختصر باسم « متن عقيدة التوحيد » عُنِيَ به علماء الإباضية وشرحوه مراراً ، ولعبد العزيز الثميني كتاب « معالم الدين » في علم الكلام وأصول الدين .

التاريخ<sup>(١)</sup>

نلتقى في التاريخ بكتب مختلفة ومن أوائلها كتاب « أخبار الأئمة الرستمين » لابن الصغير ومعروف أنها دولة إياضية أقامها عبد الرحمن بن رستم وأبناؤه من سنة ١٦٠ للهجرة إلى سنة ٢٩٦ للهجرة ، وقد ألمنا بها في حديثنا عن تاريخ الجزائر ، وكتاب ابن الصغير ينتهى حول سنة ٢٩٠ فى حكم أبى حاتم يوسف ( ٢٨١ - ٢٩٤هـ ) . ولم يكن ابن الصغير إياضيا غير أنه يعرض أخبار الدولة وأئمتها عرضا حياديا ويصور ما كان يأخذ به أئمتها الرعية من العدل وما كانوا يحاولونه من ازدهار الأحوال الاقتصادية والفكرية ، كما يصور ما حدث من مناظرات بين المذهب الإياضى ومذهب المعتزلة مما عرضنا له فى غير هذا الموضوع . وكان المظنون أن يعنى بعض الجزائريين بتاريخ دولة بنى حماد فى القلعة وبجاية ، فيكتب تاريخها منفصلا ، غير أنه تكفل بذلك البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب .

أما تاريخ دولة بنى عبد الواد أوبنى زيان فى تلمسان فقد عُنى بتاريخها وعرض حكَّامها وأعمالهم مؤرخان : يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسى ويتوسط بينهما ابن قنفذ ولكن لا يكتب عن الدولة الزيانية وإنما يكتب عن الدولة الحفصية بتونس . أما يحيى بن خلدون المتوفى سنة ١٣٧٩/٥٧٨٠م فيؤلف كتابا عن دولة بنى زيان باسم « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » حَقَّقَه وقدم له وعلق عليه الدكتور عبد الحميد حاجيات ، والكتاب فى القسم الأول يتحدث عن أصل قبيلة بنى عبد الواد وماضيها والبلاد التى حكموها وعاصمتهم تلمسان ويستطرد إلى ذكر علمائها وصلحاتها ويترجم لمائة وتسعة منهم ثم يتحدث عن الدول التى ملكت تلمسان قبل بنى عبد الواد واستقرارهم بنواحيها . وفى القسم الثانى يترجم لمؤسس الدولة يعمراسن وخلفائه حتى استيلاء أبى الحسن المرينى على تلمسان وعودة الحكم إلى بنى عبد الواد . ويخص القسم الثالث بالحديث عن عهد أبى حمولثانى حتى سنة ١٣٧٥/٥٧٧٦م .

وكتب ابن قنفذ القسنطينى المتوفى سنة ١٤٠٧/٥٨٠٩م كتابا مجملا عن الدولة الحفصية فى تونس بعنوان : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية . ثم يكتب محمد بن عبد الله التنسى المتوفى سنة ١٤٩٩/٥٨٩٩م كتابا تاريخيا أدبيا بعنوان « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان » وجعله فى خمسة أقسام كبيرة وزعها على أبواب ، والقسم الأول فى سبعة أبواب قدّم فى ستة أبواب منها لتاريخهم بحديث طويل عن أسلافهم ونسبتهم إلى قريش وآل البيت وتاريخ الأدارسة فى المغرب . وهى أبواب تسبق الباب السابع الخاص بتاريخ بنى زيان ملوك

(١) انظر فى التاريخ الكتب المذكورة خلال هذا الحديث .

تلمسان ، وينتهي القسم الأول فى الكتاب ، ويتبعه بأربعة أقسام فى السياسة وفى طرفى من الأخبار والنوادر من النثر والشعر . ونشر الباب السابع من القسم الأول الخاص بتاريخ ملوك بنى زيان حتى عصر الملوك ( ٨٦٦-٨٧٣هـ ) الدكتور محمود بوعيد محققاً له ومعلقاً عليه ومقدماً له .

ونمضى إلى العهد العثمانى فىكتب إبراهيم المرينى البجائى كتاب عنوان الأخبار فيما مر على بجاية من الأخبار فى القرن العاشر الهجرى مؤرخاً مأمراً بها من الأحداث فى استيلاء العثمانيين عليها بعد استيلاء الإسبان ، ويكتب معاصر له يسمى بركات الشريف كتابا يصور فيه هزيمة شارل الخامس أمام مدينة الجزائر واستيلاء خير الدين ( برباروس ) عليها ويتحدث عنه وعن خلفه من ولاة العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى . والكتابان المذكوران لم ينشرا حتى الآن . ويستولى محمد بكداش على مدينة وهران من يد الإسبان سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٨ م فىكتب محمد ميمون عنه وعن هذا الفتح كتابا باسم : التحفة المرضية فى الدولة البكداشية ، ويستعيدا الإسبان سنة ١١٤٥هـ / ١٧٣٣ م ويسترددا الباي محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩١ وتُنظم فى فتحه لها قصائد كثيرة .

وتكتب فى السيرة النبوية مؤلفات كثيرة فى العصور المتأخرة وربما كان أهمها عنوان الأنوار فى آيات النبى المختار لعبد الرحمن الثعالبي المتوفى سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠ م وتنظم فى الرسول مدائح كثيرة تناول سيرته وتشرح شروحا مطولة ، ولأحمد البونى فى العصر العثمانى سيرة نبوية بديدة باسم تنوير السيرة بذكر أعظم سيرة .

ومنذ القرن السابع الهجرى تتكاثر كتب التراجم عن العلماء فى البلدان الكبرى بالجزائر ، ومما نشر منها كتاب « عنوان الدراية فىمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » لأحمد الغربى المتوفى سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٥ م وبينهم كثيرون من علماء المائة السادسة .

ويكتب محمد بن مرزوق جد المرازقة المتوفى سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٩ م كتابا عن السلطان أبى الحسن المرينى باسم « المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن » انتهى منه سنة ٧٧٢هـ / ١٣٧١ م لخص فيه تاريخ الدولة المرينية ثم أرخ لأبى الحسن تاريخا مفصلا . ولا يبالغ إذا قلنا إن أروع ما خلفه الجزائريون فى التراث العربى التاريخى والحضارى كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية لأبى الحسن على الخزاعى التلمسانى المتوفى سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٨ م والكتاب نفيس إلى أبعد حد ، إذ يصور تاريخ الحضارة الإسلامية فى أقدم عهدها وما يتصل بها فى عهد الرسول وصدر الإسلام من الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والكتاب بحق مفخرة من مفاخر علماء الجزائر فى العصور الماضية .

ويؤلف ابن القنفذ المار ذكره كتاب الوفيات لأعلام الصحابة والعلماء والمحدثين والمؤلفين استهله بانتقال سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم رتبته على العقود أو على العشرات في كل مائة يذكر أشهر من توفوا فيها حتى العشرة الأولى أو العقد الأول من المائة التاسعة أو بعبارة أدق إلى قبيل وفاته سنة ٨٠٩ وقيل بل سنة ٨١١ للهجرة وكان له كتاب في طبقات علماء قسنطينة وهو مفقود ، وحقق له الأستاذ محمد الفاسي وأدولف فور كتابه أنس الفقير وعز الحقير في رجال من أهل التصوف كآبي مدين شعيب وأصحابه . ومن حيثئذ يتكاثرت تأليف الجزائريين في المتصوفة كثرة مفرطة ، من ذلك ترجمة ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ١٤٤٢هـ/١٤٣٢م للشيخ إبراهيم بن موسى الصنهاجي . وكان الشيخ محمد السنوسي المتوفى سنة ١٨٩٥هـ/١٤٩٠م محدثا وفقها كبيرا وكان فيه نزوع قوى إلى التصوف وترجم له غير واحد من تلاميذه ومن ترجم له منهم أحمد العبادي ومحمد بن عمر الملاتي وسمى ترجمته : « المواهب القدسية في المناقب السنوسية » ولابن سعد المتوفى سنة ١٤٩٥هـ/١٤٩٥م كتاب « النجم الثاقب في الصلحاء والمتصوفة بعامة » وله كتاب روضة النسر في مناقب الأربعة المتأخرين : محمد الحواري وإبراهيم التازي والحسن أبركان وأحمد الغماري .

ويكف العلماء في العهد العثماني على الترجمة لمشايخ الطرق . ومن أهم كتب التراجم التي تجمع في هذا العهد بين العلماء والمتصوفة كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وهو كتاب نفيس انتهى من تأليفه ابن مريم سنة ١٠١١هـ/١٦٠٢م . وهناك كتابان لا يقلان نفاسة عن كتاب البستان بل يتفوقان عليه تفوقا واضحا ، هما أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض » وكتاب نفع الطيب في أخبار الأندلس وابن الخطيب لأحمد بن محمد المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣٢م وهو يترجم في القسم الثاني من أزهار الرياض لحافظ سبته وفقهها : عياض كما يترجم في القسم الثاني من نفع الطيب لابن الخطيب أما في القسم الأول في الكتاتين فيفيض في أخبار الأندلس وتراجمها بحيث يصبح الكتابان موسوعتين تاريخيتين حضاريتين للأندلس على مر التاريخ ، وقد نقل فيهما عن كتب فقدت أو فقدت الكثير منها مع مر الزمن وقد أشرت في سنة ١٩٥٣ حين نشرت ما بقي من أوراق كتاب المغرب في حلى المغرب من أخبار الأندلس لابن سعيد في مجلدين أنه كاد ينقلهما إلى نفع الطيب ، ومع ذلك تظل له أهمية كبيرة في التعريف بالأندلس وتاريخها الحضاري . وثلثي بعده في العهد العثماني بكثيرين يترجمون لكبار المتصوفة وخاصة أصحاب الزوايا في كتب وأراجيز على نحو ما يلقانا لأحمد بن قاسم البوني بأوائل القرن الثاني عشر الهجري في أرجوزته : الدرة المصونة في علماء وصلحاء بونة ( غنابة ) وهي أرجوزة طويلة . وللبنوني كتاب في تراجم مشاهير النحاة سماه « فتح المستبين في تراجم بعض مشاهير النحاة واللغويين » .

## الفصل الرابع

### نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب<sup>(١)</sup> الجزائر

ذكرنا - فيما أسلفنا - أنه كان بالجزائر قبل الفتح العربية الإسلامية عناصر جنسية مختلفة ، جمهورها من البربر ومن نزلوا بديارهم من الفينقيين والقرطاجيين واليهود والرومان والوندال الألمان والإغريق البيزنطيين ، ثم نزلها العرب ومن انتظم في جيوشهم من أهل البلاد الإسلامية : من إيران والعراق والشام ومصر ، وظلت جيوش متعاقبة تنزلها في العهدين الأموي والعباسي ، كما ظلت جموع متفاوتة من هذه الجيوش تستقر في البلاد المغربية من برقة إلى المحيط الأطلسي محتلطة بالسكان وناشرة للإسلام ولغته العربية . وعاملان أساسيان ساعدا بسرعة على نشر الإسلام ولغته هناك ، هما تعاليم الإسلام السمحة التي حررت البربر من ظلم الدول السابقة التي احتلت ديارهم قرونا متزاولة وأرهقتهم بضرائب باهظة مع العسف والبغي الشديد ، وليس ذلك محسب ، فقد رأوه دينا قويما يسوئى بين أتباعه في جميع الحقوق ، والعامل الثاني سياسة ولاته وخاصة في القرن الأول الهجري وما كفلوا للبربر من العدل والمساواة بينهم وبين العرب في جميع الحقوق : في الجهاد وفي غنائم الحرب وفي الولاية على القبائل والمدن . وعنى موسى بن نصير الوالي هناك ( ٨٦-٩٦هـ ) بأن يعهد في الأنحاء التي لم يتم إسلامها حتى عهده إلى فقهاء ومعلمين يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، ودخلت جماعات بربرية كثيرة لعهده في الدين الخنيف ، وانضم كثيرون من البربر إلى جيوشه في فتوح المغرب ، وفتح الأندلس بقيادة قائد منهم هو طارق بن زياد على نحو ما هو معروف . وعنى عمر بن عبد العزيز بإرسال بعثة - كما مر بنا - لنشر الإسلام هناك بأخرة من القرن الأول الهجري . وينحرف حكام بنى أمية - منذ أوائل القرن الثاني - عن جادة الإسلام الرشيدة في حكم الشعوب التي اعتنقت ، ويثور البربر في الجزائر وغير الجزائر ، وتقدم إليهم جيوش مختلفة وتظل منها بقايا كثيرة في ديارهم . ويحدث ذلك نفسه في أوائل عهد العباسيين ، حتى إذا ولي يزيد بن حاتم المهلبى ( ١٥٤-١٧٠هـ ) هدأت المغرب في الجزائر وغير الجزائر وعمم الأمن والرخاء في البلاد ، ويؤسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية منذ سنة ١٨٤

(١) راجع النصوص عن ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه .

ويقول ابن خلدون : « في أيامه اتخذت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا الدين ، فضرب الإسلام بجرائه » أي ثبت واستقر نهائيا في الديار المغربية .

ونمضى إلى القرن الخامس الهجرى ، ويحدث حدث كبير أتمّ تعرب البربر في الجزائر وغير الجزائر ، فإن المعز بن باديس الصنهاجى حاكم برقة وإفريقية التونسية وشرقى الجزائر للدولة العبيدية الفاطمية فى القاهرة نقض طاعته لتلك الدولة ، وحوّل الدعوة فى ولايته إلى الخلافة العباسية وأرسل إلى الخليفة العباسى القائم أبى جعفر بن القادر ببيعته له ودعا له على منابر القيروان وغير القيروان سنة ٤٣٨ وأرسل إليه القائم بالتقليد وبالخلع ، وعرف ذلك الخليفة العبيدى الفاطمى المستنصر وصمم على الانتقام منه . وكان القرامطة قد اشتبكوا فى حرب سنة ٣٥٩ مع الخليفة الفاطمى العزيز نزار فى فلسطين ومدخل مصر ، وكانت تؤازرهم قبيلتا سليم وهلال اللتان كانتا تزعمان قوافل الحجاج حول المدينة ، فلما انتصر عليهم العزيز أنزل هاتين القبيلتين فى الصحراء الشرقية بالصعيد بين النيل والبحر الأحمر ، وكانتا تحدثان غير قليل من الإضرار بسكانه ، فأشار على الخليفة الفاطمى العزيز وزيره اليازورى أن يصطنع مشايخ هاتين القبيلتين وأن يغريهم بالهجرة إلى المغرب مع من يوالونهم من البدو وقال له إن ظفروا بالمعز بن باديس الصنهاجى صاروا أولياء للدولة وعمالا لها بتلك الأنحاء النائية ، وإلا دبرنا له ما يقضى عليه ، وأعجبت المستنصر الفاطمى تلك الفكرة ، فاستقدم شيوخ القبيلتين وعرضها عليهم سنة ٤٤١ للهجرة فقبلوها ، وفرض لكل بدوى مهاجر بعيرا ودينارا . وعبرت سيوفهم النيل سنة ٤٤٢ واندفعت إلى برقة وما وراءها من البلاد المغربية كالجراد المنتشرا يمرن بشيء إلا أتوا عليه كما يقول ابن خلدون ، واستولت سليم على برقة جميعها وبعض البلدان الشرقية لإفريقية التونسية ، واتجه بنو هلال إلى إفريقية ووصلوا القيروان سنة ٤٤٣ للهجرة ونازلوا المعز بن باديس ، وتمت لهم الغلبة واحتلوا القيروان وغيرها من البلدان التونسية وخربوا المباني وطمسوا معالم الحسن والرونق فيها ، وأهلكوا كثيرا من الزروع فى الريف ، حتى أصبحت ياب ومفاوز كما يقول ابن خلدون . ولما تمّ استيلاؤهم على البلاد التونسية اكتسحت سيوفهم الجزائر واتسمتها القبائل الحلالية وبعض عشائر من سليم ، وظلت تتقاتل مع القبائل الجزيرية هناك فى السهول وخاصة زناتة وصنهاجة وعشائرها حتى عجزوا عن مدافعتهم ، ونازلوا الناصر بن علناس الحمادى صاحب القلعة وخربوا جنباتها وجنباى طنبه والمسيلة ( المحمدية ) وغيرها . ويقول ابن خلدون إنهم أزعجوا ساكنى هذه البلدان وكل ما يتصل بها من المنازل والقرى والضياى حتى أصححت قاعا صنفصفا ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة واختط بأساحل مـينة بجاية ونقل إليها ذخيرته وأعدّها لسكنه ، ونزلها بعده ابنه المنصور فرارا من ضيم هؤلاء الأعراب ، واتخذ كثيرون من البربر الجبال والمرتفعات الوعرة حصونا منيعة لهم . أما هم فتسموا السهول الخصبة التى احتلوها واستقروا فيها شمالى

البلاد وأواسطها ، وبمرور الزمن اختلطوا بالبربر وصاهروهم . وتنبه عبدالمؤمن مؤسس دولة الموحدين لهم فنازلهم فى الأربعينيات من القرن السادس حتى إذا تغلب عليهم أخذ يصانعهم هو وابنه يوسف وحفيده المنصور وجندوا منهم كثيرين أشركوهم فى حرب نصارى الأندلس وأبلوا فيها بلاء عظيما ، وأنزلا عشائر كثيرة منهم فى الشمال الغربى لمراكش ، واستوطن كثير من منهم إقليم وهران وكان لهم فيما بعد أثر عظيم فى مجاهدة الإسبان مع بنى زيان .

وهذه الهجرة الأعرابية الضخمة التى يقول المؤرخون إن عددها كان يزيد عن نصف مليون أعرابى والتى انتشرت فى الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية كان لها فضل عظيم فى إتمام تعرب المغرب واصطبغاه بصبغة عربية كاملة ، ويصور ذلك ابن خلدون فى حديثه عن بعض القبائل البربرية مثل بنى يفرن إذ يقول إنهم « نسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعائرهم فى جميع أحوالهم » ويقول عن قبيلة هواة إنهم صاروا فى عداد الناجمة ( طلاب المرامى ) من عرب بنى سليم فى اللغة والزى وسكنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلاهم قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فضاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم . وهو قول يعم جميع البربر فى سهول الجزائر ومدنها إلا من اعتصم بالجبال والأنجاد الوعرة ، أما عامة البربر فقد أصبحوا عربا فى اللغة والدين والزى والعادات وأساليب الحياة والخصال الكريمة من المروءة والفروسية ، أو بعبارة أخرى أصبح المغرب جميعه فى الجزائر وغير الجزائر شعبا عربيا عظيما وتغلغل الشعور بعروته فى أعماقه ، مما جعل قبائل البربر فى جميع الأنحاء المغربية شرقا وغربا تصطنع لها أنسابا إلى القبائل اليمانية والمضرية وتتكلم العربية إلا فى أنحاء من الجبال لتوعر مسالكها وفى بعض جهات نائية اعتنقوا الإسلام وظلوا يتكلمون لغتهم البربرية مع غيرتهم وحميتهم للدين الحنيف .

ولانبالغ إذا قلنا إن الجزائر - منذ هذه الهجرة الأعرابية الكبرى - أخذت تصطنع العربية لغة هؤلاء الأعراب فى لسانها ، وعمت بين جماهيرها فى الزاب وقسنطينة وبونة ( عنابة ) والمدن الساحلية التى سكنها هؤلاء الأعراب . والمظنون أنها ظلت فصيحة سليمة طوال قرنين على الأقل ، ثم أخذت تتحول حتى فى السنة الأعراب أنفسهم إلى لغة عامية تفتقد الإعراب وكانت كثيرتهم فى الجزائر من القبائل اللالاية ، ونزلت منها الأثيج فى الشمال ومنها دريد ، وقد نزلوا بين بونة ( عنابة ) وقسنطينة ، وانتشرت بطونهم غربى قسنطينة ونواحي جبال أوراس ، ونزلت زغبة فى القفار من نواحي تلمسان ، ونزل بنو رياح اللالايون فى قسنطينة بينما نزل بنوعامر فى وهران وأنحائها . ويسهب ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه فى توزيع القبائل اللالاية فى الجزائر من بونة إلى تلمسان ، وفى أثناء ذلك يقول : ول هؤلاء اللالايين فى الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق فى الخبر يزعمون أن الشريف ابن هاشم

كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتح أصهر إلى أحد رجالات وشيوخ بني هلال الحسن بن سرحان في أخته الجازية ، وولدت منه ولدا سمته محمدا . ثم حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة ، فأجمعوا على الرحلة من نجد إلى إفريقية ، واحتالوا عليه في استرجاع الجازية ، وطالبته بزيارة أبيها ، فأزارها إياهم ، ولم يلبثوا أن ارتحلوا به وبها وكنموا عنه مقصودهم من رحلتهم موهين عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقتص ثم يعودون إلى منازلهم ، ورآهم يبعدون في ارتحالهم ، ولما تبين له أنهم مكروا به فارقهم إلى دار ملكه في مكة وبين جوانحه من حب الجازية داء دفين ، وكلفت بحبه على الرغم من اقترانها ببعض أبناء عمومته في مسيرتها معهم إلى إفريقية ، إذ ظلت تذكره إلى أن ماتت . يقول ابن خلدون إنهم يتناقلون من أخبارها في ذلك ما يعنى على أخبار قيس ( صاحب ليلي ) ويروون كثيرا من أشعار الحكاية محكمة المباني متقنة الأطراف ، وفيها المطبوع والمتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شيء ، وإنما أخذوا فيها بالإعراب فقط .. والخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون في روايتها ويستكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب .. وفي هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة وقُدت فيه صحة الرواية ، ولذلك لا يوثق به ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بأيامهم وروايتهم وحروبهم مع زناتة ( في المغرب ) وضبط لأسماء رجالانهم وكثير من أحوالهم ، لكننا لا نتق بروايتها . وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه ، وهذا قصارى الأمر فيه ، وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل . والحكاية التي يتحدث عنها ابن خلدون هي حكاية الهلالية المعروفة في الملحمة المشهورة باسم « سيرة بني هلال » وتعرف أيضا باسم قصة أبي زيد الهلالي ، وكانت إلى عهد قريب ينشدها شخص يسميه المصريون باسم الشاعر على ربابة في مقاهي مصر وبلدانها المختلفة . والتاريخ الحقيقي للرحلة الهلالية إلى إفريقية وسببها ذكرناه فيما أسلفنا ، غير أن ما وضع للحكاية أو الملحمة من قصة زواج الجازية الهلالية بشكر بن أبي الفتح أمير مكة الحسنى ( ٤٣٠-٤٥٣هـ ) يبدو أنه صحيح وقد أنجب منها ابنه محمداً الذي خلفه في الحكم ، ويبدو أيضا أنها زارت أبيها وعشيرتها حين كانوا يتوون الرحلة مع القرامطة لحرب الفاطميين ، وارتحلت معهم . والحكاية أو القصة تجعلها بطلتها ، وتروى على لسانها أشعاراً بديعة ، من ذلك قولها لولدها أو غلامها الصغير ناصحة مُرْشدة :

ولا خير في الطفل الصغير إذا نشأ      وكانه رَقَادًا كثير هَمَائِدُه  
وإما يمت يرتاح من عيشة الرَدَى      وإلا يَعُدُّ كَالصَّقْرِ مَالِي مَخَالِبِه

وهي تقول لطفلها لا خير ولا نفع فيمن ينشأ نوما كسولا ، يرضى بالجلوس ولا يخرج في طلب الرزق ، وحرى بالشخص أن يمضى شرقا وغربا طالبا معاشه مقطعا في ذلك أوعية زاده غير مبق منه شيئا . وإما أن يموت فيرتاح من المعيشة التعمسة الضنك ، وإما أن يعود كالصقر

الجراح بصيده وقد ملأ مخالبه . وينشد ابن خلدون لبعض بني دريد اللالين من عشيرة الجازية مفاخرًا بساداتها مع حنينه إلى القيروان حين نزلوا بها في أول قدومهم إلى الإقليم رمازا لها بصيرة التي بناها في جنوبيها المنصور العبيدى :

دريدُ سَراةُ البدو للجدود مَنعَعٌ      كما كلُّ أرضٍ منعَعُ الما خيَارُها  
وهم غَرَّبُوا الأعراب حتى تعرَّفَتْ      بطُرُقِ المعالي ما يوفِّي قصارها  
وطرُّوا طريقَ البارمين ثنَّيَهُ      وقد كان ماتقوى المطايا حِجارها

والشاعر يقول دريد الراحلة أشرف البدو ومنعع الجود ينهل منه كل ظامئ ، وهم أصحاب الفضل في قيادة اللالين إلى ديار المغرب حتى تعرفوا طرق المعالي المفرطة الطول الشاقة وقد طرُّوا أى مهَّدوا طريق البارمين إلى الجزائر وأحاء بونة وما بها من نيات وممرات في الجبال وكانت المطايا والإبل لا تستطيع السير فيه لكثرة مابه من الحجارة والصخور ، فأصبح ممهدا ذلولًا . والأبيات فصيحة وتجري على سنن العربية فى الإعراب ، ولا ندرى هل أشعار القصص فى اللالية بدأت معربة ثم فقدت الإعراب مع الزمن أو أنها وُضعت غير معربة ، ومن المؤكد أنها لم توضع عقب الرحلة والاستقرار فى المغرب مباشرة ، بل وضعت بعد ذلك حين أخذت تسود العامية فى الأفواه بالقرن السادس وما بعده ، وبها كثير من الأشعار البليغة بما تحوى من العبارات الرصينة والمشاعر الرقيقة والصور البديعة . ومن هذا الميراث عن الأعراب ما دخل على اللغة البربرية من ألفاظ عربية سليمة اقترضوها من الفصحى وتبلغ فى بعض الأنحاء نحو ثلث اللغة البربرية المتداولة .

ويعقد ابن خلدون فى مقدمته فصلا فى أشعار العرب المستعجمة أو المستحدثة بالعامية لعهد فى القرن الثامن الهجرى فيقول : « فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعراب على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والثناء والهجاء ، ويستطردون فى الخروج من فن إلى فن فى الكلام ، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ؛ ثم بعد ذلك ينسبون ، وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد باسم الأصمعيات نسبة إلى الأصمعي راوية العرب لأشعارهم . ولهم فن آخر فى كلامهم كثير التداول فى نظمهم يجيئون به معصبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة قبله فى رويه ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت ( دور ) إلى آخر القصيدة شبيها بالمرمعات والمخمسات التى أحدثها المتأخرون من المولدين . ولهُؤلاء العرب ( البدو ) فى هذا الشعر بلاغة فائقة ، وفيهم الفحول والمتأخرون

( المتخلفون ) . والكثيرون من المتحلين للعلوم لهذا العهد - وخصوصا علم اللسان - يستنكرون هذه الفنون التي لهم إذا سمعوها ، ويمجّون نظمهم إذا أشيد ، وعتقد أن ذوقهم إنما نبا عنها واستهجنها لفقدان الإعراب منها .. وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب في أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر ( ساكنة ) ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب » . وينشد ابن خلدون طائفة من أشعار الملحمة الهلالية على لسان الشريف ابن هاشم يبكي الجازية أخت الحسن بن سرحان ، ويذكر ارتحالها مع قومها إلى المغرب وعتابا منه لزوجها ماضى بن مقرب ورتاء بعض شعرائهم للزنتى خليفة ، ويسوق أشعارا أخرى لشعرائهم . ومن الصعب التمثل بأبيات منها لأنها غير مضبوطة بالشكل ، ولأن كثيرا من الكلم فيها أصابه غير قليل من التحريف ، بحيث يصعب فهمها ونطقها نطقا سليما . وكلما تقدمنا في الزمن بعد عصر ابن خلدون في القرن التاسع الهجرى يتكاثر هذا الشعر العامى أو الشعبى . ويزداد طغيانه على الشعر الفصيح فى العهد العثمانى ، وكان ينظم فى المولد النبوى وفى الجهاد الحربى للأجانب وفى الأزمت الاقتصادية والأحوال المعيشية . ولسعيد المنداسى مدحة نبوية عامية سماها « العقيقة » عُنِي بها غير شارح ، وممن شرحها ابن سحنون . واشتهر بتلمسان فى القرن الثانى عشر الهجرى ثلاثة شعراء شعبيون هم : محمد بن مسائب وابن التريكى والزناقى ، ولهم أشعار دينية مختلفة ، سوى ما لكل منهم - كما فى كتاب تاريخ الجزائر الثقافى - من رحلة حجازية منظومة .

ومن الحق أن الشعر العامى الشعبى فى الجزائر سواء نظم على لسان البدو من الأعراب أو على لسان أهل الحضر والمدن لم ترجح يوما كفته على كفة الشعر الفصيح ، والجزائر فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية والعربية عامة إنما كانت تُعنى الطبقات المثقفة فيها عناية أكبر وأوسع بالشعر الفصيح . ومن الحق أيضا أن الهجرة الأعرابية الكبرى إلى الجزائر استطاعت - منذ القرن الخامس الهجرى - أن تفرض لغتها العربية على سكان البوادرى وسفوح الجبال والسهول والحواضر بفضل امتزاج هؤلاء الأعراب بالبربر فى المعاش وعن طريق المصاهرة ودفعهم إلى التخاطب بالعربية مما جعل اللغة البربرية تتقهقر وتراجع أمامها إلى الجبال والمعاقل النائية المنبعا ، ومع ذلك لحقتها العربية هناك واستولت على السنة كثيرين من أهلها ، بل لقد استولت على اللغة البربرية هناك فأشاعت فيها كثيرا من ألفاظها ، مما جعل سكان الجزائر - منذ أواسط القرن الخامس الهجرى أو بعد ذلك بقليل - يعدون شعبا عربيا تاما فى دينه الخفيف ولغته وثقافته وآدابه وأشعاره ، مع ما اقتبسوه من معيشة هؤلاء الأعراب ومن تقاليدهم وعاداتهم فى حياتهم الاجتماعية ، وكل ذلك استقر وثبت ثبوت الراسيات .

## كثرة الشعراء

طبيعى أن لا نلتقى بشعراء كثيرين فى الجزائر طوال القرن الأول الهجرى وشطر غير قليل من القرن الثانى إلا ما كان يجرى على ألسنة بعض نزلائها من العرب ، حتى إذا تأسست الدولة الرسمية فى تاهرت ( ١٦٠-٢٩٦هـ ) وأخذت تعنى بتعليم العربية ونشرها بين الجزائريين ، حينئذ أخذ جيل ناشئ يتقنها ويتقن نظم الشعر ، وكان من حكام هذه الدولة من أحسن نظمه ، مثل الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمي ( ٢١١-٢٤٠هـ ) وله قصيدة طويلة فى الدعوة إلى العلم والتعلم وبيان منزلة العلماء . وكانت الأسرة الرسمية جميعا تهتم بالحركتين العلمية والأدبية ، وأخذ الشعر يتدفق على بعض الألسنة ، وأنتجت الجزائر فى عهدها أكبر شاعر عرفته فى القرن الثالث الهجرى ، ونقصد بكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م وكان له ديوان شعر كبير ، وعاصره شاعر يسمى ابن حزاز التاهرتي .

وكان المقسم الشرقى من الجزائر - حينئذ - تابعا للدولة الأغلبية فى القيروان ، ثم تبع الدولة العبيدية مع الجزائر جميعها ، ثم أصبح تابعا للدولة الصنهاجية وحكامها فى القيروان ، ولذلك كان شعراؤه يرحلون إلى العاصمة المذكورة حين تفتتح ملكاتهم الشعرية ، إذ كانت مركز الحركة الأدبية فى الدولة ، وقد يظلون بها ويتخذونها موطنًا لهم ، كما حدث لابن رشيق ، وهو ما جعلنا نسلكه بين شعراء القيروان لأن مرباه الأدبى تكامل فيها . ومنهم من نظن أن مرباه الأدبى تكامل فى الجزائر ثم هاجر منها إلى القيروان أو غيرها ، مثل محمد بن الحسين الطنبى الذى هاجر بأسرته الطنبية إلى قرطبة فى الأندلس واستقر بها . ومن نزل القيروان بعد نضجه الأدبى فى موطنه بالجزائر عبد الكريم النهشلى المتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وهو من المسيلة ( المحمدية ) ومنهم ابن قاضى ميلة المعاصر للنهشلى ، والحسن بن محمد التميمى المعروف باسم ابن الربيب المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م وهو من تاهرت ومثله على بن أبى الرجال الفلكى المشهور المتوفى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م فهو أيضا تاهرتي .

وكان حماد بن بلكين قد عقد له أخوه المنصور على مدينتى أشير والمسيلة ( المحمدية ) وضم إليهما أيام ابن أخيه باديس المغرب الأوسط وأخذ يفكر فى الاستقلال عن باديس والقيروان واختط مدينة القلعة سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م وتمَّ له استقلاله سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م كما مرَّ بنا فى الفصل الأول ، واستكثر حماد فى القلعة من المساجد والفنادق ، واتسعت فى التمدن ، وكان مثقفا قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب الجدل ، وعنى فى قلعه بالحركة العلمية ، ورحل إليها من الثغور القاصية - كما يقول ابن خلدون - طلاب العلوم . وتبعه أبناءه وأحفاده فى الدولة الحمادية بالقلعة ثم ببجاية منذ نقل إليها المنصور بن علناس ( علاء الناس ) عاصمة الدولة

سنة ٤٨٣ ومع ذلك ظل للقلعة نشاطها العلمي والأدبي حتى الحقب المتأخرة من هذا العصر ، كما ظل نفس النشاط لبجاية بعد قضاء دولة الموحدين على الدولة الحمادية سنة ١١٥٢/٥٤٧م . ومن المؤكد أن القلعة وبجاية أنتجتا كثيرا من الشعراء والعلماء فى عهد الدولة الحمادية ، وذاعت للحركتين العلمية والأدبية شهرة غير قليلة مما جعل غير عالم وشاعر يرحل إليها مثل ابن حمدى الصقلى الذى أقام فى بجاية فترة لعهد المنصور الحمادى ( ٤٨١-٤٩٨هـ ) وله فيه وفى وصف قصوره مدائح بديعة . وإلى المنصور التجأ عز الدولة بن صمادح بعد قضاء يوسف بن تاشفين المرابطى على دولة أسرته فى مدينة المرية ، فأكرمه وقلده ولاية دلس على البحر المتوسط غربى بجاية وظل بها إلى وفاته ، وكان شاعرا وله شعر يشكو فيه من الدهر وأحداثه . ومن كبار الشعراء الذين نزلوا بقلعة بنى حماد واستوطنوها أبو الفضل يوسف بن محمد التوزرى التونسى ، وبها تصدّر للتدريس حتى وفاته سنة ٥١٣هـ/١١١٩م وهو صاحب قصيدة الاستغاثة المشهورة باسم المنفرجة السائرة فى الآفاق . ومعروف أن العماد الأصبهاني ترجم فى كتابه « الخريدة » لشعراء العالم الإسلامى فى عصره بالقرن السادس الهجرى ، ومن ترجم له من شعراء الدولة الحمادية فى عهدها الأخير يوسف بن المبارك وله مدحة جيدة فى أمراء تلك الدولة ، وابن أبى المليلح الطيب شاعر الأمير الحمادى : العزيز ( ٤٩٨-٥١٥هـ ) وطيبه الخاص ، وعلى بن الزيتونى وأتشد له مقطوعة فى مدح قاض ، والفقير عمر بن فللول كاتب الأمير الحمادى يحيى بن عبد العزيز ( ٥١٨ - ٥٤٧هـ ) وأتشد له مقطوعة غزلية .

وفى السنة المذكورة سنة ١١٥٢/٥٤٧م قوّضت دولة الموحدين بقيادة أميرها عبد المؤمن دولة بنى حماد نهائيا فى بجاية والقلعة وإقليمهما ، وظلت الحركتان الأدبية والعلمية مزدهرة بهما على الرغم مما أحدث على بن غانّة من اضطراب فى الجزائر ، إذ فاجأ أسطوله الذى جلبه معه من ميورقة سنة ١١٨٤/٥٥٨٠م بقيادته مدينة بجاية واستولى عليها . وطوال النصف الثانى من القرن السادس أخذ بعض متصوفة الأندلس ينزلون مدن الجزائر ، وأخذت تشيع فيها منذ هذا التاريخ حركات صوفية واسعة ، ونمتها عند الجزائريين الطرق الصوفية السنية التى شاعت بديارهم : شاذلية وغير شاذلية ، ومن كبار نزلائها من صوفية الأندلس أبو مدين شعيب نزيل بجاية ، وسمع به المنصور أمير الموحدين أو خليفتهم ، فطلبه ، وفى طريقه إليه توفى بتلمسان سنة ٥٩٤ ومنهم أبو عبد الله الشوذى الصوفى نزيل تلمسان ، ومنهم أيضا يحيى الدين بن عربى وقد قام بسياحات متعددة فى بلدان المغرب والجزائر ، ونزل بجاية ولزم أبامدين شعيب الصوفى فترة معجبا به وبطريقته الصوفية ، ثم ولّى وجهه نحو المشرق : مصر والحجاز والشام . ومن شعراء الجزائر فى عهد الموحدين الحسن بن الفكون القسنطينى الشاعر المبدع المتوفى بأوائل القرن السابع الهجرى ، ومعاصره محمد بن على بن جبل الوهرانى قاضى تلمسان ثم قاضى الجماعة بمراكش توفى سنة ٦٠١ وله مدائح فى الخليفة المنصور الموحدى ، ومنهم أبو عبد الله بن الحجام

التلمساني المتصوف المتوفى سنة ٦١٤ ومحمد بن علي بن حماد القلمي المشهور بمراثيه للدولة الحمادية المتوفى سنة ٦٢٨ .

وتنقسم الجزائر - منذ العقد الثالث في القرن السابع الهجري - الدولة الحفصية في الشرق : قسنطينة وبجاية وما إليهما ، ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد في الغرب : تلمسان وما إليها . وينزلها من صوفية الأندلس ابن سبعين نزيل بجاية ، كما ينزلها أبو الحسن الششتري ، ويقال إنه تتلمذ لأصحاب أبي مدين شعيب ومريديه واعتنق طريقته الصوفية ، ولقى ببجاية ابن سبعين وأعجب به ولزمه فترة ، ورحلا إلى المشرق . وكان لهما ولمن سبقهما من صوفية الأندلس إلى النزول بالجزائر وكذلك لشيوع الطرق الصوفية وانتشارها بها أثر عميق في موجات التصوف التي عمت في البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، وملتقى - منذ هذا القرن - بشعر صوفى كثير على ألسنة الجزائريين . وظلت الدولتان : الحفصية والزيانية تتقابلان في الجزائر طوال ثلاثة قرون ، ومن الشعراء لعهدهما في القرن السابع الهجري عبد الله بن نعيم الشاعر الصوفى المتوفى سنة ٦٣٦ ومحمد بن أحمد الأريسي وله غزليات وخمريات ، وعبد الله بن محمد بن علوان وهو من شعراء المديح النبوى ومحمد بن يحيى بن عبد السلام وهو من شعراء المديح ، ومحمد بن الحسن القلمي المتوفى سنة ٦٧٣ وهو من شعراء الزهد والمديح النبوى وعبد الحق بن ربيع الصوفى المتوفى سنة ٦٧٥ . وكل هؤلاء الشعراء بجائيون ، ومثلهم عبد المنعم بن محمد الغساني نزيل بجاية وهو من أهل مدينة الجزائر وله مشاركة في المديح النبوى توفى سنة ٦٨٠ وإبراهيم بن أحمد بن الخطيب الشاعر الصوفى وعبد الرحمن بن أبي دلال وهو من شعراء المديح . ومن شعراء تلمسان عفيف الدين التلمساني الصوفى المتوفى بدمشق سنة ٦٩١ وأبو العيش الخزرجى محمد بن عبد الرحيم وله في التصوف شعر كثير .

ويفتح القرن الثامن بمحمد بن محمد العطار ودواوينه النبوية المتوفى سنة ٧٠٧ وهو من مدينة الجزائر ، وكان يعاصره في تلمسان ابن خميس المتوفى سنة ٧٠٨ وله شعر تصوف وزهد ومديح كثير ، وعاصره في مليانة أحمد بن علي الملياني المتوفى سنة ٧١٤ وله فخر بديع ، ومن شعراء هذا القرن محمد بن عمر المليكى من مدينة الجزائر المتوفى سنة ٧٤٠ وله غزليات متنوعة ، وابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة ٧٧٠ وله مدائح نبوية وغير نبوية وابن أبي حجلة التلمساني نزيل القاهرة المتوفى سنة ٧٨٠ ومعاصره يحيى بن خلدون شاعر أبي حمو موسى الثانى ومؤرخ الدولة الزناتية المتوفى فى نفس السنة . ويؤدهر شعر المولديات الذى ينشد فى مولد الرسول ﷺ ومن كبار ناظميه شاعرا الدولة محمد بن يوسف الثغرى ومحمد بن أبى جمعة التلالسى . ومن شعراء القرن أيضا الأمير الزياني أبو حمو موسى الثانى ( ٧٦٠-٧٩١هـ ) . وله شعر فخر كثير وكان ابنه أبو زيان محمد شاعرا ، توفى سنة ٨٠١ . وملتقى فى القرن التاسع

وبعدده حتى العهد العثماني بشعراء كثيرين ، ومن كبارهم ابن قنفذ القسنطيني المتوفى سنة ٨٠٩ وله أشعار دينية ، وابن مرزوق الحفيد التلمساني المتوفى سنة ٨٤٢ وله منظومات تعليمية كثيرة ، والصوفي الكبير إبراهيم التازي المتوفى سنة ٨٦٦ وله أشعار صوفية بديعة ، والرياضي المشهور محمد بن أحمد الحياك المتوفى سنة ٨٦٧ وله منظومة فلكية في الإسطرلاب ، وأبو عبد الله بن البنا وله غزل بديع . وأحمد بن عبد الله الجزائري المتوفى سنة ٨٨٤ وله منظومة في علم التوحيد ومرثية بديعة لأستاذه عبد الرحمن الثعالبي ، ومحمد بن يوسف السنوسي المتوفى سنة ٨٩٥ وله منظومتان في علم التوحيد باسم السنوسية الكبرى والسنوسية الصغرى ، ومحمد بن عبد الجليل التنسي مؤرخ دولة بني زيان المتوفى سنة ٨٩٩ وله مدحة طويلة في الأمير الزياني المتوكل وأبنائه ختم بها تاريخه ، وكان يعاصره الشهاب بن الخلوف القسنطيني المتوفى أيضا سنة ٨٩٩ شاعر السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان ، وعاصرها محمد بن عبد الرحمن الحوضي المتوفى سنة ٩٠٠ ويشتهر بمرثية له في أستاذه السنوسي ، وله غزل ومدح نبوي وغير نبوي ، وكان يعاصره محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى سنة ٩٠٩ وله - كما أسلفنا - قصيدة مشهورة أرسل بها إلى السيوطي في الدفاع عن علم المنطق وضرورة تعلمه . ومن معاصريه إبراهيم بن أحمد التنجي صاحب قصيدة في الصيد مشهورة ، وعنى ابن أخيه بشرحها سنة ٩٨٦ وسمى شرحه : « الفريد في تقييد الشريد » وسنعرض للقصيدة وشرحها في غير هذا الموضع . ونمضى إلى العهد العثماني وثلثي في القرن العاشر الهجري بمحمد بن علي يهلول المجاجي المتوفى سنة ١٠٠٢ وله شعر صوفي كثير ومنظومات علمية ، وتلميذه أحمد المانجلاتي مرثية بديعة فيه وتنسب خطأ إلى سعيد قدورة ، وللمانجلاتي مدح نبوي كثير وديوانان وموشحات . وثلثي بعد الرحمن بن موسى المتوفى سنة ١٠١١ وله قصائد متوسطة في الحث على الجهاد وفي الاستغاثة بالله ورسوله . وكان يعاصره محمد بن عبد الرحمن البيوني المتوفى سنة ١٠١٨ وله شعر كثير في الخمر ، وتلاههم أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ وكان يعاصره يحيى بن أبي راشد وله أشعار في الجهاد وفي وصف مدينة تلمسان ، ومحمد بن رأس العين المتوفى حوالي سنة ١٠٦٠ وهو من شعراء الموشحات والمزل والمجون . وجاء في إثره عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية في نقد المتصوفة المتوفى سنة ١٠٧٣ وله ديوان في المدح النبوي . وكان يعاصره محمد التوجيلي المتوفى سنة ١٠٨٠ وله مدح ورتاء وغزل . ويلقانا في القرن الثاني عشر الهجري محمد بن أحمد البيوني المتوفى سنة ١١١٦ وله منظومات علمية كثيرة كثيرة مفرطة ، ومحمد بن محمد بن علي مفتي الجزائر الحنفي وله شعر كثير في جهاد الإسبان وانتصار بكدش عليهم وقتحه لوهراة سنة ١١١٩هـ/١٧٠٨م وقد قيلت فيه وفي هذا الفتح مدائح لشعراء جزائريين كثيرين سجلها ابن ميمون في كتاب له سماه « التحفة المرضية » . ومن شعراء هذا القرن أيضا أحمد بن عمار المفتي المالكي المتوفى في أوائل

القرن الثالث عشر الهجري ، وله موشحات نبوية بديعة ، ومنهم أحمد بن سحنون شاعر الباي محمد الكبير صاحب الفتح الثاني لوهرا ن بعد أن استردّها الإسبان سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م وتغنى بهذا الفتح النهائى لوهرا ن كثير من الشعراء الجزائريين وسجل أشعارهم ابن سحنون فى كتابه « الثغر الجمانى » .

### ٣

#### شعراء المديح

يُعَدّ المديح أهم موضوع استغرق صفحات الشعر العربى على مر العصور ، وقد نشأ أول ما نشأ عند العرب حول التغنى ببطولات فرسانهم وشجعانهم فى الحروب ومكارم ساداتهم وخصالهم الحميدة فى السلم والحرب ، وظل لكل عصر أبطاله وساداته وأمرأته وحكامه ، وتغنى الشعراء فى وصف البطولات الحربية والخصال الكريمة وحكم الخلفاء والحكام العادل الرشيد على مدى العصور الإسلامية المتعاقبة . وطبيعى أن يكون للجزائر حظ فى هذا الوصف منذ تكونت فى تاهرت الدولة الرسمية الإباضية ، وكان من أمرائها من يجرى الشعر على أسنتهم مثل أفلح بن عبد الوهاب ( ٢١١ - ٢٤٠هـ ) وله قصيدة - كما مر بنا - فى العلم والتعليم والترغيب فيها ، وهى رمز لعناية تلك الدولة بالحركتين العلمية والأدبية فى تاهرت ، ويلقانا من مبكرى شعرائها أحمد بن فتح التاهرتى وابن حزاز ، وأهم شعرائها - حينئذ - بكر بن حماد ، وتصيح تاهرت - ومثلها الجزائر جميعها - تابعة للدولة العبيدية فى المهدية ، ويأمر المهدي العبيدى قائده على بن حمدون الزناتى بتأسيس مدينة المسيلة ( المحمدية ) واتخاذها عاصمة لإقليم الزاب فى الجزائر بدلا من طينة سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م . وكان قد نشأ تنافس بين عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى فى الأندلس وبين المهدي العبيدى وخلفائه العبيديين فى البلدان المغربية . ونرى أسرة طينية تهاجر من موطنها إلى قرطبة سنة ٣٣١ بزعامة مؤسسها بالأندلس محمد بن الحسين الطنبى ويرحب عبد الرحمن الناصر به ويعين قدم معه من أهله ، ويصبح من شعرائه وبطانته ، ويكثر من مديحه ، حتى ليقول ابن حيان إن مدائحه فيه تملأ ديوانا كاملا ، ويقرّبه بعده ابنه الحكم المستنصر ( ٣٥٠ - ٣٦٥هـ ) حين استولى على صولجان الخلافة بعد أبيه ، وكان كلما قدم على المستنصر عيد مدحه بقصيدة طويلة ، ونراه فى عيد الفطر لسنة ٣٦١ ينشده قصيدة جيمية مهيبا الناس لما كان يريد المستنصر من تولية ابنه هشام - وكان لا يزال طفلا - ولاية العهد قائلا له (١) :

(١) نظر المتبص لابن حيان ( تحقيق د . عبد الرحمن

الحجى ) ص ٨٣ .

حَصَّنْ بِهِ دِينَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ  
لُجَّتْ بِيَعْتَهُ النَّفْسُ فَأَخَذَهَا  
وَأَقِيمْ بِهِ أَوَدَ الزَّمَانِ الْأَعْوَجِ  
عَوْدَ النَّبْوَةِ وَالْخِلَافَةِ أَصْلَهُ  
مِنْ وَاجِبِ الْأَشْيَاءِ لَوْ لَمْ تُلْهِجْ  
وَالْفَرْعَ مِنْ تِلْكَ الْعُرُوقِ الْوُشُجِ (١)  
مَا بَيْنَ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ الرُّجِجِ (٢)

وواضح أنه كان يضع نفسه فى خدمة الخلافة الأموية بالأندلس ومناصرتها والاحتطاب فى حبيلها إلى أن توفى سنة ١٠٠٣/٣٩٤هـ . وكان قد هاجر معه إلى قرطبة أخوه على وأنجب ابنا له هو أبو مضر زيادة الله ، وعنى بتريته وأصبح - فيما بعد - نديما للمنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد ثم لولديه من بعده عبد الملك المظفر وأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وحين قام بالحجابة بعد وفاة أخيه أرغم الخليفة هشاما المؤيد على أن يعهد إليه بولاية العهد ، ولما دخلت الوفود عليه للتهنئة كان مما هنأه به (٣) :

تَخَيَّرَ اللَّهُ وَالسَّلْطَانُ لِلْأَمْرِ  
وَلِيَّ عَهْدٍ بَرَاهُ اللَّهُ مِنْ كَرَمِ  
اخْتَارَهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ يَحْفَظُهُ  
وَخَصَّهُ بَعْلُو الْقَدْرِ وَالْحَمَمِ

وكان صنيع شنجول المذكور سببا فى القضاء عليه وفى فتنة قضت على الدولة الأموية فى الأندلس، وكان حريا بالشاعر أن يترث وأن لا يكيل الثناء لشنجول، إذ مضى يمدحه بقصائد أخرى. وكان لزيادة الله ابن يسمى عبد الملك عنى بتأديبه ويقول ابن سعيد بترجمته له فى كتابه المغرب إنه كان إماما فى علم الحديث وكان شاعرا وأشعر منه ابن أخيه على بن عبدالعزيز، وفيه يقول الحجارى إنه أشعر بنى الطنبى وأنشد له ابن سعيد أشعارا فى الخمر والغزل.

وإذا كانت طنبية عاصمة الزاب القديمة أهدت إلى قرطبة أسرة بنى الطنبى فى القرن الرابع الهجرى وكل ما نظمته أفرادها من الشعر فإن قرطبة بدورها لم تلبث بعد نزول تلك الأسرة فيها بقليل أن أهدت إلى المسيلة عاصمة الزاب الحديثة وواليتها من قبل العبيديين منذ سنة ٣٣٤/٩٤٥م جعفر بن على بن حمدون وكان قد خلف فيها أباه الذى أسسها - كما مر بنا - وكان قد اتسعا فيها بالعمران وأصبحت مدينة شامخة وقصدها الشعراء والعلماء ، ومن اختارته قرطبة لقصده جعفر فيها شاعرها القذ ابن هانىء ، وله فيه مدائح رائعة خلدت اسمه ، ومن قوله فيه (٤) :

المشْرِقاتُ النِّيرَاتُ ثَلَاثَةٌ  
الشَّمْسُ وَالقَمَرُ المُنِيرُ وَجَعْفَرُ

(١) الوشج : المنفعة المشابهة .

(٢) بلاد الرجج : بلاد بالقرب من مدينة كابل فى

أفغانستان .

(٣) انظر البيتين التاليين وأياتا أخرى فى تهته شنجول

ويقول مخاطبًا له في إحدى مدائحه :

لَمْ تُدْنِنِي أَرْضٌ إِلَّا بِكَ وَإِنَّمَا  
وَرَأَيْتُ حَوْلِي وَفَدَّ كُلُّ قَبِيلَةٍ  
أَرْضٌ وَطَلَّتْ الدَّرَّ مِنْ حَصْبَانِهَا  
وَجِئْتُ السَّمَاءَ فَفَتَحَتْ أَبْوَابَهَا  
حَتَّى تَوَهَّمْتُ الْعِرَاقَ الزَّابِ (١)  
وَالْمَسْكَ تَرْبًا وَالرِّيَاضَ جَنَابَهَا

وسمع بالشاعر ومدائحه في جعفر الخليفة المعز العبيدي القاطمى فطلبه منه ، ولم يستطع مخالفته فجهزه إليه ، وأحس حينما بعد عن المسيلة والزاب كأنما فارق فردوسه ، وصور ذلك في إحدى قصائده منشدا :

خَلِيلِي أَيْنَ الزَّابُ مِنِّي وَجَعْفَرُ  
وَقَبِيلِي نَأَى عَنِ جَنَّةِ الْخَلْدِ آدَمُ  
وَجَنَاتُ عَدْنٍ بِنْتُ عَنْهَا وَكَوْثَرُ  
فَمَا رَاقَهُ مِنْ جَنَابِ الْأَرْضِ مَنْظَرُ

وهو يتحسر على فراقه للزاب وجعفر ، فقد فارق جنَّة الخلد ونهرها « الكوثر » كما فارقهما أبوه آدم قبله ، ولم ينفعه ندمه ولا أسفه ولا تحسره ، ولا راقه بعدهما مشهد في الأرض ولا منظر . وإذا كانت الجزائر أهدت إلى الشعر العربي شاعرا كبيرا في القرن الثالث الهجري هو بكر بن حماد فإنها أهدت إليه في النصف الثاني من القرن الرابع شاعرين كبيرين هما عبد الله بن محمد التنوخي المعروف باسم ابن قاضي مدينة ميلة الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة قسنطينة ، واشتهر بمدحة فائقة مدح بها والى صقلية يوسف ثقة الدولة وسنخسه بترجمة . والثاني عبد الكريم النهشلي المسيلي شاعر المنصور الصنهاجي وابنه باديس ، وسنفرده ترجمته . وقادت الدولة الحمادية في القلعة وبجاية طوال القرن الخامس الهجري حركة أدبية وعلمية نشيطة ، وارتحل إلى أمرائها الشعراء ليمنحوهم الجوائز والصلوات من أمثال ابن الفكاه أبي القاسم عبد الخالق القرشي القيرواني مَدَحِ النَّاصِرِينَ عَلَنَاسِ ( ٤٥٤ - ٤٨١ هـ ) وفيه أنشد (٢) :

قَالَتْ سَعَادٌ وَقَدْ زُمْتُ رَكَائِبُنَا  
فَقُلْتُ تَاللَّهِ لَا أَنْفُكَ ذَا سَفَرٍ  
مَهْلًا عَلَيْكَ فَأَنْتَ الرَّائِحُ الْغَادِي  
تَجْرِي بِي الْفُلُكُ أَوْ يَحْدُو بِي الْحَادِي  
حَتَّى أَقْبَلَ تَرْبَ الْعَزْ مُنْتَصِرًا  
بِالنَّاصِرِ بْنِ عَلَنَاسِ بْنِ حَمَادٍ

وكان ابنه المنصور ( ٤٨١ - ٤٩٨ هـ ) كاتبًا شاعرًا وفيه يقول ابن خلدون : « هو الذي حضر ملك بني حماد وصير بجاية دار المملكة وجدد قصورها وشيد جامعها وتأنق في اختطاط المباني وتشديد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين ، فبنى في القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام وبنى في بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أمميون » . ونزل به عبد الجبار بن حمديس شاعر صقلية الفذ فقلده صلوات سنية وقلده ابن حمديس قصائد بأهارة ،

(١) الزاب : أرض سهول في وسط الجزائر وراء جبال الأوراس شرقا .  
(٢) أعمال الأعلام لابن الخطيب ( طبع الدار البيضاء )  
٩٦/٣ زمت ركايتنا : شدت بالزام مستعدًا للرحيل .

منها رائية بديعة يصف فيها أحد قصوره وما امتد أمامه من بهو يتوسطه حوض كبير به نافورة تحملها مجموعة من الأسد المذهبة تمج المياه البلورية من أفواهاها إلى بركة محيطة بها ، وفوقها شجرة ذهبية ترصع أغصانها طيور بمناقيرها مياه كمتناثر اللآلئ الصافية ، يقول<sup>(١)</sup> :

قصر لوانك قد كحلت بنوره  
أذكرتنا الفردوس حين أرتنا  
فلك من الأفلاك إلا أنه  
وضراغم سكنت عرين رئاسة  
وكانما غشى النضار جسمها  
وبديعة الثمرات تعبر نحوها  
قد صوفحت أغصانها فكأنما  
خرس تعدد من الصفاح فإن شدت  
أعمى لعماد إلى المقام بصيرا  
غرفا رفعت بناءها وقصورا  
حقر البدور فأطلع المنصورا  
تركت خريز الماء فيه زئيرا<sup>(٢)</sup>  
وأذاب في أفواهاها البلورا<sup>(٣)</sup>  
عيناي بحر عجائب مسجورا<sup>(٤)</sup>  
قبضت بهن من الفضاء طيورا  
جعلت تغرد بالمياه صغيرا

وأبيات القصيدة جميعها درر نفيسة على هذه الشاكلة ، حتى ليقول المقرئ بعد إنشاده لها في كتابه « نفع الطيب » : « لم أر لهذه القصيدة في لفظها ومعناها من نظير » . ومعروف أن العماد الأصبهاني ترجم في كتابه الخريدة لشعراء العالم العربي في القرن السادس الهجري ، وقد ترجم لنفر<sup>(٥)</sup> من شعراء الدولة الحمادية نقل ترجماتهم عن كتاب المختار من النظم والنثر لابن بشرون المهدي القيرواني مع نعتة لهم بأنهم من المقلين ، وهم ثلاثة : علي بن الزيتوني الشاعر ويوسف بن المبارك وابن أبي المليلح الطيب ، وقال عن علي بن الزيتوني إنه شاعر المغرب الأوسط ( الجزائر ) وأديبه ، وألمئته وأريبه ، وهو صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد وتقطيع ، وأنشد له قطعة من قصيدة في مدح قاض ، وفيها يقول :

نهأه عن محاربه نهأه  
وشد به عرى الإسلام حتى  
أمين عدله غمر البرايا  
لقد ظفرت يد علقته نداه  
وقرئته لخالقه ثقاه<sup>(٦)</sup>  
رأينا النجج وانعدت عراه<sup>(٧)</sup>  
فما يخشى على أحيد قضاه  
ومن ناواه قد تبث يده<sup>(٨)</sup>

(١) ديوان ابن حمديس ( تحقيق د. إحسان عباس ) .

(٢) عرين الأسد : مأواه .

(٣) النضار : العنق .

(٤) مسجورا : مملوءا .

(٥) عرى الإسلام : مواثيق التي لا تفصل عنه .

(٦) النضار : الذهب .

(٧) تبث : خسرت خسرا كبيرا .

(٨) علقته : مملوءا .

(٩) انظر فيهم وفي الأشعار التالية الخريدة ( قسم

وكان يوسف بن المبارك من موالى بنى حماد ، وله فيهم مدائح مختلفة ، من ذلك قوله في بعض قصائده يخاطب الأسرة :

ما منكم إلا همائم حَوَى      مناقباً جُلَى ومجداً صُرَاح<sup>(١)</sup>  
وتبذلون الرُفْدَ يوم النُّدى      وتَسْعرون الحرب يوم الكفاح<sup>(٢)</sup>  
وترفعون الجار فوق السُّها      وتكرمون الضيف مهما استماح<sup>(٣)</sup>  
لا زلتُم تجنون زهر العُلا      فى معرض العزِّ بحذِّ الصُّفاح<sup>(٤)</sup>

أما ابن أبى المليلح فكان اشتهاره بالطب أكثر من اشتهاره بالشعر إذ كان طبيبا ماهرا ، ويقول العماد إن له مقطعات فى الغزل جالية للحب سالية للبِّ ولم يرو منها شيئا له ، إنما روى قطعة من قصيدة يهنيء بها الأمير عبدالله بن العزيز الحمادى فى أحد الأعياد واصفا فيها خيله ، يقول:

وجالت به جُرْدُ المذاكى كأنها      عذارى ولكن نُطقهنَّ تَحَمُّم<sup>(٥)</sup>  
وصفراء كالتبرِّ العتيقِ صقيلةٍ      ودهماء يتلوها كُمَيْتٌ وأدْهَم<sup>(٦)</sup>  
وأشقرُّلو يجرى مع البرق جُهْدَه      لكان له يوم الرُّهان التَّقَم  
وحاماً لواء النَّصْر يتبع رايةً      بها العزُّ معقودٌ عليها متمم<sup>(٧)</sup>

ويترجم العماد فى نفس الجزء السالف من خريدته لشاعرين من شعراء القلعة الحمادية قديما إلى مصر فى أواخر عهد تلك الدولة هما محمد بن عبدالله بن زكريا القلعي الأصم وعلى بن إسماعيل القلعي ، أما محمد فينقل عن كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان للرشيد بن الزبير المؤلف حول منتصف القرن السادس الهجرى أنه قال عنه: « كان جيد الشعر ، وارى<sup>(٨)</sup> زناد الفكر » وأنشد له قطعة فى وصف فوارة من قصيدة فى مدح كرامة بن المنصور بن الناصر بن علناس وفيها يقول:

وحاكية بالماء لَوْنَ اضطرابه      قوامنا وحُسنا حين يبدو ويُبوص<sup>(٩)</sup>  
فضيب لُجَيْنِ ألمع الصُّقْلُ مَنته      وأخلصه فى السبكِ من قبلُ مَخْلِص<sup>(١٠)</sup>  
تسامى قليلا ثم عاد كأنه      جمانٌ حواليتها على الماء يَرْقُص<sup>(١١)</sup>  
كأنَّ نوالا من يمّين « كرامة »      يمسدُّ به إذ لا ترى الماء يَنْقُص

(٦) التبر : الذهب . صقيلة : مدبرة . دهماء : سوداء .  
كُميت : أحمر ضارب إلى السواد .  
(٧) حام : دار .  
(٨) وارى : متقد .  
(٩) يوبص : يبرق ويلمع  
(١٠) لُجَيْن : فضة .  
(١١) جمان : لؤلؤ .

(١) جلى : عظيمة ، صراح : خالصة .  
(٢) الرُفْد : العطاء . تسعرون : توقدون .  
(٣) السها : كوكب صغير خفى الضوء . استماح : اتسع فى الطلب .  
(٤) الصُّفاح : السيف .  
(٥) المذاكى : الخيل المدربة . التحمحم : صوت الخيل دون العالى .

وينقل العماد عن ابن الزبير أنه كان مبخوس الجَدِّ<sup>(١)</sup> وأنه ورد إلى الإسكندرية ومصر ( الفسطاط ) وأقام بهما زمانا لا يجد من يَزُورِي ظَمَاتِهِ ويسدُّ خَلَّتَهُ<sup>(٢)</sup> ، وعاد إلى المغرب ونزل بيني الأشقر في طرابلس الغرب ، وامتدحهم بقصيدة ميمية فأحسنوا صلته وعظمووا جائزته ، ومن قوله في مدحهم :

وفى ذا الحِمَى المأمولُ يأمنُ خائفٌ      وفى ذا النَّدى المعسولُ يَنقَعُ حائِمٌ<sup>(٣)</sup>  
عَضُدْتُمْ على أحسابكم بفعالكم      كما عضدتُ أسَّ البِئاءِ الدعائم<sup>(٤)</sup>  
على كلِّ أرضٍ من نَدَاكم مياسمٌ      وفى كلِّ نَسَادٍ من ثَنَاكم مواسم<sup>(٥)</sup>

وأما علي بن إسماعيل القلعي فينقل العماد عن الرشيد بن الزبير أنه كان من الواردين أيضا على مصر وأن الخليفة الفاطمي الحافظ ( ٥٢٤ - ٥٤٤ هـ ) استوزر أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي ، وكان هو وأبوه وجده سنين ، ويبدو أنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، فأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطب يوم الجمعة للحافظ وأن يسقطوا من أذانتهم للصلاة : « حَتَّى على خير العمل » شعار الفاطميين ، وتنبه أنصار الفاطميين وشيعتهم فقتلوه ، ويقول ابن الزبير إن علي بن إسماعيل القلعي نظم في هذا الحادث قصيدة مدح بها الحافظ ومن قوله فيها :

وليلٍ صجبتُ السيفُ يَرْعَدُ حَدَهُ      وقد شابَ فيه مفرقُ الصَّعْدَةِ السَّمَرِ<sup>(٦)</sup>  
إلى أن بدا وجهه الصَّبَّاحُ كأنه      لحافظٍ دين اللّهِ آيتُهُ الكبري  
ويعلق العماد على وصف الخليفة الحافظ بأنه حافظ لدين الله قائلا : « أستغفر الله من ذلك فإنه لم يكن حافظا وإنما كان مضيعا » .

وتقضى دولة الموحدين وزعيمها عبد المؤمن على الدولة الحمادية في بجاية وتصيح الجزائر تابعة لها ، ويشتهر بها حينئذ شاعران : الحسن بن علي بن عمر القسنطيني المعروف باسم ابن الفكون وسنخضه بترجمة ، ومحمد<sup>(٧)</sup> « بن علي بن مروان بن جبل الهمداني الوهراني الأصل الناشئ بتملسان ، وكان فقيها نابها تولى قضاء تلمسان ثم استقدمه المنصور الموحدي ( ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ ) لقضاء الجماعة بمراكش وظل حميد السيرة مشهورا بالعدل في أحكامه ، وعزله المنصور بعد فترة ، وأعاد ابنه الناصر إلى أن توفي سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م ومن مدائحه للمنصور قوله :

(٦) الصمدة : القناة .

(١) الجد : الحظ .

(٧) انظره في بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١١٣/١

(٢) خلته : حاجته .

والمعجب للمراكشي ص ٢٦٤ ، ٣١٢ والتكملة

(٣) ينقع حائم : يروى ظامىء .

لابن الأبار رقم ١٠٦٣ .

(٤) عضدتم : اعتمتم .

(٥) مياسم : جمع ميسم : علامة وأثر ..

أَسِيدَتْنَا يَا بِنَ الْإِمَامِينَ أَمْرُكُمْ      مَنْوُظٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مَا عَنَّهُ مَعْدَلُ  
نُصِرْتُمْ لِأَنَّ الْحَقَّ أَنْ ظَهَرَهُ      وَنَاصِرُهُ فِي اللَّهِ مَا كَانَ يُخْذَلُ  
مَلَائِمٌ بِسُلْطَانِ الْأَرْضِ عَدْلًا وَمَا بَقِيَ      فَأَخْبَارَكُمْ فِيهِ تَسِيرٌ وَتُنْقَسَلُ

ويؤسس أبو زكريا منذ سنة ٦٢٥ بتونس الدولة الحفصية وتتبعها بجاية وقسنطينة وشرقي الجزائر إلى ما بعد مليانة ، بل حتى أحيانا إلى مدينة الجزائر شمالا وحتى مدينة ورقلة جنوبا ، وكانوا يتخذون للمدن الكبرى : قسنطينة وبجاية وبونة ولاة حفصيين . وظلت لبجاية أهمية كبيرة طوال القرن السابع الهجري ثم خلفتها قسنطينة أو بعبارة أدق نازعتها الأهمية ، فقد ظلت في كليهما حركة أدبية وعلمية نشيطة ، على الرغم من أنه لم تنشأ فيهما ولا في شرقي الجزائر عامة دولة كبيرة كدولة بني حماد في بجاية التي قضى عليها عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين ولا كدولة الزيانيين في تلمسان التي سلم بها بعد قليل ، ولا يلقانا في بجاية وقسنطينة وشرقي الجزائر شعر مديح في حاكم كبير ، وحقا يلقانا شعر مديح يتعلق بصداقات مثل قول محمد بن يحيى بن عبد السلام في صديقه علي بن سيد الناس وعشيرته<sup>(١)</sup> :

شَمْسُ السَّعَادَةِ لَأَسْنَا النَّبْرَاسِ      حَلَّتْ بِأَفْقِ عَلِيِّ بْنِ سَيِّدِ النَّاسِ  
مِنْ مَعَشْرِ بِنْدَلِ النَّوَالِ شِعَارِهِمْ      وَهَمَّ الْأَسْوَدُ لَدَى احْتِدَامِ الْبَاسِ  
فَالْبَسْ رِداءَ الْفَخْرِ جَرَّرْ ذَيْلَهُ      وَانْعَمْ بِطِيبِ الْعَيْشِ وَالْإِنْسَاسِ

وأهم شاعر مديح أنتجه شرقي الجزائر في عهد الدولة الحفصية شهاب الدين بن الخلوف القسنطيني شاعر السلطان أبي عمرو عثمان ، وسنخصه بترجمة عما قليل .

وتؤسس بتلمسان الدولة الزيانية منذ سنة ٦٣٣ ويقود يُعْمَرُاسِنَ مؤسسها وأبناؤه وأحفاده نهضة علمية وأدبية عظيمة فينشئون المدارس ويكثرون في مجالسهم من مناظرات العلماء بين أيديهم ، ويتخذون المفتين من كبار الفقهاء كما يتخذون الأطباء ويتغنى بمدحهم الشعراء ويجزلون لهم في العطاء ، ومن أول ما يلقانا من ذلك قصيدة لشاعر يُعْمَرُاسِنَ حين هاجمه السعيد الموحدى صاحب مراكش سنة ٦٤٦ وانتصر عليه يغمراسن ، وفيها يقول مهنتا له بالانتصار<sup>(٢)</sup> :

بُشْرَى بِعَاجِلِ فَتْحِ أَوْجِبِ الْعُرْسَا      وَأَسْفَرِ اللَّذْرُ عَنْهُ بَعْدَ مَا عَبَسَا<sup>(٣)</sup>  
فَتَحَّ تَبَجَّسَتْ الْأَنْوَاءُ صَادِقَةً      يُوَدِّعُهُ وَمَحَسَتْ أَنْوَارُهُ الْغَلَسَا<sup>(٤)</sup>  
فَتَحَّ تَفْتَحُ بِأَبِ السَّعْدِ عَنْ كَتَبٍ      عَنْهُ وَأَنْجَزَ فِيهِ الْيَمْنَ مَا التَّمَسَا<sup>(٥)</sup>  
فَتَحَّ جَرَى فِي الْوَرَى مَجْرَى الْحَيَاةِ فَقَدْ      سَرَى فَمَا جَزَجَ مَنَا النَّفْسَ وَالنَّفْسَا

(١) عنوان الدراية ص ٣٤٣ .  
(٢) انظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان للنسبي (تحقيق عمود بوعياذ) ص ١١٩ .  
(٣) أسفر : انكشف . عيس : قلب وجهه وتجهم .  
(٤) تبجست : تفجرت . الأنواء : الأمطار ، ودق المطر : شديده . الغلس : ظلمة آخر الليل .  
(٥) كتب : قرب .

والقصيدة جيدة وفيها يشير الشاعر إلى تطور الأحداث في الحرب ومقتل السعيد الموحدى ويشيد بشجاعة الجيش التلمساني وبأس فرسانه ، وكان من جملة الذخائر التي استولى عليها يَغْمَرَسَان من محلة الأمير الموحدى السعيد والتي بعد بها صيته وضحم ملكه كما يقول التنسي العقدُ اليتيم المشتمل على عشرات من خرزات الياقوت والدرر الشمينه بل على مئات كما يقول ابن خلدون في تاريخه، وعضاد<sup>(١)</sup> الزمرد ، وأنفس من ذلك وأعظم مصحف عثمان بن عفان الذي خطه يمينه ، وكان قد صار إلى بنى أمية ، ونقل إلى عبد الرحمن الداخل في قرطبة فوقفه بجامعها وغشاه بصفائح الذهب ونظم في مواضع منها لآلئ نفيسه وأحجار ياقوت وزمرد . وكان أبناؤه يقدمونه أمامهم في أسفارهم قائمين بحقه إلى أن كان من نعم الله على يغمراسن أن حظى به ، إن صح ما قاله يحيى بن خلدون وغيره من المؤرخين . ولا تلبث تلمسان أن تنجب الشاعر البارع ابن خميس كاتب أبي سعيد عثمان الأول ابن يغمراسن (٦٨١ - ٧٠٣ هـ) وشاعره ، وسنفرده له ترجمة . وكان يعاصره ابن أبي حجلة الذي ترجمنا له في الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة ، وكان قد رحل في بواكير حياته إلى الحج واستوطن مصر وولى إحدى مشيخات الصوفية وكان يزرى على أصحاب الوحدة من الصوفية ، وله مدائح نبوية متعددة وكتب أدبية متنوعة ، منها سكردان السلطان أي إثناء السكر ، وديوان الصباية أهداهما للسلطان حسن المملوكي ، مضمنا فيهما بعض مدائحه فيه من مثل قوله في الكتاب الأخير :

مليكُ أسودُ الغاب تحذرُ بأسَهُ      لأن ملوك الأرض طرّاً تحاذرهُ  
وأى كماً لم يرغهم نزالُهُ      رأى مكان ما علتُه منابره

ولعل حاكماً من حكام الدولة الزيرية لم يمدح كما مدح أبو حمو موسى الثاني (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) الذي خلص تلمسان من حكم المرينيين واستعادها لأسرته ، وكان أديباً فذاً وشاعراً ماهراً ونهضت تلمسان في عهده نهضة علمية وأدبية عظيمة وأحاطت به كوكبة من الشعراء ألم بها وبمدائحها فيه التنسي في كتابه : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح » وسنخصه بترجمة بين شعراء الفخر ، ومن مداحه وكتابه محمد بن صالح شقرون وأبو الفضل العصامي ومحمد بن قاسم ، ومن مداحه أيضاً محمد بن أبي جمعة التلالسي أحد أطبائه ، وفيه يقول في قصيدة<sup>(٢)</sup> :

مطاع شجاعٌ في الوغى ذو مهابةٍ      حسامٌ على الباغين في الأرض قد سلاً  
له راحةٌ كالغيث ينهلُ ودَفْهًا      وصارمٌ نصرٌ مرهفٌ الحدُّ لأفلاً  
إمامٌ حباهُ اللهُ ملكاً مؤزراً      فلا مَلِكٌ إلا لعزته ذلاً  
من الزابِ وانا عزيزاً مظفراً      يجرُّ من النصر المنوط به ذبلاً

(١) العضاد : الحلية توضع في العضد .

(٢) بغية الرواد / ١ . ٩٠ .

لطاقته كل الأنعام تبادرت  
لقد جبر الله البلاد بملكه  
فياستعد من وافي وياونح من ولي  
به ملكت أمتنا به ملكت عدلا

والقصيدة بديعة وقد استهلها التلالسي بوصف طبيعة تلمسان الجميلة ، ونوه بوجود قبر الصوفي الكبير أبي مدين شعيب فيها ، وعاد إلى الإشادة بحسنها وأنها جنة الدنيا ثم أخذ فى مديح أبي حمو واستيلائه على تلمسان من يد الدولة المرينية قهرا ومبادرتها إلى عقد الصلح . وله موشحة أشدها المقرى فى أزهار الرياض يجمع فيها بين مديحه ومديح الرسول الكريم ، ومن مديحه له فيها<sup>(١)</sup> :

من لم يزل يسمو إلى المعالي كل حين  
ذاك أبو حمو المولى أمير المسلمين  
طاقته غم نلنا بها دنيا ودين

وكان أبو حمو استن في تلمسان الاحتفال بليلة مولد سيد المرسلين ، وكان المنشد يستهلّ الحفل بإشاد مدحة النبوية ، ثم يظل ينشد طويلا ما رُفِع إليه من مدائح شعراء البلاط فى أبي حمو وفى الرسول الكريم ، وتسمى تلك القصائد باسم المولديات ، وظل ذلك تقليدا بعده ، وسترجم لشاعرين من شعرائه عما قليل ، هما يحيى بن خلدون ومحمد بن يوسف الثغرى . ومن تولى مقاليد الحكم بعده ابنه أبو زيان محمد الثانى ( ٧٩٦ - ٨٠١ هـ ) وكان كلفا بالعلم والأدب - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - وراجت سوقهما فى عهده ، وكان شاعرا كما كان عالما ، وتهادى مع السلطان المملوكى برقوق ( ٧٨٤ - ٨٠١ هـ ) والطريف أنه وجّه إلى برقوق مع هديته قصيدة من نظمه استهلها بتصوير أشواقه وحنينه إلى زيارة المصطفى والبقاع المقدسة ، ومن قوله بها فى مديح السلطان برقوق<sup>(٢)</sup> :

ملك به نام الأنعام وأنت  
والملك ضخم والجناب مؤئل  
والصنع أجمل والفخار مؤئل  
ياخادم الحرمين حق لك المنا  
سبل المخاوف، لا يخاف سبل  
والفضل جم والعطاء جزيل  
والمجد أكمل والوفاء أصيل<sup>(٣)</sup>  
وحباك من روح الإله قبول

ومن انتعش الأدب فى أيامه بعده أبو مالك عبد الواحد الزياتى ( ٨١٤ - ٨٢٧ هـ ) ويقول التنسى إن الأدياء جاءوا إلى يابه ينسلون من كل حدب<sup>(٤)</sup> فينقلبون بجر<sup>(٥)</sup> الحقايب ، ظافرين

(١) أزهار الرياض ٢٤٧/١ .  
(٢) تاريخ بني زيان للتنسى ص ٢٢٥ .  
(٣) مؤئل : أصيل .  
(٤) ينسلون من كل حدب : يسرعون من كل طريق .  
(٥) بجر الحقايب : مملوئى الحقايب ، كناية عن كثرة العطاء .

بجزيل الرغائب ، ويضرب مثلا لمادحيه من غير التلمساتين قصيدة لشاعر فاسي يسمى على العشاب يهنئه فيها ببعض فتوحه قائلا<sup>(١)</sup> :

ملك تجلُّ بالمهابة وارتردى      وسما فدان له الزمان الأسنعدُ  
كم بينت آراؤه من مشكلٍ      واللُّ يكفلُ ملكه ويؤيدُ  
ملك أبي الرحمن إلا نصره      فمن الذي يخفي سناه ويحمد

وربما كان أهم حاكم زباني بتلمسان بعده المتوكل ( ٨٦٦ - ٨ هـ ) ويعنى الفقيه التنسي بوضع كتاب أرخ فيه له ولأسرته - كما مر بنا - سماه نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان ، وأنهى حديثه فيه عنه بقصيدة فى مدحه ومدح أبنائه الستة ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

حوى فى صباحه من وثاقه رأيه      مع الحزم ما لم تحوه اللمم الشمط<sup>(٣)</sup>  
هو البحر جوداً من جميع جهاته      فمعروفه لُج وإحسانه الشطُ  
وكل بنى الآمال ساعون نحوه      كذا كل من أضناه من دهره قسط<sup>(٤)</sup>  
وبرز من بين الملوك مجلياً      وأعطاه ربُّ العرش فوق الذى أعطوا

وتضعف الدولتان الزبانية والخفصية مع أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى فرديناند ملك إسبانيا من الدولتين على الثغور الشمالية المهمة للجزائر . ويتصدى له خير الدين ( بربروس ) وعروج ويستخلصان منه مدينة الجزائر سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م وما يزال خير الدين ينازله مستولياً منه على الثغور الشمالية ما عدا المرسى الكبير وهران ، ويضيف إقليم الجزائر إلى الدولة العثمانية ، ويخلفه عليه ابنه حسن ، ولا يزال الجزائريون يستحثونه على منازلة الإسبان ، ويسترجع منهم فى سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م المرسى الكبير والجزء الأعلى من وهران ، ويهنئه الشاعر عبد الرحمن بن موسى بمثل قوله<sup>(٥)</sup> :

هنيئاً لكم باشا الجزائر والغرب      بفتح أساس الكفر مرسى قرى الكلب  
وأبقاك ربي فاتحاً لخصونهم      وكهفاً منيعاً إذا عتو وذا ضرب

ويريد بالكلب شارل الخامس ملك إسبانيا وكان قد ساق إلى الجزائر حملة كبيرة ، فسحقها البايلاريك حسن . وتظل وهران مع الإسبان ، وما يزال الشعراء يستحثون الولاة العثمانيين فى فتحها من مثل محمد بن عبد المؤمن الذى يستحث الداى « باب حسن » على فتحها فى حماسية طويلة منشداً :

(٤) قسط : جور وظلم ، رهى من ألفاظ الأضداد .

(٥) البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن

مریم ص ١٣٢ .

(١) التنسي ص ٢٣٨ .

(٢) التنسي ص ٢٦٥ .

(٣) اللمم الشمط : المختلط فيها سواد الشعر بياضه .

نادتك وهران فلبُ نداها  
واستدع طائفة العساكر نحوها  
أضحى الصليب مؤيدا والدينُ قد  
فادُع الغزاة لغزوها مستنجدا  
وانزلُ بها لا تصدَن سواها  
يغزونها ولينزلوا بفتاها  
درستُ معاملةُ فلست تراها  
وانهض إليها وانزلنُ مرساها

وعلى شاكلته محمد القوجلي .. وسنخصه بكلمة . ويتولى محمد بكداش مقاليد الولاية سنة ١١١٨ هـ/١٧٠٦ م فيعظم الأمل في نفوس الجزائريين أن يحقق لهم أمنيتهم في فتح وهران ، ويهنئه يحيى بن أبي راشد مشيدا به في مثل قوله :

ملك تفرّد بالكمال ولم يكن  
دانت له الأيام طرّاً مثلما  
خضعت لسطوته الملوك وسلّمت  
لكماله في السالفين مثالُ  
دانت لليس الغابة الأشبالُ  
لجلاله الأمراء والأقيال<sup>(١)</sup>

ويكثر الشعراء من استشارة بكداش . ويدور العام الأول من حكمه ، ويفتح وهران عنوة سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٧ م وكان أديبا يجمع النثر والخطابة والشعر ، وتبارى شعراء الجزائر والمغرب في تهنتته بهذا النصر العظيم ، وجمع محمد بن ميمون مانظم فيه من شعر منذ ولايته في كتابه « التحفة المرضية في الدولة البكداشية » وجعله في ست عشرة مقامة . ومن شعرائه أحمد بن قاسم اليونى ومحمد القوجلي والمستغنى وابن على الذى هنأه تهنئه حارة مصورا كيف يسحقهم سحقا لا يبقى ولا يذر بمثل قوله :

إمام سقى الكفار كأس منيةٍ  
ومزّقهم فى الأرض كلّ ممزّق  
وعاد لوهران السنية فخرها  
لهم شبه بالتمل والسيف حاطم  
فربّهم - بعد العمارة - طاسم<sup>(٢)</sup>  
وعاد إليها عهدُها المتقادم

ويتوفى بكداش سريعا سنة ١١٢٢ هـ/١٧١٠ م . ويسترد الإسبان وهران وتظل في حوزتهم حتى سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ لعهد الباي محمد الكبير ، فيفتحها نهائيا ، وكانت الحياة الأدبية نشطت لعهدده والتف حوله غير شاعر مثل أحمد القرومى ومحمد بن الطيب المازرى وأحمد بن عمار ، ومن أهمهم أحمد بن سخون كاتبه ، وله فى فتحه لوهران أرجوزة طويلة افتتحها بقوله :

حمدا لمن آزر نصرَ الدين  
وفتح الأقطار بالجهاد  
ودان ناصريه أسنى الدين  
حتى غدت لينة المهاد

وشرح الأرجوزة شرحا أديبا تاريخيا سماه : « النثر الجُماني فى ابتسام الثغر الوهرانى » وصف فيه الفتح وسيرة الباي والشعراء الذين مجّدوه وبعض أشعارهم فى تهنتته بالفتح ،

(٢) طاسم : دارس .

(١) الأقيال : جمع قيل : ملوك اليمن .

ووصف منشأته العمرانية وخاصة الجامع الكبير الذى شاده والمدرسة الملحقه به وفيها يقول<sup>(١)</sup>  
أحمد القرومى :

وترى المدرّسَ قد علا كرسيه      يُلقى على العلماء حبَّ الجوهري  
تُحويه مدرسةٌ غدت آثارها      تُحِيه بالعلم الشريف الأشعري

وكانت عقيدة الأشعري قد شاعت فى البلدان المغربية - مثل العراق والشام ومصر - منذ القرن الخامس الهجرى . ويعترف ابن سحنون فى « الثغر الجماني » بضعف الشعر فى زمنه لغلبة العجمة على الألسنة ، فصار الناس يتغنّون بالملحون ( العامى ) وبه يهجون ويمدحون « ويضيف أن الشعر النصيح شاع فيه الكسر فى الأوزان والاختلال فى المبانى والمعانى .

ويكثر فى العهد العثماني مدح التلامذة لشيخوهم على نحو ما يلقانا عند محمد التوجيلى فى مديحه لأستاذه على بن عبد الواحد الأنصارى ، وسنفرده له ترجمة عما قليل . ويكثر الشعر المتبادل بين العلماء فى الجزائر وبينهم وبين علماء تونس والمغرب الأقصى ، وحرى أن نتوقف لترجم لبعض شعراء المديح .

### عبد<sup>(٢)</sup> الكريم النهشلى

ولد ونشأ فى مدينة المسيلة ( المحمدية ) بالجزائر الشرقية فى أرض الزاب ، وفيها كان مرياه وتلمذته لشيخوهم فى الأدب وفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، مما جعله يترك بلدته إلى القيروان العاصمة ، ولا يلبث أن ينتظم فى دواوين الدولة الصنهاجية ، ويقال إنه كتب لتميم بن باديس بن المنصور ، غير أنه كتب للمنصور بن بلكين من قبله ثم لباديس من بعده وأصبح شاعرها . ومر بنا أن له فى الشعر والنقد كتابا سماه الممتع وأن ابن رشيق نقل عنه فى كتاب العمدة فى « صناعة الشعر ونقده » وذكره مرارا وترجم له فى كتابه الأنموذج ومما قاله عنه أنه : « كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيراً بأيام العرب وأشعارها بصيرا بوقائعها وآثارها » ويدل كتابه الممتع على ثقافة واسعة بالشعر سعة لا حدود لها كما يدل على ذوق أدبى مرهف مع البصر بنقد الشعر وأحكام النقاد عليه . ويقول ابن رشيق إنه توفى بالقيروان أو مدينة المهدية سنة ١٠١٤/٥٤٠٥م وأنشد له أبياتا من قصيدة فى مديح المنصور بن بلكين وما ذكر فيها من هدية أرسلت إليه من الخليفة الفاطمى العزيز نزار سنة ٣٨٤/٩٩٤م وكان بها طائفة من

(١) انظر تاريخ الجزائر الثقاتى للدكتور أبى التاسم  
(٢) انظر فى ترجمة عبد الكريم النهشلى المراجع التى  
سبق ذكرها فى هامش ص ٨٩ .  
سعد الله ٢٧١/٢ .

الخيل الكريمة والإبل البخاتيّ النجيبة وحمارا مخططا من حمر الوحش وفلا ضخما ، ووصفها  
النهشلى جميعا وصفا بارعا ، استهله بقوله :

هتتك أمير الجود خير هديّة  
تقدّمها الإيمانُ واليمنُ والفخرُ

ومضى يصف الهدية ، وكان حريا بابن رشيق أن ينشد شيئا من مديحه الذي كان يروع فيه  
براعة فائقة كما تشهد بذلك بائية له فى المنصورين ولكن أنشد منها طائفة كبيرة فى كتابه  
الممتع ، وفيها يصور هبة مجلسه منشدا :

ومجلس موقور الجلالة تنشى  
عرون السورى عنه وينبو خطبأها  
ترى فيه رفع الطرف خفضا كأنما  
لحاظ الرجال رية تستريها  
إذا حكمتها ظلت نواسج عبقري  
حواسد مدسوسا إلى عتابها  
على ملك تهدي إلى مكرماتيه  
عقائل أشعار يرف شباها  
همام دعت كفاه قاصية العلاء  
فلبأه منها صفوها وليأها

فهو مجلس مخفوف بالجلال حتى لتتنشى عنه العيون مهابة ويتعثر الكلام فى الأفواه وينخفض  
الطرف رية يستشعرها . وإذا حاك قصيدته الرائعة فيه ظلت نواسج عبقر تحسده على إحسانه  
فيها إحسانا يفوق كل وصف ، وما تزال نفائس الأشعار تزف إليه ، وإنه لهما تستجيب إليه  
ذروة العلا فينال منها صفوها ولبابها الخالص ويقول :

إذا ورد المنصور أرضا تهللت  
وجوه رباها واستهل رباها<sup>(١)</sup>  
إذا اغبرت الآفاق بلت سماءه  
تراها بأيد ما يجف رعاها<sup>(٢)</sup>  
كأن العوالى الزرق عنه مضاوها  
وحضرت السحاب من نداء غباها<sup>(٣)</sup>  
فمن يوليه سعدا ينله ومن يرد  
يه شقوة تخلع عليه ثابها  
يحل بنا - ما حلها - البر والتقى  
ويخضر من بعد اصفرار جنبها

فما ينزل المنصور أرضا حتى تمتلئ رباها بشرا ويسقط بها الغيث مدرارا ، وما إن تغير  
الآفاق وتجف الديار حتى يهطل عليها من سماءه ما يرويهما ويحيلها أرضا سهلة خصبة . ويقول  
كأن أسنة العوالى أو الرماح الزرق من مضائه وعزمه ، وكأن غيث السحاب المنهمر من نداء  
وكرمه الفيض ، وإن من يمنحه سعدا ينله ومن ينزل به شقاء يصبه ، وإن أى أرض يحل بها  
يحل فيها التقى والرحمة والربيع الزاهى ، ويمضى قائلا :

وما بلد لم يوتك الطوع أهلها  
بأمنة أن لأتدك هضابها  
تخط بها الأسد الضواري خواضعا  
لديك ولوأن الكواكب غابها

(١) الرباب : السحاب .  
(٢) الرعاب بفتح الراء : الأرض اللينة السهلة .  
(٣) العوالى : الرماح . غاب السحاب : الأمطار المنهرة .

ولو أنها عاصتكَ غير مجيبةٍ      أجابتك من تحت السيوف رقابها  
تهابك آفاتُ الخطوب فتتهى      ولا تنتهى عن خطية فتهابها  
رماحك أحناءُ الضلوع يقافها      وخيلك تامورُ النفوسِ شرابها<sup>(١)</sup>

وهو يقول للمنصور إن بلدا لم تستسلم لك ولم تأتكَ طاعة أهلها لا تأمن أن تدك هضابها  
دكاً كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وإن الأسد الضارية المفترسة بها لتحطّ لديك خواضع مهما  
كان غابها وغيلها بعيدا ولو أنها أعلنت عصيانك لأجابتك رقابها من تحت السيوف ذليلة خاتعة ،  
وإن الخطوب - مهما عظمت - لتهابك ، بينما أنت لا تهاب خطة ، إذ لا تزال تبرم الخطط ،  
وتلك رماحك لا تزال تضرب في أحناء الضلوع ، ولا يزال شراب خيلك دم الأعداء . والقصيصة  
مكتوبة بلغة جزلة رصينة وكأنها تفرع الآذان قرعا بموسيقاها اللجة ، وكأنما تمتلئ برعد  
قاصف . وبدون ريب كان عبد الكريم النهشلي شاعرا مبدا .

عبد<sup>(٢)</sup> الله بن محمد التنوخي ( ابن قاضي ميلة )

تقع ميلة في الشمال الغربي لقسنطينة والجنوب الشرقي من بجاية ، وبها نشأ عبد الله بن  
محمد التنوخي في بيت علم إذ كان أبوه قاضيها ، ولذلك اشتهر باسم ابن قاضي ميلة ، ويقول  
ابن رشيق إنه صحب أباه إلى جزيرة صقلية ، فاتصل عن طريقه بوالها ثقة الدولة  
( ٣٧٩-٣٨٨هـ ) وكان حسن السيرة ، ضبط صقلية وساس رعيته سياسة عادلة حبيته إليها ،  
ودوّخ الروم واستقامت له فيها الأمور ، وكان كريما كرما فياضا فقصده كثيرون من كل  
فَجٍّ ، فأكرمهم وفي مقدمتهم قاضي ميلة . وكان ابنه عبد الله شاعرا محسنا ، فمدحه بقصيصة  
فائية بارعة ، فقرب منزلته ومنزلة أبيه وأجزل صلته ، ويبدو أنهما لم يمكثا طويلا بصقلية .  
وأشاد بابن قاضي ميلة من ترجموا له ، فابن رشيق يقول فيه : « شاعر لسنٍ مقتدر يؤثر  
الاستعارة ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات ، وله في الشعر  
قدم سابقة ومجال متسع ، وربما بلغ في الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب ، وهو لهجٌ بذلك  
طالبٌ له » . ويقول ابن بسام فيه : « ضرب في الأدب بأعلى قدح واقترب عنه على أوضح  
صبح » . ونوه ابن خلكان بفائيته في ثقة الدولة ، ويقول أحبيت إثباتها لحسنها وغرابها ،  
وأشدها . وهو يستهلها بغزل حوارى لصاحبة له التقى بها محرمين في الحج ، وهو غزل بديع  
سنذكر طرفا منه في غير هذا الموضوع ، وخرج منه إلى مديح ثقة الدولة والى صقلية في يوم  
عيد من أعيادهم ، وفيه يقول :

ص ٢٠٩ وابن خلكان ١٥٩/٦ وراجع ٨٤٣/٥  
والذخيرة لابن بسام ٥٢٩/٤ .

(١) النّاف : مضرب الرماح . نامور : دم .  
(٢) انظر في ابن قاضي ميلة نموذج الزمان لابن رشيق

أَغْرُ قُضَاعِيٌّ يَكَادُ نَوَالُهُ  
سَعَى وَسَعَى الْأَمْلَاكُ فِي طَلَبِ الْعُلَا  
وَيَقْظَانُ شَابَ الْبَطْشِ بِالْبِرِّ وَالتُّقَى  
حَسَامٌ عَلَى مِنْ نَاصِبِ الدِّينِ مَصَلَتْ  
يَسَايِرُهُ جَيْشَانُ : رَأَى وَقِيلَتْ  
مَطْلٌ عَلَى مِنْ شَاءَهُ فَكَانَمَا

لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف<sup>(١)</sup>  
فهاز وأكذوا إذ أخف وأقظفوا<sup>(٢)</sup>  
بكفيه ما يرجى وما يتخوف  
وستر على من راقب الله مغدِف<sup>(٣)</sup>  
ويصحه سيفان: عزم ومردف  
على حكمه صرف الردى يتصرف

وهو يقول إن كثرة نواله وعطائه تكلف من الشكر ما لا يكاد يطلق لعظم ما ينثر من أمواله على الناس ، وقد سعى وسعى الملوك من حوله في طلب العلا فهاز وخابوا إذ أسرع فسبقهم وأبطفوا فنخلفوا ، وإنه ليقظان دائما يجمع بين البر والتقوى والبطش الشديد ، ففي كفيه ما يرجى من الجود ويخشى من البأس العنيف ، وإنه لحسام مسلول على أعداء الدين وستر مسبل على أوليائه ، يرافقه جيشان من حزمه وجنده ، وسيفان : سيف مرهف وسيف من عزمه ، وكانما ينزل صرف الهلاك على رأيه ويتصرف على حكمه ، ويدعوه الله أن يرعاه :

رَعَى اللَّهُ مَنْ تَرَعَى حِمَى الدِّينِ غَيْثُهُ  
وَمَنْ وَعَدَهُ فِي مَسْرَحِ الْحَمْدِ مَطْلٌ  
وَمَنْ يَضْرِبُ الْأَعْدَاءَ حَبْرًا فَتَنْتَبِي  
رَمَاهِمَ بِمَجْرٍ ضَعُضَعَ الْأَرْضَ رَزَّةً  
كَأَنَّ الرُّدْيِيَّاتِ فِي رَوْنِقِ الضُّحَى  
يَعُودُ الدُّجَى مِنْ يَبِيضِهِ وَهُوَ أَيْضٌ

ويحمى حمى الإسلام والليل أغضف<sup>(٤)</sup>  
وإيعاده في ذمة الخلم موقف  
صناديدهم والبيض بالمسام تقذف<sup>(٥)</sup>  
كأن الروابي منه بالنبل تدلف<sup>(٦)</sup>  
أراقم في طام من الآل تزحف<sup>(٧)</sup>  
ويبدو الضحى من نقه وهو أكلف<sup>(٨)</sup>

وهو يدعو الله أن يحمى حامى الدين والإسلام والليل أشد ما يكون ظلما ، الوافى بوعد والممسك بوعيده يمسك به حلمه ، وإنه ليضرب الأعداء ضربات متوالية والسيوف تقذف بالرءوس إذ رماهم بجيش كثيف تهتز الأرض تحت أقدام خيله حتى لكأن الروابي تقدم إليها ، وكأن الرماح أراقم تزحف في أمواج من السراب ، وشاب الدجى ، وبدا الضحى كلقا مغبرا في احمرار لكثرة النقع وغبار الحرب ، ويقول :

(١) أى يكلفهم ما لا يطيقون .  
(٢) أكذرا : خابوا . أخف : أسرع . أقظفوا : أبطفوا  
(٣) مصلت : مسلول . مغدِف : مسبل .  
(٤) أغضف : مظلم شديد الإظلام .  
(٥) هرا : ضربا . البيض : السيوف .  
(٦) مجر : جيش كثيف . رزه : أصواته . تدلف : تسير مبثثة .  
(٧) الردييات : الرماح . أراقم : حبات . الآل : السراب .  
(٨) النقع : غبار الحرب . أكلف : كدر .

فياثقةَ الملك الذى الملك سَهْمُهُ  
هنيئاً لك العيدُ الذى منك حُسْنُهُ  
بدا معلّم الأرجاء يُرْهِى كأنما  
أتى بعد حول زائرا عن تشوفٍ  
فظوقته عِزاً وشنتفه بهِ  
ولا زلت تُستجذى فتولى وترتجى

يُراشُ لأكباد الأعدى ويُوصَفُ<sup>(١)</sup>  
يروقُ ومن أوصافك العُرُ يوصف  
على عطفه وشئى العراق المشفُفُ<sup>(٢)</sup>  
وقد كان ذا طَرْفٍ للقياك يَطْرِفُ  
فلاحَ لنا وهو المحلّى المشفُفُ<sup>(٣)</sup>  
فتكفى وتُستدعى لخطبٍ فتكشف

وهو يقول له ياثقة الملك لا زال سهم ملكك يُسدّد إلى أكباد الأعدى فينفذ فيها ويُصمها  
وهنيئاً لك العيد الذى يستمد منك حسنه وأوصافه البديعة ، وإنه ليمتلئ زهوا بما على جوانبه  
من وشى العراق الشفاف الرقيق ، وقد ظل حولا يتطلع إليك ويتمنى زيارتك ، فحليته بطوق  
رائع وقُرطٍ بديع ، فلا زلت تستجذى فتتعمق وترتجى فتكفى وتستدعى لخطب فتكشف نوازه .  
وأُتشد ابن رشيقي من مديحه قوله :

طَسَبُ بأدواء الجهاد إذا  
وإذا احتبى فى شَمْلَةٍ ضربتْ  
يَنْدَى وأيدى المُرْنِ جامدةٌ  
يَبِيضُ النّوَالِ جماجمَ الفقْرِ  
صدَمَ العَجاجُ قوادِمَ النَّسْرِ  
ويلينُ عند قساوة الدهر

فصاحبه يعرف كيف يشفى أدواء الجهاد حين تشتد الحرب وتخدم ويصدم عجاجها  
وغيارها الكثيف قوادم النسور وأجنتها المخلقة . هذا شأنه فى الحرب أما فى السلم فلا تزال  
سيوف نواله وعطائه تضرب جماجم الفقر ، وإن يديه لتجودان جوداً متصلاً حين تشح أيدى  
السحاب ، وإن جانبه ليلين لوأرديه عند قساوة الدهر وشدته . وواضح ما يميز به ابن قاضى  
ميلة من التعمق والبعد فى التصاوير .

ابن<sup>(١)</sup> خميس

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس الحميرى الحَجْرى الرُّعَيْنى التلمسانى ، ويتضح  
من نسبه أنه يعنى إلى حمير من عرب اليمن فى الجنوب ، وبالذات من حَجْر ذى رُعَيْن ،  
وذكر ذلك فى شعره مفاخرأ به قائلاً :

عمل الأستاذ عبد الوهاب بن منصور وتقديمه له عن  
حياته وشعره . وراجع ما ذكره من مصادر بحثه وخاصة  
الإحاطة للسان الدين بن الخطيب وتفح الطيب وأزهار  
الرياض للمقرئ ٣٠١/٢ وما بعدها .

(١) يراشٍ ويوصف : يسدّد .

(٢) المشفُفُ : الرقيق .

(٣) شنتفه به : زنته بقرط .

(٤) انظر فى شعر ابن خميس وترجمته ديوانه باسم  
المنتخب النفيس من شعر أبى عبد الله بن خميس من

وإن انتسبتُ فإِنِّي من دوحية      تَفْقِيًا الأنسابُ بَرْدَ ظلالها  
من حميرٍ من ذى رُعَيْنٍ من ذرًا      حجرٍ من العظماء من أقبالها<sup>(١)</sup>

ولد بتلمسان سنة ١٣٥٣/٥٦٥م أو قبلها بقليل ، وبها كان منشؤه ومرباه ، ولا نعلم شيئا عن أسرته وأكبر الظن أنه كان من أسرة متواضعة ، وقد أقبل على حلقات العلماء ينهل منها ، وسرعان ما عُرف بين أقرانه بذكائه . وتفتح موهبته الأدبية ، ويصبح من كتاب ديوان الإنشاء فى عهد السلطان التلمساني يَغْمُرَاسَن ثم فى عهد ابنه أبى سعيد عثمان ( ٦٨١-٥٧٠٣ ) وقد التقى بالعبدري الرحالة وأكثر العبدري من مجالسته ورواية أشعاره فى رحلته وأثنى عليه . وحدث فى أواخر عهد هذا السلطان سنة ٦٩٨ أن حاصر السلطان يوسف بن عبد الحق المريني تلمسان ومات سلطانها أبوسعيد فى أثناء الحصار كمدا سنة ٥٧٠٣/١٣٠٤م . وتجد ابن خميس يفادر تلمسان فى نفس السنة إلى سبتة على مضيق جبل طارق ، ويستظهر ناشر الديوان ومحققه المقدم له الأستاذ عبد الوهاب بن منصور أن يكون ذلك بسبب نصيحة قدمها ابن خميس إلى أولى الأمر التلمسانيين بالدخول فى طاعة المرينيين مما أوغر صدورهم عليه وجعلهم يفكرون فى قتله ، وأحس بذلك ففر عن تلمسان ، وهو ينشد :

وأغروا بنفسى طلابها      سرارًا فجاءوا لقتلى صراحا  
فشاورتُ نفسى فى ذافما      رأت لى بغير الفلاة فلاحا

وقد قرأ ابن خميس إلى الفلاة ثم إلى سبتة وأمرائها من أسرة بنى العزفى فرحبوا به وأغدقوا عليه من نواهم وأغدق عليهم من مدائحه ، وكان قد عزم على الإقامة بها وإقراء طلابها ، غير أن بعض الماكريين من شيوخها دسوا عليه أسئلة نحوية على لسان الطلاب فلم يعجبه المقام بها ، وجاز الزقاق إلى مالقة بالأندلس فغرناطة وأواخر سنة ٧٠٣ وكان يحكمها حينئذ الأمير محمد الثالث ( ٧٠١ - ٥٧٠٨ ) ووزيره أبو عبد الله بن الحكيم وكان أديبا وراعيا للأدباء من أمثال عبد المهيمن الحضرمي وأبى العباس العزفى فما إن وفد عليه ابن خميس حتى ألحقه بمجلسه وأسبغ عليه عطاياه ، وأخذ ابن خميس يضيف عليه مدائحه ، وجال فى المرية وغير المرية بعض جولات غير أن استقراره كان فى غرناطة بجوار راعيه ابن الحكيم ، ويقال إنه كان يقرئ فيها العربية مع ملازمته لمجالس ابن الحكيم ، وحين دبر خصوم الوزير لمقتله وقتلوه قتلوا معه شاعره ابن خميس يوم عيد الفطر مستهل شوال سنة ٥٧٠٨/١٣٠٩م .

ويعد ابن خميس أهم شعراء المائة السابعة فى الجزائر بل فى المغرب عامة ، وفيه يقول لسان الدين بن الخطيب إنه « فحل الأوان فى المطول وأقدر الناس على اجتلاب الغريب » ويقول ابن خاتمة : « كان - رحمه الله - من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، يصرف العويص ،

(١) حبر ذى رعين : قبيلة بمنية . أقبالها : أمراؤها وملوكها .

ويرتكب مستصعبات القوافي ، ويطير في القريض مطارَ ذوى القوادم الباسقة والخوافي «  
 ولقبه يحيى بن خلدون بشاعر المائة السابعة الدُّبَّاج الذى لانظير له، ويقول محققه إنه « يمتاز فى  
 شعره على الخصوص بظاهرتين : الجانب القصصى وغرابة الألفاظ ، وقلَّ من شعراء القرن  
 السابع من يضارعه فى قوة العارضة وخصب القرينة وفيض الخاطر وطول النفس ، وندر من  
 يماثله فى سلاسة المباني وسلاسة المعاني». والقصص عنده قصص تاريخي ولذلك يحتاج قارؤه  
 فى فهم بعض اشعاره إلى الرجوع للمصادر التاريخية ، وكان يكلف بالغريب قائلًا فى بعض  
 شعره :

ماذاق طعمَ بلاغةٍ من ليس للوحشى ماضغٌ

ولم يكن يعممه فى أشعاره ، وكأنما كان يريد باستظهاره أحيانا العودة إلى الصياغة الشعرية  
 القديمة إمعاناً فى العروبة . ولم يكن يفرغ إلى الغريب دائما إنما كان يفرغ إليه فى مخاطبة  
 بنى العزفى وابن الحكيم لما عرفوا به هم ومجالسهم من اتساع الثقافة اللغوية . ومن أشعاره  
 فى بنى العزفى خاتمة طنانة استهلها برثاء تلمسان ومأصباها من حصار السلطان يوسف  
 المرينى منذ سنة ٦٩٨ وتعطل معاهد أنسه بها ، ويلوم بنى زيان لتشتيتهم له ولأمثاله ممن  
 نصحوهم بالدخول فى طاعة المرينيين حتى يفكوا عنهم هذا الحصار الذى طال أمده ، ويخرج  
 إلى مدح سبته وبنى العزفى منشدا :

كَا تُرِكَتْ لِلعِزِّ أَهْضَابُهَا الشُّمُغُ <sup>(١)</sup>	تُرِكْتُ لِمِينَا سَبْتَهُ كُلَّ نَجْعَةٍ
وَلَوْ حَلَّ لِي فِي غَيْرِهِ المَنُّ وَالْمَذْخُ <sup>(٢)</sup>	وَأَلَيْتُ أَنْ لَا أُرْتَسِيْ غَيْرَ مَائِهَا
لِعِزِّهِمْ تَعْنُو الطَّرَاحِمَةَ البُلُخُ <sup>(٣)</sup>	فَأَمْلَاكُهَا الصَّيْدُ المَقَاوِلَةَ الأَلَى
تَضِيءُ فَمَا يَدْجُو ضَلَالًا وَلَا يَطْخُو <sup>(٤)</sup>	كَوَاكِبِ هَدَى فِي سَمَاءِ رِيَاةِ
وَأَيْدِيهِمْ تُمَلُّ القَرَاطِيْسُ وَالطَّرِيْحُ <sup>(٥)</sup>	بَنُو العَرَفِيْنَ الأَلَى مِنْ صَدُورِهِمْ
كِرَامٍ لِمِ فِي كُلِّ صَالِحَةٍ رَضُخُ <sup>(٦)</sup>	رِيَاةِ أُخْيَارٍ وَمَلِكُ أَفَاضِلِ

وهو يقول إنه ترك لميناء سبته كل ما يرجى من نجعة ومعروف ، كما تركت للعز ودياتها  
 الشامخة ، وآلى أن لا يرتوى بغير مائها حتى لو عرض له فى غيرها غسل المن المذكور فى  
 القرآن وغسل الرمان ، فحسبه أن ينعم بقاء ملوكها العظام الذين يخضع لهم الأشراف المزهوون ،  
 وإنهم لكواكب هدى فما يظلم ضلال ولا يعتم ، علماء أجلاء تمتلئ القراطيس والطوامير

(١) النجمة: المعروف والكلاؤ . أهضابها : هضبتها .

الشمخ : العالية .

(٢) المن والمذخ : نوعان من العسل .

(٣) الصيد المقاوله : السادة العظام . تعنو : تذلل .

الطراخمة البلخ : الأشراف التكبرون .

(٤) يطخو : يظلم .

(٥) الطرخ : القطعة من الخوص ، ويريد الطوامير لأنها

كانت تصنع من ورق البردى .

(٦) رَضُخُ : عطاء .

بعلمهم ، أختيار أفاضل كرام ، لهم فى كل صالحة من عمل رضى أو عطاء جليل ، ويقول لهم :

بَنَى الْعَرَفِيِّينَ أَبْلَغُوا مَا أَرَدْتُمْ      فمادون ما تبغون وَخَلَّ وَلَا زَلَّخٌ (١)  
 وَلَا تَقْعُدُوا عَمِينَ أَرَادَ سِجَالِكُمْ      فما غرَّيكم جُفٌّ وَلَا غَرَّفَكُم وَضَخٌ (٢)  
 وَخَلُّوا وَرَاءَ كُلِّ طَالِبٍ غَايَةَ      وتيهوا على من رام شأوكم وانخروا (٣)  
 وَلَا تَذَرُوا الْجُوزَاءَ تَعْلُوْ عَلَيْكُمْ      ففى رأسها من وطء أسلافكم شدخ (٤)

وهو يقول لهم إن الدنيا تبلغكم كل ما أردتم من منى وآمال فخذوا منها ما تشاءون فما عائق يحول بينكم وبين ما تتمنون وتأمّلون ولا تلتفتوا إلى من ابتغى مفاخرتكم بأعماله ، فما ذلوكم خال ولا غرّفكم قليل ، وخلصوا وراءكم كل طالب غاية وتيهوا وامتلكوا افتخاراً على من يروم أن يبلغ شأوكم من المجد والفخار ، ولا تدعوا الجوزاء تشعر بأنها تعلو عليكم ففى رأسها من وطء أسلافكم شدوخ وشروخ . ويمدح ابن الحكيم الوزير الغرناطى فى شعبان سنة ٧٠٦ للهجرة بقصيدة همزية يستهلها بخنين وشوق ظامىء إلى تلمسان ويخلص إلى مدح الوزير منشدا :

ولولا جوارأئى الحكيم محمد      لمافات نفسى من بنى الدهر إقماء (٥)  
 حمائى فلم تشب محلى نوائب      بسوء ولم ترزأ فرأدى أرزاء (٦)  
 دعائى إلى المجد الذى كنت أملا      فلم يك لى عن دعوة المجد إبطاء  
 ويؤانى من هضبة المجد تلعة      ينجى السها منها صعود وططاء (٧)  
 يشيئى منها إذا سرت حافظ      ويكلوتى فيها إذا نمت كلاء (٨)  
 ولا مثل نومي فى كفالة غيره      وللذئب الماء وللصل الماء (٩)  
 إذا كان لى من نائب الملك كافل      ففى حيشما هوئت كين وإذفاء

وهو يعترف بما للوزير ابن الحكيم الغرناطى عليه من منة مشكورة، فلولا له لساق إليه الناس ما يشمره بالذل فقد حماه منهم ومن نواب الدهر وبخنه ، بل لقد دعاه إلى ما كان يتمنى من مجد وأنزله من هضبة مكانا عليا ينجى منه نجم السها صعودا وهبوطا ، وحافظ يشيئه إذا سار وحافظ يكلؤه ويسهر عليه إذا نام ، لا كمثل من لا يرعون من يحمونهم من الذئاب والأفاعى ، بل رعاية وكفالة تامة وكين مرخ يرد البرد ودفء ما بعده دفء . وله وراء ذلك فى ابن الحكيم مدائح تموج بالغريب وبالصور البديعة ، فقد كان مصورا بارعا ، وكان يخف عليه الجناس

- (١) زلخ : ترحلق .  
 (٢) السجال : المفاخرة . الغرب : الدلو الكبير .  
 جف : خال . وضخ : قليل .  
 (٣) شأوكم : مداكم وغايتكم . انخروا : تيهوا وتكبروا .  
 (٤) الجوزاء: كوكب معروف. شدخ : شرخ وجرح .  
 (٥) إقماء : إذلال .  
 (٦) لم ترزأه أرزاء : لم تصبه مصائب .  
 (٧) تلعة : روبة . ططاء : هبوط .  
 (٨) يكلوتى : يرعانى ويحفظنى . كلاء : حافظ .  
 (٩) الماء : انتقاض .

والطباق حين يريدهما ، وهو يعد في الذروة من شعراء المغرب عامة والجزائر خاصة وسننشده له أشعارا في الطبيعة وفي النزعة الصوفية إذ كان فنانا كبيرا في كل ما ألم به من موضوعات .

### محمد<sup>(١)</sup> بن يوسف القيسي التغري التلمساني

أهم شعراء الجزائر في المائة الثامنة لعهد أبي حمو موسى الثاني، وكان يعاصر كوكبة من الشعراء المبدعين أمثال ابن أبي جمعة التالسي وعبد المؤمن بن يوسف المديوني ومحمد بن صالح الشقروني وابن ميمون السنوسي ومحمد بن علي العصامي ويحيى بن خلدون وغيرهم كثير. وليس بين أيدينا ما يشير إلى التكوين الأدبي للتغري ، غير أن بيئته كانت تكتظ بالعلماء والأدباء ، وكان من ترى فيه مخايل النبوغ الأدبي يختار للعمل في دواوين الدولة ، واختير التغري وأصبح كاتب الإنشاء لأبي حمو الثاني، كما أصبح شاعره الفذ الأول، وكان أبو حمو الثاني ( ٧٦٠-٧٩١هـ ) يرضى الأدباء ويجزل لهم العطاء ، وكان أديبا كما كان شاعرا كبيرا فطبيعي أن يعنى بالأدباء والشعراء لعهدده وأن يكون لشاعره محمد بن يوسف التغري حظ كبير من هذه العناية . وكان قد استنَّ الاحتفال بالمولد النبوي منذ استولى على صولجان الحكم فكان ينظم فيه مدحة مولدية وكذلك شعراؤه وفي مقدمتهم التغري ، وكانوا يستطردون فيها من مدح الرسول ﷺ إلى مديحه ، وسنلم بذلك في حديثنا عن المدح النبوي إنما تهمتنا الآن مدائح التغري في أبي حمو موسى الثاني وابنيه أبي ناشفين وأبي زيان، ومن قصيدة يمدح فيها أبا حمو :

ياإمامَ الهدى وشمسَ المعالي	وغمامَ الندى ويدرَ النوادي
لك بين الملوك سرٌّ خفيٌّ	ليس معناه للعقول بيادي
وكانَ البلادَ كُفكُ مهمما	كان فيهما من يتمي لعناد
لم تزل دائما تحنُّ إليكم	كحنين السقيم للعُرواد
قد أطاعتكمُ البلادُ جميعًا	طاعةً أرغمتُ أتوفَ الأعادي
فأريحُوا الجيادَ أتعتموها	وأقروا السيوفَ في الأغمار

وهو يشيد به ، فيجعله إمام الهدى وشمس المعالي وسحاب الكرم والبدر المضيء الهادي ويقول إن له سر اخفيا بين الملوك جعله محبوبا من شعبه ، وكأنما يقبض على البلاد بكفه ، بل هي كفه ، حتى لو كان فيها خارج عليكم ، وإنها لاتزال تحن إليكم حنين السقيم للعواد ،

(١) فهارسهما) وكذلك فهارس الجزء الثامن من نفع الطب  
وأزهار الرياض ٣٢٩/٢ وما بعدها .

(١) انظر في محمد بن يوسف التغري التلمساني كتاب  
نيل الابتهاج لأحمد بابا ص٢٩٤ وبغية الرواد ليحيى بن  
خلدون وتاريخ بن زيان لمحمد بن عبد الله النسي ( انظر

فأنت بلسمها المداوى الشافى . ويقول إن البلاد جميعا تطيعك فأرح الجياد التى طالما أتعبتها وأقرّ السيوف فى أعمادها وعش قرير العين مطمئن البال . وله فيه من أخرى أشاد فيها بتلمسان ومشاهدها إشادة بديعة ، وفيه وفى قبيلته بنى عبد الواد يقول :

فَرَسَانُ عَبْدِ الْوَادِ آسَادُ الْوَعَى	حَامُوا الذَّمَارِ أُولُو الْفَخَارِ الْأَطْوَلِ
وَإِذَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَأَيْتَهُ	فَالْتَمَّ ثَرَى ذَاكَ الْبِسَاطِ وَقِيلَ
بُشْرَى لِعَبْدِ الْوَادِ بِالْمَلِكِ الَّذِي	خَلَصُوا بِهِ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ مُعْضَلِ
وَكَفَاهُمْ سَعْدًا أَبُو حَمْرٍو الَّذِي	يَحْمِي حِمَاهُمْ بِالْحَسَامِ الْفَيْضَلِ
وَبِحَسَنِ نَيْتِهِ لَهُمْ وَبِجَدِّهِ	وَبِسَعْدِهِ وَسِعْغِهِ الْمُتَقَبَّلِ
ذُو الْهَمَّةِ الْعَلِيَا الَّتِي آتَاهَا	حَلَّتْ بِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ الْأَعْزَلِ

وهو يشيد بفرسان قبيلة عبد الواد أسد الحروب أصحاب الفخار العظيم الذين يحمون الحمى ، وإذا رأيت أمير المؤمنين فقدم له كل ما يمكن من تجلة ، وبشرى لعبد الواد ملكهم الذى خلصهم من كل ما ألم بهم من خطوب خطيرة ، ويكفيهم سعدا أنه أبو حمو حامى حماهم بشجاعته الباسلة وهمة القمصاء التى حلّت به فوق نجم السماء المصعد فى السماء . وكان ما يزال ينظم مولديات فى احتفال أبى حمو بليلة المولد النبوى وكان يستطرد فيها إلى مديحه دائما بمثل قوله فى إحداها :

ظَفَرِ التَّقَى وَالْعَدْلُ مِنْ مُوسَى الرُّضَا	بِالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ الَّذِي لَا يُنَامُ
يَأْتِيهَا الْمَلِكُ التَّقَى وَمَنْ لَهُ	شَرَفٌ عَلَى سَمَكِ السَّمَاءِ مَخِيمٌ
أَعْطِيَتْ بِالْعَدْلِ الْخِلَافَةَ حَقُّهَا	فَمَلُوكَهَا فِي حَقِّهَا لَكَ سَلْمُوا
جُودٌ وَإِحْسَانٌ وَقَصْدٌ فِي الْهُدَى	حَسَنٌ وَعَقْدٌ فِي التَّقَى مُسْتَحْكَمٌ
وَتَوَاضَعٌ يَعْلَى وَقَدَرٌ يَعْتَلَى	وَنَذَى يَدٍ تَهْمَى وَيَشْرٌ يَسْمُ
وَالْحِلْمُ أَوْسَعُ وَالْجَنَابُ مُؤْتَلٌ	وَالْعَزُّ أَمْنَعُ وَالسَّجِيَّةُ أَكْرَمُ

وهو يقول إن التقى والعدل جميعا ظفرا من أبى حمو بالجواهر الفرد الذى لا نظير له ، وإن تقاه ليخلع عليه شرفا يسمو به فوق نجم السماء الأعلى ، وبالمثل عدله الذى يسبغ على الخلافة جميع حقوقها مما جعل ملوكها يسلمون لك عن يد ، وهذا أنت جود وإحسان وهدى وتقى وتواضع ومكانة كبيرة وكرم يهمنى ويهطل وبشر يسم وحلم أوسع وكنف مؤتمل وعز منيع وسجايا كريمة . ويظل يرصف له فضائل كريمة كثيرة . ويتحول الثغرى بعد أبى حمو الثانى شاعرا لابنه أبى تاشفين (٧٩١-٧٩٥هـ) وينشده مولديات يستطرد فيها إلى مديحه من مثل قوله فى الاحتفال بليلة سابقة لليلة المولد الشريف :

إمامٌ تولى اللُّهُ تشييدَ فخريهِ  
يعدُّ إلى الأعداءِ كلُّ كَيِّبَةٍ  
يُهبابٍ ويُرْجَى في جلالِ جماله  
فيا مالكا يجمي الرعيَّةَ رَعِيَّه  
ويكفلهم بالعدل والفضل والنَّدَى  
فما شئت من مجدي ومن كرمِ عِدِّ  
بها الجرْدُ تَرْدِي والقوارسُ كالأسدِ  
كليثٌ وغيثٌ في وعيدٍ وفي وَعْدِ  
ويحييهمُ بالبدل والعيشة الرَغْدِ  
ويشملهم بالجدود والرفق والرَّفْدِ

وهو يمدح أبا تاشفين بما أسبغ الله عليه من مجد ومن كرم فياض ، ويقول إنه يعد إلى الأعداء كتاب تضرب خيلها الأرض بخوافرها الصلبة ويضرب فرساتها الأعداء ضربات مصمية ، وإنه ليهاب كليث في وعيده ويرجى كغيث في وعده ، ودائما يجمي الرعية برعايته ويحييهم بما يسبغ عليهم من عطاء ورخاء مع ما يكلفهم به من العدل والفضل ويشملهم به من الرفق والجود والكرم المندرار . ويلحق الشاعر عصر أبي زيان ( ٧٩٦ - ٨٠١ هـ ) وفيه يقول من ميلادية طويلة :

لئن كان بحرا في العلوم فإن في  
وما همُّه إلا كتابٌ وسنةٌ  
فنسخُ كتاب الله جَلَّ جلاله  
ومن كان يعتدَّ الشفاءَ شفاءه  
ولم أدر والأوراقُ راقَتْ بخطه  
ألا هكذا فليسم للمجد من سَمَا  
بَنان يديه للندى أبحرا عَشرا  
ينسخهما قد أحرز الفخر والأجرا  
ونسخُ البخاري ضامنان له النصرا  
فمن علل الأوزار في نسخه ييرا  
أمسكا على الكافور يثرُ أم جيرا  
ويجري لآماد الفضائل من أجرى

وكان أبو زيان كلنا بالعلم كما وصفه التنسي ولم يخل مجلسا له من مناظرة أو مذاكرة ومحاضرة ، وكان غيئا مدرارا في الجود والكرم ، وجعل همه - كما يقول الثغري والتنسي - كتابة نسخ من المصحف الشريف ، وتحفظ الخزانة العامة للرباط بإحدى هذه النسخ النفيسة ، وهي على رق غزال ومحلة بالذهب وجميع ما فيها من أسماء الله الحسنى مكتوب بالذهب . وكتب نسخة من صحيح البخاري ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضي عياض . وبحق ما يقوله الثغري من أن من يعتد شفاء القاضي عياض شفاء له يبرأ به من جميع الأوزار فما بالك بمن يعتد بالبخاري وأهم من ذلك وأعظم بالقرآن الكريم . ويقول الثغري إن من يرى المداد على تلك الأوراق إنما يرى مسكا منشورا على الكافور ، وما أعظمه من مجد حقيقته لنفسه أبو زيان ، وهو مجد خليق بأن يتسابق إليه المتسابقون ويتنافس فيه المتنافسون . ولم تذكر المراجع متى توفى الثغري ، وأكبر الظن أنه توفى في آخر القرن الثامن أو في أوائل التاسع الهجري .

## الشهاب<sup>(١)</sup> بن الخلوف

هو شهاب الدين أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن بن الخلوف لقباً الحميرى نسباً ، ولد لأبيه في قسنطينة سنة ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ م وقصد بابه بعد ولادته تَوَّأ لأداء فريضة الحج ، وظل مجاوراً بمكة أربع سنوات ، وبارحها إلى مدينة بيت المقدس واستقر بها حتى توفي سنة ٨٥٩ هـ / ١٤٥٥ م . وفيها نشأ ابنه الشهاب ، فحفظ القرآن واختلف - بعد حفظه - إلى حلقات الفقهاء واللغويين والقراء وغيرهم من العلماء ، واستوعب كثيراً مما عندهم ، وشُغف - منذ صباه - بالأدب شعراً ونثراً كما يحكى الدكتور هشام بوقمرة محقق ديوانه في مقدمته له ، إذ ذكر أن الشاعر قال في إحدى مخطوطات ديوانه : « كنت ممن ولع بعصفورى النظم والنثر في الصبا ، مستوحياً من دوحتيهما نسمة القبول والصبأ ، مقتطفاً لزهريتهما من رياض الآداب ، ملتقطاً لدرتيهما من أصداف الطلاب<sup>(٢)</sup> ، لأسلك واديا لم يترنم فيه حمامهما ، ولا أعكف على حديثه لم يمطر فيها غمامهما ، ولا أرقب سماء لم تلح فيها زواهرهما<sup>(٣)</sup> ولا أخوض بحرا لم تتكون فيه جواهرهما إلى أن ظفرت من المطلوب بأوفى نصيب ، واحويت من كنتاجيهما<sup>(٤)</sup> على كل سهم مصيب » . وسرعان ما فتحت موهبته الشعرية ، وأعجب بشعره أبوه ، فأمل أن يكون له شأن بين شعراء تونس ، فنصحته بالهجرة إليها في تاريخ غير معروف ، ويظن أنه هاجر إليها في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وأخذ يظفر بغير قليل من إعجاب الأدباء ، مما أتاح له وهو في السادسة والعشرين أن يكون في مقدمة المهنيين لسلطان تونس عثمان الخفصى ( ٨٣٨ - ٨٩٣ هـ ) باقتران ابنه وولى عهده المسعود من ابنة عمه سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م وأعجب به السلطان وابنه المسعود فعاش في حاشيتهما واتخذ المسعود كاتباً له ، وكان يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، ولذلك كان يلقب في حياته بصاحب الصناعتين . ويشكر مراراً وتكراراً في مدائحه للسلطان عثمان وابنه المسعود من حساده ومنافسيه ، ومن أهمهم زميله في الكتابة بديوان المسعود الشاعر محمد الخير المالقى الذى كان يكثر من معارضة أشعاره . وظل ابن مخلوف يلازم المسعود حتى سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٣ م إذ يعزم فيها على أداء فريضة الحج ، ويؤديها ويظل في القاهرة نحو أربع سنوات تتعقد فيها الصداقة بينه وبين مؤرخ مصر الكبير السخاوى صاحب كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، وقد ترجم له فيه ، ويقول عنه إنه : « حسن الشكل والأبهة ظاهر النعمة طلق العبارة بليغ بارع في الأدب ومتملقاته »

(١) الديوان الدكتور هشام بوقمرة ( طبع تونس ) وله طبعة قديمة في القرن الماضي غير محققة .

(٢) الطلاب : المطلوب .

(٣) زواهر : جمع زاهر : النجم المضيء .

(٤) الكتانة : جمعة السهام .

(١) انظر في ترجمة الشهاب بن الخلوف رحلة عبد الباسط بن خليل المصرى إلى المغرب ودرة المجال لابن القاضي والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوى وشذرات الذهب لابن العماد ونيل الأبتهاج للتبكي وإتحاف أهل الزمان لابن أبي الضياف وتاريخ الأدب التونسي لحسن حسنى عبد الوهاب ومقدمة محقق

ويصفه بالظرف وحسن الهيئة . وعاد إلى تونس سنة ٨٨١ هـ/١٤٧٧ م ويعود إلى الكتابة عند المسعود ، ويقول الدكتور هشام بوقرة إن المسعود جفاه سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٤ م ولم يلبث أن رضى عنه سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٦ م وظل كاتباً له حتى وفاته سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٨ م وفي نفس السنة توفي السلطان عثمان الحفصى ، و خلفه حفيده يحيى بن المسعود بوصية منه ، ولم يدر العام حتى قتل فى معركة مع ابن عمه عبد المؤمن والى بجاية ، واستولى عبد المؤمن على صولجان الحكم فى تونس ، ولم يهنأ به طويلاً فقد ثار منه زكريا بن السلطان يحيى المقتول فى أوائل خريف العام التالى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠ م واستولى على أزمة الحكم ، وصوّر ذلك ابن الخلوف فى رائية له يمدحه بها قائلاً :

حُزَّتْ الخِلافة عاصباً لا غاصباً والحق ورثك النفيس المذخّر

وهو يقول له إنك حزت الخلافة أو السلطنة عاصباً أى عن طريق الإرث عن الآباء لا غاصباً عن طريق الظلم والعدوان ، واجتاح تونس سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م طاعون توفى فيه السلطان زكريا وأيضاً توفى فيه الشهاب بن الخلوف ، وربما توفى قبله بقليل . ونجده لا يكفى بما ينظم من الشعر فى أغراضه المعروفة من المديح والثناء والنزل والخمريات والوصف وغير ذلك من الأغراض التى رتب عليها الدكتور هشام بوقرة ديوانه ، إذ نظم كثيراً من الشعر التعليمى وله فيه منظومات كثيرة ، فقد نظم كتاب المعنى لابن هشام كما يقول مترجموه وله فى النحو أيضاً منظومة فى صيغ الأفعال ، ونظم كتاب التلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى ، وله بديعية صور فيها ألوان البديع ومحسناته لعصره ، وله أرجوزة فى علم الفرائض ، وله فى العروض تحرير الميزان لتصحیح الأوزان . وله بجانب ديوانه المذكور آتفا ديوان فى المدائح النبوية سماه « جئنا الجنتين » ويشيد مترجموه به إشادة رائعة . ونراه يستهل ديوانه العام قبل أغراضه المختلفة ببعض قصائد وأزجال وموشح فى المديح النبوى ، ويبدو أن له كثيراً من الأزجال فى أغراض مختلفة ، وبالمثل له موشحات متعددة . وهو مداح كبير ، وقد ظل طوال أربعين عاماً يمدح السلطان عثمان الحفصى وابنه المسعود فى الأعياد والمناسبات المختلفة ، ويلزمهما ملازمة المتنبى لسيف الدولة ، ومن قوله فى السلطان عثمان :

إمامٌ بَرَاهُ اللهُ أولى عبادِهِ	بحقِّ وأهداهم لأوضح حُجَّةٍ
تومَلُ نِعْمَاهُ وَيُخَشَى اتِّقَامُهُ	لطالبِ سَلِيمٍ أَوْلِطَالِبِ فِتْنَةٍ
يَصُولُ وَيَحْمَى شِرْعَةً نُبُوَّةٍ	بِسُمْرِ رِشَاقٍ أَوْ بِيَبِيضِ جَلْبَانٍ <sup>(١)</sup>
لَهُ دَوْلَةٌ أَرَبَتْ عَلَى كُلِّ دَوْلَةٍ	بِتَأْيِيدِ أَرَاءٍ وَتَأْيِيدِ نَصْرَةٍ
يَجُنُّ إِلَى الْمَعْرُوفِ حَتَّى يُبَيْلَهُ	كَأَحْنٍ مُشْتَقٍّ لَوْصَلِ الْأَحْيَةِ

(١) السمر : الرماح . البيض : السيوف .

وهو يقول إنه إمام اختاره الله لرعيته لأنه أولاهم بحق الخلافة وأهداهم لأوضح حجة دامغة ، وإنه ليوزع نعماه وعطاياه على طلاب السلم المطيعين بينما ينزل نقمه على طلاب الفتن العاصين ، وإنه ليحمي الشريعة النبوية ويذود عنها بالرمح والسيوف المصمية ، وإن دولته لتسمو على كل الدول بالآراء الصائبة والانتصار الساحق ، وإنه يصبو دائما إلى بذل المعروف والأعمال الخيرة كما يصبو المحب إلى وصل محبوبته ، ويقول فيه من أخرى :

تملك رِقَ الجود واستخدم الغنى	فلم يبق عانٍ يشتكى ألم الفقر <sup>(١)</sup>
إذا مادعاه العسرُ يا محيي الوفا	بدا فدعاه اليسرُ يا قاتل العسر
رَوَى الفضلُ أخبارَ التقى عن كماله	كما نمَّ عن طيب الرُّبى طيبُ الشَّر <sup>(٢)</sup>
لقد ذكرتُ للأوليين فضائلُ	ولكنَّ هذا الفضلُ لم يَجِرْ في ذِكْر
سَخاءٍ يدِ تروى الجداولُ ماءها	عن السَّيلِ عن قَطْرِ الغمامِ عن البدر
ومجدٌ كما تروى الأشعةُ نورها	عن البرقِ عن زهرِ النجومِ عن البدر
وحسبك يا فَرعَ المكارمِ والعلا	أصولُ زكَّتْ في رَوْضةِ المجدِ والفخرِ

وهو يصفه بأنه استرقَّ الجود وامتلكه وأصبح الغنى أو الثراء له خادما يرسله ويوزعه كيف شاء حتى لم يبق بائس يشتكى ألم البؤس والفقر ، ويتخيل أن العسر ناداه يا محيي الوفاء ، ولم يكذب يبدو ويظهر حتى ناداه اليسر يا قاتل العسر : كناية عن كرمه الفياض ، ويقول إن الفضل والتقوى ينمان عن كماله ونيل خلقه وشماله كما ينم الشدَى العطر عن طيب الرُّبى وأزهارها الأرجة ، وينوه بفضله ويقول إنه يفوق فضائل الأولين ، فلم تنطق الألسنة بفضل يمانه ، ويشيد بسخائه وكرمه ، ويقول إن مياهه لتغمر أنحاء تونس وكأنما تفيض عن سيل ، عن غمام منهمر ، عن بحر تندفق أمواجه ، وهي مبالغة شديدة . ومثل ذلك قوله إن مجده كما تروى الأشعة نورها الساطع عن البرق عن النجوم المضيئة عن البدر ، ويقول له حسبك الأصول التي نمت في روضة المجد والفخر الذي ليس مثلهما فخر ولا مجد . وله ينشد في إحدى مدائحه :

ملك إذا هزَّ الحسامَ بكفه	خرَّت لبارق رَعْدِه الخُرْصانُ <sup>(٣)</sup>
لسو فرقت عزماته وهباته	في الناس لم يك باخلٌ وجبانُ
ويرى العواقبَ في صحيفة فكره	فكأنما أفكاره كهُمانُ
تُعزى إلى الغيثِ السكوبِ هباته	هيهات أين الغيث والطوفانُ
يُصغى الرمانُ لأمره ولنهيه	وتطيع الانسُ لحكمه والجنان

(٣) الخرصان : السيف يريد سيوف الأعداء .

(١) عان : بائس فقير .

(٢) الشر : الراحة الذكية الساطعة .

وتراه ما بين الأسنّة سافرا  
 أنت الإمام ومنّ عدك رعيّة  
 كالبدر دارت حوله الشهبان<sup>(١)</sup>  
 أنت المقدّم والسورى أعوان

وهو يقول له إنه مفرط الشجاعة حتى إذا صال في ميادين الحروب وهزّ حسامه سقطت السيوف من أيدي أعدائه هيبة ورهبة ، ويمضى الشاعر في مبالغاته فلو وزعت هباته وعزماته في الناس لم يبق بخيل ولا جبان ، ويبلغ من نفاذ بصيرته أن يتنبأ بعواقب الأمور وأن تحدث طبق تنبؤه ، حتى لكأن تنبؤاته أفكار كهان يصرون الغيب ويخبرون به ، وإن هباته لتعزى إلى الغيث المنهمر ، بل أين الغيث منها والظوفان ، وقد بلغ من عظم السلطان أن أصبح الزمان يصدر عن أمره ونهيه وأصبحت الإنس تطيع حكمه والجنان ، وإنه ليخوض الحروب بين السيوف والرماح بوجه مشرق كالبدر تحفّ به النجوم الساطعة ، ويقول له إنك الإمام والرعية من حولك أعوان ونصراء . وله في مديحه موشحة بديعة ، يقول في تضاعيفها :

قابل السورُ ظلمة الحلكِ	بمصباح منير <sup>(٢)</sup>
ورقا النجمُ ذرورة الفلكِ	خائفًا مستجير
بأبى عمرو الرضسا الملكِ	من سَعير المهجير <sup>(٣)</sup>
مَنْ رَوَى المجد عن علا عُمرِ	يطريق الصُحاح
وسرى في النهى على قدرِ	بمطايا الفلاح
لورأى البدر وجهه الطلّقا	لاعتراه السجود
لورأى الغيث جوده الغدقا	لاستحى أن يجود
فاق خلّقا وقد حوى خلّقا	قارنته السعود
بِوَأ الملكِ رتبة الظفرِ	بعوالى الرُمّاح
ومحى عزّمه دجى الغيرِ	بصباح الصُفّاح <sup>(٤)</sup>

والموشحة طريفة ، وهو يستهلها بوصف الطبيعة وصفا بديعا ويخرج منه إلى مدح أبى عمرو عثمان الحفصى وكأنما يتخذ من نور الفجر رمزا لحكمه الرشيد ، وكان الوقت صيفا والقيظ شديد الحرارة ، فقال إن النجم علا ذرورة الفلك مستجيرا بالسلطان أبى عمرو المحبوب من نار المهجير ، ويقول إنه روى مجده عن آبائه المنتسبين إلى عمر بن الخطاب نسبة صحيحة أو بطريق الآثار الصحاح كما يقول ، ويمضى في مبالغاته فلورأى البدر وجهه المستبشر لخرّ ساجدا ولورأى الغيث جوده المذرار لعلاه الخجل والاستحياء ونوّه به خلّقا وخلّقا ، ويدعو

(١) الشهبان جمع شهاب : النجم المضيء والشعلة  
 (٢) المهجير : نصف النهار في القيظ .  
 (٣) الصفّاح : السيوف . الغير : الأحداث .  
 الساطعة .

(٤) الحلك : سواد الليل

له أن يقترن هو وحكمه بالسعود . ولعل صوت الشهاب بن الخلوف اتضح لنا اتضاحا تاما ، وهو صوت يكتظ بالعذوبة والسلاسة وصفاء التعبير ويجمع بين الرقة والمثانة ، وكأنما يستمد من معين لا ينضب ، معين زلال تمتع دون أن يكلفك أى عناء فى فهم لفظة أو عبارة ، إذ كان يشغف بالوضوح التام كل الوضوح .

محمد<sup>(١)</sup> القوجيلى

من كبار شعراء مدينة الجزائر فى القرن الحادى عشر الهجرى لعهدنا العثمانى ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، غير أن من المؤكد أنه عكف على حفظ القرآن الكريم فى صباه مثل لداته ، حتى إذا أتقن حفظه وجوَّده على قرائه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الفقه والحديث النبوى والعربية والأصول والتوحيد والبيان والبلاغة ، وتميز فى علمه بالفقه والشريعة ، مما أعدَّه ليصبح قاضيا من قضاة الدولة . وشغف مبكرا بالشعر ، وأخذ ينهل من دواوينه حتى استقامت له ملكته الشعرية . وسرعان ما أصبحت ملكه خصبة ، واتجه بها أول ما اتجه إلى المشاركة فى الشؤون السياسية والتعبير عن أماني أمته الجزائرية ، وكان من أهم أمهاتها فى بواكير شبابه تخليص وهران من أيدي الإسبان الذين طال احتلالهم لها منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، ونراه حين ولى الجزائر أحمد باشا سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م يهتبه بولايته ويحضه على الجهاد ضد الإسبان حتى ينهزم جمعهم فى وهران ويولون عنها فرارا ، بل حتى يسحقهم سحقا لا يبقى منهم باقية ، يقول :

فرحتُ جزائرنا بكم وتأنستُ	بمقامكم فيها بحال حُبور <sup>(٢)</sup>
فلتأنستُ نحو الجهاد بقوة	والكفر فاقطع أصله بذكور <sup>(٣)</sup>
وبغربنا وهران ضيرس مؤلم	سهلُ اقتلاع فى اعتناء يسير
فانهض بعزمك نحوها مستنصرا	بالله فى جدِّ وفى تَشْمِير
بعساكر مثل السيول تراجمتُ	للسبق تحت لوائك المنصوير

ونرى القوجيلى يتحول من دعوة الوالى لجهاد الإسبان وفتح وهران إلى نصحه بأن يصرف للعلماء والأدباء شعراء وكتبا إعانات تعينهم على العيش الكريم ، إذ كان ولاية العثمانيين على الجزائر لا يفهمون العربية ، فكانوا لا يعنون برجال الدين فضلا عن الشعراء والكتاب وساعد على ذلك أن ديوانهم - حيثئذ - كان تركيا خالصا ، فلم يعد للأدب ولا للعلم سوق راجحة فى عهدهم ، مما جعل القوجيلى يدعو الوالى الجديد إلى تلافى ذلك حتى لا تتكس الحركة العلمية والأدبية ، وإنه ليهتف بالوالى العثمانى :

(١) انظر فى ترجمة محمد القوجيلى كتاب أشعار جزائرية تحقيق د . أبو التاسم سعد الله وما ذكره عنه فى كتابه تاريخ الجزائر الثقافى ( انظر الفهرس ) .

(٢) حور : سرور .

(٣) الذكور جمع ذكر : السيف الصلب القاطع .

العلمُ ميراث النبوة ناله  
 كم في بلادك من نجيب حافظٍ  
 ومحققٍ ومدققٍ ومناظرٍ  
 لكنهم فقدوا الإعانة واغتدوا  
 ضاعوا وجاعوا لا محالة وأبتلوا  
 قومٌ لهم حظٌ من التنويرِ  
 ومشاركٍ في النظمِ والمتنورِ  
 من كل درّك الحجى نحريرِ  
 ما إن يراعيهم ذرور التأميرِ  
 في ذا الزمان الصعب بالتفتيرِ

وهو يقول له إن العلماء ورثة الأنبياء ، وكم في البلاد من حافظ محدث وشاعر وكاتب وفقه محقق وعالم مدقق ومناظر يدرك براهين الحجى والعقل نحرير حاذق في عمله كل الخدق ، غير أنهم فقدوا ما يسد رمقهم ، وأبتلوا في العصر بالتفتير والتضييق عليهم في النفقة ، إذ لا يراعيهم أمراؤهم أو ذرور التأمير .

ويصبح القوجيلي قاضيا في تاريخ غير معروف ، وتدل تلك الوظيفة على ما حاز لنفسه من الدراسات الدينية وخاصة الفقه وما عرف به من القدرة على الفتوى السديدة ، وأكب على دراسة الحديث مما جعله ينظم عملا شعريا حول الجامع الصحيح للبخارى سماه : « عقد الجمال اللامع المنتقى من قعر بحر الجامع » وهو منظومة في مخرجى أحاديث البخارى وعدد الأحاديث التى لكل منهم مع بيان الأكثر منهم والمقل فى السند على ما أورده ابن حجر المصرى وزاد عليه تراجم الرواة . ويبدو أنه كان يضيف إلى اشتغاله بالقضاء اشتغاله بتدريس الفقه والحديث للطلاب . ويتولى صديق له الفتيا يسمى أبا عبد الله محمد بن قرواش ، ويتصادف حدوث زلزال عند توليه ، فيتطير من ذلك ، فيمدحه بقصيدة محاولا فيها أن يجعل الزلزال بشرى لفرح الأرض بتوليه هذا المنصب الدينى الجليل قائلا :

إهنا أبا عبد الإله بخطة  
 والأرض قد فرحت بما خولتكم  
 وتحركت أرجاؤها طربا بكم  
 بل إنما ماست لذلك نخوة  
 جاءتك وهى لدى الزمان جمال<sup>(١)</sup>  
 مرحت بسائلها ومال جبال<sup>(٢)</sup>  
 ما مسها رجف ولا زلزال  
 حتى لقد رقصت بنا الأطلال<sup>(٣)</sup>

والأبيات تدل على أن ملكته الخيالية كانت خصبة ، وأنه كان يعرف بها كيف يجعل ما قد يظن أنه نحس أو شوم فألا حسنا لفرح وسرور وحياة هنيئة طيبة . وانعقدت صداقة متينة بينه وبين الفقيه الحافظ على بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى الذى هاجر بأسرته من مدينته سجلماسة بالمغرب الأقصى إلى مدينة الجزائر حوالى سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣١م واتخذها وطنًا ثانيا له حتى وفاته سنة ١٠٥٧هـ/١٦٤٨م وكان عالما متبحرا فى جميع العلوم الدينية

(١) يريد بالخطة منصب الفتوى .

الأرض .  
 (٢) ملست : اختالت .

(٣) خولتكم : أعطيتكم . ويريد بسائلها : النمسط من

واللغوية والبلاغية ، وطارت شهرته في إقليم الجزائر والمغرب الأقصى وقصده الطلاب من كل فج ، ونرى القوجيلي يمدحه بقصائد متعددة . وهي ظاهرة كبرى في العهد العثماني بالجزائر أن نرى الشعراء منصرفين بمدائحهم عن الولاة العثمانيين إلا قليلا ، لأنهم كانوا تركا ولم تكن كثرتهم تفهم العربية فضلا عن إحسانها ، فقلّ منهم من فتح أبوابه للشعراء إلا نفرا محدودا لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ولذلك انحاز الشعراء الجزائريون بمدائحهم عن الولاة العثمانيين وأخذوا يسبغونها على الشيوخ من العلماء الأجلاء ، على نحو ما نرى عند القوجيلي في إكثاره من مديح المحافظ الفقيه علي بن عبد الواحد الأنصاري ، يمدحه - كما يمدح أمثاله من الشيوخ - لاطلبا لنوال أو عطاء ، وإنما تجلّة وعرفانا لهم بالفضل وما أوتوا من العلم النافع . ومن مديح القوجيلي للشيخ الأنصاري قوله في إحدى مدائحه :

أبو الصلاح عليّ في الكرام عَلا	من لا يماثله في الناس من أحدٍ
بحرّ طمّي فرمى ذرّاً للتمقطِطِ	غيثٌ همّي فَمَا نَفْعًا لمجتهد <sup>(١)</sup>
أكرمٌ بمجلسه السامى فقد ظهرت	لنا به نفحاتُ العوّن والمددِ
تلاطمتْ فيه أنواع العلوم كما	تلاطم البحر بالأموج والزبدِ
من يُخرم الرّئى من صافى مشاربه	يعضُّ من ندمٍ في شفةٍ ويدِ

وهو ينعت الشيخ الأنصاري بالصلاح حتى يجعله آياه ويرفمه درجات فوق الناس قائلا إنه لا يماثله أحد من العلماء ، يريد من نظرائه الفقهاء ، ويشيد بمجلسه العلمي وما يعرض فيه من نفحات العلوم ، بل يقول إنه تتلاطم فيه تلاطم الأمواج والزبد في البحر المتوسط ، ويقول إن من لا ينهل من صافى علومه يندم ندما شديدا . وله يقول في مدحة ثانية :

علامةٌ أحيا العلوم وقد	خضيتُ معانيها على الكثرِ
يا طالباً للعلم هل لك في	رُشدي وفي الإكثار من خيرِ
افصد لمجلسه نلّ شرفاً	وتحوز فخراً أيّما فخر <sup>(١)</sup>
إن جئت مجلسه تجد عجا	منه العلوم تفيض كالبحرِ
بدرايةٍ وروايةٍ ثبتتْ	بصحيح إسنادٍ عن الغر <sup>(٢)</sup>

وهو يشيد بعلمه وتأهيه فيه أو بلوغه متناه ، حتى ليعده محبباً له ، وينصح طالب العلم أن يقصد إلى مجلسه لينال شرف العلم وفخره ، إذ سيجده يفيض على طلابه بسيول من علومه وسيجده يجمع بين الدراية والرواية ، وبعبارة أخرى بين المعقول والمنقول ، فهو من أهل الاجتهاد والرواية الوثيقة بأسانيد صحيحة عن رواة أعلام . وكانت قد حدثت اضطرابات في

(١) الأمر لضرورة الشعر .

(٢) الفر : الثقات .

(١) طما : امتلاً . همي : سال .

(٢) رفع نحووز ولم يجزها عطفاً على فعل تل في جواب

العقد الحادى عشر المجرى وظنَّ أن الباب العالى فى إسطنبول سيُعين على الجزائر واليا جديدا ، ونرى القوجيلى يذهب إلى إسطنبول على رأس وفد جزائرى سنة ١٠٦٥هـ/١٦٥٥م ملتصقا من السلطان - وكان حينئذ محمد خان الرابع - موافقته على إصدار فرمان بتولية يوسف باشا ، وما إن يضع القوجيلى قدمه فى تلك المدينة حتى يتجه بقصيدة إلى مفتى إسطنبول أبى سعيد ، يمدحه بها ويسأله أن يكون شفيع وفدهم لدى الخليفة العثمانى فى قبول ملتصمهم ، ومن قوله فيها :

سعدتَ فدمُ فى العزِّ واستكمل العَلْيَا      ودُم فى اقتناء المعلوات مدى المَحْيَا<sup>(١)</sup>  
وَكُنْ ملجأً للوفاديين فمن يُعِينُ      أحنًا فهوَ فى عَوْنِ الذى كَوْنُ الأشْيَا  
شكايتنا مما دهانا بَقَطْرنا      توالى علينا أعصرُ أورثتَ عَيَّا<sup>(٢)</sup>  
وكم من أميرٍ ظنَّ يكشفُ ضرَّهُ      فلم يُلف ما قد ظنَّ بل قد وهى وهَيَّا<sup>(٣)</sup>  
وأولاهم فى العزم والحزم والوفى      سمى الذى فى السجن قد عبرَ الرؤْيَا  
فكن عَوْننا عند الخليفة وأمضيين      بنا بين أيدينا لحضرته العليَا

وهو يدعو للمفتى أبى سعيد بدوام العز واقتناء الرفعة والشرف ويرجوه أن يكون ملجأ للوفد الجزائرى وعونا فى إنجاز مهمته عند الخليفة مشيرا إلى الحديث النبوى : « إن الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » ويقول إن شكايتنا مما نزل بقطرنا الجزائرى مشيرا إلى المنازعات فى السلطة وصراع الإنكشارية العثمانية ، وكل وال يظن أنه سيتلافى الاضطرابات بها حتى إذا تولاها عجز عن إصلاحها . وقال إن أصلح أمير لحكمها سمى الذى أول الرؤيا فى السجن لصاحبه أى أنه يوسف باشا سمى يوسف الصديق عليه السلام . ويطلب إلى المفتى أن يتقدم وفدهم لدى الخليفة شافعا لهم عنده فى تحقيق ما يأملون . ولا نعرف شيئا عن القوجيلى بعد هذه الوفادة ، وقد نجح فى مهمته ، وتولى يوسف باشا أمر الجزائر . وعاد إلى موطنه ، وظل به حتى وفاته سنة ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م وهو يعد من أتبه شعراء العهد العثمانى .

٤

## شعراء الفخر والتهجاء ( أ ) شعراء الفخر

الفخر غرض قديم من أغراض الشعر العربى فمنذ الجاهلية يتغنى به الشعراء طوال العصور التالية إلى اليوم مثالياتهم وأخلاقهم الرفيعة من مثل المروءة والكرامة والجود والشجاعة إلى غير ذلك من شيمهم وخصالهم الحميدة ، كما يتغنون عصيانتهم ومشاعرهم القومية ، ومن طريف

(٣) يلغى من ألفى : وجد . رهى : ضعف .

(١) المعلوات جمع معلوة : الرفعة والشرف .

(٢) العى : الضلال .

ها يلقانا في الجزائر من فخر قول شاعرها ابن أبي الرجال الشيباني وزير المعز بن باديس مفتخرًا بقومه<sup>(١)</sup> :

يا آل شيبان لا غارت نجومكمُ ولا خبت ناركم من بعد توقيد  
أتم دعائم هذا الملك مذ ركضت قبل الخيول لإبرام وتوكيد  
المنعمون إذا ما أزمة أزمتم والواهبون عتيقات المزاويد<sup>(٢)</sup>  
سيوفكم أفندت كسرى مرزبه في يوم ذى قار إذ جاءوا لموعد

وهو يفخر بقومه من آل شيبان ويدعو أن تظل نجومهم مضيئة في سماء العروبة وأن تظل نيرانهم متقدة لا تنطفئ أبداً ، إذ هم دعائم الملك العربي منذ نشبت الحروب وصهلت فيها خيول الفرسان لفرض المعاهدات وعقد الموائق ، وقد اشتهروا بما ينعمون في الأزمات ويهبون من العطايا الجزيلة ، ويرفع أمام الأعين بطولتهم العظيمة يوم ذى قار الذي نكلوا فيه بالفرس تكيلا شديداً : منقبة عظيمة لقبيلته شيبان في الجاهلية لا ينساها العرب ولا ينساها التاريخ . ونرى الحسن بن الفكون القسطنطيني المتوفى بأوائل القرن السابع الهجري يفخر ببلدته « بجاية » ومسقط رأسه قائلا<sup>(٣)</sup> :

دع العراق وبغدادا وشامهم فالناصرية ما من مثلها بلد  
بر وبخر ومرج للعيون به مسارح بان عنها الهم والنكد  
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد  
والنهر كالصل والجنت مشرفة والنهر والبحر كالمراة وهو يد  
إن تنظر البر فالأزهار يانعة أو تنظر البحر فالأمواج تطرد  
يا طالبا وصفها إن كنت ذا نصف قل جنة الخلد فيها الأهل والولد

وهو يفضل الناصرية أو بجاية على بغداد ودمشق ، ويقول إنه ليس مثلها بلد جمعت بين البر والبحر ومشاهد مرج بأشجاره ونباتاته البديعة التي تزيل الهم والنكد حيث مجتمع الحب والهوى الطلق الذي يستروحه المحبون ، وحيث الثراء والمنى والعيشة الطيبة ، والنهر يجري كصل أو أفغوان ، والجنت تحنه من كل جانب ، وكأنما البحر مرآة والنهر يدها الثابتة . إن تنظر إلى البر راعتك أزهاره ، وإن نظرت إلى البحر راعتك أمواجه المطردة ، وهي - بإتصاف - جنة الخلد ، وفيها الأهل وقلذات الكبد من الولد أو الأولاد . ويقول أحمد<sup>(٤)</sup> بن علي الملياني المتوفى سنة ٧١٥ هـ/١٣١٦ م :

(١) المنتخبات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧٦ .

(٢) تعريف الخلف ١٣٥/٢ .

(٤) تعريف الخلف ٦٨/٢ .

(٢) المزاويد جمع مزود : وعاء الزاد .

العزُّ ما ضُرِّبَتْ عليه قبلى  
والزهرُ ما أهداه غُصْنُ يراعتى  
فالمجد يمنع أن يزاخَمَ مَوردي  
وإذا بلوتُ صنيعَةً جازيتها  
وإذا عقدتُ مودَّةً أجزيتها  
والفضلُ ما اشتملتُ عليه ثيابى  
والمسكُ ما أبداهُ نَقْشُ كتابى  
والعزمُ يأبى أن يُسامَ جنابى  
بجزيلِ شكْرِ أوجزِيلِ ثوابى  
مجرى طعامى من دُمى وشرابى

وهو يفخر فخرا مسرفا ، فالعز ما ضُرِّب عليه خيامه ، والفضل ما اشتملت عليه ثيابه ، والزهر كلماته مما كتبه قلمه ، والمسك نقش كتابته ، وبلغ من المجد أن لا يزاخمه أحد فى مورده كما بلغ من العزم أن لا يُرعى جنبه ، فحماه لا يسام ولا يضام ، وإذا اختبر صنيعه أو معروفا بادر بالشكر وجزيل الثواب ، وإذا عقد مع شخص مودة كانت غذاء لروحه وجرت مجرى الطعام من دمه وشرابه . ويفتخر ابن خميس شاعر تلمسان بعرويته ودينه الخفيف ، منشدا :

إنما - بنى قحطان - لم نُخلِّقْ لغـ  
بسيوفنا البيض اليمانية التى  
تأبى لنا الإحجامَ عن أعدائنا  
أنصارُ دينِ الهاشميِّ وحزبهِ  
وحُماتهِ بنفوسهم ونفيسهم  
منا التبايعَةَ الذين يبابهم  
ولأمرهم كانت تدينُ ممالكُ الـ  
أبوابهم مفتوحةً لضيوفهم  
يرُ غياثِ ملهوفٍ ومنعةً لاجى  
طُبعتُ لحزِّ غَلاصمِ ووداج<sup>(١)</sup>  
يوم اللقاء طهارةُ الأمشاج<sup>(٢)</sup>  
وحُماتهِ فى الجَحْفَلِ الرَّجراج<sup>(٣)</sup>  
من غدرِ مغتالِ وسورةِ هاج<sup>(٤)</sup>  
كانت تُنيخُ جُباةَ كلِّ خراج<sup>(٥)</sup>  
لدُنْيا بلا جَسْبِرٍ ولا إخراج  
أبدا بلا قُقلٍ ولا ميزلاج

وهو يفخر بأصوله من بنى قحطان اليمينيين الذين إنما خلقوا لغياث الملهوف وحماية اللاجئ لهم بسيوفهم اليمانية التى صيغت لقطع الرقاب ، وإن أنسابهم لتأبى لهم الإحجام عن لقاء أعدائهم وسحقهم ، ومعروف أن أنصار الرسول ﷺ من أهل المدينة كانوا يمينيين أو من أصول يمنية ، وهو لذلك يفخر بنصرتهم للرسول وأنهم كانوا حماة حين تنشب الحروب حموه بنفوسهم وبكل ما يملكون من غدر مغتال ومن حدة هاج إذ كان منهم حسان بن ثابت وغيره من شعرائهم الذين كانوا يذودون عن الرسول وصحبه ضد شعراء قريش وأهاليهم . ويفخر بأن منهم قديما التبايعه ملوك اليمن وأمرائها فى الجاهلية الذين كان يُجسبى لهم الخراج من أنحاء دولتهم ، وكانت ممالك الدنيا تدين لهم طوعا لا قسرا ، وبلغوا من جودهم أن كانت

(١) طبع: صيغت. الغلاصم جمع غلصمة : الخلق .  
الوداج : عرق فى العنق إذا قطع انتهت حياة المذبوح .  
(٢) الأمشاج جمع مشج : التطفة .  
(٣) الجحفل الرجراج : الجيش الذى لا يكاد يسير  
لكثرته  
(٤) سورة : حدة  
(٥) تنيخ : تنزل .

أبوابهم مفتوحة لضيوفهم دائما لا تغلق أبدا . ويعتلى عرش دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية أكبر شعراء الفخر في الجزائر على مر العصور ، وأقصد أبا حمو موسى الثاني ، وحرى أن أقف قليلا لأترجم له وأعرض أطرافا من فخره .

### أبو حمو<sup>(١)</sup> موسى الثاني

ولد أبو حمو موسى لأبيه يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن في أواخر مقامه بغرناطة في بلاط سلطانها أبي الوليد بن فرج سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م وفي تلك السنة استدعى يوسف وإخوته إلى تلمسان سلطانها أبو تاشفين الأول ( ٧١٨ - ٧٣٧ هـ ) ولئوه وأكرمهم وأعلى مكانتهم بين أمراء الأسرة ، وبذلك كان منشأ أبي حمو موسى ومرباه الأول في تلمسان حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان وأرغم أباه وبعض أمراء الأسرة على الاستقرار بفاس ، وعلى شيوخها أتم أبو حمو موسى تعلمه ، وظل بها مع أبيه إلى بداية إمارة عميه أبي سعيد وأبى ثابت سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م حتى إذا فتك بهما السلطان أبو عنان المريني سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م رأينا أبا حمو موسى يقصد تونس ولسطانها أبا إسحق فأكرمه غاية الإكرام ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م واستولى فيها السلطان المريني أبو عنان على تونس ارتحل أبو حمو مع السلطان الحفصي إلى إقليم الجريد جنوبي الإقليم التونسي ، واضطرت الظروف أبا عنان بالعودة إلى فاس مع جيشه في السنة التالية ، وعاد السلطان الحفصي وأبو حمو موسى إلى تونس ، والتف حوله عرب الداوودة وأخذ يستعين بهم في مطاردة المرينيين ، وسارعت إليه قبيلة بني عامر شيعة أسرته ووطنه وتوجه بهم إلى الزاب ثم ورقلة ، ونازل أولاد عريف من قبيلة سويد اللالاية وهزمهم هزيمة ساحقة ، وجاءه عقبها نبأ وفاة السلطان أبي عنان المريني في أواخر ذي الحجة سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م فصمم على أخذ تلمسان ، وبايعه جميع من كان معه في الخامس من محرم سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م وجداً في السير مع جموعه من العرب وغيرهم ، وتسامع به كل من كان في طريقه إلى تلمسان ، وكان أبو عنان ولّى عليها ابنة محمداً وترك معه حامية ، فحاصره أبو حمو مدة كانت فيها مناقشات ، وتيقن المرينيون أنه لا طاقة لهم بمنزلة أبي حمو ، فطلبوا الأمان ، وأسلموا تلمسان إليه وبايعه أهلها حين دخلها في غرة شهر ربيع الأول ، ويقول التنسي إنه « ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى وعمر الرعية قسطاس عدله الأسنى ، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه ، وعاقب يرضيه ، وسيف لحماية الدين يُنضيه ، وسبيل إلى رضاء الله تعالى ورسوله يقضيه » . وقد غير اسم الدولة ، إذ

١٥٧ ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التنسي ص ١٥٧ وما بعدها وكتاب أبو حمو موسى الزياني : حياته وآثاره للدكتور عبد الحميد حاجيات .

(١) انظر في ترجمة أبي حمو موسى الثاني تاريخ ابن خلدون والجزء الثاني من بنية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحيى بن خلدون وتاريخ بني زيان

كان اسمها بنى عبد الواد نسبة إلى قبيلتهم ، فرأى أن تسمى باسم الدولة الزيانية نسبة إلى زيان والديغماسن مؤسس الدولة . وقد أعاد لها عزها وسلطانها واسترد لها بلدانها فى الجزائر : وهران والجزائر وتلمس ، وكثرت الحروب فى أيامه بينه وبين بعض القبائل العربية والدولة المرينية . وثار عليه ابن عمه أبو زيان بن السلطان أبى سعيد وانصاعت له قبيلة عامر واستولى على مدينتى المدية ومليانة ، ونشبت بينه وبين أبى حمو وقائع ، واستطاع أبو حمو القضاء على ثورته فى أواخر سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م وانتهاز السلطان عبد العزيز المرينى فرصة تضعضع جيشه من كثرة الحروب واستولى على تلمسان سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م وظل أبو حمو يتنقل فى الصحراء حتى علم بوفاة السلطان المرينى سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م فعاد إلى عاصمته تلمسان ، وتبدأ منافسات بين ابنه وولى عهده أبى تاشفين وإخوته ويُعتال يحيى بن خلدون كاتب أبى حمو ومؤرخه فى مؤامرة دبرها ولى العهد سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٩ م حتى إذا كانت سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٥ م أغار السلطان أبو العباس المرينى - واستولى - على تلمسان ، غير أن الأحداث فى عاصمته فاس اضطرتة إلى العودة إليها سريعا ، وعاد أبو حمو إلى تلمسان . وتسوء العلاقات سوءا شديدا بين ولى العهد أبى تاشفين وإخوته ، مما جعل أبو حمو يخلع نفسه إرضاء لأبى تاشفين سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م ويتجه إلى الحج . وما إن نزل بجاية حتى غير رأيه ، واتجه إلى تلمسان ، واستثار كل من كان فى طريقه وأقبل إليها بجموعه ، وعلم ابنه أبو تاشفين ، فلاحق بغاس واستعان بسطانها المرينى ، وأعانه بجيش كثيف والتقى مع أبيه وجموعه واقتلوا قتالا شديدا وكبا الفرس بأبى حمو وتوفى . وهو من خيرة سلاطين الأسرة الزيانية وقد نهض بالعلم فى دولته واشتهر بها كثير من العلماء فى مقدمتهم أبو عبد الله الشريف الذى بنى له مدرسة كبيرة أكثر عليها من الأوقاف ورتب فيها الجرايات للشيوخ والطلاب . وكما نهض بالعلم نهض بالأدب ، ومن كتأبه وشعرائه محمد بن يوسف الثغرى الذى مرت ترجمته ، ومنهم محمد بن على العصامى ومحمد بن صالح شقرون ، ومن مآثره احتفاله بالمولد النبوى احتفالا عظيما ، كان يُبدأ فيه بمدحة نبوية له ثم تتوالى مدائح نبوية أخرى شطرا كبيرا من الليل وكان يُدعى إليه الناس من العامة والخاصة ، وتقام قبيل الصباح مأدبة ضخمة ، وسنعرض لذلك فى حديثنا عن شعراء المدائح النبوية . وكان أديبا بارعا وله كتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وسنلم به فى حديثنا عن النثر فى الجزائر . وكان يحسن نظم الشعر ، واحتفظ يحيى بن خلدون بكثير منه فى الجزء الثانى من كتابه بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، وجمع منه كثيرا الدكتور عبد الحميد حاجيات فى كتابه عن أبى حمو موسى ، وهو موزع بين فخر ونبويات مع مرثيتين لأبيه . ونراه عقب استقراره فى تلمسان وتمازى الملك له ينظم ميمية طويلة يصور فيها حركته من تونس إلى تلمسان لاسترداد ملك آبائه وكيف أخذ يعد جيشا لمنازلة المرينيين من قبيلة عامر واقحامه للزاب وريغ وورقلة والحمادى

والتقاءه بالجنود المرينيين ويطشه بهم وتقدمه إلى وادى يسر ودخوله تلمسان عنوة ، وينهى القصيدة منشدا :

نظمنا شتيتَ الملك بعد افتراقه  
شَدَدْنَا له أزرًا وشِدَدْنَا بناءه  
فصارت ملوكُ الأرض تأتي مطيعة  
إلى بابنا تَبَغَى التماس المكارم  
وجاءت لنا من كُلِّ أوبٍ ووجهية  
تبايعنا طوعا وفودُ العمائم  
وقمنا بأمر الله في نصر دينه  
وفى كفاً ماقد أُحْدِثت من مظالم

وهو يفتخر بأنه أعاد للملك الزياني المنهوب نظامه وسلطانه ، وشدَّ أزره وقوته وشاد بناءه وأعلاه أقوى ما يكون الإعلاء بأركان وثيقة ودعائم متينة ، مما جعل ملوك الأرض يقصدون بابه معلنين طاعتهم زلفى إليه والتماسا لمكارمه ، وإن قبائل العرب ليفدون عليه من كل ناحية وجهة تبايعه طوعا ، وإنه ليقوم بنصر دين الله ونشر العدل فى ربوع بلاده والقضاء على ما أحدث المرينيون من مظالم ، ويفتخر فى قصيدة ثانية من وزن المتدارك بسياسته الرشيدة فى الحكم قائلا :

أنزلتُ الناس منازلهم  
أحمى المظلوم وأنصره  
وأنا للحرب كغترها  
وأنا موسى وأبو حمو  
سئنى إن صلّت بقائمه  
أذنى المراق إلى الأجل  
وكذا كفاى إذا انبسطت  
من كان مقلأ عادَ ملى

فهو يسوس رعيته سياسة حميدة ينزل الناس فيها منازلهم دون خفض أو رفع ، وهى سياسة تقوم على العدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وإنه ليحمى المظلوم من ظالمه وينصره عليه ، ويقيم الحق سريعا لا يخشى فيه ملامة لائم ، وإنه شجاع شجاعة عترين شداد فى الحرب ، أما فى السلم فإنه صاحب دعة وحياة آمنة رافهة ، ويقول أنا أبو حمو موسى أصلح للملك بعدلى وحكمى القويم ويصلح لى ، وإنه لبطل فى الحرب يقطع رقاب المارقين والثائرين ، أما فى السلم فغيث مِدْرَار وإن كفيه لتشران الأموال نثرا ، حتى ليصبح المقل الفقير مليا ثريا ، ويقول مفاخرا :

وما يسوى العلياء هِمْنَا جلاله  
إذا هام قومٌ بالحسان النواعم  
بروق السيوف المشرفيات والقنا  
أحبُّ إلينا من بروق المباسم

وأحسنُ من قَدِّ الفتاةِ وخَدَّها      قدودُ العوالى أُوخذود الصوارم<sup>(١)</sup>  
وأما صَهيلُ السابحاتِ لدى الرَّغَى      فأشجَى لدينا من غِناءِ الحمائمِ  
إذا نحنُ جرَدنا الصوارمَ لم تَعُدْ      لأعمادها إلا بجزِّ الغلاصم<sup>(٢)</sup>

وهو يقول عن نفسه وقومه إذا كان الناس يهيمون بالحسان الجميلات فإننا لا نهيم إلا بالعلياء والمجد والشرف ، وإن بروق السيوف المشرفيات والرماح لأحب إلينا من بروق المباسم الفاتنة ، وأحسنُ عندنا من قَدِّ الفتاةِ وقوامها وخددها الجميل قدود الرماح وخدود السيوف الصوارم القاطعة ، وإن صهيل الخيل في الحرب لأشجى عندنا من غناء الحمائم الذى طالما تغنى به الشعراء ، وترانا فى الحرب إن نحن شهرنا السيوف لم تعد لأعمادها إلا بجز الغلاصم والرقاب ، ويمضى فى النصيدة قائلا :

ألا أيها الآتى لظِلِّ جَنابنا      نزلتَ بِرَحْبٍ فى عِراضِ المكارم<sup>(٣)</sup>  
وقولتَ منا بالذى أنتَ أحلُّهُ      وفاض عليكِ الجودُ فيضَ الغنائمِ  
بهمَّتْنا العِليا سمونا إلى العُلا      وكم دون إدراكِ العِلا من ملاحم

وهو يشير من ينزل بجنايبهم وفى كفهم أنه ينزل برحب أو واسع فى عرصات أو ساحات المكارم ويقابلُ بما يليق به ، ويفيض عليه الجود فيض السحاب الماطل . ويقول إنهم لذوو همم عالية سمى بهم إلى العلا وكم دون إدراكها والحصول عليها من ملاحم وحروب طاحنة ، ويقول مفاخرًا فى انتصار له على الدولة المرينية :

لقد نهضتُ بعونِ الله متَّكلا      على الإلهِ ومن يرجموه لم يخبِ  
بعسكِرٍ لَجِبٍ ضاقَ الفُضاءُ به      كالبحرِ أعظَمَ به من عسكِرٍ لَجِبِ  
من كلِّ لَيْثٍ شجاعٍ فارسٍ بطلٍ      حامى الذمارِ من الأعجامِ والعُربِ<sup>(٤)</sup>  
على سوابقِ خَيْلٍ ضَمُرٍ عُربِ      تُزهِى بِحليتها كالخُرْدِ العُربِ<sup>(٥)</sup>  
بِها وَطِئنا بلاذًا لاسيلَ لها      وما أردنا تناولناهُ من كُتَبِ<sup>(٦)</sup>

وهو يقول إنه نهض بحرب المرينيين مستعينا بربه متكلا عليه راجيا النصر منه ، ومن يرجوه لا يخيب رجأوه ، وقد نازلم بعسكر كثير ضاق الفضاء به ، وكأنه بحر زاخر بالليوث الشجعان والفرسان الأبطال حماة الذمار من العجم والعرب ، يركبون إلى الحرب خيولا ضامرة نجية

(١) العوالى : الرماح . الصوارم : السيوف .

(٢) الغلاصم جمع غلصمة : ملتقى اللهاة والرؤى .

وهى تقطع مع الرقة .

(٣) عراض جمع عرصة : الساحة .

(٤) الذمار : الحمى وما يحميه الإنسان من الأهل

والولد .

(٥) الخرد جمع خريدة : الجميلة . عرب : معجبة بنفسها .

(٦) كتب : قريب .

تزهى بجمالها زهو الجميلات المعجبات بحسنهن. ويقول إنهم يطفون بحوافرها بلادا بعيدة يذللونها تذليلا ، ولا بلدا ولا ناحية أردناها إلا انتصرنا فيها وانقادت إلينا انقيادا . وجمع الحافظ التنسي فيه كتابا سماه: «راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه من الأمداح».

### (ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم فى الشعر العربى ، وكان فى الأصل لعنات يصبها الشاعر على القبيلة المعادية أو على سيدها راجيا أن تنزل بهم المقادير هزائم متوالية ، وتحول من هذه اللعنات إلى ذم شديد على لسان الشاعر الجاهلى ، فما يرجعون من حروبهم حتى يسلب شعراؤهم على أعدائهم ألسنتهم ملحقين بهم مثالب شتى . ومعروف ما كان بين مكة والمدينة لعهد الرسول ﷺ من أهاج ينظمها شعراؤهما عقب كل معركة . واستحال الهجاء فى العصر الأموى على لسان الفرزدق وجريير إلى ما يشبه مناظرة حادة فى بيان فضائل ومساوىء عشيرتيهما وقبيلة تميم التى كان يدافع عنها الفرزدق وقيس التى كان يدافع عنها جريير . وظل الشعراء لعصرهما يكثرون هم وشعراء العصر العباسى الأول من الهجاء ، وتحول عند الأخيرين إلى بيان المساوىء الفردية والاجتماعية فى المهجوع مع التهوين منه والإيلام بالإلاما شديدا ، وطار شرر كثير من هذا الهجاء إلى الأقاليم العربية . وكان قد بارح المغرب إلى بغداد الشاعر الجزائرى بكر بن حماد التاهرتى وهو أول شاعر جزائرى له أهاج مختلفة ، واستترجم له عما قليل ، وكان يعاصره ابن خزاز التاهرتى فى القرن الثالث الهجرى ، وكان قد نزل مدينة تنس شمالى تاهرت على البحر المتوسط ، فقال يأسى على بعده عن مسقط رأسه حاجيا تنس ومقامه فيها<sup>(١)</sup> :

نأى النوم عنى واضمحلت عرى الصبر	وأصبحتُ عن دار الأحبّة فى أسر
وأصبحت عن تاهرت فى دار غربة	وأسلمنى مر القضاء من العذر
إلى تنس ذات النحوس فإنها	يساق إليها كل منتقص العمر
بلاد بها البرغوث يحمل راجلا	ويأوى إليها الذئب فى زمن الحر
ترى أهلها صرعى ومن أم ملذم	يروحون فى سكر ويغدون فى سكر

فالنوم بعد عن عينه لا يلم بها وفرغ منه الصبر ، حتى ليشعر كأنه فى أسر بعيد عن دار الأحبة : تاهرت ، إذ أسلمه مر القضاء إلى دار غربة إلى تنس ذات النحوس التى لا يدفع إليها إلا منتقص العمر ليشقى بما فيها من براغيث ، وإن الذئاب لتملا عرصاتها صيفا ، أما أم ملذم أى الحمى ، فكل أهلها من صرعاها ، وإنها لتخدر عقولهم وكأنهم فى سكر دائم . ولمحمد بن الحسينى الطنبى فى أحد خصومه<sup>(٢)</sup> :

(١) الأزهار الرياضية للبارونى ص ٤٧ .

(٢) الجذرة للحمينى ص ٥٠ .

ورغدي إن أردت له عقاباً      عفى عن ذنبه حسبي وديني  
يؤنّبني بغيبة مستطيلٍ      ويلقاني بصفحة مستكينٍ  
وقالوا قد هجك فقلت كلبٌ      عوى جهلاً إلى ليث العرين

وهو يقول عن خصمه إنه ردّل دنيء إن فكرت في عقابه عفا عن ذنبه شرفي وديني ، يأكل لحمه غائباً ويلقاه خاضعاً ذليلاً ، ومما مثله إلا مثل كلب يعوى إلى أسد في عرينه ومأواه . وكانت أسرة هذا الشاعر قد هاجرت إلى قرطبة في أوائل القرن الرابع ، ومنها عبد الملك الطنبلي المحدث جليس المنصور بن أبي عامر ، ويروى أن المنصور عدا على شخص يسمى الخذلي في مجلسه وضربه ضرباً موجعاً ، فقال عبد الملك متشفياً فيه وهاجياً<sup>(١)</sup> :

شكرت للعامري ما صنعا      ولم أقل للخذلي لعا  
ليث عرين عدا لعزته      مقترساً في وجاره ضبعا  
ووددت لو كنت شاهداً لهما      حتى ترى العين ذل من خضعا  
إن طال منه سجوده فلقد      طال لغير السجود ماركا

وهو يشكر العامري ولا يقول للخذلي : لعا أي أقال الله عثرتك ، ويصور العامري ليث عرين افترس ضبعاً في وجاره أو بيته ومأواه ، ويقول ليته كان حاضراً ليري ماركب الخذلي من الذل والهوان ، ويرميه بأنه كثيراً ماركع في غير الصلاة ، يريد أنه عاهر الخلوة ، وهو هجاء متذع . وكانت الجزائر وغير الجزائر من البلاد المغربية تعتنق مذهب الأشعري غالباً ، وبلغ من تغلغل عقيدته في نفوسهم أن نرى ابن مرزوق الخطيب الجزائري المتوفى سنة ١٣٧٠هـ / ١٣٧٠م يغضب حين سمع قول الزمخشري في كشافة معرضاً بأهل السنة بل هاجياً هجاء قبيحاً قائلاً :

وجماعية سماها هواهم سنة      وأراهم حمرًا لعمري موكفة  
قد شبّهوا بخلقه وتخوفوا      شنع الوردى فتستروا بالبلكفة

وهو يقول إن جماعة سميت هواها الذي تعتقه سنة ، وهم حمر ، عليها وكفها أو براذعها ، إذ شبّهوا الله بخلقه ، فقالوا إنه يرى مستترين بالبلكفة أو بقولهم إنه يرى بلا كيفية حتى ينفوا عنه التشبيه بالآدميين ، وردّ على الزمخشري كثيرون من أهل الجزائر وغيرهم ، وردّ ابن مرزوق الخطيب معنفاً له ولأصحابه من المعتزلة جميعاً قائلاً :

(١) الذخيرة لابن سبام تحقيق د.إحسان عباس ١/٥٤٣ .

وجماعة عُرِفَتْ لعمرى بالسُّنَّة  
 عدلتُ عن النهج القويم فَلَقَبْتُ  
 ضَلَّكَ وقالت لَنْ يُرَى ربُّ الوَرَى  
 وكذاك أسلمت الأمورَ لِنفسها  
 كيف السبيلُ لصرْفها عن عيِّها  
 وتمسَّكَت بضلال أهل الفلسفة  
 عدليَّةً وعدولُها عن معرفه  
 يوم الجزاء وألزمتُ نَفَى الصُّفَّة  
 هيئات تنقذ نفسها من مثْلته  
 والعدلُ يمنع صرْفها والمعرفة

وابن مرزوق الخطيب يرمى المعتزلة بالسفه ، وأنهم ضلوا ضلال الفلاسفة الملحدين إذ عدلوا عن النهج القويم وسموا أنفسهم عدلية ، لأن من مبادئهم وجوب العدل على الله جلَّ شأنه ، ويقول إنهم ضلوا حين نفوا رؤية الله يوم القيامة بينما أثبتها أهل السنة وقالوا إنها رؤية بلا كيفية . وينعى على المعتزلة قولهم بنفى الصفة عن الله وقولهم إن صفته هي عين ذاته . ويستبعد أن يستطيع المعتزلة إنقاذ أنفسهم من تلف العقيدة ويتمنى لو وجد سبيلا أو طريقا لهداهم ، ولكن كيف ذلك وهم يؤمنون بالعدل على الله وغير ذلك من مبادئهم المخالفة لمبادئ أهل السنة . ونمضى إلى العهد العثماني وتلتقى فيه بابن على المفتى الخنفي في القرن الثاني عشر الهجري ، وكان شاعرا بارعا ونراه يهجو خصومه وحساده قائلا :

نصّبو حبائل مكرهم وتعرّضوا  
 بسهامهم للنَّجْم في كيواته  
 من كل أهوج أزعج الأخلاق قد  
 أربى على فرعون مع هامانه  
 أجلافُ هذا العصر حقا لو رأوا  
 حسانَ ما جنحوا إلى إحسانه  
 إن أنكروا فضلى لخبث طباعهم  
 فالدرُّ ليس يعزُّ في أوطانه

وهو يقول إنهم نصّبوا حبالات مكرهم وأرسلوا على سهام هجائهم ولكن أتى لهم ، إنهم يحاولون أن يصيبوا نجما لا يستطيعون الوصول إليه ، نجما شديد البعد هو كيوان أو زحل وحل منهم إلا أهوج أو أحمق قد زاد على فرعون ووزيره هامان في بهتانه ، إنهم أجلاف لا يقدرون الشعر ولا الشاعر حتى لو كان حسان بن ثابت شاعر الرسول في روعة بيانه ، ويقول إنهم إن أنكروا فضلى لخبث طباعهم وضمائرهم ، فالدر لا يُعرف فضله في وطنه . وكان ولاية العثمانيين ييطشون أحيانا بالجزائريين ، وكان الشعراء يوجهون إليهم سهام هجاء كثيرة من شعرهم الفصيح والشعبي على نحو ما كان يصنع سعيد المنداسي ، وهو حري بالترجمة له مع بكر بن حماد التاهرتي الذي مر بنا ذكره .

بكر<sup>(١)</sup> بن حماد التاهرتي

تقع تاهرت مستقط رأس حماد في الجنوب الغربي من مدينة الجزائر ، ومررنا في غير هذا

والحديث لمبارك المجلد ٤٥٣/٢ . وقد جمع ديوانه وشرحه وقدم له محمد بن رمضان شارش باسم الدر الوقاتد من شعر بكر بن حماد التاهرتي .

(١) انظر في ترجمة بكر رياض النفوس للمالكي ومعالم الإيمان للديباغ ٩٢/٢ والأزهار الرياضية لسليمان الباروني ٧١/٢ وما بعدها وتاريخ الجزائر في القديم

الموضع أن عبد الرحمن بن رستم أقام بها الدولة الرستمية ، وكان يعتقد مذهب الخوارج الإباضية ، وأتته جموع الخوارج من كل مكان في المغرب . وكان أئمة هذه الدولة - على شاكلته - يفسحون لأهل السنة والمعتزلة في مدينتهم ، وفيها ولد بكر بن حماد سنة مائتين للهجرة ، وكان من قبيلة زناتة البربرية الضخمة ، ولا تعرف شيئا عن أسرته . ويبدو أن أباه لم يكن إباضيا ، وكانت بتاهرت حركة علمية خصبة بُشّتها فيها الدولة الرستمية ، ووجهه أبوه إلى العلم ، فحفظ القرآن ، وأخذ يختلف إلى حلقات العلماء وشُغف بالشعر وتفتحت ملكته مبكرة ، كما شغف بحلقات المحدثين ، ونراه يرحل في سن السابعة عشرة إلى القيروان فالبلاد الشرقية ، يأخذ الحديث واللغة ، وأوغل في رحلته حتى البصرة وفيها تتلمذ على مسدّد بن مسرهد وأخذ عنه مسنده في الحديث النبوي ، وسيعنى فيما بعد بإذاعته في الديار المغربية . وتتلمذ على شيوخ البصرة في اللغة حينذاك من أمثال ابن الأعرابي ، ودفعه طموحه إلى أن يذهب إلى بغداد ، وفيها لفت أبا تمام وغيره من شعرائها الكبار بمهارته في الشعر ، ففسحوا له في مجالسهم ، وتعرّف على دعبل هجاء الخلفاء : المعتصم العباسي وغيره ، ويبدو أن الفتى الجزائري مدح المعتصم وأجزل له في العطاء مما جعله يخاصم دعبلا ، وربما خاصمه غضبا لخليفة المسلمين ، ونراه يجرّضه على عقابه والقصاص منه قائلا :

أيهجو أمير المؤمنين ورَهطُهُ	ويَمْشِي على الأرض العريضة دِغْبِلُ
أما والذي أرسى ثبيرا مكانه	لقد كادت الدنيا لذاك تُرْزَلُ
ولكن أمير المؤمنين بفضله	يهمُّ فيعفو أو يقول فيفعل

وكأنه في الكلمة الأخيرة من أبياته يجرّض المعتصم على الفتك بدعبل ، ويقال إن أبا تمام حين سمع منه هذه الأبيات قال له : لقد قتلته يا بكر ، وكأنما أعجبتك كلمة أبي تمام - حبيب بن أوس - فألحق بالأبيات بيتين إشارة إلى كلمة أبي تمام قائلا :

وعاتبنى فيه حيبٌ وقال لي	لسانك محذور وسمك يقتلُ
وإني - وإن صرّفت في الشعر منطقي -	لأنصف فيما قلتُ فيه وأعدل

ولم يطل بيكر المقام في بغداد ، فقد عاد إلى الديار المغربية سريعا واستقر في القيروان عاصمة المغرب الأدنى ( الإقليم التونسي ) واختلف إلى حلقات شيوخين كبيرين فيها هما سحنون صاحب المدونة في فقه مالك الذي كانت شهرته تدوى في المغرب ، والثاني محدث كبير هو عون بن يوسف الخزاعي وكان قد تتلمذ لعبدالله بن وهب المحدث المصري صاحب كتاب الجامع في الحديث ، وعنه أخذه بكر بن حماد ، كما أخذ في البصرة مسند مسدّد بن مسرهد . ويبدو أنه أخذ يعنى بعد وفاة شيخه الكبيرين : عون وسحنون برواية مسند مسدّد وجامع ابن وهب وإملائهما على الطلاب في القيروان ، وقد نال في دراسته للحديث النبوي شيئا من

الشهرة في زمنه ، إذ يقال إنَّ الحافظ الأندلسي الكبير قاسم بن أصبغ ( ٢٤٤ - ٣٤٠ هـ ) حضر دروسه وأخذ عنه أحد الكتّابين المذكورين آنفاً أو هما معا .  
 وكان بكر مع تدرسه الحديث النبوي بمدح أمراء الأغالبة حكام القيروان ، ويسبغون عليه بعض عطائهم ، ويروى أنه قصد يوماً الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد ( ٢٦١ - ٢٩٠ هـ ) في قصره حاملاً إليه بعض مديحه حسب عادته ، فمنعه الحاجب وقال إن الأمير مشغول الآن بجواربه ، وأمر أن لا يصل إليه أحد ، فكتب بكر أبياتا في رقعة ، وتلطف إلى الحاجب في إيصالها إليه ، وفيها :

خُلِقن الغسائى للرجال بِلِيَّةُ      فهنَّ موالينا ونحن عبيدُها  
 إذا ما أردنا الورْدَ فى غير حِينه      أتنا به فى كل حينٍ خدودُها

وبمجرد أن قرأ الأمير الرقعة أرسل إليه بصرّة بها مائة دينار ، وإتما رويانا هذا الخبر لندل به على أن بكرا كان دائم الصلة بأمراء الأغالبة بمدحهم ويشيرونه على مديحه . وكان يزور تاهرت أحيانا للقاء أهله ومعارفه فيها ونراه بها فى عهد أميرها الرسمى الإباضى أبى حاتم يوسف بن محمد بن الأفلح ( ٢٨١ - ٢٩٤ هـ ) ويبدو أنه عاتبه على مديحه للأغالبة دون حكام بلده ، فقال له فى مدحه :

أبا حاتمٍ ما كان ما كان بِغَضَّةٍ      ولكنَّ أتتْ بعدَ الأمورِ أمورُ  
 فأكرهنى قومٌ خَشِيتُ عقابهم      فداريتهم والدائراتُ تدورُ

وكان يزور بعض الأمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى وينال جوائزهم، والمظنون أنه بأخرة من أيامه اختار المقام بتاهرت إلى أن لبيّ نداء ربه سنة ٢٩٦ للهجرة .

وديون بكر بن حماد سقط من يد الزمن غير أن الأستاذ محمد بن رمضان شاوش استطاع أن يجمع طائفة كبيرة من أشعاره تناول من أغراض الشعر العربى الهجاء والوصف والمدح والزهد مع الوعظ والاعتذار والرثاء ، وذكر فى الهجاء المقطوعة السالفة فى دعبل التى يجرى فيها الخليفة المعتصم على الفتك به. ويبدو أنه لم يكن يسلم من لسانه أحد، حتى المحدثون، إذ نراه يسلق شيخا جليلا من شيوخهم وحفاظهم هو يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣/٨٤٧ هـ قائلا :

لقد جفَّت الأَقلامُ بالخالق كلهم      فمنهم شقَى خائبٌ وسعيدُ  
 أرى الخيرَ فى الدنيا يقلُّ كثيرُهُ      وينقص نقصا والحديثُ يزيدُ  
 ولابن معينٍ فى الرجالِ مقالةٌ      سيُقالُ عنها والمليكُ شهيدُ  
 فإن يك حقا قولُهُ فهو غيبةٌ      وإن يك زورا فالقصاصُ شديدُ  
 وكل شياطين العباد ضعيفةٌ      وشيطانُ أصحاب الحديث مريدُ

وهو يقول إن أقلام القضاء أحاطت بالخلق فمنهم شقى خاسر وسعيد فائز ، وإن الخير فى الدنيا أخذ فى القلة والنقص ، والحديث فى ذلك يطول . ويتعرض ليحيى بن معين مؤسس نقد رجال الحديث مما هيا بقوة لنشوء علم الرجال أو علم الجرح والتعديل ، وهو علم محص رواية الحديث النبوى الشريف ، ونفى عنها الزيف والكذب والتدليس ، وهل من يوثق راويا للحديث يكون معتابا له أو يكون قد أولاه شرفا رفيعا ؟ ومعاذ الله أن يكون يحيى بن معين قد زور على راو صدوق للحديث تجريحا أو اتهاما بسوء ، ومعاذ الله ثانية أن يذكر بكر الشياطين وأن يلقب يحيى بأنه شيطان مريد أو خبيث للمحدثين ، نضر الله وجه يحيى بن معين وجزاه الجزاء الأوفى عن الحديث النبوى والمحدثين . وكان عمران بن حطان الخارجى قد أشاد بشقى الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على بن أبى طالب ، وفى طعته له يقول (١) :

يا ضربة من تقى ما أراد بها  
إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا  
بنى لأذكره حيناً فأحسبُه  
أوفى البرية عند الله ميزانا

وسمع - أو قرأ - البيتين بكر بن حماد السنى فاستشاط غضبا وحمية للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وعارض البيتين بقصيدة هجا فيها ابن ملجم هجاء مريرا مع بيان ما للإمام على من فضل عظيم فى الإسلام ليين مدى جنابة ابن ملجم وما ارتكب من إثم شنيع ، وفيها يقول:

قل لاین ملجم والأقدار غالبه  
هدمت - وملك - للإسلام أركاننا  
قتلت أفضل من يمشى على قدم  
وأول الناس إيماننا وإسلامنا  
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما  
سن الرسول لنا شرعا وتبينانا  
صهر النبى ومولاه وناصره  
أضحت مناقبه نورا وبرهاننا  
وكان منه - على رغم الحسود له -  
ذكرت قتله والدمع منحدر  
مكان هرون من موسى بن عمراننا  
أشقى مراد إذا عدت عشائرها  
فقلت سبحان رب الناس سبحاننا  
يا ضربة من شقى أورثته لظى  
وأخسر الناس عند الله ميزانا  
مخلدا وأتى الرحمن غضباننا

وبكر يصور فضائل الإمام على ليجسد جريمة ابن ملجم وفداحة ما اقترفه إذ هدم ركنا ضخما من أركان الإسلام ، وكان على أول الناس إيماننا وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكان صهره وسيفه المسلول على أعدائه وأعداء الدين فى جميع غزواته . ويشير إلى الحديث النبوى : « على منى بمنزلة هرون من موسى » . وإته ليذرف عليه الدمع مدرارا ، ويقول إن ابن ملجم أشقى قبيلته مراد وأخسر البرية ميزانا عند ربه ، وبالهيا ضربة أو طعنة ستصلية نار جهنم خالدا فيها مع غضب الله عليه غضبا شديدا . وواضح أنها أهجية مريرة لسنى ضد قاتل

(١) انظر كتابنا : العصر الإسلامى فى ترجمة ابن حطان ص ٣٠٧ .

الإمام علي . ولعل في كل ما أسلفت ما يصور شعر بكر بن حماد ، وهو استهلال مبكر في القرن الثالث الهجري لما ينتظر الجزائر في الشعر من مستقبل خصب .

### سعيد<sup>(١)</sup> المنداسي

هو سعيد بن عبد الله المنداسي الأصل التلمساني موطننا ومنشأ ، عاش في القرن الحادي عشر الهجري ، ولا يعرف تاريخ مولده كما لا يعرف شيء عن أسرته ونشأته ، ولا بد أن نشأ مثل لداته يعني بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه أخذ ينهل من حلقات علماء اللغة والبلاغة والأدب والعلوم الدينية . وفتحت موهبته الشعرية مبكرة واستطاع أن يجمع بين الشعر الشعبي والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من النوع الأول وشهره فيه قصيدة نبوية سماها « العقيقة » في نحو ثلاثمائة بيت . وكانت تلمسان في شبابه تغل دائما بفتن واضطرابات ضد العثمانيين وظلمهم ، وكان أهلها يثورون ضدهم ويثور معهم الشاب سعيد المنداسي ، وكثيرا ما كان يذكر ثورة التلمسانيين بشطايا من شعره الشعبي ، وأحيانا يفرع إلى سهام من الشعر الفصيح ، وخوفه كثيرون مغبة ذلك . وحدث أن أغار على تلمسان صاحب سجللماسة محمد بن الشريف رأس الدولة العلوية بالمغرب الأقصى في الخمسينيات من القرن الحادي عشر الهجري ، وأقام بها فترة قصيرة التحق فيها سعيد المنداسي بحاشيته ، وعاد معه إلى عاصمته ، ويقول صاحب الاستقصا إن المنداسي مدحه بقصائد شعبية كثيرة وإنه أغدق عليه كثيرا من نواله ، وخلفه أخوه الرشيد ، وظل سعيد يقدم إليه مدائحه الشعبية ، والرشيد يقربه ويجزل له في العطاء حتى قال صاحب الاستقصا إنه منحه خمسة وعشرين رطلا من الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه ، وتوفى وخلفه أخوه السلطان إسماعيل العلوي سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م واتسع في الاستيلاء على بلدان المغرب الأقصى وخلص كثيرا مما كان منها شمالا بيد الإسبان . وكان عهده عهد عدل وأمن ورخاء ، وشيد كثيرا من الآثار ، مما جعل سعيدا المنداسي يتغنى طويلا بمدحيه في شعره الشعبي ، وكان السلطان إسماعيل بدوره يسبق عليه كثيرا من عطاياه ، حتى يقال إنه أعطاه خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص جائزة على بعض مدائحه فيه . وقد توفى الشاعر في عهده بسجللماسة ، ويقال بل إنه عاد إلى بلده وتوفى فيها ولا يعرف تاريخ وفاته ، واستظهر بعض الباحثين أنها كانت سنة ١٠٨٨هـ/ وربما كانت بعد ذلك بسنوات معدودة .

وشعر سعيد المنداسي سواء الشعر الشعبي والشعر الفصيح يتناول المديح كما أسلفنا والغزل

(١) انظر في ترجمة سعيد المنداسي وشعره ديوانه تحقيق وتقديم الأستاذ راجع بونار ( طبع الجزائر ) .  
في مواضع مختلفة .  
وراجع ديوان المنداسي في الأدب الشعبي محمد بخوشة .

والمدائح النبوية والموعظة والوصف ، وكان يكثر من الخجاء - قبل مبارحته تلمسان - للعثمانيين ،  
ومن قوله فى وصف أهاجيه :

كأن قوافى الشعر منى جنادلُ وكفُ الزمان منجنيقُ بها يرمى

وهو يقول إنه كان يرسلها جنادل على العثمانيين وغيرهم ، واضطرته إلى مبارحة تلمسان  
خشية أن ينزل به العثمانيون عقاباً أليماً ، ومن أشد أهاجيه فيهم أهجية طويلة سماها : « الإعلام  
فيما وقع للإسلام » نظمها عقب مذبحه لحاكم تلمسان العثماني ، إذ سلط جنده على بعض  
أعلامها وعلمائها ، فسفكوا دماءهم بغيا وظلما وهدموا مبانيهم وسبوا نساءهم  
وذريتهم . وكان أحد الفقهاء المسمى ابن زاغو سوغ لهم ذلك فى فتوى جائرة ، فصب عليه  
وعلى العثمانيين فى أهجيته سياط هجائه غاضبا غاضبا شديدا ، وهو يستهلها بهجائهم بمثل  
قوله :

وأكبرُ شىءٍ أفسدته أكفهم تلمسانُ عَيْنُ الغربِ علما وإيمانا  
وكانت لهم لما أرادوا فسادها أراذلُ منهم كالبطارق أعوانا

وهو يقول إن أكبر شىء أو مدينة أفسدوها تلمسان حاضرة الدولة الزيانية أم مدائن  
الجزائر علما ودراسات دينية ، أفسدها منهم أراذل كبطارقة النصارى العتاة ، وبلتفت للفتية  
ابن زاغو الذى قدم لهم فتوى سؤلت للحاكم العثماني جريمته الآثمة فيقول :

فقل لابن زاغو للضلال أئمة تذبّر - لحاك الله - ما قال مولانا  
ولا تركنوا - والركنُ منك سجيّة - كأنك لم تسمع من الله قرآنا  
قتلت فحول العلم صبرا ولم تزل على عهدك المعلوم فى الزينغ هيمانا  
فأيمت بالفتوى نساء كريمة ويتمت بالقول المضلل ولدانا

وهو يقول إن ابن زاغو الفقيه إمام لا من أئمة التقوى بل من أئمة الضلال والفساد فى  
الأرض ، ويتجه إليه قائلا : تذبّر - فبحك الله - ما قال الله فى كتابه : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين  
ظلموا فتمسككم النار ﴾ أى لا تميلوا ، ويقول إنه دائما من المائلين إلى العثمانيين الظالمين ، وبس  
الميل لقد أفتيتهم بقتل العلماء العظام وما زلت على عهدك غارقا فى الزينغ والضلال ، لقد أيمت  
نساء وجعلتهن ثكلى فاقدات لأزواجهن الذين يعولونهن باكيات عليهم نادبات ويتمت أطفالا  
صغارا لا تخاف الله ولا تخشاه . ويصور بعد ذلك فى الأهجية سفك العثمانيين لدماء العلماء  
وما حملوا من رءوس كم باتت ساجدة لله وكم ظلت تدرس الدين وكتب التوحيد من مثل  
السوسية الكبرى سوى من قيدوهم بالأغلال وزجوا بهم فى السجون ، ويعود إلى تصوير  
فتوى ابن زاغو ويكويه بمثل قوله :

وقال اقلوا فالقتلُ يَرَدُّعُ غيرهم  
تعالوا تروا ضليلَ في زى ناسك  
وقد قدَّ ذاك الثوبُ من كل موضع  
إذا شيم منه الخيرُ فاليرق كاذبٌ  
ولا رَقَّ ذاك القلبُ منه ولا لانا  
يطولُ من ثوب الضلالة أُرْدانا  
ومرَّ بأبصار الخلائق عُرْيانا  
وإن صال منه الرعدُ يهلك بُلدانا

ويقول إنه أفتى بقتل من سفكت دماؤهم لزجر غيرهم وردعهم لا يرعى فيهم عهدا ولا ذمة ، وكأنما قسا قلبه وخلا منه كل شعور حتى غدا كالحجر الصلد أو أشد قسوة ، ويعجب أن يتظاهر بالنسك وعبادة ربه وهو يطولُ من ثوب الضلالة أُرْدانه أو أكامه ، ويقول إن هذا الثوبُ قدَّ وشقَّ ومزق حتى أصبح - رغم لبسه له - عريانا ، وحتى لورؤى منه برق خير فاليرق كاذب ، أما إذا أُرعد فهلاك للبلاد والعباد . ويهيب الشاعر بأهل تلمسان أن يثوروا بالعثمانيين ثورة عتيفة ، ويتوعد ابن زاغو بما سيلقى عند ربه قائلا :

أيا آلَ دينِ اللّٰه مالِ أراكمُ  
أما تذكرون الأهل والزمن الذي  
وهلا سألتهم عن يمامي تفرقتُ  
فقل لابن زاغو رأس كل خطيئة  
ألا إنك الدجّال للناس فتنة  
نيامًا وكان الطرفُ من قبلُ يقظانا  
عهدتم فذاك الوصلُ قد صار هجرانا  
أيادي سبّا في الغرب أنى وذكرانا  
قَلِي تحسبون الفتك بالأهل سلوانا  
تأهب لروح الله فالحينُ قد حانا

وهو يستصرخ أهل تلمسان ليهبوا من نومهم الطويل ويذودوا عن أهلهم وحريمهم الذين قتل العثمانيون أزواجهم ويتموا أبناءهم وتفرقوا في البلدان مِرْقًا أانا وذكورا ، ويقول لابن زاغو رأس هذه الخطيئة قَلِي وبغضا لك حين تتخذ الفتك بالأهل سلوانا ، إلا إنك الدجال الذي يموه الحق ويزين الباطل ويوقد الفتن ، فتأهب واستعد لإزاحة الله لك من على وجه الأرض ، فقد آن موتك ولم يعد لك مفر منه . وواضح أن سعيدًا المنداسي كان شاعرا بارعا ، ولم يكن يعيش بمعزل عن قومه ، فقد كان يشاركهم في ثوراتهم على ظلم الحكام العثمانيين في أيام شبابه ، وإن فاته أن يحمل السلاح في وجوههم فإنه لم يفته أن يجعل من أبيات شعره الفصيح والعامي سهامًا يسلطها على جباه العثمانيين ويقذفها على رؤوسهم وصدورهم محاولا - بكل جهده - أن يستثير مواطنيه من أهل تلمسان ضدهم حتى يذيقوهم نكالا ووبالا .

٥

### الشعراء والشعر التعليمي

مرَّ بنا في الجزء الخاص بالعصر العباسي الأول أن رقى الحياة العقلية فيه هيأ لاستحداث الشعر التعليمي الذي يعني بنظم التاريخ والعلوم والقصص التعليمية ، وكان من السابقين إلى

ذلك أبان بن عبد الحميد ناظم قصص كليلة ودمنة شعرا ، وله منظومات سقطت من يد الزمن في تاريخ ملوك الفرس وأيضا له منظومة في الفقه وأحكام الصلاة ، ونظم في هذا الفن التعليمي الأصمعي في الملوك والأئم البائدة كما نظم إبراهيم الفزاري منظومة طويلة في الفلك يقال إنها استوعبت عشر مجلدات .

ومنذ العصر العباسي الأول رسخ هذا الفن في الشعر العربي وأصبح أحد موضوعاته ، وقد اصطلاح أبان وأصحابه في العصر المذكور على أن يُنظَم من وزن الرجز ، لأنه من أوفر أوزان الشعر العربي أنغاما ومن أكثرها قبولا للتغير في تفاعيله ، وهو بذلك أكثرها مرونة لحمل المعارف العلمية. وأخذت الأقاليم العربية تسهم في هذا الفن كلما اتسعت فيها الحركات العلمية وكثر علماءها ، إذ يرون أن يضعوا في علومهم منظومات لمساعدة الناشئة على حفظ قواعدها .

وأقاليم عربية تسرع في هذا الصنيع ، وأقاليم أخرى تتأخر قليلا أو كثيرا ، وملتقى في القرن الخامس الهجري بابن أبي الرجال المتوفى سنة ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ م وله أرجوزة في الفلك والنجيم ، ويلقانا في القرن السابع يحيى<sup>(١)</sup> بن عبد المعطى المولود سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩ م وهو من قبيلة زواوة البجائية ، وقد نشأ في بجاية ، وأتقن فيها علم النحو كما أتقن نظم الشعر ، غير أنه اتجه به نحو التمرن على نظم بعض المعارف ، ورحل إلى دمشق وسكنها وانتفع به خلق كثير ، ورغبه السلطان الكامل الأيوبي في الانتقال إلى مصر وانتقل إليها وتصدّر لإقراء الطلاب في الجامع العتيق ( جامع عمرو بن العاص ) وكان يقرأ لهم ألفيته التي نظمها في النحو ويفسر أبياتها لهم ، ولا يعرف متى نظمها ؟ هل نظمها قبل رحيله إلى دمشق أو بعد ذلك وما زال يقرئها الطلاب المصريين حتى توفي سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣١ م وعلى غرارها نظم ابن مالك ألفيته المشهورة في النحو . ونمضى في القرن السابع وملتقى بلأبي إسحق<sup>(٢)</sup> إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري التلمساني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م وقد نظم في الفرائض ( علم الميراث ) وهو ابن عشرين سنة أرجوزة اشتهرت باسم التلمسانية ، وهي أرجوزة محكمة ضابطة لعلم الميراث عجيبة الوضع لم يصنف في فنائها مثlarla وقد طارت شهرتها في الجزائر وغير الجزائر وشرحت مرارا . ومن كثر نظمهم في الشعر التعليمي ابن<sup>(٣)</sup> مرزوق الحنيد وله ألفية في القراءات في محاذة ألفية الشاطبي : حرز الأمانى ، وأرجوزتان في علم الحديث : كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ، وأرجوزة في تلخيص كتاب المفتاح في علوم البلاغة للقرظيني ، وأرجوزة في الميقات أو الفلك

٢٧٤/١ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٩/١ .  
(٣) انظر ترجمته في البستان ٢٠١ - ٢١٤ وراجع تعريف الخلف برجال السلف للحنفاري ١٢٨/١ ونيل الابتهاج بتطريز الدياج لأحمد بابا ص ٣٠٥ .

(١) انظر ترجمته في معجم الأدباء ٣٥/٢٠ وابن خلكان ١٩٣/٦ .  
(٢) راجع ترجمته في الدياج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة) بتحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور

فى ألف وسبعمائة بيت سماها المقنع الشافى ، وله أرجوزة فى تلخيص أعمال الحساب لابن البناء ، وأرجوزة فى نظم كتاب الجمل فى المنطق للخونجى . ومن ناظمى الشعر التعليمى فى القرن التاسع بين أصحاب علوم الأوائل الحباك<sup>(١)</sup> محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وله أرجوزة فى الإسطرلاب كانت ألفية هذا العلم فى العهد العثمانى ، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وقد سماها : « بغية الطلاب فى علم الإسطرلاب » وفيها تحدث عن رسوم الإسطرلاب وأجزائه ومطالع البروج والجهات الأربع إلى غير ذلك من موضوعات علم الفلك . ومن ناظمى هذا القرن أحمد<sup>(٢)</sup> بن عبد الله الجزائرى المتوفى سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م وله منظومة فى علم التوحيد أو علم الكلام استهلها بقوله :

الحمد لله وهو الواحد الأزل سبحانه جلّ عن شبه وعن مثل

نظمها فى مقبل عمره وسماها الجزائرية وأرسلها إلى العلامة محمد السنوسى فأعجب بها وشرحها ، وقد دوّت شهرتها فى الجزائر وغير الجزائر ، وبالمثل شرح السنوسى أرجوزة فى نفس العلم لتلميذه محمد<sup>(٣)</sup> بن عبد الرحمن الحوضى، سماها واسطة السلوك افتحها بقوله :

الحمد لله الذى دلّ عليه إبداعنا ثم افتقارنا إليه  
وبعد فالتوحيد أشرف العلوم وهو أساسها الذى به تقوم

ولابن<sup>(٤)</sup> زكرى معاصرها المتوفى سنة ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م أرجوزة فى نفس الموضوع شرحها الورتلانى . وحرى بنا أن نعرف أن الجزائر وكل بلاد المغرب - كما قلنا فى غير هذا الموضوع - كانت تعتق مذهب الأشعرى فى قضايا العقيدة وعلم التوحيد . ونمضى فى القرن العاشر الهجرى وملتقى بالفقيه أحمد<sup>(٥)</sup> بن الحاج البجائى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م وقد رأى للشيخ السنوسى كتابين فى علم التوحيد باسم العقيدة الكبرى والعقيدة الصغرى ، فنظم الصغرى فى أرجوزة له ابتدأها بقوله :

الحمد لله الذى عرفنا بنفسه وبالهدى شرفنا  
وبعد فالمقصود من هذا النظام  
من غسير تبديل ولا تغيير  
نظم عقيدة السنوسى الإمام  
سوى اختلاف اللفظ والتعبير

وله منظومات فى مسائل فقهية متعددة . ولكثيرين منظومات أو أراجيز فى علوم مختلفة ، على نحو ما نرى عند عبد الرحمن الأخضرى وسنخصه بكلمة أو ترجمة ، وكثيرا ما كانوا

(٤) انظر فى ابن زكرى البستان ص ٣٨ وعند سعد الله ٨٥/١ .

(٥) راجع ابن الحاج فى البستان ص ٨ - ٢٤ .

(١) انظره فى البستان ص ٢١٩ وتاريخ الجزائر الثانى لسعد الله ١٠٩/١ وما بعدها .

(٢) راجع تعريف الخلف ٣٨/١ وسعد الله ٨٤/١ .

(٣) انظره فى البستان ص ٢٥٢ وعند سعد الله ٩٠/١ .

ينظمون في بعض مسائل العلوم الدينية واللغوية ، ولمحمد بن علي بهلول المجاجي في ألقاب الإعراب والبناء<sup>(١)</sup> :

مَنْ يَتَّبِعِ الْعِزَّ يَرْفَعَنَّ هِمَّتَهُ      بِالضَّمِّ عَنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ يَوْرَى عَجْبَا  
وَبَيْنَ عَيْنَيْهِ يَنْصَبَنَّ مَنِيَّتَهُ      بَفَتْحِ بَابِ اللَّيْثِ الْمَوْتُ قَدْ نَصَبَا  
وَيَخْفِضُ النَّفْسَ لَا يَتَّغِي لَهَا شَرْفًا      بِكَسْرِ شَهْوَتِهَا يَنْأَلُ مَا طَلَبَا  
بِذَا يَجْرُ لَهَا النَّفْعُ مَجَاهِدُهَا      فَإِنْ عَصَتْهُ رَمَى بِسَهْمِهِ عَطْبَا  
وَأَجْزَمَ عَلَى اللَّهِو نَفْسًا طَالَمَا اضْطَرَبَتْ      وَبِالسَّكُونِ يَكُونُ الْجَزْمُ خُذُّ أَدْبَا

وواضح أن ألقاب الإعراب تتوالى في الأبيات ، وهي الرفع والنصب والجر والجزم ، وبالمثل تتوالى ألقاب البناء ، وهي الضم والفتح والكسر والسكون . ونظم خليفة بن حسن القماري الأجرومية في قصيدة تسمى اللامية في نظم الأجرومية في النحو لابن آجروم الصنهاجي . وولدت بأحمد<sup>(٢)</sup> البوني المولود سنة ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٣ م والمتوفى سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٨ م وذكر له الحفناوي في تعريف الخلف برجال السلف نحو ستين منظومة نقلها عن رسالته : « التعريف بما للفقير من التأليف » منها نظم السيرة المحمدية ، وما يتعلق بالقرآن الكريم نظم غريب القرآن في تفسير ابن عباس ، ونظم غريب العزيزي للقرآن العظيم المسمى تحفة الأريب بأشرف غريب ، ونظم الخصائص الكبرى للسيوطي وأكبر الظن أنها شمائل رسول الله ، ونظم تحفة الفكر لابن حجر ، ونظم الفرائض ( علم الميراث ) في رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ونظم الوغليسية في الفقه لعبد الرحمن الوغليسي المتوفى ببجاية سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٥ م ونظم مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصري حامل لواء المذهب المالكي المتوفى سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م في عشرة آلاف بيت ، ونظم كتابه الجامع في ألف بيت ونظم الأجرومية في تسعين بيتا ، أما علم الكلام أو كما يسمى علم العقيدة في الجزائر فكاد لا يترك فيه كلاما لإمام مشرقي أو مغربي إلا نظمه ، فله نظم في عقيدة الماتريدي والطحاوي والغزالي وعبد القادر الجيلاني وابن عربي وأبي الحسن الشاذلي والعز بن عبد السلام والفتازاني والنسفي وابن الحاجب وعبد الكريم الفكون ، ونظم العقيدة الوسطى والصغرى للسنوسي وعقيدة أبي مدين ، وكاد لا يترك كلاما لإمام من الأئمة الماضين سنيين أو صوفيين إلا وضع فيه منظومة . وحرى بنا الآن أن نخص عبد الرحمن الأخضرى أحد أصحاب هذا الشعر التعليمي بكلمة .

عبد<sup>(٣)</sup> الرحمن الأخضرى

ولَّد عبد الرحمن الأخضرى في بنطوس من قرى بسكرة في الزاب حوالى سنة

(٣) راجع ترجمته عند سعد الله ٥٠٧/١ وما بعدها

ر ٤١٧ ، ١٥٩/٢ ، وما بعدها .

(١) تعريف الخلف ٤٤٨/٢ .

(٢) انظر في ترجمته تعريف الخلف برجال السلف

٥٢٢/٢ .

١٠٢٠ هـ/١٦١١ م وبها حفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه تتلمذ لشيخها ولأبيه محمد وله حاشية على مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصري في الفقه المالكي . وبعد أن أخذ كل ما عند أبيه وأقرانه من فقه ولغة ارتحل إلى قسنطينة ، فأكبَّ على حلقات شيوخها ، واستوعب كل ما أخذه عنهم من علوم أوائل وآداب تصوف وعلوم بلاغة ومنطق ، وعاد إلى موطنه يدرس لطلابه كل ما فقهه وتمثله من علوم مختلفة ، ويشيد مترجموه برسوخه في العقول والمنقول ، وظل يرمي طلابه إلى أن توفي سنة ١٠٥٣ هـ/١٦٤٣ م . وشغف بنظم العلوم ، فألّف مجموعة من المتون يتدارسها الطلاب والعلماء شرقا وغربا ، منها في الفلك منظومة السراج وقد شرحها سخون بن عثمان معاصره ، ومنها الدررة البيضاء في الحساب وعلم الفرائض وجعلها في ثلاثة أقسام : قسم خاص بالحساب ، وقسم خاص بالفرائض ( علم الميراث ) وقسم خاص بقسمة التركات . وطبعت مع شرحها في القاهرة ونُصِّ في الطبعة على أن شرح قسم الفرائض من عمل المؤلف الأخصري . وله في التصوف منظومة سماها القدسية ، وهي في آداب السلوك ونكران البدع ، وشرحها حسين الورتلاني المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وسمى شرحه الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية في شرح ألفاظ القدسية ، ونظم الأخصري تلخيص المفتاح في علوم البلاغة للقرويني وسمى منظومته الجوهر المكنون في الثلاثة فنون : المعاني والبيان والبديع ، وشرحها في القاهرة الشيخ أحمد الدمهورى في القرن الماضي .

وأهم منظومات الأخصري في العلوم منظومته في علم المنطق ، وقد سماها : « السلم المروتنق في علم المنطق » وهي أرجوزة في مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقول في آخرها أنه نظمها وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وشرحها ، وطارت شهرتها ووضعت عليها شروح كثيرة ، ويستهلها بقوله :

الحمد لله الذي قد أخرجنا	نتائج الفكر لأرباب الحججا
وحطَّ عنهم من سماء العقل	كل حجاب من سحاب الجهل
حتى بدت لهم شمس المعرفة	رأوا مخدراتها منكشفه
نحمده جلُّ على الإنعام	بنعمة الإيمان والإسلام
من خصَّنا بخيرٍ من قد أرسلنا	وخيرٍ من حاز المقامات العُلا
محمدٌ سيّدُ كلِّ متنفّي	العربي الماشمي المصطفى

وقد بدأ أرجوزته بالحمد لله والثناء عليه . والحجا : العقل ، وفي البيت الأول براعة استهلال إذ أشار بنتائج الفكر لأرباب العقل إلى موضوع الأرجوزة وهو علم المنطق ، ومضى في البيتين الثاني والثالث يكمل معنى البيت الأول بما رفع الله من الحجاب عن قلوب أولى الألباب حتى ظهرت لهم شمس المعرفة ورأوا مخدراتها وعرائسها المستورة منكشفة . وبحمد الله

على إنعامه بنعمة الإيمان والإسلام ، وأن جعله من أمة محمد سيد المرسلين العربى القرشى المصطفى من بنى هاشم لرسالته العظمى . ويمضى فى هذه المقدمة قائلًا إن المنطق زمام للعقل كما أن النحو زمام للسان ، ويوزع الأرجوزة على فصول متوالية ، وأولها فصل عن جواز الاشتغال بالمنطق كما قال الغزالي خلافا لابن الصلاح والنواوى ، إذ به تصحح الأفكار ويهتدى فيها إلى الصواب . ويضع عنوانا : أنواع العلم الحادث أى العلم الإنسانى لا العلم الربانى وينشد :

إدراك مفرد تصورًا علمٌ      ودركٌ نسبةً بتصديقٍ وسيمٌ  
وقدمُ الأول عند الوضع      لأنه مقدمٌ بالطَّبْعِ  
والنظرى ما احتاج للتأمل      وعكسه هو الضرورى الجلى

وهو يقول إن العلم قسمان : إدراك مفرد ويسمى تصورًا كإدراكنا معنى الحيوان أو الإنسان أو الإخلاص ، وإدراك نسبة ويسمى تصديقًا مثل « العالم حادث » فنسبة الحدوث إلى العالم تصديق وإدراك العالم فى نفسه وكذلك الحدوث تصور ، فالتصور يسبق دائما التصديق على وجه الإثبات كما فى المثال السالف أو على وجه النفى كقولنا : « العالم غير حادث » . والتصديق إما جازم وهو التصديق اليقضى مثل « الشمس تطلع كل يوم » وهو حكم لا يتغير ، وإما غير جازم مثل : « السماء تمطر غدًا » وهو حكم يقارنه احتمال : ظن أو وهم . والعلم الحادث قسمان : ضرورى ونظرى ، والضرورى ما يدرك بدهشة بلا تأمل كقولنا : « الكل أعظم من الجزء » و « الواحد نصف الاثنين » والنظرى ما يحتاج إلى نظر واستدلال كقولنا : « الأرض كروية » و « الصبر مفتاح الفرج » . ويجمل الأخرى الدلالة الوضعية أو اللفظية بقوله :

دلالة اللفظ على ما واقفه      يدعونها دلالة المطابقيه  
وجزئيه تضمننا وما لسزم      فهو التزامٌ إن بعقلٍ التزم

وهو يقول إن الدلالة إما دلالة مطابقة كدلالة الحيوان المنفرد على الأسد . وإما دلالة جزئية أى دلالة الجزء فى ضمن الكل كدلالة الأسد على الحيوان لأنه من أفرادهِ . وإما دلالة التزام كدلالة العمى على البصر ودلالة الدخان على النار . ويوجز بيان الكل والكلية والجزء والجزئية فى فصل على هذا النمط :

الكلُّ حكمنا على المجموع      ككل ذلك ليس ذا وقوع  
وحيثما لكل فردٍ حكمًا      فإنه كلياتٌ قد علمنا  
والحكم للبعض هو الجزئيه      والجزء معرفته جليّه

وهو يذكر أن الكل هو المجموع المحكوم عليه كقولك « طلاب الجامعة مجتهدون ،

ففيهم من ليس مجتهدا ، والكلية الحكم الشامل لكل فرد في المجموع كقولك : « كل إنسان قليل للعمل » . والجزئية الحكم على بعض الأفراد كقولك : « بعض طلاب الجامعة مجتهدون » والجزء ما تركب منه ومن غيره كالسماز والخيط للخصير والمبتدأ والخبر للجملة الاسمية . ويعقد فصلا للتعريفات والحدود قائلا :

معرّفٌ إلى ثلاثة قسِمٍ	حدٌّ ورسمٌ ولفظٌ عُلِمَ
فالحدُّ بالجنسِ وفَصْلٌ وقعا	والرسم بالجنسِ وخاصةً معا
وناقص الحدُّ بفصلٍ أو معا	جنسٌ يعيد لأقربٍ وقعا
وناقص الرسمِ بخاصةٍ فقط	أو مع جنسٍ أُعيدن قد ارتبط
وما بلفظٌ لديهم شهرا	تبديل لفظ بريدفٍ أشهراً

والأخضري يقول إن التعريفات خمسة أقسام : حدٌّ تام وهو التعريف بالجنس والفصل وهو الصفة الملازمة التي لا يشترك فيها أحد مع المعرف مثل : « الإنسان حيوان ناطق » أى ذو عقل مفكر . والحد الناقص هو التعريف بالفصل وحده مثل ناطق أو بالفصل مع الجنس البعيد مثل : « الإنسان جسم ناطق » . والرسم التام التعريف بالجنس والقريب والخاصة وهى صفة غالبية غير ملازمة وقد تكون مشتركة كتعريف الإنسان بأنه حيوان ضاحك لأن من النسائيس والقردة ما قد يضحك . والرسم الناقص إما بالخاصة فقط مثل ضاحك أو مع جنس بعيد مثل الإنسان جسم ضاحك . والتعريف اللفظى أو باللفظ التعريف بالمرادف الأشهر مثل تعريف الغنضنفر بأنه الأسد . وواضح مدى إحكام عبد الرحمن الأخضري للتعبير عن مسائل علم المنطق وقواعده بمتتهى الرضوح ومنتتهى الدقة فى الإيجاز والاختصار . وهو - بحق - يعد فى طليعة المجيدين لنظم العلوم لافى الجزائر وحدها بل فى العالم العربى جميعه . وقد أكتب كثيرين على شرح هذا المتن البديع فى علم المنطق فشرحه سعيد قدورة فى الجزائر وشرحه فى مصر الملوى شرحين كبيراً وصغيراً ووضع عليه حاشية الشيخ إبراهيم الباجورى سنة ١٢٢٦ هـ/١٨١٦ م وطبعت مع تقرير عليها للشيخ محمد الإنابى سنة ١٢٩٧ هـ/١٨٨٠ م . وشرحه الشيخ أحمد الدمهورى وطبع شرحه مع شرح الناظم الأخضرى سنة ١٣١٤ هـ/١٨٩٧ م وهى صورة من التواصل العلمى بين مصر والجزائر . ومرّبنا أن الجزائر ظلت تعنى طويلا بكتابات ابن الحاجب وخبيل بن إسحاق المصريين فى الفقه المالكى .

## الفصل الخامس طوائف من الشعراء

١

### شعراء الغزل

يُعَدُّ الغزل من أهم الموضوعات التي شغلت شعراء العرب من الجاهلية إلى العصر الحديث ، فمن قديم يتغنون بعاطفة الحب الخالدة ، ويصورون مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء المرأة وما يكون بينهم وبينها من لقاء ووداع ووصال وهجران ، وهم تارة سعداء بوصولها وتارة أشقياء يشكون الهجران والحرمان ، ويتمنون ولو نظرة من بعيد ، وكأنها الفردوس الذي حرموا منه ، وهم يألمون لذلك أشد الألم مع الإكثار من الاستعطاف . والغزل من قديم نوعان : نوع مادي يعنى فيه الشاعر بتصوير المرأة تصويرا حسيًا صادرا فيه عن الغريزة النوعية وما تتطلب من المتاع المادي ، ونوع عذرى طاهر يتسامى فيه الشاعر إلى بث الوجد الذي يَصُلِّي بناره في دخائله وبلوغاته لوعات لا تنتهى ، وهو يتغنى فيه بمحبوبته ظامنا إلى رؤيتها ظمًا متصلًا متضرعا ، وكأنها ملاك من عالم غير عالمه ، ودائما ييكنى بدموع غزار . وهذا النوع الثانى من الغزل القائم على الحرمان وعلى السمو فى الحب هو الغالب على غزل شعراء الجزائر ، وما من شاعر جزائرى مشهور إلا نجد عنده من هذا الغزل إشعاعات كتقول عبد الكريم النهشلى<sup>(١)</sup> :

يشكو هواك إلى الدموع متيمٌ      لم يبق فيه للعزاء نيسيسُ  
لولا الدموع تحرقت من شوقه      يوم الوداع قبابكم والعيسُ

وهو يقول إنه ودع صاحبه ولم يعد يستطيع أن يقدم شكواه إلا دموعه ، وقد أضناه الحب ، ولم يعد فيه إلا نيسيس أو بقية من الروح ، ولولا الدموع وطوفانها لتحرقت بنار حبه قبابها وخيامها وهوادجها والعيس أو الإبل الطاعنة عليها . والتفت ذات يوم إلى شجرة فرأى عليها حرائم وسمعها تترنم وتروح ، فتأثر وأتشد<sup>(٢)</sup> :

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(١) نموذج الزمان لابن رشيق ص ١٧٦ .

أواجدةٌ وجدى حمائمُ أَيْكَة      تميل بها مِيلَ التَّزْيِفِ غصُونُها  
 نشاوى وما مالتْ بِخَمْرِ رِقَابِها      بسواكِ وما فاضتْ بدمعِ عِيُونِها  
 أعيدي حمائمَ اللّوى إن عندنا      لشجوك أمثالا يعود حينها<sup>(١)</sup>

ويتساءل النهشلي أهذه الحمام تداخلها مواجد مثل مواجده ، وإن غصون الأيكة لتمايل بها ميل التزييف أو السكران المتشى ، وإن الحمام نفسها لشاوى سكارى وما شربت خمرا ، وإتها لبواك تثير الشجون وما بكت عيونها ، وإنه ليلتمس منها أن تعيد بكاءها ونواحها فإنها تثير فيه نفس الشجو وما يعتاده من الحنين والشوق . وتلتقى بابتن قاضى ميلة وقصيدته الفائية التى نوه بها ابن خلكان التى مدح بها ثقة الدولة أمير صقيلة ، وقد استهلها بغزل جوارى على طريقة عمر بن أبى ربيعة أبداع فيه كل الإبداع ، وتقتطف منه الأبيات التالية<sup>(٢)</sup> :

ولما التقينا محرمين وسيرنا      بلبيك ربنا والركائبُ تصف<sup>(٣)</sup>  
 نظرتُ إليها والمطى كأنما      غواربها منها معاطسُ رُعت<sup>(٤)</sup>  
 فقلتُ أما منكن من يعرفُ الفتى      فقد رابنتى من طول ما يتشوف<sup>(٥)</sup>  
 أراه إذا سيرنا يسيرُ جذائنا      ونوقفُ أخفافِ المطى فيوقف<sup>(٦)</sup>  
 فقلت لتريئها أبلغاها بآنى      بها مستهامٌ قالتا نلتطف<sup>(٧)</sup>  
 وقولا لها يا أم عمرو أليس ذا      منى والمنى فى خيفه ليس تخلف<sup>(٨)</sup>  
 وفى عرفاتٍ ما يخبرُ أنى      بعارفةٍ من عطف قلبك أتعف<sup>(٩)</sup>  
 فأوصلتنا ما قلته فتيسمت      وقالت: أحاديث العيافة زُخرف<sup>(١٠)</sup>  
 وقد أئذر الإحرامُ أن وصلنا      حرامٌ وإننا عن مزارك نصدف<sup>(١١)</sup>

وابن قاضى ميلة يذكر التقاءه بصاحبه وهما محرمان يليان ربهما قائلين ليك اللهم ليك ، وكل منهما يركب مطية مجهدة كبقية مطايا الحج والعرق يسيل منها مدرارا ، وهو ما يزال ينظر إلى صاحبه ، سائرا بجوارها ، وكلما توقفت مطاياها وصحبها توقف ، فقال لصاحبتها وقد دنا منها أبلغاها بآنى هائم بها ، وقولا لها إتنا سننزل منى ، وينبغى أن تحقق لى فى خيف

(١) اللوى : ما التوى من الرمل أو منقطه .  
 (٢) انظر فى القصيدة ابن خلكان ١٥٩/٦ والأنموذج ص ٢١١ والذخيرة ، القسم الرابع ص ٥٣٣ .  
 (٣) الركائب جمع ركوبة من الدواب والإبل . تصف : تسير فى الطريق على غير هدى .  
 (٤) معاطس جمع معطس : الأنف . رُعت جمع راعف : تسيل . الغارب فى البعير : ما بين السنام والعتق .  
 (٥) يتشوف : يشرف وينظر .  
 (٦) أخفاف : جمع خف وهو للبعير كالحافر للفرس .  
 (٧) لتريئها : المماثلين لها فى السن . مستهام : هائم أى مشغوف حيا .  
 (٨) منى بكسر الميم : ينزل بها الحاج فى أيام التشريق . خيف منى : منحدرها .  
 (٩) عارفة : الجميل والإحسان . عرفات : جبل به موضع وقوف الحاج .  
 (١٠) العيافة هنا : التفاؤل .  
 (١١) نصدف : نعرض ونميل .

منى اللقاء ، وسنقف بعدها فى عرفات ، فهل تجود على بملاقاة ، وحدناها عنه فابتسمت  
وقالت تلك أحاديث عيافة وكهانة وتفاؤل مزخرف . وإنا محرمان والإحرام يحرم وصالنا ،  
وإنى لصادفة عنه مزورة ، ولن ألقاه ، وتمضى قائلة إن قذفنا للجمرات ليخبرك بأن كلامنا  
سيقذفه البعد والنوى إلى ديار متباعدة . ويسوق الغبريني فى كتابه « عنوان الدراية » غزليات  
طريفة لشعراء بجاية ، منها قول<sup>(١)</sup> محمد بن يحيى بن عبد السلام :

ألا بأبى من لا أرى فى المورى سوى	محيّاه شمساً أو سنّاً تُغره برّقا ،
ولا خمر إلا من لَمَاهِ ولحظه	ولا غُصْنَ إلا القُدْ لا ما ارتقت ورّقا ،
لئن لدغت قلبى عقاربُ صُدْغِهِ	فريقته الترياقُ لى وبها أرقى
تعلمت من عينيه عشقى لحسنه	فَلَلِه الحَاظُ تعلمنى العشقَا
ولو أن هاروتاً رأى سحرَّ طرفه	أقرُّ بأن السحر من لحظه اشتقا
فيا طامعاً فى الوصل منه تسلّ هل	سمعت بأشراكِ تُصاد بها العنقا

وهو ينوه فى أول الأبيات بجمال صاحبه التى يرى وجهها شمساً وضوء ثغرها برقا ،  
ولا خمر مسكرة إلا من سمة شفيتها ولحظ عينها . ولاحسن غصن الإرشاقه قذها  
لا ما ارتقت الورقاء من قدود الأغصان الجميلة . ويقول لئن لدغت عقارب شعرها الملتوى  
على صدغها فإن ريقها الترياق والبلسم الذى يُرقى به لشفاؤه ، ويذكر أن جمال عينها هو  
الذى ألقى فى فؤاده عشقها ، وما أبدعه ، فلو أن هاروت الساحر المذكور فى القرآن الكريم  
رأى سحر عينها لأقر بأن السحر مشتق منه . ثم يُلقى اليأس فى قلوب من يطعمون فى  
وصلها ، فيقول هل يمكن لأحد أن يصيد العنقاء الطائر الخرافى بشباكه وأشراكه . وكان  
يعاصر هذا الشاعر فى بجاية محمد بن أحمد الأريسي وله غزليات رقيقة ، وسترجم له عما قليل .

ونَهضت الدولة الزيانية : دولة بنى عبد الواد بالأدب شعرا ونثرا وسرعان ما أنتجت النهضة  
الأدبية فى زمنها شاعرا كبيرا هو ابن خميس وله غزليات رقيقة بديعة كثيرة ، من ذلك قوله<sup>(٢)</sup> :

نظرت إليك بمثل غينى جُوذِرِ	وتبسمت عن مثل سيمطى جَوْهَرِ <sup>(٣)</sup>
عن ناصع كالدر أو كالبرق أو	كالطلع أو كالأمحوان مؤشّر <sup>(٤)</sup>
تجرى عليه من لَمَاهَا نُظْفَةٌ	بل خمره لكنها لم تُعَصّر <sup>(٥)</sup>

والغلاة .

(٤) مؤشّر : مفلج .

(٥) اللمى : الشفتان . نطفة : ماء صاف .

(١) عنوان الدراية للغبريني ص ٣٤٢ .

(٢) الديوان ص ١١٠ وانظر بغية الرواد ليحيى بن  
خلدون ص ١١١ .

(٣) الجوذِر : ولد البقرة الوحشية . السط : المقعد

لو لم يكن خمرا سَلافاً ريفها  
وكذاك ساجي جَفَنها لو لم يكن  
لو عُجَتَ طَرْفَكَ في حديقة حَدِّها  
لرَتَعَتَ من ذاك الحِمَى في جِنَّةِ  
تُزرى وتلعب بالنُهَى لم تُحْظَرِ<sup>(١)</sup>  
فيه مهتدٌ لَحْظِها لم يُحْذَرِ<sup>(٢)</sup>  
وأمنتَ سطوةً صُدِّعها المَتَمَّرِ<sup>(٣)</sup>  
وكرعتَ من ذاك اللما في كَرْتَرِ<sup>(٤)</sup>

وابن خميس يشبهه عيني صاحبه بعيني جوذر وأسنانها في ثغرها بعقدي جوهر ويقول إنه ثغر ناصع البياض كالدرُّ أى اللؤلؤ أو كضوء البرق أو كطلع النخل أو كزهرة الأقحوان الأبيض المفلج الأوراق كأسنان هذا الثغر المفلجة ، وهو ثغر يجرى عليه من شفتي صاحبه نقطة ( قطرات ) سائغة من الريق بل خمرة ، وإن لم يعصرها خمارة ،.. خمرة تلعب بالعقول ، غير محرمة ، ولو لم يكن فى فاتر جَفَنها سيف لحظها يحميها ما حُذرت ، ولو أُتيح لك أن تعطف طرفك فى حدها وجماله المتنوع ، وكأنه حديقة باهرة ، وأمنت بطش عقرب صدغها المتتمر لنعمت بجنة رائعة ، ونهلت من لماها أو شفتيها من الكوثر نهر الفردوس . ويمضى ابن خميس فى هذا الغزل قائلا :

طرفتك وهنا والنجوم كأنها  
بيضا إذا اعتكرت ذوائبُ شعرها  
طرحت غلالتها فقلت سبيكة  
منحتك ما منعتك يقظانا فلم  
هاجت بلابل نازح عن إلفه  
حَصْبَاءُ ذُرٌّ فى بساطٍ أَخْضَرِ<sup>(٥)</sup>  
سَقَرَتُ فَأُزِرْتُ بالصباح المسْفِرِ<sup>(٦)</sup>  
من فضةٍ أو دميةٍ من مَرْمَرِ<sup>(٧)</sup>  
تُخلف مواعدها ولم تتغير  
متشوقٍ ذاكى الحشا متسعر<sup>(٨)</sup>

وهو يقول إن صاحبه طرفته أو زارته فى منتصف الليل والسماء تنتثر لآلىء نجومها فى بساطها الأخضر ، ويقول إنها إذا أَحَسَّتْ بكثافة شعرها وكشفت عن وجهها أوزت بالصباح المضىء الجميل ، أما إذا خلعت غلالتها فإنها تبدو كأنها سبيكة من فضةٍ أو دمية من مرمر ، ويقول إنه لم ير شيئا منها يقظان وإنما ذلك حلم رآه فهاج شجون مغترب عن إلفه متشوق تتقد أحشاؤه وتشتعل حبا وهياما . ولابن خميس غزل كثير فى مطالع مدائحه يصف فيه لوعات حبه وما تكن ضلوعه من مواجهه ، وقد يحمله غزلا صوفيا بديعا . ولمحمد<sup>(٩)</sup> بن عمر المليكى البجائى المنتسب إلى مدينة الجزائر والمتولى خطة الإنشاء بتونس والمتوفى بها سنة ٧٤٠ للهجرة قوله :

- (١) سلافا : خمرا خالصة . تحظر : تحرم .  
(٢) ساجى : فاتر . المهند : السيف .  
(٣) عجت : عطقت .  
(٤) رتعت : نعمت . كرتت : نهلت .  
(٥) وهنا : نحو نصف الليل .  
(٦) اعتكرت : تكاثرت . ذوائب : صفائر . سفرت :  
كشفت وجهها .  
(٧) الغلالة : ثوب رقيق .  
(٨) بلابل : هموم وشجون . متسعر : متقد .  
(٩) تعريف الخلف برجال السلف ١٧٦/١ .

فلا توقفني موقف الذل والشكوى  
كفاه الذي يلقاه من شدة البلوى  
ولا يك هذا آخر العهد بالنجوى  
إلى عاشق ما يستغني من البلوى<sup>(١)</sup>  
فما حن مسراها على ولا ألوى<sup>(٢)</sup>  
ويأنجد حتى أنت تهوى الذي أهوى  
ولكن على فقد الأحبة لا يقوى

رضا نلت ما ترضين من كل ما يهوى  
وصفحاً عن الجاني المسيء لنفسه  
قضى أتشككي لوعة اليبين ساعة  
قضى ساعة في عرصة الدار وانظري  
وكم قد سألت الريح شوقاً إليكم  
فيا ربح حتى أنت ممن يغار بي  
خلقت ول قلب جليد على النوى

وهو يلتمس رضا صاحبه وأن لا تقفه شاكيا من حبه متذللاً ، وأن تصفح عما قد تظن من تجنيه فكفاه ما يلقي من محنة الحب ، ويسألها أن تقف ليشكو لها لوعة اليبين والبعد ساعة أو بعض ساعة أملاً أن لا يكون هذا آخر العهد بلقائها ونجواها ، بل إنه يسألها أن تقف لحظة في ساحة الدار وتتنظر إلى ما اعتراه في محنة الحب وبلواه ، ويقول إنه ليسأل الريح المقبل من دارها عنها فلا تحن عليه ولا تعطف ، فحتى الريح تغار منه ، ويخال كأنها أخت ليلي معشوقة المجنون ساكنة نجد ، وحتى نجد تهواها وتهيم بها ، ويقول إن قلبه يتحمل النوى والفرق ، ولكنه لا يتحمل فقد الأحبة . وكان يعاصره بتلمسان أبو عبد الله محمد بن البناء ويقول يحيى بن خلدون عنه إنه « كاتب شاعر متخلق ظريف » وينشد من غزله<sup>(٣)</sup> :

ياليلة جمعت شملى بها عودي<sup>(٤)</sup>  
علقتة بدرتم فوق أملود<sup>(٥)</sup>  
وللجمال شفيع غير مردود  
يحميه بالبيض من أجفانه السود<sup>(٦)</sup>  
هذى المدامة من تلك العناقيد<sup>(٧)</sup>

عيدٌ وغيدٌ وعودٌ وابنة العود  
وشادنٍ حين الأعطاف من ترفي  
يَجْنِي فتمحو جنياه محاسنه  
لما سألتاه عن خمير بريقته  
وسألنيهِ وصدغيه فقال لنا

وهو يذكر ليلة عيد اجتمع له فيها فتيات حسان والعود يترنم وابنة العود يريد الخمر بنت شجرة العنب وقتاة جميلة ناعمة الأعطاف تعيش في ترف ونعيم شغف بها ويقدها الرشيق وكأنها بدر فوق غصن ناعم ، وكم جنت عليه ومحاسنها تشفع لجناياتها شفاعاً لا ترد ، ويتمنى لو ارتشف من خمير ريقها ولا يستطيع إذ تحميه سيوف مسلولة من أجفانها السود وعقري

(٥) شادن: ولد الطيبة. حنث: لين وناعم. الأعطاف: الجواب. بدرتم: بدر كامل. أملود: غصن ناعم لين .  
(٦) البيض : السيوف .  
(٧) السالف والسالفة : صفحة الجيد وجانبه .

(١) عرصة الدار : ساحتها .  
(٢) ألوى : عطف .  
(٣) بنية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٤ .  
(٤) عيد جمع غادة : الفناة الناعمة .

صدغيها وضحى جيدها الجميلتين ، ويقول إنهم لما سألوها عن خمر ريقها قالت لهم مدلة  
 إن هذى المدامة من تلك العناقيد . وينشد يحيى بن خلدون: للشاعر موشحة محكمة الصنعة  
 مثل مقطوعته السالفة وفيها يقول :

بدرٌ أزراره تبدت فلكا	قلبي ملكا
عيناه مع الهوى دمي سفكا	فيه اشتركا
قد أشبهت المها لحظا فتكا	والخال حكى
مسكا مستمسكا على سوسان	غَضٌ عَيْتِي <sup>(١)</sup>
يُهْدَى كنسيم جنة الرضوان	للمتَشِيقِ

هو يقول كأنها بدر وأزرارها الفلك ملكت قلبه واشتركت عينها مع الهوى في سفك  
 دمه وقد أشبه لحظها الفاتك لحظ البقر الوحشى حسنا وجمالا ، وحكى الخال مسكا على  
 سوسان أبيض غَضٌ عَطِرٌ ، يُهْدَى كنسيم الفردوس الذكى للمتَشِيقِ . وللشهاب بن الخلوف  
 غزليات كثيرة وهى تشغل فى ديوانه نحو مائة وعشرين صفحة سوى ما يودعه مقدمات  
 مدائحه من غزل رقيق ، ومن طريف غزله قوله<sup>(٢)</sup> :

إذا القمرى غرد فى الغصونِ	أعانَ المستهَامَ على الشُّجونِ
وإن ناعَ الحمامُ بكيتُ وجداً	بُمزِنَ سحائبِ الدَّمعِ الهَتُونِ <sup>(٣)</sup>
وتاك اللهُ هسل أبصرتَ صبأ	حزينَ القلبِ مقروحِ الجفونِ
تطارحه الصبابة بالتصاي	وتُسلمه الأمانى للمَنُونِ <sup>(٤)</sup>
ينوحُ على الديار وساكنيها	إذا ما النوقُ سارت بالظعونِ
ويكتم فى حشاه الوجذ سراً	فتظهره المدامعُ فى العيونِ

وهو يقول إن قمرى الحمام يترنم فى الغصون بتغاريده يثير الشجون فى قلوب المحبين ،  
 وحين ينوح الحمام يكي وجدا ويذرف الدموع مدرارا . ويدعو لمخاطبه أن يقيه الله من الحب  
 وأوصابه ، ويسأله أرايت مغرما حزين القلب قرع الجفون من كثرة البكاء ، يمينه الشوق أن  
 سيُضَي صاحبته ، وما يزال يتمنى ذلك حتى الموت . وترحل صاحبته مع أهلها وتسير النوق  
 بالظعون أو الهوادج ، ويكتم نار وجده وجهه فى صدره وأحشائه ، وتعلن سره دموعه المنهلة  
 الغزيرة . ونمضى إلى العهد العثماني ومن نقرأ له غزلا طريفا فيه محمد القوجيلى من مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

(١) غَضٌ : حديث . عتي : عطر .

(٢) الديوان ص ٣٥٧ .

(٣) غَضٌ : حديث . عتي : عطر .

(٤) الديوان ص ٣٥٧ .

(٥) مزن جمع مزنة : مطرة . الخنون : الغزير .

الحبُّ صعبٌ والرقيبُ أعانهُ  
والحبُّ يستدعى القلوبَ إلى الهوى  
وبجسمي المصنئ فتاةً غازلتُ  
خرجتُ مع الأتراب بين أزهري  
والدمعُ باحٌ بدأ الهوى وأباتهُ  
فتجيبهُ منقاداً ولهُانهُ  
قلوبَ الكميّب بأعينٍ فتانهُ  
فكأنها بدرٌ تكلّلُ بأنهُ<sup>(١)</sup>

وهو يقول إن الحب صعب والرقيب يعين جذوته اشتعالا ، وهو لا يخفى فالدمع دائما يروح به ويعلته إعلانا ، ويذكر أن الحب يستدعى القلوب إلى العشق فتلبيه خاضعة ولهانة وقد غازلته فتاة جميلة أضعته وشغفته حبا بسحر عيونها حين رآها مع أترابها الفاتنات وكأنما وجهها بدر يتوج قامتها الرشيقة . ولسعيد المنداسي معاصره قصيدة نبوية يستهلها بغزل وبطيل فيه طولا شديدا . وهي منسوبة في كتاب تعريف الخلف برجال السلف لمحمد بن عبد الرحمن الحوضي وبالمثل في تاريخ الجزائر الثقافي والغالب أنها للمنداسي لوجودها في ديوانه، وفيها يقول<sup>(٢)</sup>:

أزادُ المزنِ من عيني نزلُ  
أبعيني ديمةً وكافةً  
دغ - عدولي - اللوم إني شائق  
ما الهوى إلا عذابٌ للفتى  
لا تلمني دون علم - عاذلي -  
كم دموع من عيوني انهمرت  
مذ دعاني البين والدمع على  
أم دموعُ الشوق إذ رَقَّ الغزل<sup>(٣)</sup>  
أم شعيبُ للنوى منها أنزل<sup>(٤)</sup>  
رقّ طبعي حين صنعي في الأزل<sup>(٥)</sup>  
أو يخفى إن بقلب المرء حلّ  
فيسمعي صمم عم من عاذل  
لعيون من عذاب لا تملّ  
صحن خدّي وإبل يهجي وظلّ

ويستمر هذا الغزل إلى نحو ستين بيتا كلها بهذه الموسيقى العذبة وهذه اللغة المتخبة الصافية ، والشاعر يتساءل عن الدموع المنهمرة من عينيه أهي قطرات سحاب هاطل أم دموع شوقه تتقاطر متواليه ، وهل حقا بعينه سحابة سائلة أو مسيل للنوى انشق ، ويقول لعاذله لا تلمني فإني رقيق الطبع منذ صنعي في الأزل ، وهل الهوى والحب إلا ألم للفتى وعذاب متصل إن حل بقلب لا يخفى ، فلا تكرر عليّ لومك دون علم بحقيقة الحب ، فبأذني وقرّ لا أسمعك ، وكأنما تخاطب حجرا أصم ، وكم أسراب دموع سالت من عيوني وضاحتي لا تمل هذا

(١) البانة : مفرد البان وهو شجر لين القوام كالصفصاف تشبه به الجميلات في الطول واللين .

(٢) الديوان الشعبي للمنداسي نشر محمد نجوشه ص ٨٣ . رديوانه الفصيح تحقيق رابع بونار ص ٣١ .

(٣) رذاذ : قطرات .

(٤) ديمة : مطر . وكافة : سائلة . شعيب : مسيل .

انزل : انشق .

(٥) الأزل : القدم ، أول الزمان .

العذاب . ومدّ دعاه الفراق والدمع يجرى على خديه وكأنه مطر منصبٌ وظلّ ماينى يتقاطر ويتساقط . ومن أهم شعراء الغزل في الجزائر الأريسي وابن علي وحرى أن نخصّ كلا منهما بترجمة مفردة .

### محمد<sup>(١)</sup> بن أحمد الأريسي

من شعراء بجاية في القرن السابع الهجري ، ولا نعرف شيئاً عن تاريخ مولده ولا عن نشأته وتعلمه ، غير أنه من بيت علم وفقه فقد كان جده الأريسي فقيهاً ببجاية وكان اعتماد قاضيها أبي محمد بن حجاج المتوفى بعد سنة ٦٤٠ للهجرة عليه وعلى الفقيه أبي علي بن عزون وبينهما كان جلوسه إذ كانا المشاورين له . وعكف الحفيد في كتاب على حفظ القرآن ثم أخذ ينهل من حلقات الشيوخ في موطنه دارساً عليهم الفقه حتى برع فيه ، وبالمثل درس عليهم الأدب . وتفتحت موهبته مبكرة في الشعر والنثر ، مما سلكه بين الكتاب ، ولمع اسمه بينهم حتى أصبح رئيس كتبة الديوان ببجاية ، وكما كان يتقن الكتابة والنثر كان يتقن الشعر ، وكان يسلك فيه طريقة المتنبي بينما كان صاحبه أبو عبدالله محمد بن الحسن التميمي القلعي يسلك طريقة أبي تمام ، كما يقول الغبريني ، وكانا يتراسلان بالأشعار وكل منهما يجاوب صاحبه على طريقته ، ويقول الغبريني عن الأريسي : « كان سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه من غير تكلف .. وله شعر كثير في كل فن من فنون الشعر » وأنشد له الغبريني مطلع مدحة وقصيدتين غزليتين ، وفي المطلع يقول :

ونادى خطيبُ الورق يدعو هديله	وغنّي فأغنى عن ضروب التلاحين <sup>(٢)</sup>
وذكر أيام الصبابة والصبا	ولذة عيش كان لي غير ممنون <sup>(٣)</sup>
فيا ساكني نجد أطرقُ حيكم	وأرجع مغلوبا بصفقة مغبون
ويا ساكني الجرعاء إن كان عندكم	نصيب من الصبر الجميل فواسوني <sup>(٤)</sup>
تركت فوداي عند خيمة زينب	وما سحرُ عينها على بمأمون
أغارت عليه حين لم يلف ناصرًا	وأغرته بي حتى تعلم يجفوني

فخطيب الحمام دعا الهديل ليتغنى بصوته الجميل فتأثر به الشاعر وذكره أيام الصبا والحب ولذة عيش هنئ متصل ، وثار منه كمين الوجد ، فنادى أهل صاحبه من ساكني نجد متذللاً ، أيطرق حيهم ويرجع مغلوباً مغبوتاً ، وبالمثل نادى ساكني حيها في الجرعاء بنجد هل عندهم

(٢) الورق جمع أوزق ووزقاء : الحمام . هديله : قرينه من الحمام .  
(٣) ممنون : منقطع .  
(٤) الجرعاء : من مواضع نجد .

(١) انظر في محمد الأريسي ترجمته في عنوان الدراية ص ٣٣٧ وترجمة جده ص ٢٤٩ وترجمة أبي عبدالله محمد بن الحسن التميمي في ص ٧٢ وراجع في الشاعر تعريف الخلف ٣٥٦/٢ .

له نصيب من الصبر يواسونه به ، ويقول إن فؤاده تخلف عنه عند خيمة زينب الساحرة العينين ، وقد أغارت عليه ولا ناصر له ، وأغرته به حتى جفاه وأبى الرحيل معه . ويقول الأريسي في قصيدته الغزلية الأولى :

لعلك بعد الهجرِ تسمَحُ يا بدْرُ  
أبيتُ كما ترضى الكآبةَ والأسى  
إذا قنطتُ نفسي ينادى بها الرجا  
ولا أنسَ يوماً للسرورِ ويئسنا  
ورالله ما أدرى لطيبِ حديثها  
خليلي قولاً إن بدا لكم الحمى  
على مَ تناسيتم حديث عهدكم

بوصلٍ فقد أودى بمهجتي الهجر<sup>(١)</sup>  
وأضحى كما تهوى الصباةَ والفكرُ  
رويدك كم عُسرٍ على إثره يُسر<sup>(٢)</sup>  
عتابٌ كبرد الماء لكنه الجمرُ  
أضمن سحراً لفظها أم هو السحرُ  
أهليل الحمى مشغوفكم مسه الضرُ  
وليس له ذنبٌ وليس لكم عُذرُ

والأريسي يتذلل لمحبوته أن تسمح له بالوصل فقد كادت مهجته أو روحه أن تزهد وإنه ليبست كهيلاً محزونا ويضحى مفكراً مهموماً ، وينادى الرجاء عليه لا بد بعد العسر من اليسر . ولا ينسى يوم لقاء مع صاحبه كان يوم سرور لا حد له ، مع ما شابه من شظايا عتاب كالجمر أو أشد ، ومع ذلك لا يدري لجمال حديثها أضمن سحراً أو هو السحر نفسه ، وينادى صاحبه إن ألماً بالحمى أن يقولاً لأهلها إن المشغوف بنتاتكم مسه الضر وأصابه الضنا ، وقد نسيتم عهدكم دون عذر لكم ودون ذنب جناه . ويستهل قصيدته الغزلية الثانية بقوله :

أهل الحمى هل لكم عن قصتي خيرُ  
وفى ضلوعي نيران يضرهما  
لما رأيت بدور الحمى سافرة  
ولا عوامل إلا من قدودهم  
سألتك الله يا حادي المطى بهم  
عرج على فلي قلب يميل إلى  
وأنت - يا سعد - إن غنت ظباؤهم

وإن ليلى يلى كته سهر  
دمع علي صفحات الخد ينهمر  
عن النقاب بدا لي أنه السفر  
ولا صوارم إلا ما انتضى الحور<sup>(٣)</sup>  
رفقا على لعل الصدغ ينجير  
حديث من قتلوا منا ومن أسروا  
فقف تعابن فؤادي كيف ينظر<sup>(٤)</sup>

والشاعر يعرض قصته على أهل الحمى وأن حبه لليل يشغف قلبه حتى ليبست مسهداً ، وفى ضلوعه نار ما تزال توقد جذوتها دموعه المنهمرة على صفحات خده . ورأى بدور الحمى سافرة فعرف أنها تستعد للسفر ، وتراءت له قدودهن كأنها أسنة رماح تصيب قلوب الرجال ،

(١) أودى به : أهلكه وذهب به .

(٢) قنطت : بست .

(٣) العوامل : أسنة الرماح . انتضى الصارم : سل

السيف .  
(٤) ينظر : يشفق .

وكأنما حَوَّرَ عيونهنَّ يسْلَ سيوفَ مصمّية ، ويسألُ حادى المطى يرفقُ به لعلَّ الصّدْعَ الذى أحدثته صاحبتُه فى فؤاده ينجبر ، كما يسأله أن يعيل بالركب عليه فقلبه يتمنى لو سمع حديث من قتلن منهم ومن أسرن ، وإن تغين فقف ليرى فؤاده كيف ينظر ويتصدّع ألما . ويعرض حوارا لصاحبتِه معه منشدا :

تقول والحسنُ يُظهِمُنِي	ولا مؤازرَ إلا صارمَ ذَكَرُ <sup>(١)</sup>
دَع الحسامَ وَضَعُ حَمَلِ السِّلاحِ فما	فى كلِّ وقتٍ يفيد الحزمَ والحذرُ
ما للمهندِّ حكْمٌ فى محلَّتِنَا	بل للمهندِّ فيها الحكمُ والنظرُ <sup>(٢)</sup>
فإن طمعتَ بلينٍ فى لـواحظنا	فنحن أهلُ قلوبٍ مثلها الحجر
وإن حلتْ لك ألفاظٌ نردُّها	ما بيننا فهناك الصَّابُ والصَّيرُ <sup>(٣)</sup>
فأرحمَ شبابك وارحلَ دون مَغَلْبَةٍ	واقبلُ من الحسن ما أعطاكه النظر

حدثته صاحبتُه كما يقول وهى شاعرة بحسنتها حتى ليجعلها طاغية ، وكان يحمل سينا فقالت له ليس للسيف حكم فى منازلنا وإنما الحكم والرأى القاطع للفتاة ، وإن أطمعتك لين فى نواظرنا فنحن أهل قلوب كاللحجارة أو أشد صلادة وصلابة ، وإن أطمعتك ألفاظ حلوة نرددها بيننا فوراها الصَّابُ والصَّيرُ شديدا المرارة المرارة لا تطاق ، فأرحمَ شبابك وارحل دون قهر ، واكفف من الحسن بالنظر إليه . وهذه الأبيات التى أجراها الأريسي على لسان صاحبتِه لتملاً نفس قارئه إعجابا بخصب شاعريته .

ابن<sup>(٤)</sup> على

هو محمد بن محمد بن محمد المهدي بن رمضان بن يوسف العليج ، وذكر العليج فى آبائه يدل على أن أسرته عثمانية وأن جده يوسف العليج من أوائل العثمانيين النازلين بالجزائر حين أصبحت ولاية عثمانية . وغلب عليه اسم ابن على مما يدل على أن أحد آبائه كان يسمى عليا ، ويؤكد ذلك أن شاعرا هو محمد الشباح سمى أباه فى مدحة له كما جاء فى مجموعة أشعار جزائرية محمد بن على قائلا :

وسمى غوث الغرب من مجاجةٍ وافاك من ربِّ العُلا إقبالُ

ويريد الشباح بسمى غوث الغرب من مجاجة محمد بن على المجاجي ، فاسمه إذن بشهادة هذا الشاعر ابن على ، وإما أن يكون على أباه أو أحد أجداده ، وسقط من سلسلة نسب الشاعر .

(١) الصارم الذكر : السيف الشديد .  
 (٢) المهند : السيف . المهند : الناهد : الفتاة .  
 (٣) الصاب : شجر شديد المرارة . الصير : عصارة شجر مر .  
 (٤) انظر فى ترجمة ابن على ما كتبه د . أبو القاسم سعد الله فى مجموعة أشعار جزائرية ص ٢١ وما بعدها وكتابه تاريخ الجزائر الثقافى ٢/٣١١ وفى مواضع متفرقة . وقد حقق ونشر مجموعة كبيرة من أشعاره فى مجموعة أشعار جزائرية .

(١) الصارم الذكر : السيف الشديد .

(٢) المهند : السيف . المهند : الناهد : الفتاة .

(٣) الصاب : شجر شديد المرارة . الصير : عصارة شجر مر .

(٤) انظر فى ترجمة ابن على ما كتبه د . أبو القاسم

واشتهرت هذه الأسرة بنظمها للشعر منذ رمضان بن يوسف فقي مجموعة أشعار جزائرية أبيات له في الحث على طلب العلم، وكذلك لمحمد المهدي قصيدة ضمنها شكوى إلى علماء إسطنبول وأبيات لوالد الشاعر، فهو من بيت شعر وأدب، وأيضا فإن بيته كان بيت فقه حنفي وقضاء وفتوى، يدل على ذلك بوضوح أن جده محمد المهدي عُيِّن مفتيا للحنفية سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م ولقب بشيخ الإسلام وهو لقب كان يتلقب به المفتي الحنفي في الجزائر طوال العهد العثماني وظل في هذا المنصب حتى وفاته في أواخر العقد السابع من القرن الحادي عشر الهجري. وطبعي أن يكون والد الشاعر فقيها على غرار أبيه، إذ نرى الشباح ينوه في مدحته له بقوله:

العالم العلامة القطب الذي ضُرِبَ بحسن صنيعه الأمثالُ

ولا نعرف متى ولد الشاعر ، ويبدو أنه ولد في أواخر القرن الحادي عشر ، كما قال الدكتور أبو القاسم سعد الله ، مستدلا على ذلك بأنه كان أحد من هتأوا محمد بكداش والى الجزائر بفتح لوهران وانتصاره فيه على الإسبان سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م ومن قوله في قصيدته :

وعهدى بحور الشعر عنى أذودها زمانا وفكرى مَوْجُهُ متلاطمُ

وكأنه قد عالج الشعر قبل عام فتح وهران مما يدل على أن سنه كانت حينئذ في نحو العشرين من عمره على الأقل . وكان يكبُّ على حلقات فقهاء المذهب الحنفي والحديث النبوي وتفسير الذكر الحكيم مما أهله فيما بعد ليدرس للطلاب التفسير والحديث والفقه الحنفي ، وليصبح خطيب المسجد الكبير يعظ الناس كل جمعة مواعظ مؤثرة ، ويختار سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٨م مفتيا حنфия للجزائر ويلقب بشيخ الإسلام ، ويظل شاغلا هذا المنصب حتى وفاته سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م . ويعد ابن علي في الذروة من شعراء الجزائر في القرن الثاني عشر الهجري ، وكان ينظم في المديح والمنشآت ووصف الطبيعة والرياء ، وأكثر من شعر الغزل إكثارا يسبق فيه شعراء عصره ، وجمع لنفسه ديوانا ضم أشعاره وأشعار بعض معاصريه وأشعار آبائه ومعاصريهم في القرن الحادي عشر الهجري . وسقط هذا الديوان من يد الزمن غير أن أكثره - أو كثيرا منه - ماثوث في المجموعة التي أشرنا إليها المنشورة باسم أشعار جزائرية . ويبدو أنه أخذ ينصرف عن نظم الغزل حين وُلِّي الخطابة والتدريس في المسجد الكبير ، ووُلِّي منصب الإفتاء الجليل ، ويصرح بذلك قائلا :

لولا - وحقك - خطَّةٌ قُلِّدْتُهَا زهرتُ بها في الخافقين شموعى

ومنابرٌ فيها رقيتُ إلى العُلا وقد استدار بها كئيفُ جموع

لنحوتُ منْحَى العامرى صبايئةً ولكن من حُرَّقَ الجوى مشفوعى

وهو يقول لولا خطَّةُ الفتوى - على المذهب الحنفي - التي تقلدتها وتلاأت وتألقت بها شموعى في الجزائر ، ولولا منابرٌ فيها سعدت بها إلى العُلا بوعظي الجموع الكثيفة من أهل

الجزائر لظلمت أنظم غزلا عذريا عفيفا مثل غزل قيس العامري مجنون ليل كله صباية وهيام  
وحرق من الحب والوجد تضطرم اضطراما ، وله يتغزل :

يمينا لقد عزت على المطالبُ      ولى أبدا من سحر عينيك طالبُ  
فسبحان من سواك في الحسن صورةُ      لها اعترفت بالحسن حور كواعب<sup>(١)</sup>  
مراشف من شكل العقيق مصوغة      ومبسم در للعقيق مناسب<sup>(٢)</sup>  
وصدر بدت رماتاه كحقتي      لجين ونحر مشرق وترائب<sup>(٣)</sup>  
تحوم عليها الشمس غيري كيبة      تجاذب ثوبا للسن وتجائب<sup>(٤)</sup>  
وقد حاولوا مني التسلى بغيرها      لقد أخفقت تلك الظنون الكواذبُ  
وهل يستوى المصباح والشمس في السنأ      وهل يستوى بدر السما والكواكب

وهو يعجب بسحر عيني صاحبه في البيت الأول ويجعلها في البيت الثاني الذي تعترف  
به الحور الجميلات الشابات ، وكأن مراشفها مصوغة من فصوص العقيق ، ويلثم بها مبسم  
اللاية البديعة ، وينوه بجمال صدرها ونحرها وترائبها ، ويقول إن الشمس تغار من جمالها  
وتشعر بغير قليل من الحزن حين تراها وتجادبها ثوب ضوئها ، وتحاول تجنبها شعورا منها  
بأنها أروع وأبهج . ويظن غير واحد أنني أستطيع التسلى عنها بغيرها وخابت ظنونهم جميعا ،  
وهل يمكن أن يتساوى المصباح والشمس أو يمكن أن يتساوى البدر في تمه وكاله بالكواكب  
والنجوم ؟ ! . ومن غزلياته قوله :

أغصون تأودت أم قدودُ      أم ورودُ تفتحت أم خدود<sup>(٥)</sup>  
أم وجوه بدت لنا أم بدورُ      طالعات يحفهن السُعودُ  
في سماء الجمال تسطع نورا      ويقلب منها - الزمان - وقود  
كم لها في الأسود من فتكاتٍ      وبروق - من صدها - وعودُ  
سحر تلك العيون فيه تناهت      وتفسات زيبانٍ وهنودُ  
جنتا وجنتيه عدت بتاني      وجنا الجنتين عني بعيد<sup>(٦)</sup>

وهو لا يدري أيرى قدودا وقامات لؤلؤا الحسان أم يرى غصونا تشنى دلالا ، وهل يرى  
خدودا فاتنة بحمرتها أم ورودا تفتح جمالا ، وهل يرى وجوها فاتنة أم بدورا يحفها السعد بل  
سعد السعود ، وكأنها كواكب تسطع في سماء الجمال نورا ، ولقلبه منها وقود مايني مشتعلا ،  
وكم لها في الأسود من فتكاتٍ وكم لها بروق وعود ، وإن سحر عيونها ما بعده سحر ، ذاب

(١) كواعب ، جمع كاعب : الفناة الشابة .  
(٢) العقيق : حجر كريم أحمر تتخذ منه الفصوص .  
(٣) لجين : فضة .  
(٤) السنأ : الضوء .  
(٥) تأودت : نثت .  
(٦) الجنا : كل ما يجنى من الشجر .

فيه سحر العيون جميعا وسحر كل زينب وهند ، ويقول إنه لا يستطيع الدنو أو القرب من وجنتها فضلا عن أن يقتطف منهما شيئا ، وهو لذلك يتعذب عذابا شديدا ، وربما كان أهم الغزلين في عصره .

## ٢

### شعراء وصف الطبيعة

وصف الطبيعة غرض مهم من أغراض الشعر العربي في كل عصر وفي كل إقليم ، فدائما الشعراء يتغنون بماتقع عليه أبصارهم من مشاهد الطبيعة الصامتة: من الرياض والأزهار والحدائق والجبال والأنهار والبحار ، وما يروعهم من مشاهد الحياة المتحركة في الطير والحيوان الوحشي والأليف . وولتقى بيكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م ومقطوعة له في الطبيعة الصامتة إذ يصف البرد في بلدته تاهرت عاصمة الدولة الرستمية قائلا<sup>(١)</sup> :

ما أخصنَ البردَ ورِيعانَهُ      وأطرفَ الشمسَ بتاهِرتِ  
تبدو من الغيمِ إذا ما بدتْ      كأنما تُنشرُ من تَحْتِ  
فنحن في بحرِ بلا لُجَّةٍ      تجرى بنا الرِّيحُ على السَّمْتِ  
نفرح بالشمسِ إذا ما بدتْ      كفرحة الذميِّ بالسَّبْتِ

وهو يقول ما أشد خشونة البرد وصعوبته في تاهرت وما أطرف طلوع الشمس بها إذ تبدو بحجة دائما من وراء الغيم وكأنما تنشر من وراء تحت أو متر صفيق ، وأنا لنشعر لشدة البرد كأننا في بحر بلا لجة ، وما أشد فرحتنا بالشمس حين تبدو كفرحة اليهودي يوم السبت يوم عيده الأسبوعي . ولبكر مقطوعة حزينة يبكي بها بلدته تاهرت حين خربها في سنة ٢٩٦ أبا عبيد الله داعية العبيدين وقضى على الدولة الرستمية بها ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

زُرْنَا منازلَ قومٍ لم يزوروا      إنا لفي غفلةٍ عما يقاسونا  
لو ينطقون لقالوا الزأدُ ويحكمُ      حلُّ الرحيلُ فما يرجو المقيمونا  
الموتُ أجهفُ بالدينا فخرُها      وفعلنا فعلُ قومٍ لا يموتونا  
فالآن فابكوا فقد حقَّ اليكاءُ لكم      فالخاملون لعرش الله يكونا  
ماذا عسى تنفع الدنيا بأجمعها      لو كان جُمعُ فيها كثرُ قارونا

وهو يقول إنا زرنا منازل قوم في قبورهم قضى عليهم أبا عبيد الله ولانعرف ما يقاسون ولو نطقوا لقالوا لنا تزودوا للأخرة فقد حلَّ بالمقيمين الرحيل عما قليل، وقد استأصل الموت أهل

(١) ديوان بكر بن حماد : نسخة مصورة طبع الجزائر (٢) الديوان ص ٩٠ .

تاهرت وخربها، ونحن لاتعظ كأننا لن نموت، والآن فابكوا فالحاملون لعرش الله يكون عليكم  
ومن أجلكم، وماذا ينفع الدنيا لو أن حكام تاهرت جمعوا فيها كنز قارون فكل شيء فيها  
صار إلى فناء. ولابن قاضي ميلة المترجم له بين شعراء المديح في وصف عود وما صار إليه من  
التغنى عليه<sup>(١)</sup>:

جاءتُ بعودٍ يُناغيها ويُسعدُها      انظرُ بدائعَ ما يأتي به الشجرُ  
غنتُ عليه ضروبُ الطيرِ ساجدةً      حيناً فلما ذوّى غنى به البشرُ  
فلا يزال عليه - أو به - طربٌ      يهيجُه الأعجمان: الطيرُ والوترُ

فقد كانت ضروب الطير وصفوفه تغنى على هذا العود، وهو موصول بشجرته، فلما قطع  
منها وذوّى غنى عليه البشر بما شدوا عليه من أوتار، وكأنما يهيجه طوال حياته أعجمان:  
الطير قديما والوتر حديثا. ويبدو أن سمك القرش المفترس كان يتراءى أحيانا في مياه تونس  
فقال ابن قاضي ميلة يصفه<sup>(٢)</sup>:

وأشغى بفكيه مثلُ المدي      طويلُ القرا مدمجُ الأعظم<sup>(٣)</sup>  
تصرفه في ضمان المياه      ومهجته في يد الخضرم<sup>(٤)</sup>  
يخاف الهواء ويخشى الضياء      وإن كان أجراً من ضئيم<sup>(٥)</sup>  
له داخل اليم بطشُ الأسود      وتصحبه مشية الأرقم

وقد وصف ابن قاضي ميلة القرش وصفا دقيقا فقال إنه مختلف الأسنان وإن بفكيه مثل  
المدى أو السكاكين وإنه طويل الظهر مدمج العظم واللحم، ولا يعيش إلا في الماء يخاف الهواء  
والضياء، وإن كان أجراً من أسد فاتك، غير أنه لا يعلو على سطح الماء بل يظل في داخله  
متلويًا في مشيته كالأنفوان. وكان يعاصر ابن قاضي ميلة عبد الله بن محمد الجراوى وسنخسه  
بترجمة. وأهدى نزار الخليفة الفاطمي في القاهرة المنصور بن بلكين سنة ٣٨٤ هدية فيها خيل  
وإبل وحمار وحشى مخطط وفيل، ووصفها جميعا عبد الكريم النهشلي، وفي الخيل يقول<sup>(٦)</sup>:

وبلق تقاسم الدجنة والضحي      فمن هذه شطرٌ ومن هذه شطرٌ  
وصغر كأن الزعفران خضابها      وإلا فمن ماء العقيق لها فشرٌ  
وشهب من اللج استعيرت متونها      ومن صور الأقمار أوجيها قمر<sup>(٧)</sup>  
عليها السروج المحكمات إذا مشت      بها خيلاء الخيل رنحها كبرٌ

والخيل بينها بلق يلتقى فيها السواد بالبياض، وكان الظلمة والضحي اقتسما لونها فلكل

(٥) ضئيم: الأسد الواسع الشدق.

(٦) الأنموذج ص ١٧٣.

(٧) قمر: مشرقة كالقمر.

(١) ابن خلكان ٥ / ٣٤٨.

(٢) الأنموذج ص ٢١٣.

(٣) أشغى: متخالف الأسنان. القرا: الظهر.

(٤) الخضرم: البحر: متعاطم الموج ومتلاطمه.

منهما نصيب ، ومنها صفر كأنما خُضِبَتْ بالزعفران وإلا بقشر من ماء العقيق ، ومنها شهب يختلط فيها بياض الشعر بسواده ، وكأنما استعيرت ظهورها من لُجِّ الليل وظلمته الشديدة السواد أما أوجهها فمضيئة ضياء الأتمار الساطعة ، وتمشى مزهوة مشية خيلاء متعالية ، ويقول في الفيل الذى كان مصاحباً للهدية<sup>(١)</sup> :

وأضخُمُ هنديُّ النَّجارِ تُعِدُّهُ      ملوكُ بنى ساسانَ إن رابها أمرُ  
يجىءُ كطَوْدٍ جائِلٍ فوق أربعِ      مضبِّرةٌ لُمتٌ كما لُمتِ الصَّخْرُ<sup>(٢)</sup>  
له فخذان كالكتيين كُبدًا      وصدرٌ كما أوفى من المُضْبِيةِ الصَّدْرُ  
ووجهٌ به أنفٌ كراووقِ خمرةٍ      ينال به ما تُدرِكُ الأنملُ العَشْرُ<sup>(٣)</sup>

والنهشلى يقول عن الفيل إنه ضخم هندي الأصل ، كانت تعده ملوك الفرس حين يريها أمر . ويشبهه بجبل يتحرك فوق أربع مكتنزة اللحم والعظم تضامت أجزاءها تضام أجزاء الصخر ، وله فخذان كأنهما كتيان متراكان وصدر عريض متسع ، ووجه به أنف طويل طوله عنق إبريق الخمر ينال به ما يناله الإنسان بأنامله العشرة . وناقى فى بلاط بنى حماد بيجاية بالطبيب ابن أبى المليح شاعر الأمير العزيز الحمادى ( ٤٩٨ - ٥١٥ هـ ) وله يصف خيوله وموكبه فى قصيدة عيدية منشدا<sup>(٤)</sup> :

وجالت به جردُ المذاكى كأنها      عذارى ولكن نُطْقَهِنَّ تَحْمَحُمُ  
بصفراء كالنَّيرِ العتيقِ صقيلةٍ      ودهماء يتلوها كُمتٌ وأدهمُ  
وأشقرَ لو يجرى وللبرق جهدهُ      لكان له يوم الرُّهانِ التقدُّمُ  
وجاء لواءُ النَّصْرِ يتبع رايةً      بها العزُّ معقودٌ عليها متمُّ

وهو يقول : جالت بالأمير خيل كريمة مدربة كأنها لم تترك لأول مرة : صفراء كالنير ودهماء كالليل يتلوها كمت وأدهم ، ولو أن الأشقر سابق البرق لسبقه ، وجاء موكب الأمير تقدمه راية العز والنصر .

وإذا اتجهنا إلى تلمسان الثقينا بشاعرها فى القرن السابع الهجرى ابن خميس، وكان قد بارحها إلى الأندلس، وله قصيدة بديعة يتشوق فيها لرؤية مشاهدتها ومنتزهاتها فى مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

(٤) الخريدة / ١ / ١٨٤ .

(٥) الديوان : النسخة المصورة ص ٨٥ .

(١) الأنموذج ص ٧٥ .

(٢) مضبيرة : مكتنزة اللحم

(٣) الراووق : إبريق الخمر .

تلمسانُ جادتها السحابُ الدَّوالِحُ  
 ففى كلِّ شَقَرٍ من جفونى ماتحُ  
 كمتُ هواها ثم برح بي الأسي  
 لساقية الرومى عندى مزينة  
 وكم لى عليها من غدو وروحة  
 ظباء مغايبها عواطف عواطف  
 تقتلهم فيها عيون نواظر  
 وإن أنس لا أنس الوريط ووقفة  
 مُطلًا على ذاك الغدير وقد بدت  
 أمائك أم دمعى عشية صدقت  
 لئن كنت ملانا بدمعى طافحا

وأزنت بواديها الرياح اللواتح<sup>(١)</sup>  
 وفى كل شطرٍ من فؤادى قادح<sup>(٢)</sup>  
 وكيف أطبق الكتم والذمغ فاضح  
 وإن رغمت تلك الروابى السواغ<sup>(٣)</sup>  
 تساعدنى فيها المنى والمنائح<sup>(٤)</sup>  
 وطيرُ محايها شوايد صوادح<sup>(٥)</sup>  
 وتبكيهم منها عيون نواضح<sup>(٦)</sup>  
 أنافح فيها روضه وأفواح<sup>(٧)</sup>  
 لإنسان عيني من صفاه صفائح<sup>(٨)</sup>  
 عليّة ما قال العذول المكاشح<sup>(٩)</sup>  
 فإنى سكران بجبك طافح

وابن خميس يخلط مشاهد تلمسان بالفضل بها وبفتياتها الحسان ، وهو يستهل قصيدته بالدعاء لتلمسان أن تجود عليها السحب دائما وتظل بواديها الرياح الملقحة المنتجة ، ويقول إن فى كل حرف من جفونه ماتح يملأ دلاءه بدموعه شوقا إليها وفى كل شطر من فؤاده قادح لنيران الوجد والحب ، وكم كتم حبه ووجده غير أن دموعه تفضحه ، فلم يعد بُدُّ من إعلانه ، ويذكر مشهد الفتاة المسماة بساقية الرومى وإن عتبت عليه الروابى من حولها ، ويذكر كم له فيها من غدو وروحة وأبواب المنى والآمال مفتوحة فى وجهه وحسانها يبدن له العطف ، والطير من حوله ترقص وتصدح وتغنى ، وهن يقتلن بجمالهن من يطيل النظر إليهن ، وينصرفون عنهن بعيون باكية ذرفت كل ما كان بها من دموع ، ولا ينسى مترزه الوريط وما كان ينافحه فيه ويفارحه من نسيم عطر ، ولا ينسى جناح الغدير به ، وقد بدت لرصد مياهه الصافية صفائح الدروع ، ويسأله أبك ماؤك أم دمع عيني عشية صدقت عليّة ما قال العذول المعادى ، ولئن كنت ملانا بدمعى طافحا به فإنى سكران طافح بجبى . ويقول الشهاب الخلوف شاعر قسنطينة فى أواخر عصر الدولة الحفصية يصف الطبيعة فى يوم ممطر<sup>(١٠)</sup> :

- (١) الدوالح : المثقلة بالأمطار . اللواتح : الملقحة بما تحمل من أمطار وغير أمطار .
- (٢) الشفر : حرف الجفن . ماتح : نازع للدلو من البئر . قادح : أى للنار .
- (٣) ساقية الرومى : قناة جميلة بمشاهد الزرع حولها . السواغ : المتعرضة .
- (٤) المنائح جمع منيحة : العطية .
- (٥) مغايبها : منازلها - عواطف : لا تستصعب .
- (٦) نواضح : جمع ناضح تنزف كل ما بها من دموع .
- (٧) الوريط : مترزه . أنافح : أستخرج نفعه رشاه وكذلك أفواح .
- (٨) صفاه : يريد مياهه الصافية .
- (٩) المكاشح : البيض .
- (١٠) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٢٧ .

لقد بَلَّ أَرْدَانَ الثَّرَى دَمْعُ مَرْزِيَّةٍ  
 وَجَرَّ عَلَى هَامِ الرُّبَى ذَيْلَ وَبِلِهِ  
 وَخَطَّ بِطُرْسِ الْجَوْ سَطْرًا مَذْهَبًا  
 وَشَابَ لَجِينِ الطَّلِّ عَسْجِدُ بَارِقٍ  
 وَدَارَ بِسَاقِ الْغَصَنِ خَلْخَالُ جَدُولٍ  
 تَنَاطَرَ فِي أُسْلَاكِهَا فَتَنَطَّمًا<sup>(١)</sup>  
 فَدَبَّحَ أَثْوَابَ الرُّبُوعِ وَسَهْمًا<sup>(٢)</sup>  
 فَنَقَطَهُ قَطْرُ الْغَمَامِ وَأَعْجَمًا<sup>(٣)</sup>  
 فَدَنَرَ أَزْهَارَ الرُّبُوعِ وَذَرَّهَمًا  
 كَمَا سَوَّرَ التَّجْعِيدُ لِلنَّهْرِ مِعْصَمًا

وهو يقول إن دموع السحابة بَلَّتْ أكام الربى وتناثرت في أسلاكها وانتظمت ، وسحب المطر على رءوس الربى ذيل وبله فزَيْنَ ثيابها وخطَّطها تخطيطًا بديعًا ، وخط على صفحة الجور سطرًا مذهبًا نقطه قطر الغمام ، وشاب لجينَ الطلِّ المتلألئ عسجدُ البرق ، فاستحالت أزهار الربيع دنائير ودراهم ، واستحال ما في الجدول من تجعدات للرياح خلاخيل لسيقان الغصون على نحو ما جعلت تجعداتنا للنهر أساور تزين معصمه . واشتهر إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجي التلمساني بأخرة من عصر الدول الحفصية بقصيدة طويلة في مائتي بيت وأربعة عشر وصف فيها صيد الصقر ، وسنخصه بكلمة . ونمضي إلى العهد العثماني ، ومن طريف ما نقرأ فيه وصف ابن أبي راشد لمدينة الجزائر في الربيع ، وفيه يقول<sup>(٤)</sup> :

سقى المطرُ الهطالَ أرضًا تشرَّفتْ  
 بِمَرْغَنَةِ الْفِيحَاءِ تَظْهَرُ مِنْ مَدَى  
 وَحَيْثُ الرُّبُوعِ الْغَضُّ تَمَّ شِبَاهُهُ  
 تَرِيكَ احْمَرَارًا فِي ابْيَاضٍ كَأَنَّهَا  
 دَوَالِيهَا تَسْقِي الْغَصُونَ فَتَشْتِي  
 فَتَبْصُرُ أَغْصَانَ الْحَدَائِقِ سُجْدًا  
 وَمَا هِيَ إِلَّا جَنَّةٌ قَدْ تَأَزَّجَتْ  
 بِمَصْرِ غَدَتٍ لِلْفُضْلِ وَالْفَخْرِ جَامِعَةٌ  
 تُرَى كَسَقِيطِ الثَّلْجِ بِيضَاءَ نَاصِعَةٍ<sup>(٥)</sup>  
 تَرَى أَرْضَهَا تَبْدَى النُّضَارَةَ يَاتِعَهُ  
 دَمَاءٌ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الثَّلْجِ وَأَقَعَهُ  
 حَامِئُهُا تَشْدُو عَلَى الْقُضْبِ سَاجِعَهُ .  
 تَمِيدُ مِنَ الصَّوْتِ الْخَنُونِ وَرَاكِعَهُ  
 مَبَاخِرُهُا بِالطَّيْبِ وَالْمَسْكِ سَاطِعَهُ

وابن أبي راشد يدعو بالسُّقْيَا لمدينة الجزائر التي أصبحت مصرًا وعاصمة لقطرها في عهد العثمانيين وغدت جامعة للفضل والفخر ، ويظل المطر يهطل على مرغنة الفيحاء ، وكأنه يسميها باسمها القديم ، ويقول إن مبانيتها جميعًا بيضاء بياض الثلج المتساقط الناصع ، وإنها تُرى في الربيع وقد ليست ثوبًا من رفاة العيش والنضارة ، وترى ورودها الحمراء تكسو ورودها البيضاء ، وسواقيها تروى بساتينها والحمام يشدو على الغصون مبتهجا ، وكأنما الأغصان تستمع إلى صوتها الخنون الشجي ، فما تزال بفعل الرياح ساجدة راكعة ، وما مدينة الجزائر

٣٠٧/٢ .

(٥) مرغنة: القبيلة التي بنت مدينة الجزائر وقد تسمى باسمها .

(١) اردان جمع ردن : كم .  
 (٢) دبج : زين ونقش . سهم : خطط .  
 (٣) طرس : صفحة . أعجمه : أزال عجمته بنقطه .  
 (٤) تاريخ الجزائر الثقافي للدكتور أبي القاسم سعد الله

الإلجنة ، قد فاحت مياخرها بالطيب والمسك وسطع شذاها سطوعا عظيما . وحرى أن نفرذ  
ترجمة لكل من عبد الله بن محمد الجراوى وإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى .

عبد الله بن محمد الجراوى<sup>(١)</sup>

شاعر جزائرى من جراوة بين مدينة قسنطينة وقلعة بنى حماد ، تأدب فى مسقط رأسه جراوة  
داخل الجزائر ، وقدم إلى القيروان - كما يقول ابن رشيّق - فى أوائل العقد الرابع من حياته ، وتعلق  
بخدمة المعز بن باديس . ويقول ابن رشيّق : كان شاعرا فحلا وصافا جيد الفكر والخاطر ، تحسب  
بديهته رويّته ، يتحدّر كلامه كالسيل ، وكان حسن الخلق جميل العشرة مزاحا ، سأله أيوب بن  
يطوفت أحد رجالات صنهاجة : أى بروج السماء لك؟ فقال : واعجبا منك ما لى فى الأرض  
بيت فكيف يكون لى برج فى السماء ، فضحك ، وأمر له بدار جواره . ويذكر ابن رشيّق أنه :  
توفى سنة خمس عشرة وأربعمائة وقد بلغت سنه نيّفا وأربعين سنة ، وكانوا قد أغروا به القائد  
حماد بن سيف (العزير بالله) فندسّ عليه من قتله ليلا ، وعرف خطأه فأسف عليه . وقد أشاد به  
ابن رشيّق كما رأينا فى الشعر إشادة رائعة ، ومما تشد له قوله البديع فى وصف ديك :

وكائن نَفَى النُومِ عن عُرفانِ	بديع الملاحه حلو المعانى <sup>(٢)</sup>
بأجفانِ عينيه يا قوتانِ	كأن وميضهما جمرتانِ
على رأسه التاجُ مستشرفا	كناج ابن هرمز فى المهرجانِ
وقرطانِ من جوهرٍ أحمر	يزينانه زينَ قرطِ الحصانِ
له عُنُقٌ حولها رونقٌ	كما حوت الخمرِ إحدى القناني
ودارٌ برائلُهُ حولها	كما نورَتِ شَعْرَةُ الزعفرانِ <sup>(٣)</sup>

والجراوى يقول إن النوم اتفى عن الديك وظل مسهدًا طوال الليل بديع الجمال حلو  
المعاني وبأجفانه ياقوتان تومضان كأنهما جمرتان وعلى رأسه تاج عُرفه كناج ابن هرمز  
فى احتفال يوم المهرجان ، وله قرطان من ياقوت أحمر يزينانه كما يزنان المرأة العفيفة الطاهرة ،  
ويستدير حول جيده رونق من الجمال الرائع : وله ريش بديع زاؤه زهو الزعفران ، ويستتم  
وصفه للديك قائلا :

ودارت بِجُوْجِيهِ حُلَّةٌ	تروقُ كما راقك الخُسرَوانى <sup>(٤)</sup>
وقام به ذَنبٌ معجبٌ	كباقةِ زهرٍ بدتْ من بنانِ
وقاس جناحًا على ساقِهِ	قيس سِترَ على خَيْرانِ

(١) انظر ترجمة الجراوى فى الأنموذج ص ٢١٦ .

(٢) برائله : ريش يستدير حول عنقه .

(٣) الجوزجوز : الصدر . الخسروانى : الطليان .

(٤) العرفان : الديك .

وصَفَّقَ تصْفِيقَ مُسْتَهْتِرٍ      بِمَحْمَرَةٍ مِنْ بَنَاتِ الدُّنَانِ  
وَعَرْدٌ تَفْرِيدٌ ذِي لَوْعَةٍ      يَبُوحُ بِأَشْوَاقِهِ لِلغَوَانِي

يقول الجراوى : قد استدارت حلة بصدرة كما يروق الطيلسان الخسروانى ، وبدا له ذيل زاه كباقة زهر ، ورفرف بجناحه على ساقه وكأنه مقيسٌ عليه كستر يُسَدَّلُ على خيزران ، وصفَّقَ به تصفيق مخمور ، وگرد تغريد ملتاع ييوح للغوانى بأشواقه الحارّة .

إبراهيم<sup>(١)</sup> بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى

فجيج المنسوب إليها إبراهيم بن عبد الجبار هو وأبوه وأسرته فى أقصى الجنوب من تلمسان ، وكان أبوه فقيها ومفسرا وله تفسير للقرآن الكريم فى اثنى عشر جزءا ومختصر لحياة الحيوان ، ونشأ ابنه إبراهيم على غراره يعنى بتحصيل العلوم ، ورحل فى سبيل العناية بها إلى فاس وتلمسان ولقى علماءهما وأخذ عنهم ، ويقال إنه رحل إلى مصر وأخذ عن علمائها . وعاد إلى موطنه ، وله منظومتان : منظومة فى علم الصيد بالصقر سماها روضة السلوان وهى فى مائتى بيت وأربعة عشر ، ومنظومة ثانية فى الفقه سماها مفيدة الولدان . وكان حيا سنة ٩٢٠ وتوفى بمدينة جى ببلاد السودان الغربى القديم . وشرح قصيدة الصيد ابن أخيه أبو القاسم بن محمد بن عبد الجبار سنة ٩٨٦ . ويستهل أبو إسحق إبراهيم الفجيجى مطولته ببيان منافع الصيد فى عشرين بيتا ويتلوها بصفات الصائد فى اثنى عشر بيتا ، ومنها العفة والنزاهة وعدم الاختلاط بأهل اللؤم والغيبة ، فلا سوء عشرة ولا هتك هيبة . ويصف الصقر بمثل قوله :

طويلٌ ثلاثٌ لا كطول بُغائِها      جناحٌ وَعُنُقٌ ثُمَّ طالتُ أصابعُ<sup>(٢)</sup>  
رحيبٌ ثلاثٌ وهى ما هى كفه      وما بين منكيه والصدر واسع<sup>(٣)</sup>  
عظيم ثلاثٌ : رأسه ثم فخذُه      ومسنرُه لجزرٍ ما هو صارع<sup>(٤)</sup>  
له عُدَّةٌ من نفسه فى مخالِبِ      شديدٍ سوادها ، حدادٍ ، لواسع<sup>(٥)</sup>  
يُمناه بارقٌ محيطٌ بزئده      من الفضة البيضاء كالسيف لامع<sup>(٦)</sup>  
كذلك فى يسراه ثانٍ وجلجلٌ      تلونٌ بالإبريز أصفرُ فاقع<sup>(٧)</sup>

(١) انظر فى إبراهيم الفجيجى وترجمته شرح ابن أخيه  
أبى القاسم محمد بن عبد الجبار لقصيدته المسمى الفريد  
فى تقييد الشريد وتوصيد الوبيد بتحقيق الدكتور عبد  
الهادى التازى، وراجع تعريف الخلف ٧/٢ ولأبى راس  
شرح عليها باسم الشقائق النعمانية فى شرح الروضة  
السلوانية.  
(٢) البعث : من ضعاف الطير .  
(٣) رحيب : منع .  
(٤) المنسر من الطير كالشفة من الإنسان . جزر : غر .  
صارع : فاتك .  
(٥) حداد : قاطعة . لواسع : تلسع كالعقرب .  
(٦) بارق : خلخال لامع .  
(٧) الجلجل : الجرس الصغير . الإبريز : الذهب  
الخالص .

إذا انقضت خلت البرق والريح عاصفاً  
دوى جلاجل ولمع خلاخل  
ورعداً به رجزٌ على الصيد واقع<sup>(١)</sup>  
وخفق جناح كل ذلك فاجع

والفجيجي يقول إن صقره يحوز صفات الصقر الحميد فهو طويل الجناح والعنق والأصابع ، وهو واسع الكف والصدر بعيد ما بين المنكبين عظيم الهامة ممتلىء الفخذين صلب المنقار لجزر مايفتك به ، وعدته مخالبه الشديدة السواد القاطعة التي تلسع لسع العتارب ، وفي يمناه خلخال لامع من الفضة بزنده ، وفي يسراه خلخال وجرس صغير أصفر مموه بذهب فاقع ، وإذا انقض على فريسته من الطير ظننت البرق والريح والرعد كل ذلك هجم عليه ، ولا تسمع سوى دوى جلاجل ولمع خلاخل وخفق أجنحة ، كل ذلك ينقض على الفريسة . ويصور الفجيجي انقضاضه على طائر الحبارى منشدا :

ويلجأ لات حين يأويه ملجأً  
ذوآته في كف من لا يُقبله  
فلا الأرض تنجيه ولا الجوّ مانعُ  
يساق بها للموت وهو يوادعُ  
وتدبّه حبارياتُ الفنةُ  
بنيفاء مَجْهَلٍ وهنّ جوازع<sup>(٢)</sup>  
نوائحُ أعرابٍ على الطبلِ حلقةُ  
يحاجِلنّ مجنوننا لمن تواجع  
شَقَقنّ جيّواً ناشراتِ الرءوس قد  
جرخنّ خدودا ما لهنّ براقع

والفجيجي يقول إن الحبارى كان يطلب ملجأً حين رأى الصقر ، وضاق عليه الجو بأعاليه وضائق عليه الأرض بجبالها الشاهقة وما رَحبت ، وأخذ الصقر بذؤابة رأسه وريشه الطويل ، ولم يعد يجد مناصباً ولا خلاصاً منه فهو يوادعه موادعة اليائس من الحياة ، وتدبّه حباريات ألفته متجرعات عليه غصص الجزع . وشبههن الفجيجي بنوائح الأعراب حين يتحلقن على الطبل بحرقه الحزن ، ويحاجلن ندأبهن الذي يزيد في حزنهن ويشعله في نفوسهن ، ويشققن جيوبهن وينشرن شعورهن ويخمشن وجوههن السافرة حزناً على فقيدهن . ويمضى الفجيجي متمنيا لو عادت أيام الصغر أو أيام الشباب ويذكر مواضع كثيرة في الربيع والشتاء كان يرودها للصيد ويندد بمن كانوا يتلومونه لاهتمامه به ، ويقول إن مثلهم مثل من لا تحركه بهجة الربيع ولا متعة العود والموسيقى وكأنهم لم يشعروا يوماً بالحب والحوى . ويفيض في عرض فقه الصيد وما أحله الشارع منه وما حرّمه وواجبات القاصص إزاء ذلك وأجناس صيده في البر ، ويتجه إلى قارىء قصيدته بعد نحو مائتي بيت قائلاً :

أتيتك بالتحقيق نظماً فخذُ به  
فدونكها من بحر فكري دُرّة  
ودعُ عنك ما سواه فهو جمعُ  
تفجّر منها للعلوم يتابعُ  
فمن كان ذا جدٍّ وعيٍ خصبَ حكمةٍ  
ومن يتبع الإحاض فالمرجُ واسعُ

(٢) فيفاء : صحراء واسعة .

(١) رجز : شدة في الصوت .

قتل روضة السلوان إن شئت في اسمها      وقل رَجِمَ الرحمن من هو ساجع  
 ولا تَعْدُونَ عينك عنها لكونها      بدت بدويّةً رأيتي واضع  
 وكم رميةً لغير رامٍ فقرطست      وأخرى لرامٍ أخطأتُ حلل تنزاع؟  
 فأغصوا على ما كان واغفوا وسامحوا      وإن كان خَرَقٌ فليداركهُ رافع

وهو يقول لقارىء قصيدته إنه أتاه من وصف الصقر وأحواله وأحكام صيده وفقهه وأحكامه  
 بمالا مزيد عليه في التحقيق ، ودع سواه من الجماع التي لا فائدة فيها ولا طائل وراءها ،  
 وقد غصتُ عليها في بحر فكري واستخرجتها لك درة تنفجر بكثير من المعارف عن الصيد  
 وفقهه ، فمن كان صاحب جِدٍّ وَعَى منها حكمة ، ومن كان صاحب لُحُوٍ وجَد فيها مبتغاه ،  
 وسمّها باسمها : « روضة السلوان » وقل رحم الله ناظمها رحمة واسعة ، ولا تحقرها لأنها تناول  
 موضوع الصيد البدوي وأنى ناظمها ، وكم رمية قرطست وأصابت المدف وكم رميات أخرى  
 انحرفت عن المدف والغرض المقصود ، وذلك فضل الله بمنُّ به على من يشاء . ويطلب من  
 قارئه في تواضع أن يغض الطرف عن هفواته ويعفو، وإن كانت في قصيدته زلة فليتداركها  
 بلطفه .

### ٣

#### شعراء الرثاء

الرثاء من أغراض الشعر القديمة ، والشاعر فيه إما أن يتفجع على الميت ويكيه ويتوجع  
 لنفدته ويسمى ذلك ندبا ، وإما أن ييكي فيه خلاله ومناقبه التي حرم منها المجتمع ويسمى  
 ذلك تآبينا ، وإما أن يقضى إلى ذكر الموت وأنه حوض لا بد للحى من وروده ، ويسمى ذلك  
 عزاء ، وقد يمزج الشاعر بين نوعين من هذه الأنواع وقد يمزج بين الثلاثة . ويلقنا الرثاء  
 مبكرا في الشعر الجزائري على لسان بكر بن حماد شاعر تاهرت في القرن الثالث الهجري ،  
 وكان قد مات له ابن فندبه طويلا بمثل قوله يخاطب نفسه وقد وقف على قبره<sup>(١)</sup> :

قَفُ بالقبور فنادِ الهامدين بها      من أعظم بليتٍ فيها وأجسادِ  
 قومٍ تقطعت الأسباب بينهم      من الوصال وصاروا تحت أطوادِ  
 كيف البقاء وهذا الموت يطلبنا      هيهات هيهات يا بكر بن حمادِ  
 بينا ترى المرء في لهو وفي لعبٍ      حتى تراه على نعشٍ وأعوادِ

وهو يقول قف بالقبور ونادِ بأعلى صوتك فلن يرد عليك أحد فقد تقطعت أسباب الوصال  
 بينك وبين من فيها ولا سميع ولا مجيب ، ويقول كيف البقاء والموت يطلبنا في كل لحظة ،

(١) الديوان ص ٨١ .

وبينما المرء لاه عنه فى لهُ وفى لعب إذا هو محمول على نعش وأعواد وآلة حذباء تقذف به فى مهاوى القبور . ويكى ابنه طويلا بمثل قوله<sup>(١)</sup> :

بكى على الأحبة إذ تولوا      ولو أتى هلكت بكوا عليا  
فيا ولدى بكاؤك كان ذخرا      وفقدك قد كوى الأكياد كيا  
كفى حزنا باتى منك خلوا      وأنك ميت وبقيت حيا  
ولم أك يائسا فيعنت لسا      رميت التراب فوقك من يديا

وهو يكى أجنه ولفذة كيده بكاء حارا ، وقد كان بقاء ابنه ذخرا لا يماثله ذخره له وقد كوى فقده كيده كيا مؤلما أشد الألم ، ويقول إنه يكفيه حزنا أن مات ابنه وأنه عاش بعده يتلظى موجدة وحزنا ، ولم يك يعرف اليأس إلا حين فقده ، ورمت يده عليه التراب فأظلمت الدنيا فى عينيه . ولابن الربيب يرثى خمسة من القواد فى عهد باديس ( ٣٨٦ - ٤٠٦ هـ ) غامروا بأنفسهم فى معركة خاسرة بالزباب ، وفيهم يقول مصورا بأسهم<sup>(٢)</sup> :

أبت لهم أن يرتضوا الضيم أنفس      كرام رأيت رميا بها الموت أخزما  
فهيو وما هابوا الردى فندرعوا      على خطر قطعا من الليل مظلما<sup>(٣)</sup>  
وهون وجدي أنهم خمسة مضوا      وقد أفضوا خمسين قرما مسوما<sup>(٤)</sup>  
وكان عظيم لو نجوا غير أنهم      رأوا حسن ما أبقا من الذكر أعظما  
أبوا أن يقرؤا والقتنا فى نخورهم      وأن يرتقوا من خشية الموت سلما  
ولو أنهم فرؤا لفسروا أعزة      ولكن رأوا صبيرا على الموت أكرما

وهو يقول إن أنفس هؤلاء القواد الخمسة كانت من الشعور بالهزة والكرامة بحيث أبت لهم أن يفرؤا بها عن الحرب فرؤوا بها فى أتونها وضرامها غير هائين وتدرعوا طائفة من الليل ومضوا يتقدمون حتى لم يجدوا متقدما وحتى تقطعت السيوف فى أيديهم . خمسة أبطال قتلوا خمسين شجاعا معلما من الأعداء ، وكانوا يستطيعون النجاة ولكنهم رأوا الضرب فى الأعداء حتى النفس الأخير فإن فى ذلك ذكرا عاظرا باقيا لهم . وتكاثر عليهم الأعداء وأخذتهم الرماح من كل جانب وأبوا أن يفرؤا خشية الموت ، ولو فرؤوا لفرؤوا أعزة بما أذاقوا أعداءهم من كثرة القتل والظعن ، غير أنهم رأوا أن يصبروا وأن يموتوا فى ميدان الحرب ، لينالوا شرف التضحية بالنفس . ويقول ابن قاضى ميلة فى وصف غريق بالبحر<sup>(٥)</sup> :

وما زلت أستسقى له القطر دائبا      وأستودع الريح السلام المجددا

(٤) أفضوا : قتلوا . قرما : شجاعا . مسوما : معلما

(٥) النموذج ص ٢١٥ .

(١) الديوان ص ٨٥ .

(٢) النموذج لابن رشيق ص ١١٣ وما بعدها

(٣) الردى : الموت . قطعا : طائفة .

فكان الذى استسقى أول خاتلٍ له والذى استودعتُ من أعظم العِدِّ<sup>(١)</sup>  
فنى فإظَ بين المِساء والريجِ رُوحَه وما زاره أهْلٌ ولا زارَ مُلحدًا<sup>(٢)</sup>

وهو يقول إن الذى كان يستسقى القطر له ويستودع له الريح السلام حين تمر بدياره كان الماء أول خاتل غادر له إذ أتاه من حيث لا يشعر ، وكان الريح من أعظم أعدائه ، وقد فاظت روحه بين الماء والريج وصعدت إلى بارئها ، وما زاره أهل ، ولا زار لحدا ، فقد ذهب أدرج أمواج البحر ولم يَين له أثر . وملتقى فى بجاية بمحمد بن على بن حماد فى القرن السابع ومراثيه للدولة الحمادية ، وسنخسه بترجمة . وكان السلطان أبو حمو موسى ( ٧٦٠ - ٧٩١ هـ ) شاعراً ومرت له ترجمة فى الفصل الماضى ، ومن قوله يرثى أباه<sup>(٣)</sup> :

قد كان لى فى الدُّنْي أبٌ يساعدى فصار تحت الثرى فى لحده اكتنفا<sup>(٤)</sup>  
مدذتُ فى ظل نُعماه يدي زما ونلت من رِفده فى دهرى التُّحفا  
يا فقدَ يوسفَ ما أبقيت لى جلدًا يا فقدَ يوسفَ إن الصبر عنك غفا  
ما مثل يوسفَ مفقودٌ لفاقدِه ولا كموسى أخو فقدي إذا وُصفا  
يا قبرَ يوسفَ لا تعدوك هاميةً من الغمام ولا زال الثرى وجفا<sup>(٥)</sup>

وأبو حمو موسى يكى أباه ويذكر كثرة ما كان يساعده به فى الدنيا حربا وسلما ، ويذكر كم مدله يده فيملؤها له نعمًا ونحفا ، وقد أصبح تحت الثرى يكتنفه اللحد من جميع جوانبه ، وقد أفقده موت أبيه الصبر والجماد ، ويشيد به أبًا مثاليا ويدعو لقبه أن تظل السحب وافدة عليه تهيم وتهطل ، ولا يزال الثرى أو القبر خافقا . ويقول محمد بن يوسف الثغرى فى تأيينه مواسيا أباه حمو موسى<sup>(٦)</sup> :

أسفا لمن فاق الملوك جلالهً وديانةً وبكلٍ فضلٍ حُوبى  
أنظمتُ به من زاهدٍ ومجاهدٍ ومنيلى رِفدي تارةً ومنيبٍ  
هوتَ النجومُ الزاهراتُ لفقدهِ وذوى من الأزهار كل رطيبٍ  
وتغيرتْ شمسُ النهار له أسى وتبدلتْ من نورها بشحوبٍ  
وبكت سيوفُ الهند فى أعمادها بدمٍ ، بماء فِرندِها مخضوبٍ  
ولقد بكنه جِاده بصهيلها وغدتْ تحنُّ له حينَ النيبِ<sup>(٧)</sup>  
منَ للوفود إذا أوتَ لجنايه يلقاهمُ بالبشر والترحيب

والثغرى يجعله فوق الملوك جلاله ومهابة وديانة وبكل ضروب الفضل من زهد وجهاد

جانب .

(١) خاتل : غادر .

(٢) وجفا : خافقا .

(٣) فاظ : مات . ملحدا : لحدا .

(٤) انظر الجزء الثانى من بغية الرواد ليحيى بن خلدون .

(٥) كتاب أبو حمو موسى لعيدالحميد حاجيات ص ٣٣٦ .

(٦) النيب : الإبل المعروفة بحثيها إلى أولادها .

(٧) الدنى: جمع ذنبا . اكتنفه اللحد: أحاطه من كل

وكرم وإنابة لله ، وكأنما هوت النجوم المتألثة لتفقدته وذوت الأزهار الغضة ، وحتى شمس النهار تغيرت حزنا وتبدلت من نورها بشحوب . وإن سيوف الهند التي طالما شهرها على أعدائه لتبكيه بدم مخضوب بما يلمع على صفحاتها من تموجات الضوء ، وإن جياده لتنتظره مؤمنة بصهيلها التي تعبر به عن حنينها له أن يمتطيها للقاء الأعداء . ويتساءل الشاعر من سيلقى الوفود الكثيرة التي كانت تقف على بابه بالبشر والترحيب وقضاء حاجاتها الكثيرة . ويقول الشهاب الخلوف شاعر السلطان عثمان الحفصى ييكي ابنا له مات صغيراً<sup>(١)</sup> :

أصبتَ عينَ المها يا موتُ بالرَّمَدِ      وقد أهدتَ جناحَ المجدِ فأمجد<sup>(٢)</sup>  
 ناجزتَ في صرَفِ آجالٍ قد اقتربتُ      إذ لا تسلُّها إلا يداً ييسد<sup>(٣)</sup>  
 كم زدتَ في نَفْصِكَ العليّاً جوى كبدٍ      حرىّ فيا ليت لم تنقص ولم تزد  
 وكم تركتَ أباً ييكي على وليدٍ      أدقته طعمم نُكُلُ الأمِّ للولدِ  
 بُنىّ ليتك لم تُخلقِ لورَى يلى      يا ليتنى لم أسمم بالصبر عن شهَد<sup>(٤)</sup>  
 سقى الحيا قبرك الزاكي وواصله      سحابُ عفوَ وغفرانِ مدى الأبد<sup>(٥)</sup>

وهو يخاطب الموت محزوناً ويقول له اتعد ، فقد أصبت عين الأم بالرمد لكثرة البكاء على من تفقدتهم وحطمت جناح المجد وناجرت في حدث الموت وأبيت إلا أن تستلم ابني يدا بيد ، وكم نقصت العلياً وزدت الكبد حزناً وحرارة ، وكم أدقت أباً فقدته لابنه فذاق طعم حزن الأم حين تفقد ابنها . ويخاطب ابنه فليته لم يخلق ليلي جسده وعظامه حتى لا يسام أبوه ولا يكلف الصبر على ما نزل به ، ويستسقى له السحاب وأن يمنحه الله عفوه وغفرانه .

ويكثر منذ أواخر عصر الدولة الحفصية رثاء التلامذة لشيخوهم الأعلام في تلمسان وغيرها من مدن الجزائر ، وكان من كبار علماء تلمسان في القرن التاسع الهجري محمد بن يوسف السنوسى نسبة إلى قبيلة مغربية وهو حسنى من ذرية الحسن بن علي بن أبي طالب ، وفيه ألف تلميذه الماللى كتاباً سماه « المواهب القدسية في المناقب السنوسية » وكان فقيهاً ، بل كان إماماً في الفقه وفي علم التوحيد وله فيه الكتاب المشهور عقيدة أهل التوحيد وشرح مرارا ، ورثاه تلميذه الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحوضى حين توفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م بقصيدة بديعة ، وفيها يقول<sup>(٦)</sup> :

- (١) الديوان ص ٢٥٠ .  
 (٢) أهدت : حطمت .  
 (٣) صرف : حدث . آجال : أعمار .  
 (٤) ورى بلى : اكتنام بلى . أسم : أكلف .  
 (٥) الحيا : الفيت . الزاكي الظاهر .  
 (٦) تعريف الخلف برجال السلف ص ٤٠٤ .

ما للمنازلِ أظلمتْ أُرْجَاؤُهَا  
 هذا الذى ورث النبىُّ فأصبحتْ  
 ودعا إلى التوحيدِ دعوةً مخلصِ  
 يا أُوحدِ العلماءِ يا علماً بهِ  
 مَنْ للتآليفِ التى أَلْفَتْهَا  
 مَنْ للعلومِ على اختلافِ فنونها  
 ياربُّ قَدْسٌ رَوْحُهُ وَضَرِيحُهُ  
 والأرضُ رُجَّتْ حينَ خابَ رجاؤُهَا  
 عللُ الضلالِ بهِ استُفيدَ دواؤُهَا  
 وإلى الشريعةِ فاستنارَ ضياؤُهَا  
 كلُّ العلومِ بدتْ لنا أنْحَاؤُهَا  
 يُيدى بها ما استشكلتْ قُرَاؤُهَا  
 ييدى لها نُكْتًا يروقُ سَنَاؤُهَا  
 ومنَ الجنانِ تحفه نَعْمَاؤُهَا

والحوضى يقول إن الديار أظلمت والأرض كأنما زلزلت زلزالا عظيما بموت السنوسى الذى ورث الهدى عن الرسول الكريم فكانما علل الضلال وجدت عنده أدواءها جميعا .  
 وعملان عظيمان له الدعوة إلى عقيدة التوحيد والشريعة وفقهها المضىء ، بل لقد أضاء للطلاب كثيرا من أنحاء العلوم التى درسها لهم لا فى الفقه والتوحيد فحسب بل أيضا فى المنطق والقراءات والفرائض وغير ذلك مما درسه وألف فيه . ويتكاثر رثاء التلاميذ لشييوخهم فى العهد العثمانى ، ونسوق من ذلك رثاء : شاعر مدينة الجزائر سعيد قدورة الذى اشتهر بشرحه لثن السلم فى المنطق والمتوفى سنة ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٥ م فقد رثى أستاذه محمد بن على المجاجى وكان قد توفى مقتولا وفيه يقول<sup>(١)</sup> :

مصابٌ جسيمٌ كاد يُضنى مقاتلي  
 ومنَ لفتون العلمِ نحواً ومنطقاً  
 لمنزلِهِ كانتْ تُشدُّ رحالنا  
 أحقاً قتلت الألعى محمداً  
 قتلت امرءاً من شأنه العلمُ والتقى  
 ومالك يوم الغرض إلا جهنم  
 عليه من الرحمن أوسعُ رحمة  
 ورزءٌ عظيمٌ قاطعٌ للمفاصلِ  
 وفقها وتوحيداً وفتوى لسانلِ  
 فمن ركب يسعى إليه وراجلِ  
 على قول حق لا على قول باطلِ  
 فىا خيرَ مقتولٍ وبأ شرَّ قاتلِ  
 تقادُ إليها صاغرا بالسلاسلِ  
 وأزكى سلامٍ فى الضحى والأصائلِ

وسعيد قدورة يقول إنه مصاب جسيم ورزء عظيم أن يقتل هذا العالم الجليل دون ذنب جناه ، ويقول إلى أين يذهب طلاب العلم نحواً ومنطقاً وفقها وتفسيرا وتوحيداً ، وإلى من يرجعون فى الفتوى . وكانت تشد إليه الرحال من فجاج الأرض بين ركب وراجل ، ويعجب أن يقتله شخص وهو لا يصدر إلا عن حق لعلمه وتقاه ، وإنه لخير مقتول ، أما قاتله فشر قاتل ، ويتوعده أن يكون مصيره إلى جهنم يقاد إليها بالسلاسل والأغلال ، أما الشيخ المقتول

(١) تعريف الخلف ص ٤٤٢ .

فعلية من ربه أوسع رحمة وأظهر سلام وأعطره . وتتوقف قليلا لترجم لشاعر بجاية محمد بن علي بن حماد .

### محمد<sup>(١)</sup> بن علي بن حماد القلعي

من أهل قلعة بنى حماد وفضلائها ، قرأ بها وتفقّه على علمائها ، ثم طلب المزيد فقرأ على علماء بجاية وكان بها أبو مدين شعيب فأخذ عنه كتابه : « المقصد الأسنى فى أسماء الله الحسنى » وشرحه من فاتحته إلى خاتمته ، ولزم دروس عبد الحق الإشبيلي وأخذ عنه كتاب الموطأ للملك وغيره من الكتب ، وحضر على جلة الشيوخ فى بجاية وغيرها ، وكان له برنامج يشتمل على مائتين واثنتين وعشرين كتابا مسندة إلى مؤلفيها ، ويبدو أنه كان ينزع نحو المذهب الظاهري مذهب دولة الموحدين ، ولذلك عيّنوه - فى رأينا - قاضيا بالأندلس فى مدينة الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوه منها سنة ثلاث عشرة وستمائة إلى سلا فى المغرب على المحيط وظل بها إلى أن توفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م . وكان شاعرا بارعا ، وله قصائد أو مرثا مختلفة يرثى بها دولة بنى حماد التى أزالها الموحدون عن موطنه سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م ، وفى إحداها يقول<sup>(٢)</sup> :

أين العروسان لا رَسَمٌ ولا طَلَلٌ  
وقصر بلارةٍ أودى الزمانُ به  
وما ورا الكوكبِ العلوى معصمٌ  
وقد عتقا قصر حمادٍ فليس له  
وإن فى القصرِ قصرَ الملكِ معتبرا  
وما رسومُ المنارِ الآن مائلةٌ  
حتى المصلى أمحت آياته وعفت  
كرجمك الطرفُ كانت كلُّ أبدةٍ  
فانظر ترى ليس إلا السهلُ والجبلُ  
فأين ما شادَ منه السادةُ الأولُ  
وقد عرا الكوكبَ التغييرَ والبدلُ  
رَسَمٌ ولا أثرٌ باقى ولا طَلَلُ  
لمن تغرّره الأيامُ والدولُ  
لكنها نَبَذَ يَجْرِى بها المثلُ  
إلا جدارا وما طَلَّتْ به الطلُّ<sup>(٣)</sup>  
مما تراه كذاك العمرُ والأجلُ

وهو يقول أين القصران العروسان المبهجان ، لم يعد حتى رسم ولا طلل ولم يعد إلا الفضاء ، وقد أمحى قصر بلارة المجيد وما شاده فيه ملوكه الأول ، وامحى قصر الكوكب العلوى وقصر حماد إذ لم يبق منه رسم ولا أثر ولا طلل ، وإن فى ذلك لعلبة أى عبرة لمن يغتر بالأيام والدول ، وأين قصر المنار ؟ إنه لم يبق منه إلا آثار يتمثل بها الناس ، وحتى المصلى الذى كان يلحق بالقصور لم يبق منه إلا جدار وبقايا أطلال إذ سرعان ما زايته النعمة سريعا وزايلت كل أبدة

(١) انظر فى ترجمة محمد بن علي بن حماد عنوان الدراية

ص ٢١٨ وتعریف الخلف ص ٤٨٧ وتاريخ الجزائر

فى التقديم والحديث للمبلى ص ٦٣٤ وتاريخ الأدب

(٢) انظر فى ترجمة محمد بن علي بن حماد عنوان الدراية ص ٢١٨ وتعریف الخلف ص ٤٨٧ وتاريخ الجزائر فى التقديم والحديث للمبلى ص ٦٣٤ وتاريخ الأدب

(٣) الطلل : جمع طَلَل .

وغريبة مما كان في القصور من عجائب ونقوش ، فكل ذلك ذهب كرجلك الطرف إلى غير مآب كما تذهب الأعمار والآجال ، ويقول<sup>(١)</sup>

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة  
وهل أسمعن تلك الطيور عشية  
وهل أرددن عين السلام على الصدى  
وأنظر طيقان « المنار » مطلة  
كأن القباب المشرفات بأفقيه  
فإن ثنت الأيام عنها أعتى  
فصبر جميل غير أن صباتي  
بوادى الهوى ما بين تلك الجداول  
تجاوب في تلك الغصون البلايل  
فأبرد من حرّ الضلوع النواهل<sup>(٢)</sup>  
على الوجنات الزاهرات الخمائل<sup>(٣)</sup>  
نجوم تبذت في سعود المنازل  
وأنزلتني في غير تلك المنازل  
ستبقى بقاء الطالعات الأوافل

وابن حماد يتمنى في غربته الطويلة ببلاد المغرب والأندلس لو بات ليلة بوادى بجاية :  
وادى الهوى والحب بين جداولها يتسمع إلى الطيور وهي تجاوب البلايل في المساء ، ويتمنى  
أن يرد على عين السلام ليبرد صداه ويشفي ظمأه الطويل وحر ضلوعه ، وينظر طيقان المنار  
وهي مطلة على الخمائل المزهرة فوق الأرض الصخرية حول بجاية ، ويتصور كأن قباب هذا  
القصر التي كانت تشرف على ما حوله نجوم مسعدة . ويمتلىء شوقا وحنانا لبلدته بجاية فيقول  
إن ثنت الأيام أعتى عنها إلى سلا وغير سلا من مدن المغرب والأندلس فسأفزع إلى الصبر  
الجميل ولكن صباتي يبلى وموطنى ستظل جائمة في فؤادي ما حييت ، وستظل باقية بقاء  
النجوم الطالعات الأوافل ، ويقول في عين السلام<sup>(٤)</sup> :

على عين السلام سلام صب  
تأود أيكها وجرت صباها  
وأبرد ما يكون الجو فيها  
وقد قام المنار على ذراها  
بناء يردى إيوان كسرى  
غذاه ماؤها العذب النير  
وشم لها كما فتق العبير  
وأندى حين يخدم الحجير  
كما قام العروس أو الأمير  
لديه والخوزنق والسدير

وهو يرسل بالتحية إلى عين السلام التي طالما نهل من مائها العذب الصافي الزاكي ، وإن  
أيكها أو شجرها ليبتنى بفعل الرياح ويهب صباها عليلا حاملا منها شذى عطرا ، وحين  
تشدت حرارة الهاجرة وراء بجاية في الصحراء تصبح بجاية أبرد وأندى ما تكون ، وإن  
قصر المنار ليقف في أعاليها وكأنه عروس ينتظر الزفاف أو أمير ينتظر الموكب الحافل ، وإنه

(٤) انظر في الأبيات التالية الملبى ص ٦٣٤ والظمار

ص ١٢٣ .

(١) المرجعين السالفين .

(٢) الصدى : العطش .

(٣) الوجنات : مرتفعات الأرض .

لقصر مشيد يُدْرَى بجانبه إيوان كسرى ، والخورنق والسدير : قصران كانا لملوك الحيرة في الجاهلية .

## ٤

### شعراء الزهد والتصوف

#### ( أ ) شعراء الزهد

الزهد قديم في الأمة منذ العصر الإسلامي وزاهد الأمة الأول محمد ﷺ وكان كثيرين في أيامه يأتسون بزهده وتقشفه ، ويفرد الجاحظ للزهد صحفا كثيرة في البيان والتبيين حتى عصره ، ويتوالى مَنْ بعده في الكتابة عنهم ، ويلقانا منهم في المغرب كثيرين في كتاب رياض النفوس للمالكى ، يقبلون على ما عند الله من ثواب الآخرة ويرفضون الدنيا ، ودائما يذكرون الموت وأنه مقبل لا محالة وأن من واجب الإنسان أن يتدبر أمره وغده وأنه عما قريب محمول على آلة حدياء وسيلقى ربه ، وحرى بالإنسان أن يعمل لآخرته قبل أن يفجأه الموت ويأتيه على حين غرّة أو غفلة ، وفي ذلك يقول بكر بن حماد متحدثا عن الموت<sup>(١)</sup> :

لقد جمحتُ نفسي فصدتُ وأعرضتُ	وقد مرقتُ نفسي فطال مروقتها <sup>(٢)</sup>
فيا أسفى من جنح ليلٍ يقودها	وضوء نهارٍ لا يزال يسوقها <sup>(٣)</sup>
إلى مشهدٍ لأبدٍ لى من شهوده	ومن جرّع للموت سوف أذوقها
سحاب النايَا كلَّ يومٍ مظلةٌ	فقد هطلتْ حولي ولاح بُروقها
تجهمتُ خمسا بعد سبعين حجةً	ودام غروبُ الشمس لى وطلوعها
وأيدى النايَا كلَّ يومٍ وليلةٍ	إذا فتقتْ لا يستطيع رنوقها
تُصبحُ أقواما على حين غفلةٍ	ويأتيك فى حين البياتِ طروقها

وهو يقول إن نفسه جمحت منه وركبت هواها وعصته عصيانا شديدا ، إذ لا تسمع إلى نصحه وإرشاده ، وكأنما زمامها بلبل مظلم مما يؤسفه وإنها لا تتطلع إلى ضوء نهار مشرق يريها المشهد الحقيقى من الموت وجرّعه وما سيحسونه ، وإن سحاب الموت ليظله ، وإنه ليهطل من حوله وتلمع بروقه ، وقد احتمل خمسا وسبعين سنة ، وطالما أشرقت عليه الشمس وغربت وأيدى الموت من حوله إذا فتقت فتقا لا يستطيع أحد رتقه ، وتصبح أقواما فجأة بمن تختطفه منهم وبالمثل تسميهم ، وما أحرانا أن نعمل لآخرتنا قبل فوات الأوان . ويحدثنا صاحب

(١) الديوان ص ٧٨ .

(٢) جنح الليل : ظلامه .

(٣) جمحت : نفرت . مرقت : خرجت وعصت .

(٤) عنوان الدراية ص ٧١ .

عنوان الدراية عن الشيخ الفقيه النحوى الغوى محمد بن الحسن بن ميمون القلمى البجائى ، وكان كثير التلامذة والطلاب وتقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، وكان يسلك فى شعره طريقة أبى تمام ، وتوفى سنة ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م وله منظومات فى الزهد والمدح النبوى ، ومن قوله فى الزهد<sup>(١)</sup> :

فمهّد المُعذّرَ ليس العَيْنُ كالأثرِ .	الخَيْرُ أصدقُ فى المرأى من الخَيْرِ
فكلُّ شىءٍ على حدِّ إلى قدرِ	واعملْ لأخرى ولا تبخلْ بمكرمةِ
يغتاله الموتُ بين الوردِ والصدرِ	وكل حَيٌّ وإن طالت سلامتهُ
ولا تقل ليتنى منه على حدِّ	هو الحِمامُ فلا تُبعِدْ زيارتهُ
لم يخلص الصّفوُ إلا شيبَ بالكدرِ	ياوِجُ من غرّه دهرٌ فسّرُ به
أن المقام بها كاللّمحِ بالبصرِ	تنافسُ الناسُ فى الدنيا وقد علموا
وعبرةٌ لأولى الأبوابِ والعيبرِ	أنظُرْ لمن باد تنظُرَ آيةً عجبا

وهو يقول إن التجربة أصدق من الخبر إذ ما يُرى بالعين ليس كالأثر ، واعمل لآخرتك ولا تبخل بصالحه ، فكل شىء مقدر ، وكل حى وإن طالت سلامته سيعتاله الموت فجأة بين ورده لشىء وصدره عنه ، إنه الموت فلا تظن أن زيارته ستبطل عنك ، ولا تظن أنك تستطيع أن تكون على حذر منه ، وياوِج من غرّه زمن سرّه ، فإن الصفو دائما يشاب بالكدر ، وياوِج الناس فإنهم يتنافسون فى الدنيا وأمانها ومظاهرها وهم يعلمون أنهم راحلون عنها سريعا سرعة اللّمح بالبصر ، وانظر لمن باد من السالفين فإن فى ذلك عبرة لأولى الأبواب . ويذكر ابن ميمون البجائى الملوك الهالكين : دارا الفارسى وذايزن اليمنى وهرقل البيزنطى وغيرهم فكلهم أفنأهم الدهر ولم تبق منهم إلا الأسماء والسير .

وتكثر الابتهالات إلى الله والاستغاثات والتوسلات على السنة الزهاد ، ويتسع ذلك فى العهد العثمانى ويتسع معه وضع الأذكار والأورد ، ومن أطول الاستغاثات استغاثته<sup>(٢)</sup> محمد بن حواء المستغانمى بربه ، وسميت الغوثية الكبرى فى الكرب والشدائد إذ تقع فى أربعمئة بيت ، بدأها بالحمد لله والصلاة على رسوله روح الوجود ومطلع الأنوار وقدوة الأقطاب ويخرج إلى دعاء ربه والاستغاثة به إلى أن قال<sup>(٣)</sup> :

يا من إليه تَرَجُّعُ الأمورُ	يا سامعَ الدعاءِ يا قديرُ
أَنْصُرْ ذليلا ماله أنصارُ	يا مالكَ الملوكِ يا جبارُ

(٣) سعد الله ١٤٨/٢ .

(١) تعريف الخلف ٣٧٣/٢ .

(٢) نفس المرجع السابق .

ولعبد الكريم الفكون ، صاحب رسالة فى التصوف ونقد رجاله وما صار إليه ؛ قصيدة يتوسل فيها إلى ربه جعل مطلعها<sup>(١)</sup> :

بأسمائك اللهم أبدى توسلا فحقق رجائى يا إلهى تفضلاً

وكرر التوسل فى هذا العهد بين الفقهاء والشعراء جميعاً ، وللمفتى المالكى محمد بن الشاهد صاحب القوائد المولدية : توسل<sup>(٢)</sup> مطلعته :

بأسمائك الحسنى فحنتُ توسلى ومنك رجوتُ العفو أسمى مطالبى

## ( ب ) شعراء التصوف

نزل الجزائر أئمة التصوف الأندلسيون منذ القرن السادس الهجرى يتقدمهم أبو مدين شعيب<sup>(٣)</sup> المتوفى سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م ويقال إنه من تلامذة الشيخ ابن حزمهم بفاس المتوفى سنة ٥٥٩ ولبس الخرقة على يد الشيخ أبى عبد الله الدقاق وسلك طريقته على يد أبى يعزى المتوفى سنة ٥٧٢ واستوطن بجاية وانتشرت بها طريقته الصوفية ، وأرسل فى طلبه سلطان الموحدى المنصور يعقوب فمضى إليه عن طريق تلمسان وتوفى بها وقبره بالعباد فى جوارها ، ومن قوله : « بى قُلْ ، وعلى دُلْ ، فأنا الكل » وهى عبارة قد تفيد أنه كان يؤمن بالاتحاد بالله ، وربما كانت شطحة من شطحاته وكان تصوفه فلسفياً . ومن نزل تلمسان فى القرن السادس أبو عبد الله<sup>(٤)</sup> الشوذى الإشبلى من كبار العبّاد العارفين ، ويروى تلميذه ابن دهاق المتوفى سنة ٦١١ أنه رآه بتلمسان فى يده طبق به حلوى يبيعه للصبيان الصغار وهم ينقرون له ويدور ويشطح ، وكان يمزج التصوف بالفلسفة ويقول بوحدة الوجود<sup>(٥)</sup> . ومن هؤلاء الأئمة النازلين بالجزائر محبى<sup>(٦)</sup> الدين بن عربى المولود سنة ٥٦٠ والناشئ فى إشبيلية ، وعلى متصوفها تلقن التصوف وفى سنة ٥٩٠ بارحها متجولاً فى الأرض ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة ثم أتجه إلى المشرق . ومن نزل بجاية ابن<sup>(٧)</sup> سميع عبد الحق وأبو<sup>(٨)</sup> الحسن الششتري ، ويروى أنهما التقيا وأراد الششتري أن يتركه إلى أصحاب أبى مدين فقال له : إن كنت تريد الجنة فسر إليهم ، وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلمّ إلى . وكأنه لم يبق فى القرنين السادس

للتفتازانى ٧١ - ٧٥ .

- (٥) انظر فى ابن عربى عنوان الدراية ص ١٥٦ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٣ وما به من مراجع .
- (٦) راجع فى ابن سميع عنوان الدراية ص ٢٣٧ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٥٩ وما به من مراجع .
- (٧) انظر عنوان الدراية ص ٢٣٩ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٧ وما به من مراجع .

(١) سعد الله ١٥٧/٢ .

- (٢) افصح الغربى كتابه عنوان الدراية بترجمة ضافية لأبى مدين وانظر أنس الفقير لابن منقذ والبستان ١٠٨ والشوف للتادل رقم ١٦٢ .
- (٣) انظر فيه البستان ص ٦٨ وبغية الرواد ليحى بن خلدون ص ١٢٧ وكتابنا عن تاريخ الأدب العربى فى الأندلس ص ٣٥٨ .
- (٤) راجع كتابنا عن الأندلس وكتاب ابن سميع

والسابع إمام من أئمة التصوف الأندلسيين المتفلسفين إلا نزل الجزائر والبلاد المغربية واستمعوا أشعاره . وهو ما جعل كثيرين من الجزائريين منذ القرن السابع الهجرى ينظمون أشعارا صوفية أو تنزع نحو التصوف كثيراً ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بهذه الصلة إذ يترجم الغبريني فى عنوان الدراية لكل من ذكرتهم من أئمة التصوف الأندلسيين ماعدا الشوذى نزىل تلمسان وقد كتب عنه يحيى بن خلدون فى تعداد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء والصالحين . وطبيعى أن يكون أكثر المتأثرين بهؤلاء الأئمة من أهل بجاية التى نزل بها أبو مدين فى القرن السادس ونزلتها بعده كثرة من هؤلاء الأئمة . ونبدأ بعلى بن أحمد الحرالى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وفيه يقول الغبريني : « العالم المطلق الزاهد الورع ، ممن جمع العلم والعمل ، أما علمه فإنه قد جمع فنون العلم بجملتها ، واستولى على كليتها : أما علم الأصول فأصول الدين وأصول الفقه وأما معقولات الحكماء فهو أعلم الناس بالمنطق ، وله فيه تصنيف سماه بالمعقولات الأول ، وأما علم الطبيعيات والإلهيات فكان أعلم الناس بها ، وكنا نقرأ عليه كتاب النجاة لابن سينا فيقرّره ، ثم يوهنه ، وله تفسير على كتاب الله تعالى ، تكلم عليه لفظة لفظة وحرفا وحرفا . وله فى التحقيق أو التصوف<sup>(١)</sup> :

ما لنا منا سوى الحبال العدم	ولبارينا وجودٌ وقدم <sup>(٢)</sup>
نحنُ ببيانٍ بنته حكمة	وخليقٌ بالبنا أن ينهدم
أشرقتْ أنفسنا من نوره	فوجودُ الكلِّ عن فيض الكرم
فترقُّ النفس عن عالمها	باختباءٍ ليس تدينه الهمم
ليس يدرى من أنا إلا أنا	ها هنا الفهمُ عن العقل انهمم
كلما رمتُ بذاتى وُصلةً	صار لى العقلُ مع العلم جلم <sup>(٣)</sup>
يقطعانى بخيالاتِ الفنا	عن وجودٍ لم يقيدَ بدمم

وهو يقول ما لنا إلا العدم منه جئنا وإليه نمضى ، ولبارينا وجود أزلى وقدم سرمدى ، وهل نحن إلا بيان ، بنته حكمة عليا ، وكل بيان مصيره أن ينهدم ، وهلمى أنفسنا قد أشرقت من نور رب العزة ، وهل وجودنا إلا بفيض كرمه ، وإن النفس لترقى يوما عن عالمها الأرضى باختباء ما بعده اختباء ، وليس أحد سواى يدرى حقيقتى حتى ليغمض الفهم ونحار العقول ، وكلما رمت وصلة بذاتى تصلنى بربى وقف العقل مع العلم فى طريقي يمزقانى بخيالات الفناء دون وجودى المأمول مع ربى الذى لم يقيد بفناء ولا يعدم . وكان يعاصره أبو العيش الخزرجى محمد بن أبى زيد المتصوف التلمسانى وسنخسه بترجمة . ومن تلامذة الحرالى أبو زكريا

(٣) الجلم :المقص يقص به الصوف .

(١) عنوان الدراية ص ١٥٥ .

(٢) بارينا : خالقنا .

يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م ومازال به الخرابى حتى ظهر له بعض التحقيق ، واعتمد - كما يقول الغبريني - جادة الطريق ، وأشده أبو زكريا - فى معنى ما ظهر له وبين له الحاله فيما لم يظهر له - هذه الآيات<sup>(١)</sup> :

طريقا وأبدت لمعةً من جمالها <sup>(٢)</sup>	جلتُ لك كَلِيهِ من مشى نَقابِها
وفِيَاك الإلماعُ برودةً ظلّالها <sup>(٣)</sup>	فطيتَ بها عيشا ونَهتَ لَذَاةً
ضَحَاءٌ وأبدتُ وارفاً من دلالها	فكيف ترى ليلى إذا هى أَسْفَرَتُ
ولم تُخَلْ وَقْتاً من مَنالِ وصلها	وكيف بها إن لم يُبْ عنك شَخْصُها
وكانتكَ تحقيقاً فَحَلَّتْ لِحَالِها	وكيف يكون الأمرُ إن أنت كُنْتِها

وهو يكتنى عن الذات الإلهية باسم ليلى ، ويقول إنها كشفت قليلا من مشى نقابها وأبدت لمعة من جمالها فطاب بها عيشا وتاه لذة وكأنما أظله الإلماع بجمالها برد ظلّالها فكيف إذا أسفرت ضحى وأبدت ناضرا من دلالها ولم يغب عنا شخصها ومنال وصلها ، واتحدت بها وأصبحت كأتنى هى وتبدلت حالى . ويدون ريب تصوف أستاذه الخرابى أروع من تصوفه ، إذ تغيب فيه المادة والحس ، ولا تصبح الذات العلية ليلى ولا غير ليلى ممن يهيم بهن الشعراء ويتخذهن بعض المتصوفة رمزا للذات الربانية . وكان يعاصر يحيى بن زكريا فى بجاية عبد الحق بن ربيع العالم المحقق الصوفى المجتهد المتوفى سنة ٦٧٥ هـ/١٢٨٥ م وكان فقيها وعالما بأصول الدين وأصول الفقه والمنطق ، وله قصيدة صوفية طويلة أعجب بها أستاذه الخرابى وانتقى منها طائفة من أبياتها من مثل قوله<sup>(٤)</sup> :

وبدا هلالُ الحسنِ منها مُقَمِّرا	سفرتُ على وجهه الجميل فأسفَرا
وسقت شرابَ الأُنسِ منها كَوَثِرا	ودنتُ فكَاشَفَتِ القلوبَ بسرِّها
عينائى حتى عُدَّتْ كُلُّ مُبْصِرا	ورأيتها فى كلِّ شىءٍ أبصرتُ
بالحمد والتسبيح عنها أخبِرا	وسمعتُ نطقَ الناطقين فكُلِّهم
ماء الحياة مُسَرِّدا ومدَهرا	وبها فَنِيَتْ عن الفناء وغصتُ فى
وبيانه لا يستقلُّ بما جَسرى	إفصاحُ قولى لا يفنى بمواجدى
سرًّا ولكن لم يكن ليذكرا	لو كان سرُّ الله يَكشَفُ لم يكن

وهو يقول إن الذات العلية سفرت وأشرقت فأشرقت الدنيا وبدا هلال الحسن منها كأنه البدر فى تمه وإكماله ، ودنت ففرفت القلوب سرها وسقتها كوثرا من شراب الأُنس . وأحس كأنه يراها فى كل شىء من حوله ( فكرة الحلول التى يرددها بعض متفلسفة الصوفية ) وكان

(٣) فيَاك : أظلك .

(٤) عنوان الدراية ص ٥٩ .

(١) عنوان الدراية ص ١٠٣ .

(٢) مشى : منعطف .

كل شيء فيه أصبح مبصرا ، وسمع حمد كل ما فى الكون لربه وتسبيحه ، ويقول إنه فنى عن الفناء ، وهو بذلك يردد فكرة الفناء فى الذات الإلهية التى يرددها بعض متفلسفة المتصوفة . ويصرّح بأن إفصاحه لا يفنى بمواجهه وكذلك بيانه ، ويقول إن سرالله فى الوجود لا يكشف ، ولو كشف لم يكن سرا غير أنه لا يكشف ولا يذكر . وعبد الحق بن ربيع بذلك كله أقرب إلى روح أستاذه الحرالى وتصوفه من زميله يحيى بن زكريا . ويقرب من روح الحرالى أيضا تصوف إبراهيم بن أحمد بن الخطيب ، ومن نظمه قوله<sup>(١)</sup> :

روضُ المعارفِ حَضْرَةُ العُرْفَاءِ	وَجَنَّا التَّفَكْرَ جَنَّةَ العُقْلَاءِ
ونعيمُ أهلِ الحقِّ ذَرْكُ حَقَائِقِ	لاحتْ بأفقِ القلبِ حالَ صفاءِ
فاقرأ سَطَوَرَ الكونِ فى منشورها	بِعيانِ غَيْبٍ أو بِفِرْطِ ذِكْأِ
وانظر إلى الأكوان كيف تمايلتْ	طَرِبَا لِسرِّ لَاحِ عند خفَاءِ
وأفاض عن بحر الجمال أهلةً	بهرتْ بحاسنهنَّ بدرَ سماءِ
وتذكرتْ نجدا فهاج لذكره	وَجَدٌ ونادى الشوقَ بالبرِّحَاءِ <sup>(٢)</sup>
ورأتْ به كلُّ العوالمِ أَحْكَمَتْ	فَتَرْتَبَتْ وَتَوَشَّحَتْ بِضِيَاءِ

وهو يقول إن حضرة المعلمين روض المعارف وجنّات الفكر جنة العقلاء ، أما أهل الحق من المتصوفة فنعيمهم إدراك الحقائق التى تلوح بالقلب فى حال الصفاء . وتأمل فى الكون ، بل تأمل فى الأكوان وما تحمل من سر بل أسرار لرب الكون وما أفاض عن بحر جماله من أهلة ترى بهرت بدر السماء ، وتذكرت نفسه نجدا فهاج به وجد ملتاع وشوق مضطرم ورأت كل العوالم أحكمت وتزينت بلمعة من ضياء الله ونوره .

وإذا تركنا بجاية ومتصوفتها إلى تلمسان وجدنا المتصوفة بها فى القرن السابع قليلين بالقياس إلى بجاية ، ومن متصوفتها أبو عبد<sup>(٣)</sup> الله بن الحجاج محمد بن أحمد بن محمد اللخمي واعظ أهل زمانه، حسن صوت وغزارة حفظ من سمعة واحدة لكل ما يطرُق أذنه، استقدمه المنصور الموحدى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى مراكش فاستوطنها وحظى عند المنصور والناصر والمستنصر ، وكان يتصدق براتبه ، ويجهز منه ضعيفات البنات ، وله فى الوعظ كتاب أسماء حجة الحافظين ومحجة الواعظين ، توفى سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٨ م ، وبما يؤثر من نظمه فى التصوف قوله :

غريبُ الوصفِ ذو علمٍ غريبِ	عليلُ القلبِ من حُبِّ الحبيبِ
إذا ما الليلُ أظلم قام يبكي	ويشكو ما يكنُّ من الوَجيبِ <sup>(٤)</sup>
يقطعُ ليله فكرا وذكرًا	وينطقُ فيه بالعجب العَجيبِ

(١) عنوان الدراية ص ٢٣١ .

(٢) البرحاء هنا : شدة الحب ولواعجه .

(٣) انظر فيه بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٢/١

وتعريف الخلف ٣٦١/٢ وفيه أنه ابن اللحام لا الحجاج .

(٤) الوجيب : الخفقان .

بِهِ مِنْ حُبِّ سَيِّدِهِ غَرَامٌ      يَجْلِسُ عَنِ التَّطَبُّبِ وَالطَّبِيبِ  
وَمَنْ يَكُ هَكَذَا عَبْدًا حَبًّا      تَطْلُبُ ثِيَابَهُ مِنْ غَيْرِ طِيبِ

وهو يصف نفسه بغرابة الوصف والعلم واعتلال القلب من حب الحبيب ، ويقول إنه يتهجد ليلا وهو يكي ويشكو ما يكن من خفقان قلبه ، وما يزال يقطع ليله فكراً وذكرا لربه مسبحا مستغفرا وبه من حبه غرام يعز على التطبب والطبيب ، ومن يكن مثله عبدا محبا لا تذاً بربه تطيب ثيابه من غير أن يمسه طيب . وولتقى بعد ابن الحجام فى تلمسان بالنصف الأول من القرن السابع الهجرى بابن أبى العيش وسترجم له . وتضمن علينا كتب التراجم بشعر صوفى فى القرن الثامن حتى إذا كنا فى القرن التاسع الهجرى التقينا بصوفى كبير هو إبراهيم التازى نزيل وهران وسترجم له ، وينظم عبد الرحمن الأخرى قصيدة فى التصوف وآدابه يسميها القدسية .

ونمضى إلى العهد العثماني فتكثر المنظومات فى الطرق الصوفية المشهورة وأصحابها وتكثر معها الشروح وتمثل لذلك بسينية ابن باديس فى طريقة عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م ومطلعها<sup>(١)</sup> :

ألا سِرَّ إِلَى بَغْدَادَ فَهَيَّ مَنَى النَّفْسِ      وَحَدَّثَ بِهَا عَمَّنْ تَوَى بَاطِنَ الرَّمْسِ

وشرحها أحمد بن محمد الحاج البجائي التلمساني قاضى بجاية وسمى شرحه : « أس الجليس فى جَلْوِ الحناديس عن سينية ابن باديس » . وشرحت أيضا المنظومات فى التصوف وأحواله وفى مقدمتها منظومة « القدسية » لعبد الرحمن الأخرى ، شرحها الورتلاني وسمى شرحه : « الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية فى شرح ألقاظ القدسية » . ويتكاثر فى العصر التصوف الشعبي والدرائش وتدخل عليه شعوزات هو منها براء . ونقف للترجمة لابن أبى العيش وإبراهيم التازى .

أبو العيش<sup>(٢)</sup> بن عبد الرحيم الخزرجى

هو محمد بن أبى زيد عبد الرحيم ( وفى بعض الروايات عبد الرحمن وفى بعضها عبد الحق ) بن محمد بن أبى العيش التلمساني إشبيلي الأصل وكان فقيها جليلا ، روى ببلده تلمسان عن أبى بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م وعن أبى عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى المتوفى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٤ م وعن أبى محمد بن حوط الله

(١) ٣٣٢ والقسم الأول من السفر الثامن من كتاب الذليل والتكملة لكتاني الموصول والصلة لمحمد بن عبد الملك المراكشى ( طبع المغرب ) ص ٣١٣ .

(٢) سعد الله ١٣٦/٢ .. والرسم : القبر .  
(٢) انظر فى أبى العيش الخزرجى وشعره بغيه الرواد ص ١٠٣ وتعريف الخلف ٣٤٢/٢ ونيل الانتهاج ص

المتوفى سنة ٦١٢ هـ/١٢١٦ م وعن أبي عبد الله بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م وكان عالما وأديبا بارع الكتابة وشاعرا جيد الشعر ، صنف كتباً في أصول الفقه وعقائد أصولية في الدين ، وفسر القرآن الكريم وشرح الأسماء الحسنى ، وله في التصوف نظم كبير وكذلك في الزهد وسبل الخير والوعظ وتنزيه البارى جلّ شأنه . ولم تنص كتب التراجم على تاريخ وفاته ولكن كثرة أساتذته الذين عاشوا بين سنتى ٦٠٠ و ٦١٢ يدلون بحياتهم على أنه عاش فى القرنين السادس والسابع للهجرة . ومن قوله فى التصوف :

اللَّهُ قُلٌّ وَدَعَّ الوجودَ وما حَوَى	إن كنت مرتاداً بلوغَ كمالِ
فالكلُّ دونَ الله إن حَقَّقْتَهُ	عدمٌ على التفصيل والإجمالِ
والعارفون فنوا ولما يشهدوا	شيئاً سوى المتكبرِ المتعالىِ
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً	فى الحالِ والماضى والاستقبالِ
من لا وجود لذاته من ذاته	فوجوده لولاه عَيْنُ مُحالِ
فالمَحُّ بطرفك أو بعقلك هل ترى	شيئاً سوى فعلٍ من الأفعالِ
وانظر إلى أعلى الوجود وسفله	نظراً تؤيِّده بالاستدلالِ
تجد الجميعَ يشير نحو جلاله	بلسانِ حالٍ أو لسانِ مقالِ
وجب الوجودُ لذاته وصفاته	فَرْدًا عن الأكفاءِ والأمثالِ
يبقى وكلُّ يضمحلُّ وجودُهُ	ما واجِبٌ كمقيِّدٍ بزوالِ

والآيات من أول بيت إلى آخر بيت تقول ليس فى الوجود سوى الله فتعلق به ودع ماسواه ، فالكل - كما يقول فى البيت الثانى - عدم ، والعارفون من المتصوفة فنوا فى ربه ، ولم يشهدوا فى الوجود سواه ، ويقول إن من لا وجود لذاته من ذاته كربِّ العزة فوجوده لولاه ضرب من المحال ، وانظر بعينك أو بعقلك هل ترى إلا فعلاً من أفعاله : أعلى الوجود وسفله ، والجميع يشير نحو جلاله بلسان مقال معترف أو بلسان حال شبه معترف بأنه واجب الوجود لذاته وصفاته الإلهية ، متفرداً بذلك عن الأشباه والأمثال ، فليس كمثل شىء فى الوجود ، إذ يبقى وحده ويفنى الكل ، فهو وحده واجب الوجود وكل ما عليها فان . ويستمر منشداً :

هو مُمنِكُ الأشياءِ من علوِّ إلى	سُفلى ومُبدِعُها بغيرِ مثالِ
فاسكنْ إليه بهمةٍ علويةٍ	متزهاً عما سوى الفعّالِ
وهو الذى يُرجى ويُخشى لا تُلذِّ	بسواه فى حالٍ من الأحوالِ
فالشرُّ جاء بذا وأتوارُ الهدى	قد أيَّدنهُ فِعشٌ خلى البالِ

وابن أبي العيش يقول إن الله هو الذى يمسك السموات وغير السموات أن تزول وهو الذى يبدعها على غير مثال مرسوم ، فاطمئن إليه بهمة روحية فإنه الفعال لما يريد ، وهو موضع الخوف والرجاء فلا تَلذُّ بسواه . جاء بذلك الشرع والحديث النبوى ، وتمسكُ بذلك تعش رضى النفس خلى البال . وله أبيات يصور فيها اعتزاله الخلق وانقطاعه إلى الحق رب الخلق يقول :

لدارِ أبى فلانٍ أو فلانٍ	قنعتُ بما رُزقتُ فلستُ أُسعى
ولا أحدٌ أراهُ أو يرانى	وآثرتُ المقامَ بكسْرِ بيتى
مُعِينٍ فى المعارفِ أو معانى	ولا ألقى خليلاً غيرَ صَبْرٍ
وإن لم آتِه سَعياً أتانى	وقد أيقنتُ أن الرُّزقَ آتٍ
وقد شاهدته رأى العيانِ	وقد حَقَّقتهُ فهما وعِلماً
هنا وهناك من أسنى مكانِ	فلازمُ ذا بإخلاصٍ تُمكِّنُ

والقطعة مع ما تصور من الانقطاع إلى عبادة الله تصور مبدأ التوكل المعروف عند المتصوفة بحيث لا يفكرون فى رِزقِ الغد وأن ما سيرزقون به آت لا ريب فيه ، وهو يقول إننى قانع برزقى ، ولست أحاول أن أتسول من فلان أو لئى فلان ، إذ تكفينى كِسرة بيتى ولا أحد يرانى متذللاً لأحد ، ولا أبحث عن خليل يعينى ، غير صبر أستعين به فى دراسة المعارف أو بعض المعانى ، وقد أيقنتُ أن رزقى آتٍ سمعت إليه أو لم أسمع ، عرفت ذلك وتحققت منه فهما وعِلماً وخبرة . واعمل بذلك تَحَظَّ بأرفع مكان .

### إبراهيم<sup>(١)</sup> التازى

هو إبراهيم بن محمد بن على التازى حفظ القرآن وأكبَّ على دراسة العلوم ، وحج وحضر دروس الشيوخ فى مكة والمدينة وتونس وتلمسان ، وبدت فيه ميول قوية للتصوف وليس الخرقه من الشيخ صالح الزواوى بسنده إلى أبى مدين ، واشتهر بالتازى لولادته فى بربر تازا بالمغرب الأقصى ، وانتهى به المطاف إلى وهران ولقيه شيخها الصالح محمد بن عمر الحوارى لقاء حسناً ، وعنه ورث زاويته وطلابها بعد وفاته ، واشتهر ذكره ، ومن تلمذ له الإمام السنوسى ، ويقال إنه هو الذى ألبسه الخرقه الصوفية . ويقول القلصادى إنه أقام معه فى زاويته ، ووجده معتنيا بكلام شيخه الحوارى ، وكان يقول : العالم لا تعاديه - والجاهل لا تصافيه - والأحمق لا تواخيه . وتوفى إبراهيم التازى سنة ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م ذكر ذلك

(١) انظر فى ترجمة التازى تعريف الخلف ١١/٢

غير واحد ممن ترجموا له . وشعره الصوفى والنبوى كثير ويموج الأول بالدعوة إلى المحبة الربانية من مثل قوله :

أبعد الأربعين ترومُ هزلاً  
فخلُ حظوظَ نفسكِ وألَّهُ عنها  
فما الدُّنيا وزُخرفُها بشيءٍ  
فُتِبَ واخْلَعِ عِذاركَ فى هوى مَنْ  
جمالُ الله أكملُ كلِّ حُسنٍ  
وذكرُ الله مرهمُ كلِّ جُرحٍ  
ولا موجودٌ إلا اللهُ حقاً  
وهل بعد العشيَّة من عرارٍ  
وعن ذكر المنازل والديار  
وما أياؤها إلا عَوارى  
له دارُ النعيمِ ودارُ نارٍ<sup>(١)</sup>  
فَلِلَّهِ الكمالُ ولا مُمارى  
وأثَقَّعُ من زلالٍ للأوارِ<sup>(٢)</sup>  
فدَعُ عنكَ التعلُّقَ بالشُّنارِ<sup>(٣)</sup>

وهو يقول لصاحبه أتروم هزلاً بعد سن الأربعين ، والشطر الثانى شطر بيت للصمة القشيري ، والعرار نرجس برى ، يقول الصمة لصاحبه والإبل تسرع بهم إنه لن يتمتع بعد العشية بعرار فقد فات وقته ، كما فات وقت الهزل بعد الأربعين كما يقول التازى ، ويقول دع ما أنت فيه من غزل وتعلق بجمال المرأة ، فالدنيا ليست باقية ، وتعلق بمن لديه دار النعيم ودار النجيم ، فجماله أعظم وأكمل من كل جمال ، وإن ذكره لشفاء لكل جرح ، وزلال بارد لكل عطش متقد ، إنه لا موجود سواه ، فدع عنك التعلق بما تعاب به ، ويُعد قبيحا منك أى قبح . وله :

حسامى ومنهاجى القويمُ وشرعيتى  
حبيَّة ربِّ العالمين وذكْرُهُ  
وأفضلُ أعمالِ الفتى ذكْرُ رَبِّهِ  
وما من حسامٍ للمريدين غيرُهُ  
وكم بددوا شملاً لذى جُرْءةٍ وكم  
وكم دافعَ اللهَ الكريمُ بذكرهم  
وأفضلُ ذكْرٍ دعوةُ الحى فلتكن  
فكثرةُ ذكرِ الشىءِ آيةُ حُبِّهِ  
ومنجائى فى الدارين من كل فتنةٍ  
على كلِّ أحيانى بقلبى ومهجتى  
فكنْ ذاكراً يذكركُ بارى البريةِ  
وكم حَسَموا ظهراً لزارٍ وباهتِ<sup>(٤)</sup>  
أبادوا عدواً منهم بِمضرةٍ  
عن الخلقِ من مكروهيةٍ ومُبيرةٍ<sup>(٥)</sup>  
بها لهجاً فى كلِّ وقتٍ وحالةٍ  
وحَسَبُ الفتى تشريفُهُ بالمُحِبَّةِ

هو يقول إن شجاعتى ومنهاجى القويم فى الحياة وشرعيتى ومنجائى فى الدارين من كل

(٤) زار : عاتب . باهت : متعش .

(٥) مبيرة : فاسدة ، مهلكة .

(١) خلع العذار : أراد به الشاعر الانهماك فى الحب .

(٢) الأوار : حرارة العطش .

(٣) الشنار : العيب والقبيح والعار .

فتنة كل ذلك في محبة رب العالمين وإنى لأذكره في كل حين بقلبي ومهجتي ، وهل في الدنيا عمل أفضل من ذكر الإنسان لربه ، فأذكره دائما ، أذكر خالق الخلق ومنشئهم ، وهل للمريدين تلامذة المتصوفة حسام سواه ، وكم قضوا على زار هازيء وباهت متعجب وكم بددوا جمعا جريئا وكم أبادوا عدوا لهم حاول أن يؤذيهم ، وكم دفع الله الكريم بذكرهم له عن الخلق من مهالك . وإن أفضل ذكر دعوة الله فكررها في كل وقت وإن كثرة ذكر الشيء لأكبر دليل على حبه ، وإن محبة الله لشرف للإنسان أي شرف . وله قصيدة صوفية ذاعت وشاعت في الجزائر باسم المرادية ، وتسمى أيضا باللامية ، استهلها بقوله :

مُرَادِي مِنَ الْمَوْلَى وَغَايَةُ آمَالِي      دَوَامُ الرِّضَا وَالْعَفْوُ عَنْ سُوءِ حَالِي  
وإِسْقَاطُ تَدْبِيرِي وَحَوْلِي وَقَوَّيْ      وَصَدَقِي فِي الْأَحْوَالِ وَالْفِعْلِ وَالْقَالِي

والتأزي يقول إنه يطلب من ربه دوام الرضا والعفو ، وإنه ليأمل منه أن يسقط عنه التدبير شأن الصوفية العظام فلا يفكر في شأن من أمور معاشه وحياته ، ولا حول ولا قوة حتى ولا صدق له في حال ولا في فعل أو قول . وقد شرحها محمد الصياغ القلعي في القرن العاشر الهجري بشرح سماه : « شفاء الغليل والفؤاد في شرح النظم الشهير بالمراد » سماها المراد استكمالاً للسجعة ولابن مريم عليها شرح كما ذكر في ترجمته له . ومنها في وصف المريد تلميذ الشيخ الصوفى وتابعه :

وَعَنَّمُ مَرِيدٌ فِي اتِّقْيَادٍ لِكَامِلِي      لَهُ خَبْرَةٌ بِالْوَقْتِ وَالْعِلْمِ وَالْحَالِي  
هُوَ السَّرُّ وَالْإِكْسِيرُ وَالْكِيمِيَا لِمَنْ      أَرَادَ وَصُولًا أَوْ بَعَى نَيْلَ آمَالِي  
وَقَدْ عَدَبَمَ النَّاسُ الشُّيُوخَ يَقْطُرْنَا      وَأَخْرَهُمُ شَيْخِي وَمَوْضِعُ إِجْلَالِي  
وَقَدْ قَالَ لِي : لَمْ يَتَّقِ شَيْخٌ بَعْرَيْنَا      وَذَا مِنْذُ أَعْوَامٍ خَلُونُ وَأَحْوَالِي<sup>(١)</sup>  
يَشِيرُ إِلَى أَهْلِ الْكَمَالِ كَمَثَلِي      عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ الرِّضَا مَا تَلَا تَالِي

وهو يجعل المريد كأنه آلة مسخرة في يد شيخه الخبير بزمه وبالعلم وبأحوال التصوف ، إذ ينتقاد له بكلية ولا يخرج بأى صورة عن إرادته . ويعظم الشيخ الصوفى إذ يجعله السر الإلهي والإكسير والكيمياء اللذين يحولان المعدن ذهبا ، ويده الأصول ومفتاح كل الآمال . وكنا نوثر أن يترفع الشيخ التأزي عن مثل هذه الدعاوى في شيوخ الصوفية ، التي جعلت الناس يبالغون فيهم ويقولون بالقطب وما إلى القطب من الأبدال ، بل لقد أعد ذلك لظهور دجاجة المتصوفة ومن يرتزقون باسم صوفى سنى كبير . والتأزي يستمر فيقول إن الناس عدوا

(١) خلون : مضمين . أسوال : سنوات .

فى الجزائر شيوخ المتصوفة الحقيقين وآخريهم كان شيخه محمد بن عمر الهوارى الذى كان يقول له ذلك قاصدا به أهل الكمال من الصوفية أو الصوفية الحقيقين .

٥

## شعراء المدائح النبوية

يأخذ شعراء المدائح النبوية فى الكثرة بالجزائر والبلاد المغربية منذ القرن السابع الهجرى، وخاصة منذ النصف الثانى منه، وفى مقدمتهم محمد بن الحسن بن ميمون القلمى البجائى الذى أنشدنا له مقطوعة طريفة فى التصوف وكان يكثر من النظم فيه وفى المديح النبوى مثل قوله<sup>(١)</sup> :

أمن أجمل أن باتوا فؤادك مُغرّم	وقلبك خفّاق ودمعك يسْجُم <sup>(٢)</sup>
وما ذاك إلا أن جسمك منجد	وقلبك مع من سار فى الركب مُتهم <sup>(٣)</sup>
وما ضرهم لو ودّعوا يوم أودعوا	فؤادى بتذكار الصباية يُضرم
وإنى لأدعو الله دعوة مذب	عسى أنظر البيت العتيق وألم
فيا طول شوقى للنبي وصحبه	ويا شد ما يلقى الفؤاد ويكُم
إليك رسول الله أرفع حاجتى	قأنت شفيع الخلق والخلق هيم <sup>(٤)</sup>
وقد أثقلت ظهري ذنوب عظيمة	ولكن عفوا الله أعلى وأعظم

وهو لا يخفى صبايته بأصحابه الذين فارقه موكبهم العظيم إلى الحج وزيارة الأراضى المقدسة وقلبه يخفق ودمعه يسجم ، فقد أتجد جسمه وفارق قلبه متهما مع من يرودون تهامة إلى مكة والمدينة ، ويقول ما ضر رفاقى الذين ستكتحل عيونهم بنور هذه البقاع الطاهرة لو ودعونى يوم رحيلهم حين أودعوا فى فؤادى نار الصباية مضطربة ملتتهمة ، وإنى لأدعو الله دعوة خاشع يل دعوة مذب أن يتاح لنظرى أن يكحل بنور البيت العتيق وأقبل الحجر الأسود كما قبله الرسول الكريم ، وما أشد شوقى للرسول وصحبه ، وما أشد ما يلقى فؤادى وأكظم . وإنى يا رسول الله أتمنى عليك أن تشفع لى كما تشفع لجميع الخلق يوم القيامة ، وهم جميعا عطاش عطشا شديدا والحر من الزحام آخذ بخناقهم ، وقد أثقلت ظهري ذنوبى ، ولكن أمل فى عفو الله أكبر وأعظم . وكان عبد المنعم الغسانى فقيه مدينة الجزائر وأديبها وشاعرها فصاحة لسان وإحكام بيان وتولى القضاء فى بجاية مدة طويلة ، وتوفى فى عشر الثمانين وستمائة ، ومن نوياته قوله<sup>(٥)</sup> :

(١) عنوان الدراية ص ٧٠ .

(٤) هيم : عطاش .

(٢) يسجم : يسيل .

(٥) عنوان الدراية ص ١١٢ .

(٣) منجد : فى نجد . منهم : فى تهامة .

لكل نبي دعوة مستجابة  
 إلى يوم لا يُغنى عن المرء منطق  
 ويوم يفر المرء من وليه  
 وكل نبي يسأل الله نفسه  
 خلا شافع فينا كريم مشفع  
 فيا ربه بَلِّغْ عَيْدَكَ قَبْرَهُ  
 وجازِهِ عَنَّا بِالذِّي أَنْتَ أَهْلُهُ  
 وَسَيِّدُهُمْ طَرًّا حَبَاهَا لِأُمَّتِهِ  
 فصيحٌ ولا يُدلى البليغُ بحجته  
 حبيبٌ ولا يُجزى أبٌ بأبوتِهِ  
 وَيَضْرِبُ صَفْحًا عَن سَوَالِ لِأُمَّتِهِ<sup>(١)</sup>  
 به يشمل الله العبادَ برحمته  
 ليحظى بتقبيلٍ لطاهر نزيته  
 أعزُّ الوري أنت الكفيلُ بعنتِهِ

وهو يقول إن لكل نبي دعوة مستجابة ، وسيد الأنبياء جميعا محمد ﷺ خبا دعوته إلى يوم القيامة الموصوف في سورة عبس بقوله جل شأنه : إنه يوم الصاخة التي تصخ الأذان وتصمها ، فلا يستطيع أحد نطقا ولا كلاما ( يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ) وحتى الأنبياء يشغلون بأنفسهم عن أمهم إلا سيد الخلق جميعا رسول الأمة الإسلامية فيدعو الله متشفعا لأفرادها في هذا اليوم يوم المحشر الرهيب ، ويقبل الله شفاعته ، ويشمل بها العباد برحمته . ويتوسل الشاعر إلى ربه أن يبلغه المدينة ليحظى بتقبيل قبره الطاهر ، ويسأله أن يجزيه عن أمته بما هو أهلها ، إنه خير الوري وهو الكفيل بإعطائه ما يتكافأ مع حقه وجزائه . وملتقى إبراهيم<sup>(٢)</sup> بن أبي بكر التلمساني المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م والذي افتتح به أبو القاسم الحفناوي كتابه : « تعريف الخلف » وله أمداح نبوية منها - كما ذكر من ترجموا له - المعشرات على أوزان العرب ، وكانت كل قافية تشتمل على عشرة أودار ، وله مدحة في المولد النبوي ، ولم يذكر من ترجموا له شيئا من شعره في مدح الرسول ﷺ . ويلقانا بأخرة من القرن السابع ومطالع القرن الثامن محمد بن عبد الله بن محمد العطار وسنخصه بترجمة.

وكان المشرق قد استنَّ الاحتفال بالمولد النبوي في ليلة الثاني عشر من ربيع الأول في القرن الحادى عشر الميلادى بمصر أيام الفاطميين بطريقة رسمية ، وأول احتفال به بطريقة جماهيرية شعبية كان فى إربل لأوائل القرن الثانى عشر الميلادى إذ احتشد له الحاكم الأيوبي والعلماء والشعراء والتصوفة من مختلف البلاد العراقية وذبحت فيه ذبائح كثيرة وطاف الناس ليلا فى مواكب بمشاعل متوهجة وشاع ذلك فى البلدان . ونقله أبو العباس<sup>(٣)</sup> العزفى الشريف إلى سبتة مدينته ، وعنهما شاع فى تلمسان وغيرها من البلاد المغربية . وكان الذى أشاعه فى

(١) يضرب صفحا : يعرض .

(٢) له ترجمة فى بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٩ والإحاطة ٣٢٦/١ والبستان ص ٥٥ وتعريف الخلف

١٣/١

(٣) أزهار الرياض ٣٩/١ .

تلمسان والجزائر وجعله تقليدا للدولة الزيانية أبا حمو موسى ( ٧٦٠ - ٧٩١ هـ ) . يقول أبو عبد الله التنسي في كتابه<sup>(١)</sup> : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح » ونظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان : إن أبا حمو موسى كان يقيم ليلة مولد المصطفى ﷺ ويدعو لها في احتفال كبير يجشد فيه الناس خاصة وعامة ، وما شئت من نمارق ( وسائل ) مصفوفة ومجالس ميثومة وبُسطِ موشاة ، ووسائل بالذهب مفضاة ، وشمع كالأسطوانات وموائد كالمالات ، وتفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، رُتِبَ فيها الناس على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان لبسوا أقبية الخز الملون ، بأيديهم مباخر ومرشات ، ينال كل منها بحظه . ويعقب ذلك يبدأ المنشدون بأمداح المصطفى ﷺ ، وبمكفرات ترغِب في الإقلاع عن الآثام ، يخرجون في كل ذلك من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب . وبالقرب من السلطان خزانة المنجاة « الساعة الدقاقة » الموصوفة في الحديث عن الرفه بفصل المجتمع ، وقد زخرفت ، ولها أبواب مغلقة على عدد ساعات الليل الزمانية ، وكلما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، ويفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وتبرز منه جارية بديعة ويدها اليمنى رقعة تشتمل على نظم فيه تلك الساعة ، ونسوق ما تقوله بعد انقضاء ثلاث ساعات من الليل ، وجميع ما تقوله مدح في أبي حمو<sup>(٢)</sup> :

أمولاي يا بن الملوك الألى      لهم في المعالي سنى الرُتْبِ  
تولت ثلاث من الليل أبقت      لك الفخر في عجمها والعرب  
فدُم حُجَّةَ الله في أرضه      نال الذي شنته من أرب

ولا يزالون في هذا الحفل النبوي إلى ابتلاج عمود الفجر ونداء المؤذن حتى على الفلاح يبشر بصلاة الصباح. وكانت كل ليلة في المولد النبوي لكل عام تبدأ بمدحة نبوية، وتسمى المدحة في مولده ﷺ مولدية نسبة إلى أنها نظمت في مولده، ومن قول أبي حمو في إحدى مولدياته<sup>(٣)</sup> :

حياتي وموتي في هواكم وإننى      أعلل نفسي فيكم بالأمانى  
فيا أهل نجد أنجدوني على الهوى      فأتى في بحر من الشوق لحي<sup>(٤)</sup>  
مقيم بأقصى الغرب أشكو به الجوى      وحالى على حكم النوى غير مخفى

الرياض ٢٤٦/١ .

(٣) تاريخ بني زيان ملوك تلمسان لأبي عبد الله التنسي ص ١٦٦ .

(٤) لحي : مترام الأمواج .

(١) أزهار الرياض ٢٤٣/١ ومابعثها وقارن بتاريخ

بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان لأبي عبد الله التنسي ص ١٦٢ .

(٢) انظر في أبيات المنجاة طوال ساعات الليل أزهار

تَنَاسَيْتُمْ عَهْدِي وَحَفِظَ مَوَدَّتِي  
 وَمَا أُرْتَجَى إِلَّا شَفَاعَةَ خَيْرٍ مِّنْ  
 وَحُبِّكُمْ فِي الْقَلْبِ لَيْسَ بِمُنْسَى  
 أَتَى بِالْهُدَى يَهْدِي بَدِينِ حَنِيفِي<sup>(١)</sup>  
 وَمَا عَمَلُوا فِي الدَّهْرِ مِنْ عَمَلٍ سَيِّئٍ<sup>(٢)</sup>  
 وَكُلُّ سَنَاءٍ شَمْسٍ وَبَدْرٍ وَدُرِّيٍّ<sup>(٣)</sup>  
 بِمَوْلَدِهِ قَدْ أَشْرَقَ الْكَوْنُ كُلُّهُ

فحياة « أبو حمز » وموته في هوى الرسول ﷺ ، وإن نفسه لتمتلىء إزاءه بما لا يحصى من الآمال ، ويستغيث بأهل نجد أن ينجدوه على الهوى فإنه غارق من الشوق في بحر لجي كثير اللجج لا أول له ولا آخر ، مقيم بأقصى الغرب في تلمسان يشكو الوجد ، وحاله من البعد غير خاف . وتتابه لحظة شك ، فيقول : تناسيتم عهدي ومودتي ونار حبكم في قلبي لا تخمد ولا تنظفي ، وإن كلي رجاء أن يشفع لي خير مشفع أتى بالهدى وبدن حنيفي مستقيم لا عوج فيه ، وإن العاصين ليقفون ببابه أملين في شفاعته وأن يغفر لهم ربهم ما اقترفوا من آثام أو أعمال بالغة السوء ، وإنه لنور الوجود فمعه أشرق الكون كله ، ومنه ضوء كل شمس وبدر وكوكب دري . ولثغري مولدية في نفس السنة التي قال فيها أبو حمز مولديته السالفة وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

شَمْسُ الرِّسَالَةِ وَالنَّبْوَةِ وَالْهُدَى  
 هُوَ رَحْمَةُ اللَّهِ الَّتِي يَهْمِي بِهَا  
 بَدْرُ الْجَلَالَةِ نَوْرُهَا الْمُنْجِمُ  
 يَأْمَنُ لَهُ قَبْلَ الْوِلَادِ وَبَعْدَهُ  
 فِي الْخَلْقِ بِالْحَقِّ الْمِينُ وَبِحَكْمِ<sup>(٤)</sup>  
 آيَاتِ إِرْشَادِ مَنْ يَتَوَسَّمُ<sup>(٥)</sup>  
 أَمْلاَكُهَا طُرّاً عَلَيْكَ تَسْلَمُ  
 صَلَّتْ وَأَنْتَ إِمَامُهَا الْمُتَقَدِّمُ  
 بِكَ لِلْعَلِيِّ ذَاكَ الْمَقَامُ الْأَعْظَمُ  
 فِي اللَّوْحِ مَحْفُوظًا تَخْطُ وَتَرْسُمُ  
 إِلَّا النَّبِيَّ الْهَاشِمِيُّ الْأَكْرَمُ  
 وَتَبَرَّكَتْ بِصَلَاتِكَ الْأَرْسَالَ إِذْ  
 رُفِعَتْ لَكَ الْحِجْبُ الْعَظِيمَةُ فَاعْتَلَى  
 حَتَّى سَمِعْتَ صَرِيرَ أَقْلَامٍ بِمَا  
 تَلَّكَ الْمَرَاتِبُ لَمْ يَكُنْ لِيْنَاهَا

والثغري يقول إن الرسول شمس الرسالة الساطعة وبدر الجلالة المنير ونورها الدرّي المتجسّد ، إنه رحمة الله التي لا تزال تنصبّ في الخلق بالحق وتحكم ، يا أيها الرسول العظيم الذي سبقته وجاءت معه آيات ومعجزات لمن يتوسم بالخير ويأمله . وهل معجزة أعظم من معجزة المعراج واختراق السموات السبع والملائكة حافون به يسلمون عليه ، وهبط إلى بيت المقدس فأمر به الرسل ، إنه إمامهم المقدم الأعظم ، ورفعت له الحجب حتى سمع صرير الأقلام وهي تكب في اللوح المحفوظ ما خطّ للناس ورسّم لهم . وتلك المراتب العليا لم يكن ليظنفر

(٤) يهمني بها : يصبّ بها وينشر .

(٥) يتوسم : ينفرس ويتأمل .

(١) حنيفي : مستقيم لا عوج فيه

(٢) سيئ : وخف للناقية .

(٣) انظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان ص ١٧١ .

بها أحد إلا النبي العربي الهاشمي العظيم. ويذكر لنا يحيى بن خلدون في الجزء الثاني من كتابه بغية الرواد مولدية له ألَّفَها بين يدي أبي حموموسى سنة ٧٧٨ وفيها يقول مادحا الرسول الكريم:

سَيِّدُ الْعَالَمِينَ دُنْيَا وَأُخْرَى	أَشْرَفُ الْخَلْقِ فِي الْعَلَا وَالسَّمَا
صَفْوَةُ الْخَلْقِ أَرْفَعُ الرُّسُلِ قَدْرًا	وَسِرَاجُ الْهُدَى وَشَمْسُ الْفَلَاحِ
مَنْ رَقَى فِي السَّمَاءِ سَبْعًا طَبَاقًا	وَرَأَى أَى رَبِّهِ فِي اتِّصَاحٍ <sup>(١)</sup>
وَدَنَا مِنْهُ قَابَ قَوْسَيْنِ قُرْبًا	ظَافِرًا فِي الْعَلَا بِكُلِّ اقْتِرَاحِ
مَنْ يُجِيرُ الْوَرَى غَدًا يَوْمَ يُجْزَى	كُلُّ عَاصِرٍ وَطَائِعٍ بِاجْتِرَاحٍ <sup>(٢)</sup>
مَنْ إِلَى حَوْضِهِ وَظَلُّ لِيَوَاهُ	يَلْجَأُ النَّاسُ بَيْنَ ظَمَرٍ وَضَاحٍ <sup>(٣)</sup>

ويحيى بن خلدون يقول إن الرسول سيد العالمين طرا دنيا وأخرى ، وأشرف الخلق وصفوتهم وأرفع الرسل قدرا ومنزلة عند ربه ، وسراج الهدى وشمس الفلاح ، من منحه الله معجزة المعراج الكبرى ، فصعد به سبع سموات طبقة بعد طبقة و ( لقد رأى من آيات ربه الكبرى ) كما جاء في سورة النجم ودنا منه أى من جبريل ( قاب قوسين أو أدنى ) أى قدر ذراعين تقريبا ظافرا من ربه بكل ما توسل به إليه ، منزلة لم يحظ بها رسول قبله . وحسبه من محبة الله له أنه سيكون المجير لا للطائعين فحسب بل أيضا للعصاة يوم الفزع الأكبر : يوم الحشر الموعود ، وسيقف على حوضه ويمتد عليه لواء معلم ويسقى منه أمته يوم القيامة . وعلى عادة أصحاب المولديات التي تلقى في الاحتفالات الكبرى بليلة المولد النبوي يستطرد يحيى بن خلدون في مولديته - كما استطرد الثغرى أيضا في مولديته - لمديح أبي حمو موسى . وعادة يتقدم المديح النبوي في المولدية نسيب يكظ بالوجد والصبابة وأحيانا يمزج ببعض الوعظ .

وكانت المدائح النبوية لا تزال تنظم بجوار هذه المولديات ، واشتهر بالنظم فيها غير شاعر مثل عبد الله البسكرى الصوفى معاصر يحيى بن خلدون ، فهو من شعراء النصف الثاني من القرن الثامن الهجرى ، وله في مديح المدينة قوله<sup>(٤)</sup> :

دَارُ الْحَيْسِبِ أَحَقُّ أَنْ تَهْوَاهَا	وَتَحِنُّ مِنْ طَرَبٍ إِلَى ذِكْرَاهَا
وَعَلَى الْجَفُونَ مَتَى هَمَمْتَ بِزُورَةٍ	يَا بَنَ الْكِرَامِ عَلَيْكَ أَنْ تَغْشَاهَا
فَلَأَنْتَ أَنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِطَيْبَةٍ	وَوَظَلَّلْتَ تَرْتَعُ فِي ظِلَالِ رَبَاهَا <sup>(٥)</sup>
مَعْنَى الْجَمَالِ مَتَى الْخَوَاطِرِ وَالَّتِي	سَلَبْتَ عَقُولَ الْعَاشِقِينَ حُلَاهَا

(١) رقى : صعد . طباقا : طبقة فوق طبقة .

(٢) اجتراح : اكتساب النيات والحسات .

(٣) ظام : فى أشد العطس . ضاح : أصابه حرارة

الشمس .

(٤) تعريف الخلف ٢/٢٤٠ .

(٥) طيبة : المدينة .

لا تَحْسَبِ الْمِسْكَ الذِّكْرِيَّ كَثْرَتِهَا هيهات! أين المسك من رِيَّاهَا<sup>(١)</sup>؟!  
طابت فإن تَبَغَّ الطَّيِّبُ يا فتى فأدِّمْ على الساعاتِ لثَمَّ ثَرَاهَا

والبسكرى يقول إن دار الحبيب أحق دار بأن تهواها ويملأك الخنين شوقا إلى ذكرها ومتى همت بزيارة أصبح واجبا عليك أن تغشى تلك الدار وتكحل جفونك بمرآها وما أعظمك إذا حلت بها وتقلت فيها ، إنها معنى الجمال وبها جميع منى الخواطر ، وطالما سلبت حُلاها عقول عاشقها الهائمين بها وجدا وصباية . وإن ترابها ليفوق المسك العاطر وهيهات ؟ أين المسك من شذاها الطيب ، لقد طابت فإن تبغ الطيب والتعطر فأدم تقبيل ثراها الذكي العطر .  
وتلقانا شروح كثيرة لبردة البوصيري في المديح النبوي ، من ذلك شرح لسعيد<sup>(٢)</sup> العقباني المتوفى سنة ٨١١ للهجرة وثلاثة<sup>(٣)</sup> شروح لابن مرزوق الحفيد أكبر وأوسط وأصغر ، وسمى الأكبر إظهار صدق المودة في شرح البردة ، وسمى الأصغر الاستيعاب لما في البردة من البيان والإعراب ، وشرح قصيدة الشقرطسي التومسي النبوية بشرح سماه المفاتيح القرطاسية في شرح الشقرطسية . وملتقى بالشهاب بن الخلوف بأخرة من القرن التاسع الهجري ، وله ديوان جميعه مديح نبوي ، ولم يُبَعِّح لي أن أراه ، غير أن ديوانه الكبير المنشور بتونس به مجموعة من المدائح النبوية ، ونذكر منها توسلا بديعا بالرسول كى يغفر الله له ذنوبه ، وفيه يقول<sup>(٤)</sup> :

يا أرحمَ الرَّاحِمِينَ أَرْحَمَ وَجُدَّ كَرَمًا فَأَنْتَ أَنْتَ أَمَانُ الْخَائِفِ الْوَجِلِ  
وَإِغْفِرْ بَطْلَهُ ذَنْبًا لَيْسَ يَغْفِرُهَا إِلَّاكَ يَا غَافِرَ الْأَوْزَارِ وَالْخَطَلِ<sup>(٥)</sup>  
وَنَجِّنِي وَاعْفُ عَنِّي وَأَتِنِّي مِنْهَا تَنِينِي الْفَوْزَ فِي حِلِّ مُرْتَحِلِ  
وَصَلِّ رَبُّ عَلَى الْمُخْتَارِ مِنْ مُضَرِّ خَيْرِ النَّبِيِّينَ وَالْأَمْلَاكِ وَالرُّسُلِ  
رُوحُ الْعَوَالِمِ سِرُّ الْكُونَ أَجْمَعِ إِكْسِيرُ كَنْزِ الْمَعَالِي عِلَّةُ الْعَلَلِ<sup>(٦)</sup>  
عَلَيْهِ صَلَّى إِلَهُ الْقَرَشِ مَا اتَّضَحَتْ آيَاتُ شَمْسِ الضَّحَى فِي دَارَةِ الْحَمَلِ<sup>(٧)</sup>  
وَالِهِ الْغُرُّ وَالْأَصْحَابُ مَا خَطَرَتْ مَعَاظِفُ الْبَانِ فِي أَتْوَابِهَا الْخُضَلِ<sup>(٨)</sup>

وهو يدعو ربه أن يجود عليه بالرحمة ، فإنه أمان الخائف الفرع ، ويتوسل إليه بالرسول أن يغفر ذنوبه وآثامه ، وهل يغفرها سواه ؟ إنه الرحيم الغفار ، ويسأل رب العزة النجاة والفوز مقيما وراحلا ، كما يسأله أن يصل على رسوله العربي خير النبيين والملائكة والرسل ، ويقول إنه روح الوجود وسر الكون ، وإكسير المعالي الذى يرفعها إلى الذرى وعلة العلل فى الوجود

- (١) رِيَّاهَا : رائحتها الذكية الطيبة .  
(٢) البستان ص ١٠٦ .  
(٣) البستان ص ٢١٠ .  
(٤) الديوان ص ٦٦ .  
(٥) الأوزار : الآثام .  
(٦) الإكسير : مادة تحول المعدن ذبا .  
(٧) الدارة : الحالة - الحمل - برج الشهر الأول فى الربيع .  
(٨) الخضل : الخضراء الندية .

جميعه . وهذا البيت يجمع كل ما قاله البوصيري وغيره عن الحقيقة المحمدية وأنها سر الكون وعلته ، ومنها يستمد نوره وضيائه . ويقول صلى عليه إله العرش طالما اتضحت شمس الضحى فى أزمته الربيع أى طوال الدهر ، وصلى أيضا على آله الأشراف وأصحابه ما ظلت أغصان البان ريانة ندية أى على مر الزمن .

ونمضى إلى العهد العثماني ، وفيه يكثر المدح النبوي كثرة مفرطة حتى لينظم فيه كل شاعر مدحة أو أكثر ، وقد ينظم فيه ديوانا مثل عبد الكريم الفكون المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ م إذله ديوان فى المدح النبوي وقد رتبته على حروف المعجم ، وجعل مبدأ كل مجموعة من أبيات كل قافية حرفا من حروف : « اللهم اشفنى بجاه محمد أمين » وجملة حروف هذه الصيغة خمسة وعشرون حرفا ، فى كل حرف مثلها أبياتا فى قافية الهزرة خمسة وعشرون بيتا ، وهكذا إلى آخر الحروف ، وانتهى الفكون من نظم الديوان سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢١ م وكان قد أصيب بشلل فى هذه السنة ألزمه الفراش ، فشفاه الله منه ، وله قصائد مختلفة فى التوسل إلى ربه . وكان يعاصره سعيد المنذاسى التلمسانى الذى ترجمنا له فى شعراء الهجاء وكان يجمع بين الشعر الشعبى والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من الشعر الأول ، واشتهر فيه بقصيدة نبوية فى نحو ثلاثمائة بيت سماها « العتيقة » وشاعت بين أهل الجزائر شيوعا كبيرا ، ولأبى راس عليها شرح سماه الدرّة الأنيقة ، ويقال له عليها سبعة شروح ، ولكل شرح عنوانه الخاص . وفى الديوان الذى نشره له الأستاذ راجح بونار أربع قصائد نبوية ، وقد أئشدنا قطعة من غزل أولها فى باب الغزل ، ومن قوله فى مديحها النبوي<sup>(١)</sup>

هل رأيتم أو سمعتم حسنا	فى الزورى من حسنه الحسن اكتمل
أحمد المبعوث فىنا رحمة	خير من قام بحق وكفل
آية الله أمين صادق	وحبيب الله بر متضل <sup>(٢)</sup>
قد تحلى - إذ تجللى - بدره	بالبها من ربه عز وجل
فامتطى متن جواد للعلا	خافق كالبرق للوصل رقل <sup>(٣)</sup>
أم رسل الله ليلأ وارتنى	للمنى يطوى من الساح الكيل <sup>(٤)</sup>
آدم المبرور صلى خلفه	وأولو العزم مصايح الملل
قد رأى من ربه مالا رأى	قبله طرف نبي مرسل

والمنذاسى يقول : هل رأيتم أو سمعتم حسنا فى الزورى ، كل حسن يستمد من أشعته النورانية ؟ إنه أحمد المبعوث رحمة هدية للعالمين ، أعظم من رعى الحقوق وأداها ، آية الله الأمين

(١) ديوان سعيد المنذاسى تحقيق الأستاذ راجح بونار ص ٤٠ .

(٢) رقل : زها وتختار فى سيره

(٣) رقل : زها وتختار فى سيره

(٤) الساح : يريد السموات . الكلال : يريد الطباقي .

الصادق وحببيه البر المجاهد في سبيله ، وقد حفَّه الله بهالة من البهاء ، فسخرُ البراق له يعرج به إلى السموات السبع ، وأمَّ الرسل ليلا تكريما له . ويفيض سعيد المنداسي في بيان معجزاته ، ثم يعود إلى معجزة المعراج ويقول إن الله خص به رسولنا من دون الرسل جميعا تكريما لا يماثله تكريم . ويتحدث المنداسي عن مولد الرسول في مدحة نبوية ثانية قائلا<sup>(١)</sup> :

طَهَ الْأَمِينُ الَّذِي تُرْجَى شِفَاعَتُهُ      يَوْمَ التَّلَاقِ وَطِيُّ الخَلْقِ مَنْشُورُ<sup>(٢)</sup>  
 مَنْ سَبَقَ الرُّسُلَ عِنْدَ اللَّهِ فِي أَزَلٍ      فَضْلاً وَلِلخَلْقِ بَعْدَ الرُّسُلِ تَأْخِيرُ  
 وَانْقَضَ إِيوَانُ كَسْرَى عِنْدَ مَوْلَدِهِ      وَغَابَ مِنْ نَارِ وَسْطِ الفُرْسِ تَسْمِيرُ<sup>(٣)</sup>  
 وَجَلَّلَ الْأَفْقَ مِنْهُ النُّورُ فِي سَحَرٍ      كَأَنَّ فِي النَّجْمِ هَدْيَ الصُّبْحِ مَنْحُورُ<sup>(٤)</sup>  
 وَفِي السَّمَاءِ خِيُولُ الشُّهْبِ رَاكِضَةٌ      كَأَنَّهَا فِي وَغَى الجَوِّ الزَّنَائِيرُ<sup>(٥)</sup>  
 وَفِي الْمَنَازِلِ تَحْتَ العَرْشِ إِذْ عَلِمْتُ      بِمَوْلِدِ المِصْطَفَى الوَلَدَانِ وَالحُورُ  
 تَرِنَتْ وَازْدَهَتْ وَسَاغَ مَشْرُبُهَا      وَطَرَّبَتْهَا مِنَ الطَّيْرِ الزَّمَامِيرُ<sup>(٦)</sup>  
 حَوْلَ الخِيَامِ الفِصُونَ اللَّذُنُ سَاجِدَةٌ      وَلِلْمَلَائِكِ تَهْلِيلٌ وَتَكْبِيرُ

وهو يقول إن طه الرسول الأمين الذي تُرجى شفاعته يوم الحشر الأكبر يوم كل إنسان يرى عمله المطوى منشورا تحت بصره . قد سبق الرسل في الخلق والقدم الأزلى كما أن الرسل سابقون فيه بقية الخلق . ولقد حدثت معجزات شتى يوم مولده ، فقد انقض إيوان كسرى وانطفأت نار الفرس المجوس بعد أن ظلت مشتعلة متوهجة قرونا ، وعم الأفق منه نور في السحر ، حتى ظن أن هدى إبل وغيرها إلى الكعبة ذبح في فجر هذا النور استبشارا به . أما في السماء فإن الشهب - ملائتها - زناير . ويقول إن الولدان والحور العين فرحت بمولد الرسول وتزينت واستلأت زهوا وسرورا وغتها الطيور بمختلف الأغاني ، وحتى الفصون اللينة الناعمة حول الخيام سجدت لربها شكرا . وحللت الملائكة وكبرت تكبيرا .

وينقل أبو القاسم الحنفاوي في كتابه تعريف الخلف عن أحمد<sup>(٧)</sup> بن عمار بترجمته أن مجلى حلبة المولديات ومقدم الجماعة فيها وإمام الصناعة وركاب صعابها ومذلها عاشق الجناب المحمدي ومادحه بلا معارض ، ومثلث طريقتي البوصيري وابن الفارض ، الشيخ أبو العباس أحمد المانجلاتي ، أمخفه الله بمنفهيق رضوانه ، وألخنفه مطارف ( حلل ) التكريم في

(١) ديوان سعيد المنداسي التلمساني ص ٦٩ .  
 (٢) طي الخلق : الكتاب الذي كان مطويا عن الخلق .  
 (٣) تسمير : اشتعال وتوهج .  
 (٤) الهدى : ما يضحى به من الإبل وغيرها نسكا .  
 (٥) الزناير جمع زبور : حشرة تلسع .  
 (٦) الزمامير : يريد أصوات الطير وألحانها .  
 (٧) انظر تعريف الخلف ٨٩/٢ .

أعلى جنته ، ويقول الحفناوى أثبت من مولدياته ما يطرب ويروق ، ويهر الشمس عند الشروق ، فمن ذلك قوله من موشحه<sup>(١)</sup> :

بِاللَّهِ حَادَى الْقَطَارَ قَفَّ لِي بِتِلْكَ الدِّيَارِ وَأَقْرَسَ السَّلَامَ  
سَلَّمَ عَلَى عَرَبِ نَجْدٍ وَأَذْكَرُ صَابَةَ وَجَدِي كَيْفَ يُسَلِّمُ  
مَنْ يَادِرْتَهُ الدَّمُوعُ شَرْقًا لِتِلْكَ الرَّيْوَعِ مَعَ الْمَقَامِ

وهو ينادى بالله على حادى القطار أى الفافلة أن يقف بديار الحبيب ويقرئه السلام ، ويسلم على عرب نجد ، أصحاب الصباة والوجد ، ويتساءل كيف يلام من ابتدرته الدموع شوقا لتلك الربوع وساكنها ومقامه العظيم . والماتجلاتى من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى وذكر ابن عمار أنه كان له ديوان نبوى جميعه قصائد مولدية تُررى بالأزهار الندية ، ويقول : وجاء مصليا خلفه ( تالياله ) سبحان البلاغة وقسُ البراعة شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد المشهور باسم ابن على . وأتشد له موشحًا نبويًا على غرار موشح الماتجلاتى وفيه يقول :

بِاللَّهِ طَاوَى الْقَفَارِ عَرَجَ بِذَلِكَ الْمَزَارِ حَيْثُ الْكِرَامِ  
عَرَجَ بِرَيْحِ الْمَعَالِ وَابْرَدَ بِذَلِكَ الْوِصَالِ حَرًّا الْغَرَامِ  
حَسْبُ الْمَشُوقِ الْكَيْبِ أَنْ شَمَلَهُ بِالْحَيْبِ لَهُ التَّامِ  
نَاتَ عَلَيْنَا الدِّيَارِ وَفِي الْفَوَادِ جِمَارِ لَهَا انْضِرَامِ

وابن على يقول : بالله يا قاطع القفار عرج نحو مزار الأحبة الكرام ، عرج نحو منزل المعالى وبرد بهذا الوصال النار المضطربة فى الفؤاد وحسى أن اجتمع شملى بالحبيب . ولقد بعدت عنا الديار ، وفى الفؤاد قطع من الوجد الملتهب تضطرم نارا حامية . ولأحمد بن عمار نفسه فى موشحة :

يَا نَسِيمَا بَاتَ مِنْ زَهْرِ الرَّبِيِّ يَفْتَنِي الرِّكْبَانِ  
أَحْمَلُنْ نَسِي سَلَامًا طَيِّبًا لِأَدْوِيلِ الْبَانِ  
أَقْرَأُنْ نَسِي سَلَامًا عَيْقُنَا إِنْ بَدَتْ نَجْدُ  
إِنْ لِي قَلْبًا إِلَيْهَا شَيْقًا شَفَّهُ وَجَدُ

وموشحته يهبط أسلوبها درجة عن الموشحتين السابقتين ، ومع ذلك كان يعد من كبار الشعراء فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وله شعر كثير فى الوصف وغيره من الموضوعات ، ويقال كان له ديوان فى المديح النبوى ، يشتمل على منظومات من القصائد والموشحات . وتحدث الآن عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله العطار أهم شعراء المديح النبوى الجزائريين .

(١) انظر فى المتطوعة التالية وتاليها تعريف الخلف

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن العطار ، هكذا نقلا عنه في آخر ديوانه النبوي الذي سماه : « نظم الدرر في مدح سيد البشر » وسماه أيضا : « الورد العذب المعين في مولد سيد الخلق أجمعين » والاسم الأول هو الذي اشتهر به الديوان لأنه أحف وأطرف ، وجاء في ختامه : « كان الفراغ منه ضحوة يوم الجمعة الثاني من شعبان سنة ست وتسعين وستمائة ما عدا أربع قصائد ، فإنها تقدمت على إنشائه أودعتها فيه ، وذلك بمدينة الجزائر ، جزائر بنى مزغنة من أقصى إفريقية من أرض متيجة » . ومتيجة هي الإقليم الذي تقع فيه مدينة الجزائر . وبذلك يكون قد فرغ من نظم هذا الديوان النفيس بمدينة الجزائر سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٧ م ويقول المقرئ : « ليس هو بابن العطار المشرقي الذي كان معاصرا لابن حجة الحموي [المتوفى سنة ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م] فإن ذلك متأخر عن هذا .. وهذا مغربي وذلك مشرقى فلم يتفقا لا في زمان ولا في مكان سوى في اشتراكهما بلبن العطار » . ويذكر المقرئ - وتبعه في ذلك الحفناوى - أن محمد بن أحمد بن الأمين الأتشمهري روى الديوان عن ناظمه ابن العطار وأنه قرأه عليه قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة بأصله بموضع الحكم في مدينة الجزائر في ذى القعدة أوآخر عام سبعة وسبعمائه . ويدل هذا النص على أن ابن العطار كان في سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ م قاضيا بمدينة الجزائر . وقد اطلع المقرئ على ديوانه ، وجاءنا منه ببعض روايته ، بادئا بتسديس ، وقوافيه تكون عادة بعدد الحروف الهجائية ، ولكل حرف أربع شطور ، يليهما شطران ينتهيان بحرف يلتزم فيهما بكل دور كقوله في تسديس له<sup>(٢)</sup> :

صَلُّوا عَلَى الْبَدْرِ الْمُنِيرِ الْأَكْمَلِ	صَلُّوا عَلَى الرَّوْضِ الْبَهِيِّ الْأَجْمَلِ
صَلُّوا عَلَى الْهَادِي النَّبِيِّ الْأَحْفَلِ	المصطفى الأرقى لأنزه محفل
فيه تقدّم وحده تقدّما	صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

وهو يقول صلوا على البدر المنير الكامل والروض البهيو العاطر الهادي لأتمه الخاني عليها والمحضى بهداها ، المصطفى الذي صعد به ربه لأنزه وأروع مقام - تقدم فيه وحده دون الرسل جميعا يتاجى وبه ، صلوا عليه وسلّموا تسليما . والشطر الأخير يكرر في كل دور مع شطر منته بالميم محدثا رنينًا صوتيًا بديعًا للتسديس . ويذكر المقرئ للعطار تسديسًا ثانيًا ، نذكر منه هذا الدور :

(١) انظر في ترجمة العطار نفع الطيب للمقرئ (طبعة  
د. إحسان عباس) ٤٨٠/٧ وما بعدها وكتاب تعريف  
الخلف لأبي القاسم الحفناوى ٥٥٠/٢ .  
(٢) نفس المرجعين السابقين .

صَلُّوا عَلَى مَنْ قَد تَنَامَى فَخْرُهُ      صَلُّوا عَلَى مَنْ قَد تَعَاظَمَ قَدْرُهُ  
 صَلُّوا عَلَى مَنْ قَد تَأْرَجَ نَشْرُهُ      صَلُّوا عَلَى مَنْ قَد تَنَاسَقَ دُرُّهُ  
 عَقَدَ السَّنَاءَ لِمَجْدِهِ إِكْلِيلًا      صَلُّوا عَلَيْهِ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا

وهو يقول صلوا على من فخره لا يقف عند حد بل كل يوم في نمو وازدياد لمحبة الخلق له ومحبة ربه . صلوا على من يتعاطم قدره عند الناس وعند الذات العلية . صلوا على من عطره يفوح من كل جانب ، وَمَنْ لآلَاءِ تَعَالِيهِ تَطْرُدُ لِأَتْبَاعِهِ فِي أُنْسَاقٍ مُحْكَمَةٍ ، وقد عقد له الشرف والمجد تاجاً عظيماً ، صلوا عليه بكرة وأصيلا . ويختتم بهذا الشطر كل دور مع شطر لامي قبله . ويث العطار في قصيدة له حينما ظاننا إلى زيارة يثرب والرسول الكريم منشدا :

أَهْدَتْ لَنَا طَيْبَ الرِّوَائِحِ يَثْرِبُ      فَهَبُوهَا عِنْدَ التَّنَسُّمِ يُطْرِبُ  
 رَقَّتْ فَرْقًا مِنَ الصَّبَابَةِ وَالْأَسَى      قَلْبَ بَنِيْرَانَ الْبِعَادِ يَعْدِبُ  
 شَوْقًا إِلَى أُنْسِي نَبِيٍّ حُبُّهُ      يَحْلِسُو عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَيَعْدِبُ  
 فُزْنَا بِهِ بَيْنَ الْأَنْفَامِ بِدِيمَةٍ      أَبْدَا عَلَيْنَا بِالْأُمَانِي تَسْكِبُ  
 حَازَ السِّيَادَةَ وَالْكَمَالَ مُحَمَّدٌ      فَإِلَيْهِ أَشْتَاتُ الْحَمَامِ تُنْسَبُ  
 مَحْبُوبِنَا وَنَبِيَّنَا وَشَفِيعِنَا      يُدْنِي إِلَى وَرْدِ الرِّضَا وَيَقْرُبُ  
 إِنْ طَلَبْتَ الْأَنْفَاسُ مِنْ زَهْرِ الرَّبِّي      رَبِّيَاهُ أَذْكِي فِي النَّفُوسِ وَأَطِيبُ

والعطار يقول إن يثرب أهدت لنا مع الرياح طيبا ، واختلاطها في هبوبها بالأرج يملأ قلوبنا طربا ، ويقول إنها رقت ورق معها قلبي المعذب بالصباية والوله شوقا إلى أعظم نبي حبه دائما عذب مستحب مهما كان الزمان مرًا كريها ، ويقول إننا فزنا منه بسحابة لا تزال تسكب علينا بكل ما نريد من الأمانى . وقد حاز السيادة والكمال ، إنه محبوبنا ونينا وشفيعنا يوم الفزع الأكبر ، وإن حبه ليدنى من رضا الله ، وحسبك بذلك نعمة كبرى . ويقول إن أريج زهر الربى لا يقاس فى شىء إلى شذاه العطر ، إنه أذكى فى النفوس وأطيب فى القلوب . ومن قوله متشوقا إلى طيبة وزيارة الرسول الكريم :

أَبْدَا تَشْوُقُكَ أَوْ تَرَوْقُكَ يَثْرِبُ      فَإِلَى مَتَى يُقْصِيكَ عَنْهَا الْمَغْرِبُ  
 هِيَ جَنَّةٌ فِي النَّفْسِ يَعْدِبُ ذِكْرُهَا      وَالْقَرْبَ مِنْهَا وَالتَّدَانِي أَعْدِبُ  
 وَالشَّوْقُ يَتَيْنَا إِلَيْهَا كَلِمَا      وَقَفَ الْحَمَامُ عَلَى الْأَرَاكَةِ يَخْطِبُ  
 يَا حَبْدًا فِي رُبْعٍ طَيْبَةٍ وَقَفَّةً      بَيْنَ الرِّكَائِبِ وَالْمَدَامِعِ تُسْكِبُ  
 حَتَّى يَرِقَّ لِلْوَعْتِي وَصِبَابَتِي      وَدَمُوعَ عَيْنِي كُلِّ مَنْ يَتَغْرَبُ  
 شَوْقًا لِمَنْ زَانَ الْوُجُودَ وَحُبُّهُ      يَدْنِي إِلَى رَبِّ الرِّضَا وَيَقْرُبُ  
 خَيْرُ الْوَرَى مَحْبُوبِنَا وَنَبِيَّنَا      حَزْنَا بِهِ الْجَاهُ الَّذِي لَا يُسْلَبُ

فدائماً تشوق العطارَ يثرب ودائماً يقصيه عنها المغرب ، إنها الجنة التي يحلو له ذكرها ،  
والقرب منها والدنو أكثر حلاوة وعذوبة . وإنه ليحن إليها كلما سمع الحمام يشدو ويترنم  
على أغصان الأراك والأشجار . ويتمنى وقفة في ريع الأحبة ودموعه تهطل صباً ملتاعاً حتى  
ليعطف عليه المحبون مثله ، شوقاً للرسول الكريم الذي زان الوجود بطلعته السنية ، والذي  
يدنى حبه من رضا رب العباد ، خير الورى ، محبوب أمته ، ونيها الذي حازت به جاهها  
ومكانتها العالمية . ويشيد بالرسول ويحمل السلام إليه من يزورونه من جيرانه وصحبه ،  
منشداً :

أَسْنَى النَّبِيِّنَ قَدْرًا نَوْرَهُ أَبْدَا      يَزِيدُ حُسْنًا عَلَى الْأَقْمَارِ بَاهِرُهُ  
وَأَفْضَلَ الْخَلْقِ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجْمٍ      أَرَيْتَ عَلَى الرَّمْلِ أَضْعَافًا مَآثِرَهُ  
رَوْضٌ مِنَ الْحَلْمِ غَضٌّ رَاقٍ مَنْظَرُهُ      بَحْرٌ مِنَ الْعِلْمِ عَذْبٌ فَاضٍ زَاخِرُهُ  
إِنْ جَادَ صَاحِبُ بَلْقِيَاهِ الزَّمَانَ فَعَمِلُ      إِلَى مَقَامِ حَبِيبِ أَنْتَ زَائِرُهُ  
وَصَيْفٌ لَهُ حَالٌ صَبٌّ مُغْرَمٌ دَيْفٍ      رَامَ الدَّنُوَ فَأَقْصَتَهُ جِرَائِرُهُ<sup>(١)</sup>  
وَأَذْكُرُ هُنَاكَ بَعِيدَ الدَّارِ غَرَبُهُ      غَرَبٌ فَمَا غَائِبٌ مِنْ أَنْتَ ذَاكِرُهُ  
أَهْدِي السَّلَامَ بِلَا حَدٍّ وَلَا أَمِيدٍ      إِلَى مَحَلِّ رَسُولِ اللَّهِ عَامِرُهُ

وهو يصف الرسول بأنه أعظم النبيين قدراً ، ونوره يزيد حسناً على نور الأقمار حين تكون  
بدوراً كاملة ، وهو أفضل الخلق عامة من عرب ومن عجم ، ومآثره أضعاف الرمل إحصاء  
وعدداً ، وإنه لروض زاه من الحلم يروق منظره ، وبحر عذب من العلم يفيض زاخره . ويتجه  
إلى بعض من أسعدته الظروف بالرحلة إلى زيارته ، فيطلب إليه أن يصف له صابته بزيارته  
وغرامه ، وكيف حاول الاقتراب منه وأبعدته ذنوبه ، ويقول له اذكر حال بعيد الدار عاجز  
عن الوصول إليه . وإنه ليهدى السلام إلى يثرب بلا حد ولا غاية ولا نهاية . ويتخيل نفسه  
وقد اكحلت عيناه بطيبة وترابها ، فينشد مبتهجا :

وَمَا بَدَتْ أَعْلَامَ طَيِّبَةَ قَصْرَتْ      مِنْ الشُّوقِ مَا قَدْ طَوَّلْتَهُ السَّبَابِ<sup>(١)</sup>  
وَقَفْنَا وَسَلَّمْنَا وَفَاضَتْ دَمُوعُنَا      وَحَتَّ إِلَى ذَاكَ الْجَنَابِ الرَّكَائِبُ  
نَزَلْنَا وَقَبَّلْنَا مِنَ الشُّوقِ تَرَبُّهَا      وَطَابَتْ بِذَاكَ التُّرْبِ مَنَا التُّرَائِبِ<sup>(٢)</sup>  
فَللَّعِينِ مِنْ تِلْكَ الْمَعَاهِدِ نَزْهَةٌ      وَلِلْقَلْبِ فِي تِلْكَ الرَّسُومِ مَآرِبُ  
حَوَتْ سَيِّدَ الرُّسُلِ الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ      لَهُ فِي مَقَامِ الْقَرْبِ تَقْضَى الْمَطَالِبُ  
تَرْقَى إِلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ وَمَا بَدَا      لَهُ فِي تَرْقِيهِ مِنَ الْحُجْجِ حَاجِبُ

(٣) الترائب : عظام الصدر .

(١) مغرم دنف : أشفى على الملاك . جرائره : ذنوبه .

(٢) السباب جمع سبب : المفازة والفضلة .

لقد أشرقت شمسُ النهار بنوره      وبدرُ الدُّجَى لما بدا والكواكبُ  
أعللَ قلبي بالوصولِ لقبيره      وإنْ غبتُ ما قلبي - وحقك - غائبُ  
وإني أناديهِ وإن كنتُ نازحاً      نداءً غريبَ غرْبته المغاربُ  
والعطار يقول إنه حين بدت علامات طيبة أى المدينة قصرت خطا الشوق التي كانت قد  
طوّلتها مفازات الطريق في إفريقيا وجزيرة العرب ، وما أعظم فرحته - كما يقول - فقد وقفوا  
وسلموا على ربوع طيبة أو ربوع الحبيب ، وحنّت معهم الركائب لهذه المنازل . ويقول إنهم  
نزلوا وقبّلوا تراب طيبة العطر وطابت به صدورهم وأفئدتهم ، وتعمّت العيون بمشاهد تلك  
المعاهد ونعمت القلوب ، إذ حوت تلك المعاهد سيد الرسل الذي تجاب عنده المطالب ، والذي  
صعد به جبريل إلى السموات السبع طبقة بعد طبقة ورُفعت من دونه الحجب . وإنه لنور  
خالص ، نور أزلى ، ومن نوره تستمد الشمس والقمر والكواكب . وكأنما يفيق العطار من  
حلمه ، فيرى نفسه لا يزال في مدينة الجزائر لم يبرحها ، ويقول إنه يمتنى نفسه بزيارة الرسول ،  
وإن غبت عنه فإن قلبي ليس غائبا ، وإني أناديهِ ، وسأظل أناديهِ نداءً غريب ظامئاً أشد الظمأ  
لرؤية قبره العطر الشريف .

## الفصل السادس

### الشر وكتابه

١

#### الخطب والوصايا

طبيعي أن تكثر الخطب والوصايا مع الدولة الرسمية منذ تأسيسها سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦ م إلى انتهاء مدة حكمها سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م إذ كانت دولة إياضية ، وكان أئمتها لا يزالون يدعون رعيتهم في محيطها بتاهرت وخارج محيطها إلى امتثال دعوتهم مع تقوى الله وخشيته والقيام بفروضه الدينية ، وقد يطلبون إليهم في بعض خطبهم طاعة من يولونهم عليهم من ولاتهم ، كما يلقانا عند إمامهم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ( ١٧١ - ٢١١ هـ ) حين ولي على تاهرت في غيبته عنها السمع بن أبي الخطاب نائبا عنه ، فقد جمع زعماء تاهرت وأهلها وخطبهم قائلا<sup>(١)</sup> :

« قد علمتم - معشر المسلمين - أن السمع وزيرى وأخص الناس بى وأحبهم إلى وأنصحهم لدولتى وأنى لا أصبر على فراقه ، وقد آثرتكم على نفسى ، تميميا لرغبتكم ، وها أنذا قد ولتته عليكم فأحسنوا الطاعة والانقياد لأمره ما سار فيكم سيرة المسلمين ، ولم يحد عن جادة العدل والإنصاف ، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب أو بمخالفتنا » .

وهذا المأثور من الخطبة ليس فيه تكلف لضروب السجع ولا لألوان البديع ، وهو بلغة جزلة مقبولة كلغة الخطب فى الصدر الإسلامى الأول . وعلى شاكلة هذه الخطبة كانت الوصايا فى أيام هذه الدولة كوصية عبدالله اللواتى وزير أفلح بن عبد الوهاب ( ٢١١ - ٢٤٠ هـ ) وهى تطرد على هذه الصورة<sup>(٢)</sup> :

« إبنى موصيكم إخوانى ونفسى بتقوى الله العظيم فى السر والإعلان ، وبتابع آثار أهل دعوة المسلمين ، فإن الاتباع أولى من الابتداع وعليكم بالانتمار لما أمر الله به من طاعته ، والانتهاى عما نهى عنه من معصيته ، فاقتنوا آثار المسلمين فإن الله أوعد بالنار من خالفهم ، كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله ، إذ قال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ

(١) انظر المغرب العربى : تاريخه ورفقاه للأستاذ راجع

(٢) النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر

ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين تَوَلَّى ما تَوَلَّى وَنُصِّلَهُ جَهَنَّمَ وساءت مصيراً ﴿١﴾ . فاتقوا الله إخواني واحذروا مخالفة آثار أئمتكم فى القليل والجليل .. وعليكم بالخير من الانهماك فى الشر والخلاف بعد الزجر عنه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وغضب منه وقال : أمنهمكون أتم فيها ( أى الدنيا ) بعد ما جئتمكم بها ( أى الرسالة ) بىضاء نقية حنيفة سمحة سهلة » .

وهو يوصى بالتقوى واتباع أهل الدعوة من أئمة الإباضية ، فإن الاتباع كما يقول أولى من الابتداع ، ولغته رصينة قوية ، يحتج بالقرآن والحديث النبوى ملوحاً بهما من بعيد على صحة معتقده . ويذكر صاحب الأزهار الرياضية عظة عامة للإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب ( ٢٤١ - ٢٨١ هـ ) وجَّهها إلى جميع رعاياه فى تاهرت وجبل نفوسة ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« إن أفضل ما تتواصى به العباد ويتحاضنون عليه تقوى الله ولزوم طاعته ، والزجر عن معصيته ، والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح . وعليكم معاشر المسلمين بالتهنى للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخص فيه الأبصار وتختبر فيه الألوان ، ويشيب فيه الولدان ، و﴿تذلل كلُّ مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ . واعلموا - رحكم الله - أن أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد انقضوا وقلَّت الخلوفا منهم ، فرحم الله امرءاً مسلماً احتسب نفسه ، وأرصدها لله فى طلب العلم والنقض على من ضادَّ الله وعدل عن منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم هى العليا والباطل زهوقاً . وعليكم معاشر المسلمين اتباع الماضين من أسلافكم والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم ، فافتقروا آثارهم ، واحتدوا بهداهم ، واحذروا الزيغ عن طريقهم والميل عن مناهجهم » .

وواضح أن الإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح يدعو فى عظته صراحة أهل دعوته من الإباضية أن يرددوا انفسهم ويحتسبوا للدفاع عنها ، ضد خصومها الذين عدلوا فى رأيه عن منهاج رسول الله ومنهاج أهل الحق من أئمتهم ، ويدعوهم إلى اتباع ما تواضع عليه هؤلاء الأئمة من مبادئ آمنوا بها مخالفين الجماعة . ولابنه أبى حاتم يوسف ( ٢٨١ - ٢٩٤ هـ ) عظة بديعة كان يخطب بها الخوارج الإباضية فى عهده أيام الجمعة وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

عمر ص ١٧٩ .

(١) الأزهار الرياضية للبارونى ص ٢٤٠ .

(٢) النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار

« الحمد لله الذى ابتداء الخلق بنعمائه ، وتقدمهم جميعا بحسن بلائه ، لا يشتمل عليه زمان ولا يحيط به مكان ، خلق الأماكن والأزمان ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ فقدّرنا أحسن تقدير ، واخترعها من غير نظير ، لم يرفعها بأعمدة تُدرّكُ بالمعانية ، ولم يستعن عليها بأحد استكباراً عن الشركة والمعانعة ، وزينها للناظرين ، وجعل فيها رجوماً للشياطين ( فتبارك الله أحسن الخالقين ) جعل القرآن إماماً للمتقين ، وهدى للمؤمنين ، وملجأً للمتنازعين ، وحكماً بين المتخالفين ، ودعاً لأولياءه المؤمنين إلى اتباع تنزيله ، وأمرهم عند التنازع فى تأويله بالرجوع إلى قول رسوله ، فقال الله عز وجلّ : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ .

وهذه الخطبة أو العظة تصور نهاية تطور كبير حدث فى كتابة النثر الأدبى ، فقد بدأ بسيطاً عند الإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح ، واتسع هذا الرقى عند ابنه الإمام أبى حاتم يوسف لا من حيث انتخاب الألفاظ فحسب ، بل أيضاً من حيث ما يشيع فيها من السجع ومن التوازن فى العبارات والمقالات الدقيقة . وتمضى بجاية وشرقى الجزائر فى عصر الحماديين والموحدين ثم الحفصيين بالناية فى الخطابة والعظات ، وتردد فى الكتب أسماء خطباء فى الجامع الأعظم ببجاية أو بقسنطينة ولكن الكتب لا تحفظ حتى بشظايا من خطبهم ، سوى أن يقال مثلاً إن فلانا ولى خطابة الجامع الأعظم ببجاية أو جامع القصبه بها أو جامع الموحدين وكان فصيح القلم واللسان . ويكتفون بذلك دون أن يذكروا شيئاً من خطبه الفصيحة أو البليغة ، أو يقولون مثلاً إن أبا تمام الواعظ الوهرانى سكن بجاية واشتغل فيها بالتذكير واستدعاء الخلق لباب الله تعالى ، ولا تذكر لنا كلمة من مواعظه . ويمكن أن نجد صوراً من العظات فى نثر الأذكار والأوراد التى كان يرددها المتصوفة عقب الصلوات ، ونقتطف كلمات مما كان يردده على بن أحمد الحرالى عقب صلاة الصبح إذ كان يجلس فى مصلاه متربعا ويردد بعض أقوال له منها<sup>(١)</sup> :

« سبحان من سبقت رحمته غضبه ، سبحان من لا منجى ولا ملجأ إلا إليه ، يا مثبت القلوب ثبت قلبى . العقل أصل دينى ، الحب أساسى ، ذكر الله أنسى ، الثقة كنزى ، العلم سراجى ، الصبر ردائى ، الرضا غيتمى ، الزهد حرفتى ، اليقين قوتى ، الطاعة حسبى ، الجهاد خلقى ، قرة عينى فى الصلاة » .

والثبات بل الآلاف من مواعظ الخطباء والأوراد والأذكار كانت تفرغ أسماع الناس كل يوم فى بجاية وقسنطينة وغيرها من بلاد الجزائر . وكان التمسك وأهل الصلاح يكتبون أحياناً

(١) عنوان العناية ص ١٥٢ .

وصية لربهم أن يرعى ذريتهم وأهليهم وما استودعوه من أموالهم صيانة للورثة والمال، من ذلك وصية رواها صاحب عنوان الدراية لابن نعيم الحَضْرَمِيّ المتوفى بقسنطينة سنة ٦٣٦ وفيها يقول<sup>(١)</sup>:

« هذا ما أودع العبد الله الذى خلق الأشياء ، ورزق الأحياء ، وملك العالمين ، وحفظ السموات والأرضين ، أودعه جميع ولد أبيه وأهله وأهل أخيه وجميع ما خوّلهم من نعمه ظاهرا وباطنا ، وصير ذلك إلى أمانته ، وأسلمه إلى رعايته ، واستحفظه فى ذلك كله ، وتبرأ إليه من حوله وقوته ، ولم يرج سوى فضله وطوّله (أفضاله) هو الحفيظ الذى لا يهمل ، الوكيل الذى لا يغفل ، الجواد الذى لا يبخل ، الأول الذى ينعم ويتطول ، والأخير الذى لا يزال ولا يتحول . »

وألفاظ الوصية مثل ألفاظ الحرائى ألفاظ منتخبة مصفاة ، وقد يجيء فيها السجع عفوا دون قصد ، وهى تدل على أن النثر كان قد أخذ يتطور ، وأخذ أصحابه يعنون بالملاءمة بين اللفظة واللفظة إرضاء للسمع وإمتاعا للسامع بما يسمع أو يقرأ من الكلم .

وإذا تركنا بجاية والقسم الشرقى من الجزائر إلى قسمها الغربى وتلمسان خاصة رأينا صاحب بغية الرواد يسوق فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد بجزئها الأول طائفة من مشاهير خطبائها ووعاظها مثل أبى عبدالله محمد بن أحمد الحجام المار ذكره بين شعراء المتصوفة والمتوفى سنة ٦١٤ ويسميه يحيى بن خلدون فى البغية : واعظ أهل زمانه ، ويذكر له - كما مر بنا - كتابا فى الوعظ اسمه « حجة الحفاظين ومحجة الواعظين » . ومن كبار الخطباء الوعاظ الذين يذكروهم صاحب بغية الرواد عبد الرحيم بن أبى العيش الخزرجى المترجم لأبيه بين شعراء الصوفية ، وكان خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه ، وكان يعاصره أبو محمد عبد الله المجاصى المتوفى سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣ م وكان كثير البكاء فى وعظه حتى اشتهر بذلك ، وكان لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله تعالى وخشية منه ، وكانت له مواعظ قيمة . ومن الوعاظ بعده سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨ م خطيب الجامع الأعظم بتلمسان . ونقرأ أخبارا عن روعة مواعظ هؤلاء الخطباء وأن منهم من كانت تقشع من وعظه الجلود لما يعرض له من عذاب الآخرة وكأنه يرى الجحيم تحت بصره ، ومنهم من كان يبكي سامعيه بمواعظه وما يورد من زواجره . ومع ذلك لم تحتفظ العصور السالفة بشظايا - ولو قليلة - من خطبهم ومواعظهم .

ولم تصلنا وصايا عن تلمسان لا من حكام الدولة الزيانية لأبنائهم ولا من شيوخ تلمسان

(١) عنوان الدراية ص ٣٣٢ .

لتلاميذهم فيما عدا وصية كبيرة استحالت إلى كتاب أوصى بها السلطان أبو حمو موسى الثاني ( ٧٦٠ - ٧٩١ هـ ) ابنه أبا تاشفين وسمها « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » وقد جعلها فى أربعة أبواب بين يديها مقدمة عن السياسة العملية ، والباب الأول نصائح فيما ينبغى على المالك أو الحاكم من العدل والتقوى وصيانة المال والعناية بالجيش ، والباب الثانى خاص بقواعد الملك أو الحكم وأركانه ، وهى العقل والعدل وحسن السياسة والعناية بالمال والجيش ، والباب الثالث خاص بالصفات التى تزين الملك والحكم ، وهى الشجاعة والكرم والحلم والعفو ، ويصرح فى خاتمة الكتاب بأنه وضع لابنه أبا تاشفين ليتبع نصائحه فيه ، ويستقيم حكمه وملكه ، ونقتطف من هذه الوصية الكبرى بعض وصاياه لابنه عن الشجاعة<sup>(١)</sup> فى الحروب .

« يا بُنَيَّ إذا كان الملك شجاعا ، كان منصورا مطاعا ، ترهبه الأعداء ، وتطمئن إليه الأولياء ، يعتد به جيشه فى مواقع الحروب ، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب . وإذا اقتحمت القتال ، واختلطت الأبطال بالأبطال ، فغابتك أن تكون حاكما على نفسك ، صابرا ثابتا فى جأشك<sup>(٢)</sup> ، ناظرا إلى ساقتك التى هى قلب جيشك ، فلتلزم بها الثبات ، ولا تترجح إلى جهة من الجهات ، ولتشد بثباتك الأنجاد<sup>(٣)</sup> والحماة ، والمقاتلين الكُماة<sup>(٤)</sup> ، وإن انكسر أحد الجناحين من جيشك فلا تهتم به ، ولا تنتقل بسببه ، فإن انكسر الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، والصبر فى مثل هذا عائد عليك بما يسر ، لأنه إذا كانت رايات القلب تخفق وطوله تزار كان ذلك حصنا للجناحين ، وأمانا للعسكر من الحين<sup>(٥)</sup> ، وأرجى للظفر بالعدو عند رجوع الجائين » .

وهو ينصح ابنه حين تلتحم المعركة أن يثبت فى قلب جيشه ، وإذا رأى فى أحد الجناحين انكسارا لا يميل إليه بمن معه من العساكر ، حتى لا يتشوش الموقف ويُظن أنه منهزم ، وحتى لو انكسر الجناحان فإن ثبات القلب يردهما إلى المعركة ويكتب للجيش النصر . ويوصى ابنه ان تظل رايات الجيش فى قلبه تخفق وطوله تزار ليكون قدوة لقواد الجناحين ويعودوا إلى مواقعهم من المعركة . ويستمر أبو حمو موضحا لابنه أن الشجاعة لا تكون صحيحة إلا مع الرأى الشديد ، أما بدونه فتكون مذمومة بل قد تصبح تهورا يودى إلى الهلكة وإلى زوال الملك . ولا يلفتنا فى هذه الوصية الطويلة ما تحمل من فكر دقيق ولفظ منتخب رشيق فحسب ، بل يلفتنا فيها أيضا أنها مسجوعة سجعاً محكما ، وهى شهادة قوية بأن النثر الأدبى رقى بالجزائر فى القرن الثامن الهجرى ، بحيث أصبح الكاتب يفكر فى جرس كلامه الذى يخلب به سامعه ،

(١) انظر قاعدة الشجاعة من الباب الثالث من كتاب

(٣) الأنجاد جمع نجد : الشجاع .

(٤) الكُماة جمع كمي : المقدم المسلح .

(٥) الحين : الهلاك .

(٢) جأشك : قلبك .

وأيضاً ليس ذلك فحسب ، فإن الكاتب يلائم بين الكلمات فى السياق بحيث يأتى مع الكلمة بشقيقتها ورفقتها التى يحسن أن تصاحبها والتى تؤلف معها لونا من التجانس أو الجناس ، حتى يروق السامع أو القارئ ويجذبه إليه .

وإذا مضينا إلى العهد العثمانى سمعنا - كما سمعنا فى الحقب السابقة له - عن خطباء كانوا بارعين فى الوعظ ، وكان الناس يجتمعون لهم فى خطبة الجمعة وينبهرون بما يسمعون منهم من وعظ مؤثر ، غير أننا لا نجد شواهد من هذا الوعظ ، وقد أشاد الكاتب محمد بن ميمون فى القرن الحادى عشر الهجرى بخطابة الشيخ مصطفى بن عبدالله البونى قائلا : « له فى الخطب الساعد المشدد ، والإلقاء الذى تميل إليه الهوادى ( الأعناق ) وتمتد ، والسكينة ( الوقار ) التى تجذب إليها الأبصار فلا ترتد ، ولم أر منذ عقلتُ بسنى ، وعلقت خطابته بذهنى ، أحق منه فى طريقة الوعظ والخطابة والإمامه ، ولا رأيت من شيوخنا من تقدم أمامى لا جرم أنه استحوذ عليها ، صناعة استوفى شرطها واستكمل أسبابها .. وكذلك هو فى وعظه آية من آيات فاطره ، زعم من رآه أنه لم يسمع من حضرة الجزائر إلى أم القرى أخطب منه ، ولا من يدانيه إلا واحد من الأفاضل لم يكن بمماثل »<sup>(١)</sup> . وهذا الخطيب الممتاز الذى ليس له نظير فى وعظه من مدينة الجزائر إلى أم القرى : مكة لم يؤثر عنه شىء من خطبته ، فما بالنا بمن لا يبلغون مبلغه من روعة الخطابة . ومن المحقق أن الأسلاف من الجزائريين أضعوا تراثا مهما من مواظ أديبة لو أنها وصلتنا لأمكننا أن نؤرخ للأدب الجزائرى تاريخا أكثر دقة .

## ٢

### الرسائل الديوانية

طبيعى أن لا توجد الرسائل الديوانية فى أمة إلا إذا وجدت فيها دولة ، واتخذت لما كتبها يكتبون عنها الرسائل الديوانية ، وكان قيام الدولة الرسمية فى تاهرت مبشرا بأن تصدر عن حكامها رسائل ديوانية مختلفة ، وقد توجد الدولة وتوجد الرسائل الديوانية ولا يوجد من يهتم بتسجيلها ، غير أننا نجد رسائل الدولة الرسمية تدون ويتناقلها كتاب متأخرون مثل الشماخى فى السير والبارونى فى الأزهار الرياضية ، فمن ذلك رسالة للإمام عبد الوهاب ( ١٧١ - ٢١١ هـ ) كتب بها إلى أهل طرابلس وكانوا يوالونه ، وكان واليه السماح بن أبى الخطاب توفى ، واستخلف بعضهم غيره وراجعوه ، فكتب إليهم الرسالة التالية<sup>(٢)</sup> :

« أما بعد فإنى آمركم بتقوى الله ، والاتباع لما أمركم به ، والانتهاى عما نهاكم عنه ، وقد

(١) تاريخ الجزائر الثغافى للدكتور سعدالله ٢١٣/٢ . (٢) السير للشماخى (طبع قسنطينة بالجزائر) ص ١٨٠ .

بلغنى ما كتبتم إلى به من وفاة السمع واستخلاف بعض الناس « خلفا » له ورد أهل الخير ذلك ، فإن من ولى « خلفا » من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين ، ومن أبى توليته فقد أصاب ، فإذا اتاكم كتابى هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمع على عمالته التى ولى عليها إلا خلف بن السمع ، فحتى يأتيه أمرى ، وتوبوا إلى بارئكم ، وراجعوا التوبة ، لعلكم تفلحون » .

والرسالة مع إيجازها تؤدي الغاية المطلوبة منها ، إذ تبين حق الإمام وما جرى عليه عرف الإباضيين ويسميهم المسلمين ، وتصف فعل من ولى خلفا بعد السمع بالخطأ لا ضد الإمام وحده بل أيضا ضد المسلمين وعرفهم ، وتحرمه من أن تكون له صفة الشرعية فلا تصح له ولاية الناس بحال ، ويطلب إليهم التوبة بما وقعوا فيه من إثم . وكان عهد ابنه أفلح طويلا ( ٢١١ - ٢٤٠ هـ ) ، وخرج عليه بعض الثوار ، منهم ثقات بن نصر من جبل نفوسة إذ كان يطعن فى إمامته ويكثر من نقده ، فتبادل معه عددا من الرسائل كان آخرها الرسالة التالية ، وهى طويلة ، ولذلك سنختصرها شيئا من الاختصار ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« أما بعد فالحمد لله المتعم علينا ، المحسن إلينا ، الذى بنعمته تتم الصالحات ، ولا يهتدى مهتد إلا بعونه وتوفيقه ، فله اللثة علينا ، وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه ، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين ، وأئمتنا المهتدين .. قد كتبت إليك غير كتاب ، أنصح لك فيه ، وأدعوك إلى رشدك ، وفى كل ذلك لا يبلغنى من عمالنا فيك إلا ما أكره ، ولا أرضاء لك فى دين ولا دنيا ، حتى حررتُ كتابا منشورا إلى عمالنا ، أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين . وابتدع غير طريقتهم ، وسار بغير سيرتهم .. فكتبت إلى كتابا كأنك تسخط ذلك . أترى أى أوامر من ابتدع فى ديننا ؟ ما كنت بالذى يفعل ذلك ، ولا أوامر من يسعى فى خلفنا ما كنا على الهدى . ثم قلت إنا أمرنا فى كتابنا بالبراءة منك ، فإن كنت كما كتب به إلينا عمالنا فأنت محقوق بالبراءة ( منك ) ومقصى من جماعتنا ، لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع فى ديننا خلاف أسلافنا .. فهو محقوق بالبراءة ( منه ) ومقصى من جماعة المسلمين ، فإن تكن أنت منهم فأنت الذى أبحث لنا البراءة منك ، وأحللت بنفسك ما لا بد أن نفعله بك وبغيرك ، وإن لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء منه ، وكذب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التى تستحقها وتستوجبها ... وإنى غير كاتب إليك كتابا بعد هذا إلا إذا انتهى إلينا ما نحب ، فنترك من أنفسنا بحيث تحب ، والله المستعان » .

وأفلح متمكن من لغته بأروع مما تمكن أبوه عبد الوهاب ، إذ هى فى يده سلسلة القيادة ،

(١) الأزهار الرياضية ٢ / ١٩٥ .

وهو يصرفها كما يشاء ، ويجعل الله هو الذى اختاره خلفا لأسلافه الصالحين وإماما لأهل دعوته حتى يجعل خروج نفاث عليه خروجاً على طاعة الله وعصياناً لمشيئته وإرادته . وقد بنى الرسالة على الملاينة والترغيب تارة والتهديد والترهيب تارة ثانية ، مما يدل على حنكه السياسية وخاصة أن جعل باب الترغيب والتقريب مفتوحاً على مصاريعه حتى يدخل إليه نفاث منه راضياً إذ ينزل منه بحيث الود والحب . ولأفصح رسالة عامة كتب بها إلى جميع رعاياه بهذه الصورة<sup>(١)</sup> :

« الحمد لله الذى هدانا إلى الإسلام ، وأكرمنا بمحمد عليه السلام ، وأبقانا بعد تناسخ الأمم ، حتى أخرجنا فى الأمة المكرمة التى جعلها الله أمةً وسطاً شاهدةً لنبيها بالتبليغ ، ومصدقةً لجميع الأنبياء ، وشاهدة على جميع الأمم بالبلاغ من الأنبياء عليهم السلام من الله ورحمته ، وأرسل إلينا نبيه محمداً ﷺ بالهدى ، ووعده بالنصر على الأعداء ، وضمن له الفلاح والغلبة ، ووعده بالعصمة ، قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَةَ اللَّهِ وَعَصَمَكَ مِنَ النَّاسِ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فأدى - عليه السلام - ما أمره الله به ، ونصح لأمته ، ودعا إلى سبيل ربه ، وجاهد عدوه ، وغلظ على الكفار ، ولان للمؤمنين ، فكان لهم - كما وصفه الله - رعوفاً رحيماً ، حتى انقضت مدته ، وفيت أيامه ، واختار له ربه ما عنده ، فقبضه محمود السعوى مشكور العمل ﷺ ، فلم تبق خصلة من خصال الشر الداعية إلى الهلكة إلا وزجر عنها ، وأمر باجتنابها ، رحمة من الله بعباده ، فله الحمد على ذلك كثيراً . ثم أمر تعالى بالجهاد فى سبيله والقيام بحقه ، والأخذ بأمره ، والانتهاز عما نهى عنه ، وفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإغاثة الملهوف ، والقيام مع المظلوم ، والتمتع للظالمين ، لكى لا تقوم للشيطان دعوة ، ولا تثبت لأهل حزبه قدم ، ولا ينفذ لهم حكم ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عماد الدين وإعزازه ، وهو الجهاد وتأدية الحقوق الواجبة له تعالى . فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم والقيام بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه ، وتقربوا إلى الله بالقيام بطاعته وطلب مرضاته ، لتنالوا بذلك ما وعد من جزيل الثواب وكرم المآب . »

وأفصح يقول فى عظته إن الرسول ﷺ بلغ الرسالة كما أمره ربه على خير وجه فبين لأمتة الأوامر والنواهي الإلهية وجاهد الكفار ، وزجر عن كل خصال الشر ودواعيه وكان رحمة لأمتة وفرض الله عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقمع الظالمين . ويردد الدعوة إلى تقوى الله وطاعته وطلب مرضاته ، مما ينال به التقى المطيع جزيل الثواب وحسن المآب .

وقضى أبو عبيد الله الشيعى داعية المهدي على الدولة الرسمية سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ولم

(١) الأزمهر الرياضية ٢ / ٢١٤ .

تقم فى الجزائر دولة حتى إذا أصبحنا فى أواخر القرن الرابع الهجرى وتولى حماد بن بلكين شأن المغرب الأوسط عمل على الاستقلال وأسس دولة بنى حماد فى قلعة بجاية (٤٠٦-٥٤٧هـ) وظلت يرثها الأبناء عن الآباء نحو قرن ونصف ، وكان آخر حكامها يحيى بن العزيز (٥١٨-٥٤٧هـ) ومنه استولى عبد المؤمن على دولته وبلادها وضمها مع الجزائر وتونس وطرابلس إلى دولته . وكانت هذه الدولة تتخذ دواوين للإشراف على شئون الدولة ، وكان لها ديوان إنشاء نبغ فيه بعض الكتاب ، نذكر منهم أبا عبد الله محمدا الكاتب المعروف بابن دفرير ، ذكره صاحب الخريدة ، وقال عنه : أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين فى الكتابة السلطانية ، وذكر له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن العزيز الحمادى وقد فرّ من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد فيها ببعض أمراء العرب القرييين من دولته ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسراً ، رضاً وتسليماً للقدر ، وتمويلاً على جزائه الذى يجزى به من شكر ، ونصلّى على النبى محمد خير البشر ، وعلى آله وصحبه ما لا ح نجمة بسحر ، وبعد فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع ، لقيح آثار من خان فى دولتنا وضيع ، استفز أهل موالاتنا الشنان<sup>(٢)</sup> ، وأغزى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران<sup>(٣)</sup> ، فأتوا من حيث لا يحذرون ، ورموا من حيث لا يبصرون ، فكنا فى الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بقاء ، ويفرّ من صل<sup>(٤)</sup> خبيث إلى حية صماء ، حتى بُغيت مكرهم ، وأعجل عن التلافي أمرهم ، وردّ وبال أمرهم إليهم . فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة ، وملنا إلى مظنة الأمانة ، وبعثنا فى أحياء حلال نستنجد منهم أهل النجدة ، ونستنفر من كنا نراه للمهم عدّة ، وأنتم فى هذا الأمر أول من يُلهم الخاطر ، وتثنى عليه الخناصر . »

واين دفرير فى رسالته لا يهمل الأسجاع لا قليلا ولا كثيرا ، إذ يوفر لها ما يستطيع من السجع وجرس الكلام لا بين عبارة وتاليها فحسب ، بل بين عبارة وتواليها من العبارات ، حتى يلذ الأسماع حين تصغى إليه والألسنة حين تنطق به ، مع العناية باصطفاء الألفاظ والملاءمة بين الكلمات . وذكر العماد فى الخريدة من كتاب هذه الدولة الحمادية أبا القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بالقالمى الذى اتخذته عبد المؤمن سنة ٥٤٧هـ كاتباً له ، وظل يكتب له ولابنه يوسف من بعده إلى أن توفى وسنخسه بترجمة ، وكان يخدمه فى عمله الكتابى عند الموحدىين بجائى مثله هو ابن محشرة جعفر بن أحمد فلما توفى كتب مكانه لسلطان الموحدىين يوسف ثم لابنه يعقوب حتى وفاته ، وسنفرده له ترجمة ، وكان يعاصرهما ابن محرز الوهرانى ، وسنفرده

(١) الخريدة للعماد الأصبهانى (نشر الدار التونسية) (٣) الكفران : الجحود وإنكار المعروف

(٤) صل : أقمى .

١ / ١٧٩ .

(٢) الشنان : الحقد والضغينة .

له أيضا ترجمة . وظل بعض الولاة فى بجاية يهتمون باتخاذ بعض الكتاب المجدين ، ويذكر من بينهم صاحب عنوان الدراية محمد الوغليسى فى القرن السابع ، ويقول : عليه كان المعتمد فى وقته فى المخاطبات السلطانية إنشاء وجوابا<sup>(١)</sup> .

وإذا تركنا بجاية إلى تلمسان وجدنا بنى عبد الواد يؤسسون فيها الدولة الزيانية بزعامة يَغْمُرَاسِن منذ سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م وتظل تلك الدولة نحو ثلاثة قرون ونصف ، وبمجرد أن أسس يغمراسن ملك أسرته أسس فيها الدواوين واتخذ أدبيا من أبرع الأدباء الأندلسيين كاتبا له هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقى من أهل مرسية ، كتب قبله لأمرأ غرناطة ونزل تلمسان فاتخذه كاتبا<sup>(٢)</sup> له ، غير أنه توفى سريعا سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م ، ولم يعن المؤرخون بذكر كتابه بعده إلا ما أشار إليه يحيى بن خلدون من أن الشاعر الكبير ابن خميس التلمسانى المترجم له بين شعراء المديح كان يكتب له ، وظل - كما يبدو - يكتب لابنه عثمان الأول ( ٦٨١ - ٧٠٣ هـ ) ونراه يترك تلمسان وعمله الكتابى بها فجأة سنة ٧٠٢ ويولى وجهه نحو سبتة ثم الأندلس ويتوفى فجأة . ومن أهم من خلفوه فى عمله الكتابى بتلمسان أبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية المتوفى بأواسط<sup>(٣)</sup> سنة ٧٣٥ . وينزل مصر أديب تلمسانى هو ابن أبى حجلة المتوفى بها سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م وفى كتابنا عن مصر دراسة عنه وتحليل لكتابه « ديوان الصباية » . ويذكر صاحب بغية الرواد أن أباحو موسى الثانى ( ٧٦٠ - ٧٩١ هـ ) اختار لكتابة العلامة المميزة لرسائل دولته أبا عبد الله محمد بن<sup>(٤)</sup> محمد بن المشوش ، وغالبا كانت تسند إلى صاحبها رئاسة الدواوين . ونحن إنما نقف فى كتاب الدولة الزيانية على أسماء ، ولا نقف على كتاباتهم بحيث نستطيع أن نصفها وصفا دقيقا . وإذا كنا لاحظنا على كتاب بجاية فى عصر الدولة الحمادية شيوع السجع فى كتاباتهم فإن ذلك سيستمر عند أبى القاسم القالمى والوهرانى وابن محشرة ، وقد لاحظناه عند أبى حمو موسى فى وصيته الطويلة لابنه ، وحتى المؤرخون من أمثال محمد بن عبد الله التنسى فى كتابه تاريخ بنى زيان ويحيى بن خلدون لا يخلون كتابتهم التاريخية من السجع أحيانا وخاصة فى تقديمهم للأمرأ الزيانيين فإنهم يعنون فيه بجمال الجرس والملاءمة بين نهايات العبارات بحيث تزدان بالسجع حلية الأدب فى زمنهم .

ونمضى إلى العهد العثمانى ، وفيه ضعفت كتابة الرسائل الديوانية بالعربية لأن الدولة الحاكمة كانت تركية وكانت تعتمد على اللغة التركية فى رسائلها ومنشوراتها الديوانية إلا فى عهود باشوات أو ولاة معدودين هم : محمد بكداش ومحمد الكبير والحاج أحمد فى قسنطينة ،

(١) عنوان الدراية ص ٢٨٢ .

(٢) عنوان الدراية ص ٢٨٢ .

(٣) بغية الرواد / ١ / ١١٦ والبستان ص ٢٢٥ .

(٤) بغية الرواد / ١ / ١٢٩ والإحاطة / ٢ / ٢٧٥ .

فإنهم اتخذوا لهم كتابا يحدقون العربية . أما من عداهم فظل يتخذ التركية فى المعاملات الرسمية ، وبدون ريب أضعف ذلك من شأن الكتابة الديوانية العربية التى كانت تلتف حولها طبقة من الكتاب الممتازين المتنافسين ، وكل منهم يحاول الامتياز على زملائه فى براعته الأدبية ، أما فى هذا العهد فلا تنافس ، وحسب الكاتب أن يكتب بلغة مسجوعة لا تخلو من ضعف وركاكة أحيانا . ومن رسالة لكاتب يسمى محمداً القالى قدمها إلى محمد بكداش طالبا منه بعض العون ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« جَلَّ اللهُ تعالى مالك الملك ومقيم قسطاس العدل بما أُراده من إعزاز السادات الترك ، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الخفيف ، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز المنيف ، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية وهم أصل للرفعة والتشريف ، وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار ، وجعلهم بهذا القطر رحمة للعباد ، وأحمد بشوكتهم نار الفتنة والعدا ، فسُلكت بهم السبل وأمنت بهم البلاد ، لظفا منه سبحانه بهذه الأقطار ، نسأل الله أن يبقى جنابهم السعيد عاليا على كل جناب ، وأن يخلد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار .. وبعد فإن الله تعالى مَنْ على المسلمين بسيدنا مولانا سلطان الملوك والأكابر ، المخصوص بأفضل الشرائع والمآثر ، الإمام العادل ، السلطان الفاضل ، العالم العامل ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، الذى أطلعه الله فى سماء الجلالة بدرا ، ورفع له فى درجات الأمراء قدرا ، وأجرى له على السنة الخلق ثناء جميلا وذكرنا ، فأصبح الدين مبتهجا بكريم دولته ، وجناب الكفر مهتظما بعظيم صولته . »

وواضح ما يجرى فى الرسالة من التكلف الشديد ، فالترك أهل الرتب العالية ولكن الصيغة لا تتم من حيث المسجع فيضيف إليها قوله : « وهم أصل للرفعة والتشريف . ويطيل العبارة بعدها حتى يقع على سجع : « للعباد » واستعصت عليه سجعة الراء بعدها فأطال العبارة حتى تمكن من إيرادها بقوله : « الأقطار » . وقد أكثر من ألقاب محمد بكداش وأوصافه وبالغ ما شاءت له المبالغة مع كثرة الأدعية . وكل ذلك تكلف وتمحل فى الرسالة ، وكأنما أصبح من الصعب أن تعود إلى الرسالة الديوانية حيويتها ونضرتها القديمة .

### الرسائل الشخصية

يبدو أنه لم يكن بالجزائر اهتمام مبكر بتسجيل الرسائل الشخصية ، ولولا أن الإباضية

(١) تاريخ الجزائر الثفانى ٢ / ١٩٦ .

اهتموا بتدوين الرسائل الديوانية لحكام الدولة الرستمية لضاعت أو سقطت من يد الزمن وأول رسالة شخصية جزائرية مهمة وصلتنا عن الحقب الأولى رسالة أبي علي ابن الربيب الحسن بن محمد التميمي التاهرتي الذي ترجم له ابن رشيقي في كتابه : « الأنموذج » وقال إنه تولى القضاء طويلا في بلدته تاهرت وأنه توفي سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٣٠ م ولم يذكر الرسالة ولا أشار إليها ، وإنما ذكرها ابن بسام في كتابه الذخيرة ، إذ قال في ترجمة أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم : كتب إليه أبو علي بن الربيب رقعة يقول فيها<sup>(١)</sup> :

« إني فُكِّرْتُ في بلدكم أهلَ الأندلس ، إذ كان قرارة كل فضل ، ومقصد كل طرفة ، ومورد كل تحفة ، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تُجَلِّبُ ، وإن كسدت بضاعة فعندكم تَنفُقُ<sup>(٢)</sup> ، مع كثرة علمائه ، ووفور أدبائه ، وجلالة ملوكه ، ومحبتهم للعلم وأهله ، ورفعهم مَنْ رفعه أدبه ، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب ، يقدمون مَنْ قَدَّمته شجاعته ، وعظمت في الحروب نكايته ، فشجّع عندكم بذلك الجبان ، وأقدم الميَّان<sup>(٣)</sup> ، ونَبَه الخامل ، وعلم الجاهل ، ونطق العيى ، وشعر البكى .. وتنافس الناس في العلوم ، ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ، ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دُونوا فضائل أعيانهم ، وقلدوا الكتب مآثر أقطارهم وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين ، و ( لسان<sup>(٤)</sup> صِدْقٍ في الآخرين ) . وعلماءكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح ، وثابت على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صَنَفَ ، أن يَعْنَفَ ، أو ( تخطفه<sup>(٥)</sup> الطَّيْرُ أو تَهْوَى به الرُّيْحُ في مكانٍ سحيق ) لم يتعب أحد منهم نفسا في [ جمع ] مفاخر [ أهل ] بلده ولم يستعمل نفسا ( مدادا ) في فضائل ملوكه ، ولا بَلَّ قَلَمًا يمتاقب كتابه ووزرائه ، ولا سوّدَ قَرطاسًا بمحاسن قضائه وعلمائه . على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه ، لوجد للقول مساعدا ، ولم تَضَيِّقْ عليه المسالك هنالك .

ولكن هم كل أحد منهم أن يطلب شأوا<sup>(٦)</sup> من تقدمه من رؤساء العلماء ، ليحوز قصب السبق ، ويفوز بقدح<sup>(٧)</sup> ابن مقبل ، ويأخذ بكظم<sup>(٨)</sup> دغفل ، ويصير شجى في خلق

(٦) شأو : غابة .

(١) الذخيرة ١٣٣/١ .

(٧) ابن مقبل شاعر يمثل بقدحه في الفوز والظفر .

(٢) تنفق : تروج .

(٨) دغفل : نسبة كبير عند العرب ، يأخذ بكظمه :

(٣) الميَّان : المالب الخائف .

يمثله في علم النسب ، وأصل الكلمة : يأخذ بكظمه

(٤) اقتباس من سورة الشعراء .

الإمساك على ما عند المرء من العلم وغيره .

(٥) اقتباس من سورة الحج .

أبى العميثل<sup>(١)</sup> ، فإذا أدرك بغيته ، واحترمه - بعد - منيته ، دُفن علمه معه ، ومات ذكره ، وانقطع خيره . وَمَنْ قَدَّمْنَا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم ، فألقوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدد طول الأبد . فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائكم ، وألقوا كتباً لكنها لم تضل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روحاً راكب ، أو رحلة قارب ، لو نفث<sup>(٢)</sup> بيلدكم مصدر ، لأسمع بيلدنا مَنْ في القبور ، فضلاً عَمَّنْ في الدور والقصور ، وتلقوا قوله بالقبول ، كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه منكم الذي سماه بالعقد<sup>(٣)</sup> . على أنه يلحقه فيه بعض اللوم ، إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة<sup>(٤)</sup> عقده ، ومناقب ملوكه بيممة سلكه ، لكنه أكثر وطولاً ، وأخطأ المفصل<sup>(٥)</sup> ، وأطال الهز بسيف غير مفصل<sup>(٦)</sup> ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعينهم ، وإغفال ما يهيمهم . فأرشيد أحاك - أرشدك الله - إن كان عندك في ذلك الجليّة ، ويبدك فصلّ القضية ، إن شاء الله .

وقد ذكرت الرسالة بتمامها لأدل على ما أصابه نثر الرسائل الشخصية من إحكام في الصياغة ، حتى ليقرب أسلوب الرسالة من أسلوب الجاحظ وما اشتهر به من المزوجة وكثرة الترادف ، فالعبارات تتقابل دون أن تتحد نهاياتها بأسجاع متعاقبة ، وإن حدثت سجمة عفواً سرعان ما يعدل ابن الريب عن مثيلة لها إلى التعادل والترادف في العبارات . وتشعر بجانب ذلك أن الصياغة محكمة ، فالألفاظ جزلة مصقولة ، أحكم ترتيبها كما أحكم وضع الاقتباسين القرآنيين فيها ، مع الإطراف في الكنايات والاستعارات ، كتعبيره في تكاسل الأندلسيين عن الكتابة عن أعلام بلدهم ، إذ يقول : « كل امرئ منهم قائم في ظله لا يبرح ، وثابت على كعبه لا يتزحزح » ويقول عن أهل الكتابة عن الكتاب والوزراء : إنه « لم ييلّ قلماً بمنابهم » يقصد أنه لم يغمس قلمه في مداد للكتابة عنهم . ويترك الكناية إلى الاستعارة قائلاً : « على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه » . ويستغل ثقافته في التعبير عن الفوز والظفر ، إذ يقول : وليستغل قصب السبق ، ويفوز بقدر ابن مقبل الذي تغنى في شعره بفوزه ، ويأخذ بكظم دغفل كأنما يساويه في قدرته المشهورة بعلم الأنساب ، ويصبح شجى وغصّة في حلق أبى العميثل على نحو ما أصابه أبو تمام بغصّة مريرة حين ردّ عليه ردّاً مفحماً . وتلطف ابن الريب لمخاطبه أبى المغيرة بن حزم الأندلسي حين قال له :

- (١) أبو العميثل هو الذي تعرض لأبى تمام يقول له  
 لماذا لا تقول من الشعر ما يفهم فقال له : وأنت لماذا  
 لا تفهم ما يقال .  
 (٢) نفث : نفخ .  
 (٣) هو كتاب العقد الفريد المشهور .  
 (٤) واسطة العقد : الجوهرة الكبيرة في وسط العقد .  
 (٥) المفصل : كل ملفق عظيم في الجسد ويضرب  
 التعبير مثلاً للخطأ الجميم .  
 (٦) اللقصل من السيوف : القاطع .

« لو نفث بيلدكم مصدور ( مريض بصدرة ) لأسمع بيلدنا مَنْ في القبور فضلا عن من في الدور والقصور » . ثم أورد عليه إشكالا ربما كان هو السبب المهم في الرسالة ، ذلك أن ابن عبد ربه الأندلسي ألف كتابا أدبيا في مجلدات سماه العقد الفريد ، وهو مطبوع بمصر مرارا في أربع مجلدات كبار ، وفيه يعرض الثقافة الأدبية في المشرق ، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله بعض شعرهم وذكره للشاعر الأندلسي يحيى الغزال ، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من أخبار وشعر ونثر مما جعله صاحب بن عباد حين اطلع عليه يقول : « هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا » . وابن الريب محق في اعتراضه على كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، لأنه لم يعرض فضائل بلده وما أنتج من نثر وكتاب وشعر وشعراء ، غير أن ابن عبد ربه قصد بكتابه العقد إلى ذلك وأن يعرض على مواطنيه الأدب المشرقى . على أن ابن الريب بالغ ، فإن وراء ابن عبد ربه كثيرين من الأندلسيين عنوا بعرض أخبار ولاتهم وحكامهم ، نذكر منهم عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ وفى كتابه تحدث عن تاريخ الأندلس حتى أيام معاصره : عبد الرحمن الأوسط ، ولأحمد بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة كتاب أخبار ملوك الأندلس ، ولابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ كتاب تاريخ افتتاح الأندلس يتحدث فيه من الفتح حتى نهاية أيام الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ وفى أخبار الفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف تلقانا كتب مثل كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى المتوفى سنة ٣٦١ ومن كتب الأطباء والصيدالة طبقات الأطباء والحكماء لابن جلدل المتوفى سنة ٣٧٧ ومن كتب اللغويين كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ ومن كتب العلماء الأندلسيين عامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ . فالأندلسيون لم يقصروا فى حق ملوكهم وعلمائهم كما تبادر إلى ظن ابن الريب ، وسيكثرون بعد زمن ابن الريب من كتابة المجلدات الضخام فيهم وفى الشعراء كما نعرف مثلا عن المقتبس لأبى حيان والذخيرة لابن بسام .

ولا تسجل كتب التراجم والأدب فى الحقب التالية رسائل شخصية جزائرية أدبية طريفة من طراز رسالة ابن الريب ، بل تظل مغفلة هذا النوع من الرسائل ، ومن المؤكد أنها أخذت تزدان بالسجع منذ ازدانت به الرسائل الديوانية الحمادية ، وكان مما عمل على ذلك أن الأندلس أخذت تلقى بطائفة من صفوة كتابها منذ القرن السابع الهجرى إلى بجاية وشقيقاتها من مدن الجزائر ، وكان لبجاية منهم الحظ الأوفر ، فقد نزلها واستوطنها - على الأقل فترة طويلة - غير كاتب منهم ، وقد عرضنا فى غير هذا الموضوع لمن نزلها من المتصوفة وكيف كان لهم تأثير كبير فى أهلها وفى شيوع الشعر الصوفى بينهم واستقرار كثير منه فى صدورهم وأفئدتهم . ونلاحظ نفس الملاحظة على من نزلها من كبار الكتاب الأندلسيين واستوطنها إلى آخر حياته أو أقام فيها شطرا كبيرا من حياته ثم رحل عنها إلى تونس ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان

الدراية للغبريني الذي ترجم فيه للعلماء والأدباء بيجاية في القرن السابع وشرط من القرن السادس يحس أن تراجم الكتاب مقسومة بين تراجم بجائية وتراجم أندلسية . وكان البجائيون أخذوا يتأقنون في كتابتهم الأدبية واندماج ذوقهم في الذوق الأندلسي الأنيق وأصبحنا بإزاء كتابة أنيقة عامة في الرسائل الشخصية والديوانية ، وحتى في كتب التراجم كما نجد في صدر كثير من تراجم الغبريني في كتابه عنوان الدراية ، وفي التعريف بملوك الدولة الزيانية عند يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسي .

فإذا قلنا إن الرسائل الشخصية أخذت تطبع في الجزائر - منذ القرن السادس الهجري - بطوايع السجع ، بل لقد كانت تضيف إلى ذلك حطًى من المحسنات البديعية لم تكن مبالغين . ونمضي إلى العهد العثماني وتظل للرسائل الشخصية هذه السمات مع ما يداخلها من التكلف ، وكان أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب راسل عبد الكريم الفكون شيخ الإسلام بقسنطينة ، وظل حكام الجزائر العثمانيون يعينونه أميراً للحج عن بلده والجزائر عامة ، وكان المقرئ أرسل إليه بمنظومة في علم الكلام يتمنى أن يتلطف بصنع شرح لها ، فردَّ عليه برسالة أثبتتها المقرئ في نفع الطيب قائلا في دياجتها إنها كتاب وافاه من عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها وفقهها ، سلاله العلماء والأكابر ، وارث المجد كابرًا عن كابر ، المؤلف العلامة الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله . وبعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم يقول الفكون<sup>(١)</sup> :

« إني أحمد الله إليك وأصلى على نبيه سيدنا محمد ، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فإني أوحجُ الناس إليه ، وأشددهم في ظني إلحاحا عليه ، لما تحققت من أحوال نفسى الأمارة ، واستبطنت من دخيلائها المثابرة على حب الدنيا الفرارة ، كأنما عميت عن الأحوال التى أشابت رءوس الأطفال ، وقطعت أعناق كُمل الرجال ، فتراها فى لُجج حواها خائضة ، وفى ميدان شهوائها راکضة ، طغت فى غيها وما لانت ، وجمحت فما اتقادت ولا استقامت ... والله أسأل حُسنَ الألفاف ، والسُتر عما ارتكبهنا من التعدى والإسراف ، وأن يجعلنا من أهل الحمى العظيم ، ومن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم : سندنا سيدنا ومولانا وشفيعنا النبى الرؤوف الرحيم .. وقد اتصل يدي جوابكم ، أطال الله فى العلم بقاءكم ، فرأيت من عدوية الأناظكم وبلاغة خطابكم ، ما يذهل من العلماء فحولها ، وينيلها لدى الجنو<sup>(٢)</sup> لسماعه سؤلها ومأمولها .. وقد ذيلتموه بآيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها ، على أنى غير قائم بفرضها ونفلها ، فأنه تعالى يمدكم بمعونه ، ويجعلكم من أهل مناجاته بحضرته .. وطننا لكم أن نجعل على منظومتكم الكلامية معنى : « إضاءة الدجنة » تقيدا

(١) نفع الطيب ٢٣٨/٣ وانظر تعريف الخلف (٢) الجنو : الجلوس على الركبتين .

أرجو من الله فيه توفيقاً وتسديداً بحسب قدرى لا على قدركم ، وعلى مثل فكرى القاصر لا على عظيم فكركم .. »

ويختم الرسالة بالصلاة على سيد الخلق ويذكر أنها كتبت فى سابع أو ثامن رجب من عام ١٠٣٨ للهجرة . ووضح ما يجرى فى الرسالة من سجع متكلف وأنها تقوم على المبالغة المسرفة حتى لينسب الشيخ إلى نفسه الإسراف فى الشهوات والآثام ، لا لأن ذلك حقيقة ولكن لأنه يريد صنع سجعات ، ويقول إن نفسه عميت عن الأحوال التى أشابت رعوس الأطفال وقطعت أعناق كُمَّل الرجال ، والمبالغات فى الرسالة أكثر من أن نخصيها أو نفق عندها ، وقد اجْتُلبت من أجل السجعات ورصفها .

ودائما نلتقى فى رسائل العهد العثماني بمثل هذه المبالغات حتى فى رسائل التعزية ، على نحو ما نجد فى تعزية للمفتى محمد بن حسين عزى بها عبد الرزاق بن حمادوش فى ابن له توفاه الله ، فكتب إليه<sup>(١)</sup> :

« بلغنا ما أحرار الأذهان وأشجاءها<sup>(٢)</sup> ، وأطار النوم من الأجفان وأبلاها ، وأضرم لواعج الأشواق ، وأذكى<sup>(٣)</sup> زواعج الاحراق ، بالذى صدع أعشار<sup>(٤)</sup> القلوب ، وأفاض على صحن الخدِّ الدموع من الغروب<sup>(٥)</sup> .. حتى أدركتني محتك وموت ولدك فأخذتني الصدمة ، وهيجت لى المحنة ، فلقد رمانا الدهر بسهام صروفه فأصمانا<sup>(٦)</sup> ، وتمهدنا خطبه فهداً عروشا وأركاننا .

والرسالة مبنية على المبالغة الشديدة فقد بلغه ما أشجاء وأغصه ، وأطار النوم من جفونه وجعلها بالية خلقة ، وهى مبالغة شديدة أتبعها بلواعج الأشواق ، ومكانها فى التعزية قلق وأشد منها قلنا السجعة التالية لها . وقد بلغه ما صدع وشفق قطع قلبه . والمجىء بصحن الخد شديد التكلف . ويبدو أنه كان فقد عزيزاً قبل ذلك فتكسر النصل على النصل فى فؤاده ، وأصابته سهام الدهر فى الصميم كما أصابت ابن حمادوش ، وقد بالغ مبالغات شتى فى تصوير حزنه . ولعله حشدها من أجل السجع .

## ٤

### المقامات

يبدو أن الجزائر - مثل بقية البلدان العربية - عرفت المقامات مبكرة ، إذ كانت فناً جديداً أعجب به أدباء العرب فى كل مكان وأخذوا يتدارسونه ، وملتقى فى القرن السادس الهجرى

- 
- (١) تاريخ الجزائر الثقافى ٢/٢٠٥ .  
(٢) أشجاءها : أغصها .  
(٣) أذكى : أوقد .  
(٤) أعشار : قطع .  
(٥) الغروب : المآتى .  
(٦) فأصمانا : أصابنا فى الصميم .

بجزائري يكتب في هذا الفن هو الوهراني المتوفى سنة ٥٧٥ هـ وسنفرده له ترجمة ، ويذكر الغبريني في كتابه عنوان الدراية طائفة من الأساتذة كانوا يدرسون مقامات الحريري للطلاب طوال القرن السابع الهجري مثل عبد الله بن نعيم الحضرمي ويوسف بن يخلف ومحمد بن الحسن بن ميمون القلعي ، غير أن أدياء الجزائر قبل العهد العثماني لم يحاولوا محاكاة الوهراني في مقاماته ولا محاكاة كتبها الأصليين من أمثال بديع الزمان الهمذاني والحريري . أما في عهد العثمانيين فنجد غير أديب يحاول كتابتها على نحو ما نجد عند أحمد البوني ، إذ كتب سنة ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م مقامة<sup>(١)</sup> في أربع صفحات بعنوان: «إعلام الأخيار بغرائب الوقائع والأخبار» وهي في بيان علاقة العلماء بالسلطة والشكوى من وشايات أهل العصر ، ويستهلها بقوله :

« الحمد لله الذي جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب ، والنائب فضائل لذوى الأقدار والخطوب ، وسلط - سبحانه وتعالى - على الأشراف أرباب الزور والفجور والإسراف ... وبعد أيها العلماء والفضلاء النبلاء الكملاء فرغوا أذهانكم وألقوا آذانكم ، وتأملوا ما يلقي إليكم من الخير الغريب ، وما يرسله الله تعالى على كل عاقل أريب ، فقد ارتفعت الأشرار ، واتضعت أرباب المعارف والأسرار ، وانقلبت الأعيان ، وفشا في الناس الزور والبهتان ، وأهملت أحكام الشريعة ، وتصدئ لها كل ذى نفس للشر سريعة . بينما نحن فى عيش ظله وريف ، وفى أهنأ لذة بقرأة العلم الشريف ، إذ سعى فى تشيت أحوالنا وقلوبنا ، وهتك أستارنا وعبونا ، من لا يخاف الله ولا يتقيه ، فرمى كل صالح وفقيه ، بما هو لاقيه ، واعتد فى ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل ، وهم - والله - أوباش أراذل . وما كفاه بث ذلك فى كل ميدان .. حتى أوصله لمسامع السلطان ، فلم نشعر إلا ومكاتبات واردة علينا من جانب الأمير ، بعزل صديقنا الشهير .. من خطة الفتوى ، مع أنه ذو علم وتقوى ، وتحيرنا من ذلك أشد التحير ، وتحيرنا بسببه أعظم التغيير . »

ومن التجوز تسمية ذلك مقامة إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية وأفاصيص الأدباء السيارين الذين يجولون فى البلاد متفاصحين بأديهم ، محتالين على الناس حيلة شتى فى أخذ دراهمهم ودنانيرهم ، على نحو ما نعرف عند بديع الزمان والحريري ، إنما ذلك أشبه برسالة تتناول موضوعا هو وشاية الناس التمامين لذوى السلطان للوقعة بينهم وبين بعض العلماء ، ولا مقامة ، ولا ما يشبه المقامة .

وبعد نحو عشر سنوات أو تزيد قليلا ألف محمد بن ميمون ترجمة لوالى الجزائر محمد بكداش سماها التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر الحمية » ، وجعلها فى ستة

(١) انظر فى هذه المقالة تاريخ الجزائر الثنائى ٢١٨/٢ .

عشر فضلا ، وسمى كل فصل مقامة تحكى جانباً من سيرة الوالي العثماني محمد بكداش ( ١١١٧-١١٢١ هـ ) والمقامة الأولى أو الفصل الأول في نبذة من أخلاق محمد بكداش ، ثم تتوالى المقامات أو الفصول عن أعماله . والصلة الوحيدة بين الفصول وبين المقامة هو تسمية فصولها مقامات ، أما بعد ذلك فهي ترجمة متكاملة لسيرة وال عثمانى وكل ما يمكن أن يكون بينها وبين المقامة من شبه هو كتابتها سجعا ، وقديما كتب العتي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م سيرة محمود الغزنوي سجعا في كتابه عنه الذي سماه اليميني نسبة إلى لقب محمود الذي لقبه به الخليفة العباسي : يمين الدولة ، ونسج على منواله العماد الأصبهاني في كتابه : « الفتح القسسى فى الفتح القدسى » وفيه يصف بإسهاب فتح صلاح الدين لبيت المقدس سجعا . ولم يقتبس محمد بن ميمون في كتابه من أسلوب المقامات السجع وحده ، فقد اقتبس أيضا ألفاظا لغوية وأنواعا بديعية كما قال في مقدمته .

ويقدم ابن حمادوش الجزائري المتوفى بأخرة من القرن الثاني عشر الهجرى ثلاث مقامات فى رحلته المنشورة بالجزائر بتحقيق د . أبى القاسم سعد الله ، وأولها تصف الطريق من تطوان إلى مكناس وما رآه فيها من غرائب ، يقول<sup>(١)</sup> :

« ومن غريب ما رأيت فى مرج طويل أنى رأيت عُرتين ، كل واحدة فى أفحوصها<sup>(٢)</sup> فوق الماء ، تحضن بيضها ، وشهد أهل الحى كبيرهم وصغيرهم أن الفر وأبا غطاس وطبوراً أخرى لا تلد إلا فوق الماء فى الموضع الذى يكون عليه كقطعة حصير من الكلال<sup>(٣)</sup> ، بينون به أفحوصهم ويبيضون ويفرخون ، ولا يمسّ بيضهم الماء ، وإن مسّه الماء فسد ، وهو يبنى بناء صحيحا جدا . وأتونا ببيض العُرّ ، معظمه كبيض الدجاج ، ولونه كلون بيض الحجل<sup>(٤)</sup> ، إلا أنه أشدّ يابضا من بيض الحجل ، وفيه نقط سود . والفر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء .. ومن غرائب ما رأيت أن فى هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك والطير وبيضة ، ويعدّون ( يجتازون ) عليها من ناحية إلى أخرى ، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره ، وهى من حزم البردى<sup>(٥)</sup> ، يعتقدون حزمة بحبال الدوم الرقاق ويجعلونها وُسْطَى ، ويعقدون حزمتين ، يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يميناً وشمالاً ، ووسطها منخفض ، ويجمعون بينها بالربط من مقدمها ، ويشدّون الكل بالربط بينها . ويركب فيها ، ويمسك الراكب فى يده עודا طويلا يكتد<sup>(٦)</sup> به ولا يقذف . »

(٤) الحجل : طير فى حجم الحمام .  
 (٥) قوارب النيل والبحيرات فى الدلتا كانت تصنع أيضا من البردى أيام الفراعنة .  
 (٦) يكتد بالعود : يدفع القارب بعود فى يده وعلى صدره كما فى مصر حين يقترب من البر .

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائرى ( طبع المكتبة الوطنية بالجزائر ) ص ٧٣ .  
 (٢) أفحوص الطائر : مكان بيضه ورقاده عليه - والفرّ نفس الطائر المعروف فى مصر .  
 (٣) الكلال : العشب .

وابن حمادوش يقول إن أغرب ما رآه فى طريقه من تطوان إلى مكناسة طائرات من الغرب فى بركة بأحد المروج ، والغرب معروف فى مصر بنفس الاسم ويُرى كثيرا شتاء فى الإسكندرية ودمياط وبورسعيد أو بعبارة أدق فى البرك والبحيرات هناك . ويذكر للناس هناك قصة عنه : أنه يبنى أفحوصه أو مرقده للبيض على قطعة من حصير الكلال ، وإنه ما يزال يتعهد بيضه حتى لا يمسه الماء فيفسد ، وحتى يفرخ ، ويصف بيضه وصفا دقيقا ، ثم يذكر ما رآه فى نفس المرج وبركته من قوارب صيد السمك والطيور ويبيضه ، وكيف أنها كانت تصنع من نبات البردى ، وتُصنَم حرمة بعضها إلى بعض بجبال الدوم الرقاق ، وهى بذلك تشبه أدق الشبه قوارب الصيد أيام الفراغة ، وتطورت هذه القوارب عند المصريين حتى أصبحت سفنا كبيرة تجرى فى المياه بمجاديف متعددة ، ولم تكن أعواد القوارب التى رآها ابن حمادوش تقذف بمياه أى أنها لم تكن مجاديف ، إنما كانت ما يسمى فى مصر عند صياديهيها وملاحيهيها باسم مِدْرَى ، وهى عود طويل من خشب يدفع به النوتى القارب ، ممسكا به بيديه ودافعا له بصدرة يمتهى ما يملك من قوة ، ليندفع القارب كما يريد . وليس فى المقامة كدية ولا شحادة أدبية بل هى وصف لطريق ومشاهده وصفا أدبيا . ولا يلبث ابن حمادوش أن يورد فى رحلته مقامة ثانية باسم المقامة الهركلية ، ويستهلها قائلا<sup>(١)</sup> :

« الحمد لله حدا يى حادى الرحلة إلى أن دخلت فى بعض أسفارى هركلة<sup>(٢)</sup> ، فنزلت بها فى خان<sup>(٣)</sup> كأنه من آيات النيران ، أو كنائس الرهبان ، بل لا شك أنه من آيات العُصيان ، فلذلك لا يُسرُّ به الناظر ، ولا ينشرح له الخاطر ، فاخصصت منه بحجرة ، أو نقرة فى حجرة ، وكأنى وقعت من السماء فى حفرة ، أو تبعت أفعوانا فدخلت جُحره ، فغلقت بابى ، لأحفظ حياتى وأؤمن جنابى ، من شدة أتعابى .. حتى مدَّ الليل جناحه ، وأوقد فى السماء مصباحه ، وهذأت الأصوات ، وصرنا كالأموات ، وتوغلت فى حباتل النوم ، ولم أدر ما هنالك من القوم ، ولم توقظنى إلا جلبة الأصوات ... وشددت الرحال ، وتهيات للترحال » .

والمقامة ليس فيها إلا هذا الوصف للخان ، فهى أضعف من صاحبيتها أدبيا أو من حيث المشاهد الأدبية ، وسمى البلد هركلة ولعله يريد هرجلة لما سمع فى الفندق من هرج وصياح وجلبة هنا وهناك ، مما جعله يشد الرحال ويعزم على الترحال . ويورد فى رحلته مقامة ثالثة لكن لا فى وصف بعض المشاهد أو المدن أو الفنادق ، وإنما فى وصف زوجته التى كانت تعتلى عليه سخطا كما يقول فى رحلته حين تجده يخسر أمواله فى التجارة ، وكذلك حين

(٣) خان : فندق .

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائرى ص ٧٨ .

(٢) هركلة : بلدة .

تجد علمه لا يروج ولا يردّ عليه ما يخسره ، مما كان يجعلها تعتمد إلى مغاضبته ، وفيها يقول في مقامه الثالثة التي سماها المقامة الحالية واصفا لها<sup>(١)</sup> :

« قُرِنْتُ بِجَارَةِ غِرَّةٍ<sup>(٢)</sup> ، عِشْتَهَا مَرَّةً ، آمَالُهَا ظَنُونٌ وَرَغْبَتُهَا فِيمَا لَا يَكُونُ ، الدَّهْرُ كُلُّهُ سَاخِطَةٌ ، وَمَطَالِبُهَا شَائِطَةٌ<sup>(٣)</sup> ، تَخْزِيكَ أَوْ تَحْرَجُكَ أَوْ تَحْزِنُكَ ، لَا تَطْلُبُ إِلَّا الْعِنَاءَ<sup>(٤)</sup> ، وَلَا تَرْغَبُ إِلَّا فِي الرُّخِّ<sup>(٥)</sup> ، وَلَا تَتَغَدَى إِلَّا بِيَضِّ<sup>(٦)</sup> الْأَنْوَقِ ، وَلَا تَجْنِي إِلَّا ثَمْرَةَ الْخِلَافِ ، وَلَا تَرُكُنْ إِلَّا لِعَدَمِ الْإِسْعَافِ .. غَذَّتْهَا أُمُّهَا لَبِنَ الْقُرُودِ ، فَشَبَّتْ لَا تَأْلَفُ الْمَقْصُودَ .. بِيَدِ أَنَّهَا تَسْرُّ النَّاطِرِينَ ، وَتُصَيِّبُ السَّمَاعِينَ ، يَصْبُو إِلَيْهَا الْحَلِيمُ ، وَيَرْنُو إِلَيْهَا الْكَرِيمُ .. أَشْبَهْتُ فِي الْقَدِّ الْعُصْنَ الْقَوِيمَ ، وَالسَّمْهَرِيَّ<sup>(٧)</sup> الْمُسْتَقِيمَ ، وَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهَا قَوْلَ الشَّاعِرِ :

أَسِيلَاتُ أُبْدَانٍ رِقَاقٌ خُصُورُهَا وَثِيرَاتُ مَا النَّائِثُ عَلَيْهِ الْمَآزِرُ<sup>(٨)</sup>

كَأَنَّهَا دَرَّةٌ مَصُونَةٌ ، أَوْ جَوْهَرَةٌ مَكْنُونَةٌ .. فَلِذَا اخْتَرْتَهَا أَمَّا لِأَوْلَادِي ، وَمَنْفَقَةٌ<sup>(٩)</sup> لِطَارِفِي وَتِلَادِي عِلْمًا مَنَى أَنْ الدُّنْيَا دَارُ كَدْرٍ ، وَقَلِيلٌ فِيهَا مَا يَسْرُ ، نَظَرًا لِقَوْلِ الصَّادِقِ الصَّدُوقِ : « اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشَ الْآخِرَةِ » .

وهو قضاؤه وقضاء كثيرين مثل ابن حمادوش يسيئون اختيار زوجاتهم ، لما قد يُصَيِّبهم فيهن من حسن وجمال كما أصبى ابن حمادوش ، ومع ذلك فهناك زوجات كثيرات جميلات خلقة وخلقاً لأنهن من أصل كريم . وقد صور ابن حمادوش زوجته غرة يسهل انخداعها ، بل جمعت السوء كله إذ عيشتها مرة ، ودائماً غاضبة ساخطة تطلب ما لا يتأتى ولا يكون ، ولا تترك وسيلة لخزي زوجها وإحراجة إلا تقترفها ، ودائماً تطلب منه المستحيل من مثل طير العنقاء والرخ الأسطوريين وبيض النوق الذي لا يمكن أن يوجد . ودأبها دائماً الخلف بل لكأنما تجد فيه لذتها فهي تجنيه وتقطفه من كل واد ومن كل طريق ، ولكأنما غذتها أمها بلبن القرود فهي ما تنى تقفز من خلاف إلى خلاف ومن نكد وغم إلى نكد وغم . وقد يكون ابن حمادوش أراد أن يداعب زوجته ، فجرته المداعبة إلى هذه المبالغات التي استخدم فيها محفوظاته من مثل العنقاء وطائر الرخ وبيض الأنوق وثمر الخلف أو شجره . وقد يدل على ذلك أنه عاد يصفها بصفات جمال مختلفة ، ويجعلها درة مصونة أو جوهرة مكنونة . وواضح

(١) رحلة ابن حمادوش ص ١٦٤ .  
(٢) غرة : يسهل أن تخدع .  
(٣) شائطة : متجاوزة الحد .  
(٤) العنقاء : طائر خرافي لا وجود له .  
(٥) طائر الرخ : طائر خرافي .  
(٦) بيض الأنوق : بيض وهمي لأن النوق لا تبيض .  
(٧) السمهري : السيف .  
(٨) أسيلات : ناعمات . وثيرات : ممتلكات . النائث : التفت .  
(٩) في الأصل : ناققة .

أن هذه المقامة الثالثة تبعد بدورها عن فن المقامة كما رسمه بديع الزمان والحريري ، وكان حريا  
بأبن حمادوش أن لا يسمى تلك الأعمال الثلاثة مقامات . وكان الجزائر لم تعرف فن المقامة  
برسومه وتقاليده وخصائصه ، ولذلك يكون من الصعب أن يقال إنها شاركت فيه ، لأن أديبا  
سمى عملا له مقامة أو سماه له آخرون ، بينما هو لا يمت إلى فن المقامة بصلة حقيقية .

٥

## كبار الكتاب

أبو القاسم عبد<sup>(١)</sup> الرحمن القالمى

أغفلت كتب التراجم الحديث المنضّل عن سيرة هذا الكاتب الفذ الذى تنبّه إليه عبد المؤمن  
سلطان دولة الموحدين حين استولى على بجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م وقضى فيها على الدولة  
الحمادية ، فألحقه بكتابه كما يقول عبد الواحد المراكشى ، ويذكر أنه من ضيعة من أعمالها تعرف  
بقالم ، وكان من كتاب الدولة الحمادية وربما قرأ له عبد المؤمن رسالة عن يحيى بن العزيز آخر  
ولاة هذه الدولة إليه فأعجب بكتابته ، وكان قد استسلم له يحيى وصحبه معه إلى مراكش ،  
فربما هو الذى أشار عليه به . على كل حال صحبه معه عبد المؤمن - كما صحب يحيى - إلى  
مراكش ، وألحقه بكتاب الإنشاء فى ديوانه ، وكان يكتب معه فيه أبو جعفر أحمد بن عطية  
وأخوه أبو عقيل وعبد الملك بن عياش ، ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢ م وخلفه  
ابنه يوسف ظل يكتب له مع عبد الملك بن عياش ، ويبدو أنه لم يعمر طويلا فى عهده ، وأنه  
ظل فيه سنوات معدودة ، إذ لم تؤثر له رسالة عنه دُوّنت فى مجموع رسائل موحدية المنشور  
بالرباط ، وكل ما له فيه رسالتان عن عبد المؤمن ، يتحدث فى إحداهما عن تنكيله بالنصارى  
فى ضواحي قرطبة ، حين حاولوا الإغارة على الجيش العربى وولوا على وجوههم  
مدحورين ، وفى الثانية يتحدث عن هزيمة الأعراب الحلالين واستسلام الكثرة من القبائل  
للموحدين ودخولهم فى طاعتهم ، بحيث لم تدخل سنة خمس وخمسين وخمسمائة حتى  
اندمحو فى دعوة الموحدين والشعب المغربى بعد أن ظلوا يعيشون فسادا فى ديار المغرب نحو قرن  
كامل ، وهو يستهل الرسالة الثانية بقوله<sup>(٢)</sup> :

« من أمير المؤمنين - أيده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته - إلى الطلبة والشيخ والأعيان

(١) انظر فى القالمى كتاب الخريدة ١٨٠/١ وكتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى ( طبع القاهرة ) ص ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ وله فى مجموع

رسائل موحدية ( طبع الرباط ) رسالتان .  
(٢) انظر مجموع رسائل موحدية ص ١١٣ .

والكافة من الموحدين من أهل فاس ، أعزهم الله بتقواه ، وأدام كرامتهم بحسنه - سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله الذى تمم مقاصد أوليائه فيما اعتمده من إقامة أمره الواجب ، وأناف<sup>(١)</sup> بأغراضهم المقصورة على مرضاته على مطامع المطالب ومدارك الرغائب . وبلغهم فى أعدائهم - الذين ولوا أمر الله - وقد استقبلهم - جانب الإعراض والإدبار ، و ﴿ بَدَلُوا ﴾<sup>(٢)</sup> نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ﴿ - أمانى الظافر الغالب . ووكل بهم أيةً ولجوا ، وعلى أى مدرج درجوا من النصر المحالف المصاحب ما يكون لعامة أكتافهم ، وجنات أوساطهم وأطرافهم ، عَيْنَ المحافظ المراقب . ومكن لهم إنقاذا لمقدوره ، وإفاضة لأشعة نوره ، أسباب التقلب فى أفياء<sup>(٣)</sup> الأمنة وظلال السكون من جانب إلى جانب ، وأحظاهم<sup>(٤)</sup> نعمةً منه وفضلا وقد فاءوا<sup>(٥)</sup> بشرف الفتح الجسيم<sup>(٦)</sup> ، واحتقاب<sup>(٧)</sup> الحظ العميم ، وابتغوا ﴿ رضوان<sup>(٨)</sup> الله والله ذو فضل عظيم ﴿ وجعل أمرهم الذى هو أمره ناظما إلى قيام الساعة بين أطراف المشارق والمغرب . والصلاة على محمد عبده ورسوله الحاشر<sup>(٩)</sup> العاقب<sup>(١٠)</sup> ، الصادع<sup>(١١)</sup> بنوره الثاقب<sup>(١٢)</sup> ، لبابة<sup>(١٣)</sup> الانتخاب وسلالة الانتخاب من لوى بن غالب ، المتبعث لتتيمم مكارم الأخلاق بما خصه من الضرائب<sup>(١٤)</sup> المقدسة والمناقب ، وعلى آله وصحبه أولى العزم العاكف الدائب ، والجد الثابت اللازب<sup>(١٥)</sup> والأثرة ( المنزلة ) المشتملة على شرف المناسب ، وزلف المناصب . وأسأل الله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله وقد تفتت حُجُبُ الغياهب ، وتفرقت سبل المذاهب ، وخيط من ليل الحيرة فى حيث لا منقذ لجاء ولا مخلص لذهب ، فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحِب<sup>(١٦)</sup> ، وأنقذ به من هوة العائر وشقا العاطب .

وهذه فاتحة الرسالة وهو يطيل فى تمجيدها وشكر الله على ما أتاح للموحدين من نصر عظيم ، وكأنه يجعل ذلك استهلالا وإرهاضا لموضوع الرسالة ، وهو هزيمة العرب اللهالية هزيمة ساحقة . ولا نكاد نقرأ فى التحميد حتى نلاحظ طول السجعة البائية التى بناها عليها ، بل لقد بنى عليها سجعات المقدمة جميعها فى التحميد والصلاة على الرسول الكريم والدعاء

- 
- (١) أناف : أشرف .  
(٢) الآية رقم ٢٨ فى سورة إبراهيم .  
(٣) أفياء : ظلال .  
(٤) أحظاهم : أتاح لهم خطوة .  
(٥) فاءوا : رجعوا .  
(٦) الجسيم : العظيم .  
(٧) احتقاب : ادخار .  
(٨) الآية ١٧٤ فى آل عمران .  
(٩) الحاشر : اسم من أسماء الرسول ومعناه الحاشد .  
(١٠) العاقب : اسم من أسماء الرسول ومعناه خاتم الرسل .  
(١١) الصادع : مبلغ الرسالة .  
(١٢) الثاقب : المصيب .  
(١٣) لبابة : خلاصة .  
(١٤) الضرائب : الطبايع والشمال .  
(١٥) اللازب : الشماسك .  
(١٦) اللاحِب : البين .

لابن تومرت مهدي الموحدين . وهذا الطول في السجعات قصد إليه قصدا ، لكي يضمّن كل سجعة في داخلها سجعتين أو أكثر . وهو يتبدىء ذلك منذ السجعة الثالثة : « وبلغهم في أعدائهم الذين ولوا أمر الله وقد استقبلهم جانب الإعراض والإدبار ، و ( بذلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ) أمانى الظافر الغالب . والسجعة بائية وفي داخلها سجعتان رائيتان حتى تشابك الكلمات في داخلها وتتناق ، فيتم بذلك تناسق صوتي بديع . وهو تناسق تضيئه آية قرآنية وتزيه وتضيف إليه روعة . وتليها هذه السجعة : ووكّل بهم آيةً ولجوا وعلى أى مدرج درجوا ، من النصر المحالف المصاحب ، ما يكون لعامة أكتافهم ، وجنات أوساطهم وأطرافهم ، عين المحافظ المراقب » . وفي داخل السجعة البائية سجعة جيمية في أولها ثم سجعة ميمية ، وكأن الكلمات داخل السجعة تريد أن تتناق عن طريق هذه الإرنانات المتلاحقة . وتكثر بجانب ذلك الصور والاستعارات ، ويكثر تلاحم الألفاظ لدقة انتخابها واختيارها مما يدل على أن القالمى كان كاتباً بارعاً حقاً .

والرسالة طويلة ، غير أنها - بجانب بلاغتها - ذات أهمية تاريخية فإن القالمى يذكر أنه لم يعد للقبيل الرياحى من بنى هلال المستولى على أنحاء كثيرة في الجزائر ذكر يسمع ولا حديث يرفع ، ولا أثر يتقصى ويتتبع ، إذ لحقوا بقبيل العدم وأصبحوا كهشيم ألبينه نفة ضرم ( شرر ) ولم يجدوا إلى مستخلص سبيلا ويتمثل بالذكر الحكيم : ( أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ) إلا ما كان من قبيلة بنى محمد الرياحية ، إذ ألقوا بمقاليد الانقياد ، وانخرطوا فى سلك أهل التوحيد بجميع الأنفس والأموال والأولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مضافرة<sup>(١)</sup> الغزو ومضابرة الجهاد . وأما قبيلة جشم فهم بمحلات أهل التوحيد معسكرون وعلى أعدل طريق المطاوعة والمتابعة مستمرين ، وهم عدد لا يحمله إلا البساط الفياح<sup>(٢)</sup> ، وكل من هذين الحين : الجشمى والفخذ المحمدي الرياحى عزم - وعزم به - على أن تحتط إن شاء الله بالمغرب دارهم ، ويوماً هنا لك قرارهم ويقصر على خدمة هذا الأمر العزيز ( يقصد دعوة الموحدين ) جوارهم . فالحيان الأعرابيان الكبيران : فخذ بنى محمد الرياحى اللاللى وفخذ جشم سيختط لهما منازل فى الديار المغربية يكون فيها مستقرهم . وأما قبائل الأبيج وزغية فيقول القالمى عنهم إن أعينهم وصلوا مراكز عاصمة الموحدين يمدون يد الاستابة ، ويطلقون السنة الإنابة والعودة إلى الطاعة . يقول القالمى : « وعلى الجملة فقد أظهر الله تعالى من بركة هذه الحركة الميمونة السعيدة ما لم يكن ينشأ بسماء الوهم والإحساس ، ولا يجرى على أساليب القياس » . فإن من درس القرن السابق لتلك الحركة وتسلط الأعراب فيه على المغرب الأوسط وتونس يظن أنهم لن يغلبوا على ما فى أيديهم ، حتى كانت هذه الحركة لعبد المؤمن بعد أن

(٢) القبايح : المداح ، الواسع .

(١) مضافرة : معارفة .

استولى على بجاية سنة ٥٤٧ ، فإذا هو لا يصل إلى سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م غى حر في القامى هذه الرسالة كما يقول فى نهايتها حتى يكون قد قلم أظفار أعراب ادلالية فى المغرب الأوسط ، وانسحبت منهم عشيرة المحمدية كما انسحبت قبيلة جشم وانضمنا إلى حيشه وختط لهما منازل فى الديار المغربية . وجاءته قبائل الأتبيج وزغبة معلنة طاعتها . واندماج الأعراب الذين عاشوا قرنا كاملا فى المغرب الأوسط وتونس وبعض ديار المغرب يسلبون وينهبون ، اندمجوا فى البربر وأصبحوا شعبا واحداً بفضل هذه الحركة المباركة لعبد المؤمن كما يقول القامى . ورسائله لذلك بجانب أنها وثيقة أدبية تُعدّ وثيقة تاريخية فى غاية الأهمية .

الوهرانى<sup>(١)</sup>

هو أبو عبد الله محمد بن محرز الوهرانى ، منشؤه ومرياه فى وهران الواقعة على البحر المتوسط غربى مدينة الجزائر ، وكانت فيها - مثل بقية بلدان الجزائر - حركة علمية وأدبية أنتجت غير فقيه وأديب . وتفتحت موهبة الوهرانى الأدبية مبكرة ، ورأى - بعد نضجه وشهرته بالأدب - أن يرحل إلى مصر لعل أدبه يروج فيها ، فرحل إليها فى عهد السلطان صلاح الدين ، ولقى وزيره الكاتب المشهور القاضى الفاضل ومن حوله من نبهاء الكتاب ، وأحس أن بضاعته لا تروج عنده ، فانصرف عنه وعن الكتابة الأدبية الجادة إلى الكتابة الأدبية الهزلية . وعرف القاضى الفاضل فيه قدرته على الخطابة ، وكان كثير النزول بالشام مع صلاح الدين فى حروبه للصليبيين ويبدو أنه استدعاه هناك - أو لعله هو الذى رحل إليها - فعمل على تعيينه خطيبا فى جامع داريا بضواحي دمشق ، وظل فى تلك الوظيفة حتى توفى سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٨٠ م . ويقول ابن خلكان أنه لما علم قصوره عن طبقة القاضى الفاضل عدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل وعمل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه ، وهى كثيرة الوجود بأيدى الناس ، وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته وكال ظرفه ، ولو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه ، فإنه أتى فيه بكل حلاوة ، ولولا طوله لذكرته .

والمنام الذى يشيد به ابن خلكان فى نحو أربعين صفحة من القطع الكبير ضمنه رسالة يرد بها على بعض أصحابه متماجنا بما ساقه من ألقابه العلمية والأدبية ومن كلام هزلى غلبه النوم فى أثنائه ، فرأى فى حلمه أن القيامة قامت وأن مناديا ينادى الناس هلموا إلى العرض على الله ويليه كثيرون بين قدماء ومعاصرين منهم الملوك والحكام والسلاطين والأدباء والشعراء والعلماء من العرب والعجم والفساق والصلحاء ، وهو دائما يهذى ويهزل فى لقاء كل من يلتم به أو يمر

الوهرانى ومقاماته ورسائله نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

(١) انظر ترجمة الوهرانى عند ابن خلكان ٣٨٥/٤ وتعريف الخلف ٤٩٤/٢ . وحقق أعماله وطبعها فى القاهرة لإبراهيم شعلان ومحمد نعش باسم : منامات

عليه . ويرى بعض عظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يرى مالك خازن النار ويحاوره ، ويرى الرسول مقبلاً في موكب عظيم من المقام المحمود يؤمّ مورد الحوض الذى يسقى منه أمته . يقول (١) :

« لما انتهى إلى شاطئ المشرعة (٢) تقدمت إليه الصوفية من كل مكان وفى أيديهم الأمشاط وأخلّة الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال : صلّى الله عليه ، مَنْ هؤلاء ؟ فقيل له : قوم من أمتك غلب العجز والكسل على طباعهم ، فتركوا المعاش وانقطعوا إلى المساجد ، يأكلون وينامون فقال : فماذا كانوا يفعلون الناس ويعينون بنى آدم ؟ فقيل له : والله ولا بشيء البتة ، ولا كانوا إلا كمثل شجر (٣) الخِرُوع فى البستان ، يَشْرَبُ الماء ويضيق المكان » .

وهو نقد مغربى مبكر للصوفية وما يحملون من أمشاط لشعرهم وخلال لأسنانهم ولا عمل لهم يفعلون به الأمة ، إلا ما كان من البطالة والكسل والتمويه على العامة بما يؤدون لهم من أطعمة وأكسية متظاهرين بالعبادة والنسك فى المساجد . وعلى نحو هذا النقد للصوفية يتقد كثيرين من معاصريه علماء وغير علماء كما ينقد كثيرين من القدماء ومواقفهم من على بن أبى طالب فى حرب صفين ومن الحسين فى مقتله بكرىلاء ، بينما نراه ينوّه بالأيوبيين : أسد الدين شيركوه وأخيه أيوب وابنه صلاح الدين ، ولعله كان يحاول بذلك أن يتقرب من دولتهم . وربما كانت مقامته البغدادية الجادة أروع من هذا المنام الخزل ، وهو يستهلها بقوله (٤) :

« لما تعذرت مآربى ، واضطربت مغاربى ، ألقىت حبلى على غاربى (٥) ، وجعلت مذهببات الشعر بضاعتى ، ومن أخلاف الأدب وضاعتى ، فما مررت بأمرير إلا حللت ساحته ، واستمطرت راحتته ، ولا وزير إلا قرعت بابيه ، وطلبت ثوابه ، ولا بقاضٍ إلا أخذت سيّبه (٦) ، وأفرغت جيبه ، فتقلبت بى الأعصار ، وتقاذفتنى الأمصار ، حتى قربت من العراق وسئمت من الفراق ، فقصدت مدينة السلام (٧) ، لأقضى حجة الإسلام ، فدخلتها بعد مقاساة الضرّ ، و مكابدة العيش المر .. وتاقت نفسى إلى محادثة العقلاء ، واشتاقت إلى معاشرة الفضلاء ، فدلّنى بعض السادة الموالى ، إلى دُكّان الشيخ أبى المعالى ، فقال هو بستان الأدب ، وديوان العرب ، يرجع إلى رأى مصيب ، ويضرب فى كل علم بنصيب ، فقصدت قصده ، حتى جلست عنده ، فحين نظر إلى ، ورأى أثر السفر على ، بدأنى بالسلام ، وبسطنى بالكلام ، وقال : من أى البلاد خرجت وعن أيها درجت ! فقلت : من المغرب الأقصى .. وقال كيف معرفتك بدهرك ؟

(١) انظر منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله ٤٩ . (٥) الغارب : الكاهل : ألقى حبله على غاربه : ذهب

(٢) المشرعة : المورد .

(٦) سيّبه : عطائه .

(٣) شجر ررقة كورق التين ثمره مر .

(٧) مدينة السلام : بغداد .

(٤) مقامات الوهرانى ومقاماته ص ١ .

ومن تركه وراء ظهره « . وسأله عن دولة المثلثين ثم عن دولة الموحدين قائلاً : ما تقول في عبد المؤمن ( أول ملوك الموحدين ) وأولاده ، وسيرته في بلاده ؟ فقلت : مؤيد من السماء ، مسلط على من فوق الماء ، خضع له ذور التيجان ، وخدمه الإنس والجان ، ولو أن للقلم لسانا ، وللورقة إنساناً<sup>(١)</sup> ، لتألمت ، وتظلمت ، ولأنشدتك في الملا<sup>(٢)</sup> قول الشيخ أبي العلاء<sup>(٣)</sup> :

جَلَوْا صارمًا وتَلَوْا باطلاً وقالوا صدقنا فقلنا نَعَم<sup>(٤)</sup>

ولكن السكوت عن هذا أنجح ، ومسألة الأفاعى أصلح «

وأول المقامة شبيه بمقامات الحريري وديع الزمان في تصوير حيلهم على الناس واستخراجهم لدراهمهم وذنائبهم . ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى حديث عن الدول المعاصرة ورجائها ، وصاحب الدكان يسأل وهو يجيب ، وقد سأله بعد المثلثين والموحدين من ملوك المغرب الأقصى عن حاكم صقلية النورماندى ، وعن الدولة الفاطمية وزوال الحكم منها في مصر إلى الدولة الأيوبية . ويشيد بغير أمير منها وخاصة صلاح الدين واستقدمه لأبيه وأهله ونقله الخلافة بمصر من الفاطميين إلى بنى العباس ببغداد ، ويمتدح المستضىء الخليفة حينئذ وبعض وزرائه وصاحب ديوانه . ولعل أسلوبه اتضح من خلال ما ذكرته من هذه المقامة ، إذ يتميز سجعهم بالقصر مما يشيع فيه عذوبة بديعة ، وقد مزج مديحه لعبد المؤمن بنقد لاذع لحكمه وأنه يقوم على البطش والقهر الشديد . وتلك طريقتة العامة في رسائله الكثيرة ، إذ يخلط السم بالعسل ، وقد تصبح سما خالصا . وله أكثر من ثلاثين رسالة موجهة إلى القاضى الفاضل وغيره من رجال الدولة محملة بكثير من هذه السموم . ويدل منامه الكبير ومقاماته ورسائله على ثقافة واسعة ، وحياته وتحليل أعماله خليقان بدراسة مفصّلة .

(ج) أبو الفضل<sup>(٥)</sup> بن محشرة

هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن على القيسى المشهور باسم ابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية ، كان أبوه قاضيا بها وعنى بتربيته علميا وأديبا ، مما جعل الغبريني ينعتة في عنوان الدراية بأنه الفقيه الجليل العالم الصدر النبيل النبيه الذكى السنيّ القَدْر الكاتب البارِع . وينعتة عبد الواحد المراكشى في كتابه : « المعجب » : ببراعة الكتابة وسعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس . ويقول الغبريني : « استدعاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ( ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ ) إلى حاضرتهم بمراكش وكان يجله لحسن سمته ورؤاه ووقاره ، وفي المعجب أنه كان يخدم أبا القاسم القالى

(٥) انظر في ابن محشرة عنوان الدراية ص ٥٣ والمعجب للمراكشى ص ٣١٧ ، ٣٣٨ ومجموع رسائل موحدية ص ١٤٩ - ٢٢٨ .

(١) إنسانا : إنسان عين .

(٢) الملا : الجماعة .

(٣) أبي العلاء : أبي العلاء المرعى .

(٤) جلوا صارما : صقلوا سيفا وشحذوه .

إلى أن مات ، فكتب للخليفة يوسف بن عبد المؤمن مكانه ، وقد يدل ذلك على أن القالمي - لا الخليفة يوسف - هو الذى استدعاه - ربما معرفته المظنونة بآية القاضى مواطنه أو معرفته بفضلته . ويقول الغبريني إنه ولد سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م أو قبلها بقليل ، وتوفى سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م غير أن المراكشى فى المعجب يقول إنه كتب للخليفة يعقوب الموحدى بعد كتابته لأبيه يوسف ، ولم يزل كاتباً له إلى أن توفى . ويقول أيضا إنه كتب ليعقوب بعد وفاته أبو عبد الله بن عياش ، وفى التكملة<sup>(١)</sup> أن يعقوب استكتب ابن عياش فى سنة ٥٨٦ هـ / ١١٤٠ م وكان هذه هى السنة التى توفى فيها ابن محشرة لا سنة ٥٩٨ كما توهم الغبريني .

ولابن محشرة فى مجموع رسائل موحدية تسع رسائل : رسالة على لسان الخليفة يوسف الموحدى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م وثمان على لسان الخليفة يعقوب الموحدى تبدأ فى سنة ٥٨٠ وهى السنة التى توفى فيها أبوه واستولى على صولجان الحكم ، والرسالة الأولى موجهة من الخليفة يوسف الموحدى إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بقرطبة يخبرهم فيها بأنه قام بحركة مباركة فى سنة ٥٧٥ إلى إفريقية التونسية استولى فيها على قنصة جنوبى تونس وقضى على نائرها وأنه اجتمع إلى سادة قبائل رياح وشيوخها فى تلك الرحلة وأنه أغرام بارتحال قبائلهم إلى الأندلس لجهاد نصارى الإسبان مذكرا لهم بجهاد آبائهم فى الفتح الإسلامية ، وأنهم لبوا دعوته ، يقول ابن محشرة على لسانه<sup>(٢)</sup> :

« جُمع أشياخ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رياح ( الملالية ) فذكروا بحقوق هذا الأمر العظيم والآله الجزيلة وبينته الجسام ، وتبها إلى ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق فى أول الإسلام ، وعرفوا أن الغرض منهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس ، فقد طال استشراؤهم<sup>(٣)</sup> ، وأملى الله لهم فزاد عليه اجترأؤهم . وتذبوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضهم وقضيضهم<sup>(٤)</sup> ، نفرة من انبت<sup>(٥)</sup> عن الوطن ، ونبت علق المسكن والسكن ، وإن كانت هذه البلاد هى التربة التى مسّت أولا جلودهم ، وقضوا فيها من الشباب عهدهم ، فالذى ينتقلون إليه من الرباط فى سبيل الله يجمع لهم الخير فى الدين والدنيا ، والشرف بالكون فى عداد كلمة الله العليا .. وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغت<sup>(٦)</sup> فى بواطنهم ، فتحركت إلى ذلك حفاظهم<sup>(٧)</sup> ، ومارت<sup>(٨)</sup> لنصر دين الله عزائمهم .. وقد سالت بهم

(١) التكملة ( طبع مدريد ) رقم ٩٥٢ .

(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) استشراؤهم : اشتداد شرهم وتفاقمه .

(٤) بقضهم وقضيضهم : بجميعهم ينقض آخرهم على

أولهم ويتدفع .

(٥) انبت : انقطع ، وفى الأصل : أنبت .

(٦) تغلغت : تعمقت ، وفى الأصل : تغلقت .

(٧) حفاظ جمع حفيفة : الحمية والغضب .

(٨) مارت : تحركت ، وفى الأصل : ثارت .

الأباطح<sup>(١)</sup> ، وامتلاّت بجموعهم الموامي<sup>(٢)</sup> الفسائح .. وإن جموعهم لتكائر الحصى<sup>(٣)</sup> ،  
وتعاد<sup>(٤)</sup> الدّبي ، وتملاّ الغيطان<sup>(٥)</sup> والرّبي .

ولغة الرسالة جزلة مختارة ، اختارها كاتب حاذق يعرف كيف يسوّى من اللغة أساليب  
تروق القارئ بسجعها ورسانة ألفاظها عامدا في أحيان كثيرة إلى تأكيد معنى العبارة التي  
يوردها بجملة أو جمل ترادفها ، فتزيدها إيضاحا وبيانا كقوله في أواخر ما أقيس من رسالته :  
« وذاكرنا الجماعة المذكورة في ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ،  
وتغلغلت في بواطنهم ، فتحرّكت إلى ذلك حفاظهم ، ومارت لنصر دين الله عزائمهم » .  
والرسالة وثيقة تاريخية مهمة لأنها ترينا سياسة الموحدين الحصيّة ، إذ لم يكتبوا بأن يستشعر  
أعراب الجزائر وإفريقية التونسية الولاء لهم فحسب ، فقد رأوا أن ينقلوا جماهير غفيرة منهم  
إلى الأندلس للاستعانة بهم في الحرب الدائرة هناك بين دولة الموحدين ونصارى الأندلس وكان  
لهم أثر كبير في رجحان كفة الموحدين على أولئك النصارى في وقائعهم معهم ، واستنّت تلك  
السنة الخليفة يعقوب الموحدي مثل أبيه يوسف ، وبذلك انتصر في موقعة الأرك المشهورة سنة  
٥٩١ هـ / ١١٩٤ م . ولم تُنفض هذه السياسة إلى انتصار الموحدين في الأندلس لعهد يوسف  
ويعقوب فقط فقد أفضت أيضا إلى كفّ أيدي الأعراب عن العبث لمدة قرن في بلاد المغرب  
وخاصة في الجزائر . وآخر رسالة لابن محشرة احتفظ بها مجموع رسائل موحدية كتبها -  
كما مر بنا - سنة ٥٨٦ على لسان يعقوب الموحدي إلى الطلبة - الموحدين - الأعيان والأشياخ  
والكافة بسببته يخبرهم فيها بغزوة جيشه لابن الريق النصراني في غربي الأندلس وتنكيله بمن  
معه واستيلائه على حصن عظيم من حصونهم يسمى طرّش . وهو يستهل الرسالة بقوله<sup>(٦)</sup> :  
« الحمد لله الذي أرغم لهذا الأمر العزيز شُمّ المعاطس<sup>(٧)</sup> ، وألان بأيده قباح<sup>(٨)</sup> الجاح  
الشامس ، وأخضع لعزّته وسطوته كل جبيد متطاوّل ، وأخضع كل لحظ مشارس<sup>(٩)</sup> ، وحكم  
بظهور أمره ، واستيلاء غلبته وقهره على ما توقّل<sup>(١٠)</sup> في الشُّمّ الشوامخ وتوغّل في اليد  
السياس<sup>(١١)</sup> ويسرّ له من الفتوح الخارقة للعادة ، المقودة بزمامي البركة والسعادة ، ما تجاوز<sup>(١٢)</sup>

(١) الأباطح جمع أبطح : المكان المتسع يمر به السيل  
ويترك فيه التراب والحصى .

(٢) الموامي جمع موماء : المغازة الواسعة ، وفي  
الأصل : المواهي .

(٣) الحصى : صغار الحجارة ، وفي الأصل : الحصر .

(٤) تعاد : تفاخر في كثرة العدد ، والدّبي : الجراد  
وفي الأصل : مُعاد الرّبي .

(٥) الغيطان جمع غيط : المطمن الواسع من الأرض .  
الرّبي جمع ربة : ما ارتفع من الأرض .

(٦) مجموع رسائل موحدية ص ٢١٨ .

(٧) المعاطس جمع معطس : الأنف والمراد بشم المعاطس  
الأعداء المستعلون .

(٨) قباح : عضد . الشامس : الجاح المستعصى .

(٩) مشارس : منكر .

(١٠) توقّل : صعّد .

(١١) السياس : القفر الحالية .

(١٢) تجاوز : زاد عن .

تقدير المقدّر وقياس القائس ، والصلاة على محمد نبيّه المصطفى ، ورسوله الأكرم المُجْتَبَى ، المختار من أشرف المخاتد<sup>(١)</sup> وأطيب المغارس ، المسكت بُرْقَانَه المعجز ، وبيانه الموجز ، كلُّ نَافَس ، والمالحى بنور نبوته الخاتمة للملئ ، وشريعته الناسخة للأديان والنحل ، مظلمات الغياهب<sup>(٢)</sup> ومد لهلمات الخنادس .

وابن محشرة في هذا التحميد وما تلاه من الصلاة على الرسول الكريم يختار حرف السين لسجعاته فيهما ، ويبدأ من السجعة الرابعة أخذ يطيل السجعة لتتوازن العبارات أو التعبيرات داخلها بحيث تتشابه ألفاظها وتتعاقب في سجعات داخلية ، ليدل على مدى قدرته في السجع وصياغته ، وهو يضيف إلى ذلك عناية واضحة بالتصوير كما في قوله « ألان بأيديه قباح أو عضد الجاجح الشامس » وتوالي كتابات وتصاوير مختلفة كقوله عن الرسول إنه من أطيب المغارس ومحا بنور نبوته مظلمات الغياهب ومدلهلمات الخنادس . ويقول - على لسان يعقوب - إن صاحب قشتالة المسيحي في الشمال حين علم بهذا الجيش سارع إلى إعلان تمسكه بعهده مع الموحدين وأنه مستعد من أجلهم لمحاربة أهل ملته ، فأمضى له يعقوب السلم . وبالمثل سارع صاحب ليون يطلب تجديد مهادنته ، وهادنه يعقوب ليفرغ لابن الريق النصراني في الغرب . ويصف ابن محشرة انتساف الجيش لزروعه في شتريين وإحراقه وتخريبه لمنازله وربوعه ، وبصور استيلاء جنوده على قلعة طرُش المنيعة ، بقوله<sup>(٣)</sup> :

« نهّدوا<sup>(٤)</sup> إلى قلعة للأعداء تسمى « طرُش » على هضبة منيفة<sup>(٥)</sup> المراقب ، مسامية للكوكب ، قد انقطعت حافاتها ، وبعدت قُدَفاتها<sup>(٦)</sup> من كل الأرجاء والجوانب ، ولعظمتها ومكانتها من نفوسهم أشبُوها<sup>(٧)</sup> بالبناء الشامخ وحصّونها ، وألقوا بها جموعهم المؤتسبة<sup>(٨)</sup> ووثقوا بها على حفظ نفوسهم وأموالهم واتمّنوها ، واعتدوها<sup>(٩)</sup> قُفْل بلادهم ، فخانتمهم - بحمد الله - آمالهم التي أمْلَوْها<sup>(١٠)</sup> ، وكذبهم ظنونهم التي ظنّوها . ولقد كانت من المنعة بحيث لا تُرام ، ولا يُهْتَضَم<sup>(١١)</sup> المتوقل فيها ولا يستضام ، ولا تثبت لمحاربها - لوعورة مراقبها<sup>(١٢)</sup> وجوانبها - الأقدام . لولا سعود هذا الأمر<sup>(١٣)</sup> الذي تؤيده الأقدار وتتجده الأيام ، والحمد لله

(١) الخاتد جمع محمد : الأصل .

(٢) الغياهب جمع غيبه والخنادس جمع خندس وهما الظلمة .

(٣) انظر مجموع رسائل موحدية ص ٢٢٣ .

(٤) نهّد : نهض .

(٥) منيفة المراقب : عالية مواضع المراقبة .

(٦) قُدَفات جمع قذفة : جانب بعيد .

(٧) أشبُوها هنا : حموها .

(٨) المؤتسبة : الملتفة .

(٩) اعتدوها : عدوها وفي الأصل : اعتدوا .

(١٠) بعد أمْلَوْها كلمة زائدة: «في استنصائه»: حُدِفَت .

(١١) يهْتَضَم المتوقل : يقهر المقيم فيها . يستضام : يظلم .

(١٢) مراقبها : أماكن الصعود فيها وفي الأصل :

مراقبها .

(١٣) هذا الأمر : هذه الدعوة دعوة الموحدين .

على ذلك حمدا تُستتجز به المنن وتستدام ، لا ربّ سواه . فنازلها الموحدون - أعزهم الله -  
أصدق نزال ، وصالوا على كفرتهم أعظم صيَال<sup>(١)</sup> .. وعندما عَضَّتْهم الحرب الضروس<sup>(٢)</sup>  
بنايها<sup>(٣)</sup> ، وجرعتهم أكْوَس مرّها<sup>(٤)</sup> وصابها .. رُغِمُوا<sup>(٥)</sup> في أن يخرجوا بمحاششتهم ، ومن  
معهم من نسائهم وذرياتهم ، ويفرجوا للموحدين - أعزهم الله - عن كل ما اشتمل عليه  
حصنهم من أموالهم وأقواتهم .

والسجع مرصوف بإحكام والكلمات منتخبة بدقة والصور تتوالى بكثرة ، فقد ائتمنوا هذا  
الحصن وعدوه قفل بلادهم ، فخانتهم آمالهم وكذبتهم ظنونهم ، بفضل دعوة الموحدين التي  
تؤيدها الأقدار وتنجدها الأيام ، وعضتْهم الحروب الضروس بنايها وجرعتهم أكْوَس مرّها  
وصابها ، فولّوا على وجوههم خاسئين مدحورين إلى غير مآب .

(٤) في الأصل : مقرها .

(٥) في الأصل : رغبوا .

(١) في الأصل : مصال .

(٢) الضروس : العضوض المهلكة ..

(٣) في الأصل : بيها .